جاكلين بيرين

اكتشاف جزيرة العرب

خمسة قرون من المغامرة والعلم

نقله إلى العربية قدري قلعجي

قدم له : الشيخ حمد الجاسر

دار الكاتب العربي
بيروت

اكتشاف الجزيرة العربية

جاكلين بيرين

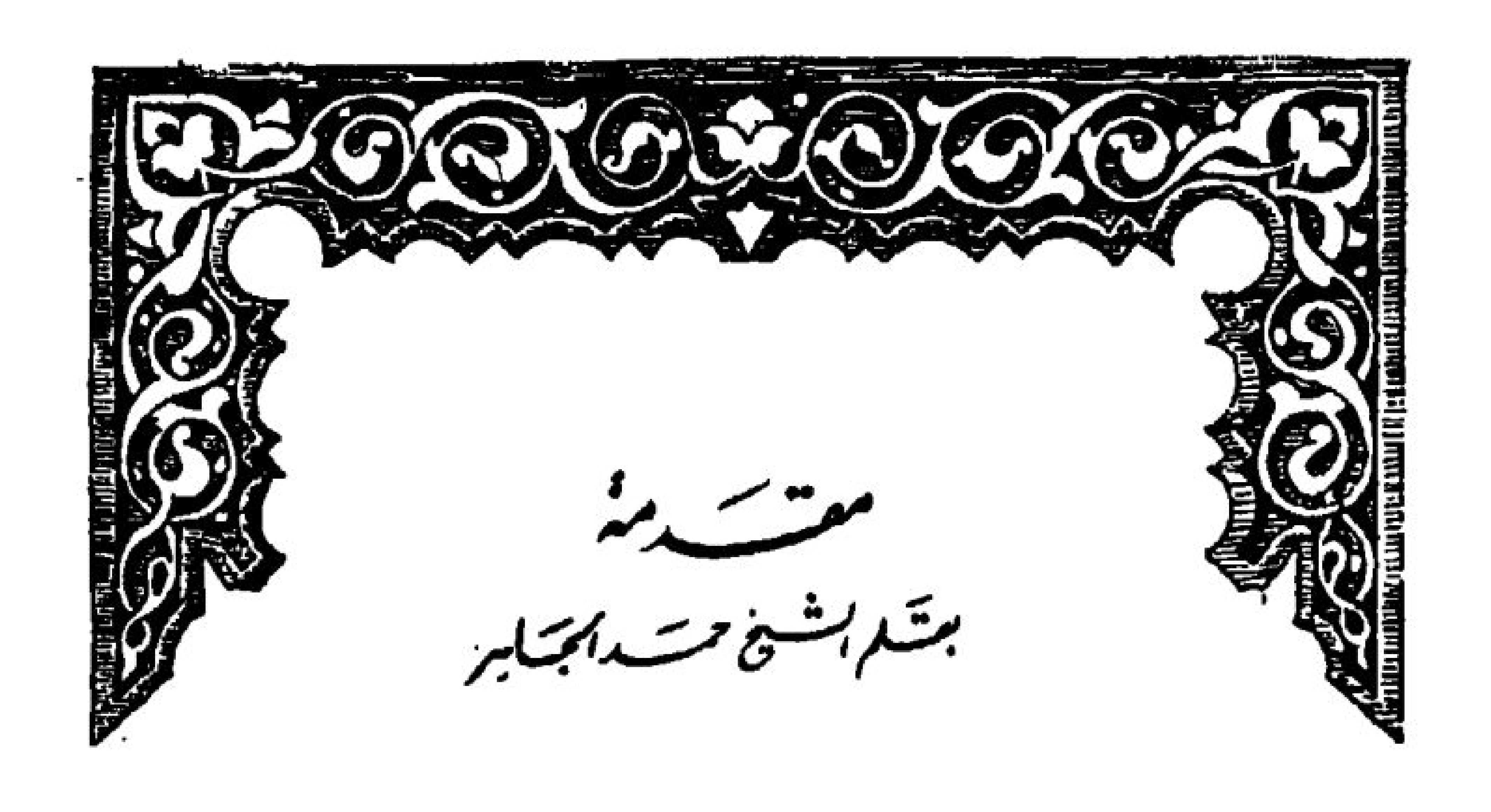
اكتشاف جزيرة العرب

خمسة قرون من المغامرة والعلم

نقله الى العربية
قدري قلعجي

قدم له: الشيخ حمد الجاسر

دار الكاتب العربي



لا مغـــالاة في القول بأن لكثير من علماء الغرب من مستشرقين وغيرهم ، يداً طولى في إبراز معالم تاريخ جزيرة العرب ، وفي كشف ما خفي من آثارها ، فضلاً عما لهم من فضل في إحياء التراث الاسلامي، والشرقي ، بوجه عام .

ولقد تصدى لذلك منهم فئتان : فئة عنيت بنشر المؤلفات القديمة ، ومنها ما يتعلق بتاريخ العرب وجغرافية بلادهم ، نشراً بلغ الغاية ، في تحقيق النصوص ، وتقريب إدراكها بالتبويب والترتيب ، ووضع الفهارس الكاملة ، لمختلف موضوعات تلك النصوص ، بحيث اصبح عملهم — في هذا المجال — مثالاً يحتذى ، في الجودة والدقة ، وبلوغ ما يتوخى من نشر المؤلفات .

ومن الانصاف ، بل من الاعتراف بالفضل لذويه ، القول بأن كل معني بالبحث في تاريخ الجزيرة وجغرافيتهـــا ، ما يزال عالة على ما

نشره اولئك المستشرقون وحققوه من المؤلفات القديمة عنها ، ولنتناول على سبيل المثال لا الحصر - كتاب (معجم البلدان) لياقوت الحموي ، ويعتبر من أوفى المراجع عن الجزيرة بل عن البلاد الاسلامية في القرن السابع الهجري وما قبله ، فهذا الكتاب القيّم الضخم نشر ثلاث مرات، مرتين في القاهرة وبيروت ، والمرة الثالثة وهي الاولى تولاها المستشرق الالماني (فردنند وستنفلد) منذ ما يقارب القرن من الزمان ، وشتان بين ما قام به هذا العالم المحقق من جُهْدٍ واتقان في نشرته ، من حيث تحقيق النص ، والرجوع الى مصادره ، ومن حيث وضع الفهـــارس المستوفاة الكاملة ، وبين ما قامت به داران كبيرتان تعتبران من أقوى دور النشر في البلاد العربية . هذا العالم الغربي الذي لم تَحُلْ عُجمته ، وبُعْدُه عن العرب وعن بلادهم ، من أن يُقدِم على مخطوطة قديمة أخرى ، تتعلق بجغرافية تلك البلاد ، وتبلغ مئات الصفحات ، مثل « معجم ما استعجم » لأبي عبيد البكري الأندلسي فينسخها بخط يده ثم يتولى مقابلتها بأصح ما يعلمه من نُسَخ لتلك المخطوطة ، بعد أن يحصلها من مختلف مكتبـــات العالم ، ثم يقـوم - بعد كـــل ذلك - بنشرها على خير مـــا عرف من طُرق النشر وأقربها للصحة ، وأيسرها للاستفادة ، بحيث لم يستطع ناشر عربي أتى بعده ، فوجد الطريق مُعَبّداً ، أن يبلغ مَبْلغ ذلك العالم الغربي في الدقة و الإتقان .

وقُلْ مِثلَ هذا عن كتاب « صفة جزيرة العرب » للهمداني ، الذي تولى نشره للمرة الأولى العالم النمسوي (داود هنري ملّر) فأخرجه في سنة ١٨٨٤ م مستطاع آن ذاك في أتقن صورة ، وأوفى تحقيق بعد أن أضاف إلى الأصل من الفهارس ومقارنات النصوص مِثْلَيْه . وعن طبعته ونسخ مخطوطة لم يطّلع عليها نشرت (دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر) الكتاب بتحقيق العلامة الأستاذ محمد بن علي الأكوع . مؤرخ اليمن في هذا العصر .

بَلْ مَن ذا الذي ينكر فضل المستشرق الهولندي « دي خويه » إذْ جمع عدداً من أمهات كتب الجغرافية القديمة ، ونشرها — بعد تحقيقها ، والمقابلة بين أصولها ، والرجوع في ذلك الى كثير من المؤلفات — باسم (المكتبة الجُغرافية) ؟!

ان ما قام به هؤلاء العلماء الثلاثة يعتبر جزءاً يسيراً مما قام به اخوانهم من العلماء الباحثين حيال التراث العربي الاسلامي ، بوجه عام ، مما لا تسمح المناسبة ؛ مناسبة كتابة هذه المقدمة ، بالتوسع في الحديث عنه .

وقبل هؤلاء ، أتت فئة أخرى ، هي فئة الرُّوَّاد من العلماء والمغامرين الغربيين ، الذين كشفوا كثيراً من معالم جزيرة العرب وآثارها ، وعرفوا المجهول من مختلف أخبارها وأحوالها ، بعد أن جاسوا صحاريها ، واخترقوا فيافيها وقفارها ، ووصلوا الى اصقاعها النائية ، وتوغلوا في مجاهلها ، مدفوعين بدوافع مختلفة ، مستهينين في سبيل ذلك بجميع الاخطار والصعوبات ، مهما بلغت من شدة وعنف ، ضاربين أروع الأمثال بصبرهم وجلدهم ، وتحمّلهم لنمط من حياة الشظف والقسوة ، قلّ ان يستطيع ابنُ الصحراء نَفْسُه أن يجاريهم في تحمّله في هذا العصر .

ونجد أمثلة واضحة لمغامرات هؤلاء الرواد الاوائل في هذا الكتاب الذي عَرَّبَه الاستاذ قدري قلعجي ، عن اللغة الفرنسية ودعاه « اكتشاف جزيرة العرب » فأضاف — بعمله المشكور ، من تعريب ، ونشر — الى المكتبة العربية كتاباً جديراً بالقراءة ، لا من المعنيين بالبحث والدراسة في تاريخ الجزيرة وجغرافيتها وحدهم ، بل من كل قارىء عربي لم يتمكن من قراءته بلغته الاصلية .

لا ادري أيُؤْخَذُ قارىء هذا الكتاب — كما أُخِذْتُ — بوضوح

تصويره نماذج من مغامرات عدد غير قليـــل من الرحّالة الغربيين ، ممن استهوتهم « جزيرة العرب » بسحرها ، فهاموا في قفارها ، سعياً وراء المجهول من أخبارها ، حتى أصبحت سِيَرُهم وأخبار رحلاتهم جُزْءاً من أساطير تلك الجزيرة ، في غرابتها واستهوائهـــا للباحثين ؟! ولكنني لا أشكُّ بأنه سيستمتع حقاً بما أبرزه هذا الكتاب من جوانب قوية ، من حياة بعض أولئك الروّاد ، وبما تميّزت به تلك الحياة — بنوع خاص — من التضحية ، والاستهانة بكل مشقة ، في سبيل الوصول الى نتائج ، عادت بفوائد جَمّة ، على كل باحث في تاريخ الجزيرة ، ودارس لأحوال سكانها ، بصرف النظر عن بواعث السعي للوصول إليها .

وقد لا يحتاج القارىء الى السير معه — في ثنايا الكتاب — لادراك الجوانب المهمة من نتـائج تلك الرحلات ، كالكشف عن آثار الحضارة العربية القديـــة في جنوبي الجزيرة ، والوصول الى حل رموز الابجدية الحِمْيَرية « خط المُسْند » حَلاً أضاف معلومات جديدة ، عن حلقـــة كانت مجهولة لدى العرب أنفسهم ، من تاريخ ذلك الجزء من بلادهم ، فبرزت بفضل معرفة قراءة « المسند » في آثاره ، من محافدَ وسدود ، ودُوَل تعـــاقبت الحكم فيـه ، كالدولة « المعينية » و « السبئية » و « القتبانية » و « الحِمْيَريّة » .

الاّ أن بين ثنايا الوصف الموجـز لتلك الرحلات — في هذا الكتاب — لَمَحات قد يكون من فائدة القارىء أن يطيل الوقوف عندها .

فهذا الرحالة الذي عرف باسم « لويس فارتيما البولوني » ، والذي قام برحلته في مطلع القرن السادس عشر (التاسع الهجري) فقاسى في خلالها من العذاب ألواناً من السجن والتعذيب ، وضروب الاهانـة ، تجد فيما دوّن من انباء رحلاته وَصْفاً أخّاذاً لميناء « جازان » قد لا تجده في

اي مؤلّف عربي ، ألّف في ذلك العهد او قبله (ص ٤٨) .

ثم هـذا الرحالة — رغم كل ما قاسى من ضروب العذاب — قدّم لأبناء جلدته من الأوروبيين معلومات كانوا يجهلونها عن « مناسك الحج » وعن مدينتي « مكة » و « المدينة » على جانب كبير من الصواب ، في عصر كان أولئك لا يعلمون شيئاً في هذا المجال .

وتَبْرِزُ رحلة الربان الهولندي (فان دون بروكه) ميناءَ (المَخَا) أعظمَ ميناء في اليمن في مطلع القرن السابع عشر ، هـذه البلدة التي اقترن اسمهـا عند الغربيين باسم (البُنّ) منـذ كانت المرفأ التجاري لتصديره ، الى أن أوشكت أن تزول من الوجود في عصرنا هذا .

ويصف هذا الرحالة الهولندي (ص ٨٣) مظاهر الترف في حياة ولاة اليمن من الاتراك ، إبّان سيطرتهم عليه ، ويُسجّل ظاهرة غريبـة في طريقـة حكم هؤلاء لتلك البلاد فيقول (ص ٨٤) : « وكان هذا الباشا الكثير البذخ ، قـد وسّع سياسة الرهائن للاحتفاظ بسلطته على العشائر العربية . ويذكر أن عدد الرهائن قد بلغ الألف ما بين رجال ونساء وأولاد ، من اخوة واخوات وأبناء عظماء المقاطعات التي أخضعت بهـذه الوسيلة » . هذه الظاهرة السيئة التي بقيت الى عهدنا هذا .

وقلّ أن نجد وصفاً — في الكتب التي بين أيدينا — أبْدع ولا أقرب إلى الحقيقة من وصف « دكسيتر » لقوافل الحجاج (ص ٩٣) وهو إنجليزي اختطف ثم بيع واستُرِق وجاء إلى مكة في الربع الأخير مـن القرن السابع عشر .

وتتجلّى للقارىء بوضوح ، قسوةُ الحياة التي يعانيها أولئك المغامرون في قصة (بعثة جامعة غوتنجن) التي بعثها ملك الدانمارك الى الجزيرة

في عام ١٧٦١ فلم يعد منها سوى العلامـة نيبور ، وابتلعت الجزيرة الاربعة الآخرين ، إلا أن ما أسداه نيبور من يدٍ في ميدان البحث يخفف ألم الفجيعة بفقد تلك النخبة المختارة من العلماء المغامرين .

اما الرحالة الالماني « ستيزن » الذي ادّعى الاسلام ، وحج عام ١٨١٠، ورسم مخططاً للمدينة المنورة ، والذي بواسطته عرفت اوروبة لأول مرة الكتابة الحِمْيَرِيّة ، فلم يكن أسعـد حالاً من (بعثة جامعة غوتنجن). لقد توفي مسموماً في سجن (تعزّ) !.

فيما سجله الرحـالة الدانمركي الاستاذ « كارستين نيبور » الذي وصفته المؤلفة – بحقٍ – بأنه النموذج الكامل للرائد العالم ذي النزعة الانسانية – تستوقف القارىء العربيّ ملاحظتان هامتان من ملاحظاته .

(١) عن سكان الساحل الشرقي للخليج العربي ، حيث يقول (ص١٦٦) : « لقد أخطأ جغرافيونا – على ما اعتقد – حين صوروا لنـا جزءاً من الجزيرة ، خاضعاً للفرس ، لأن العرب هم الذين يملكون – خلافاً لذلك – جميع السواحـل البحرية للامبراطورية الفارسية ، من مصب الفرات الى مصب الاندوس ، على وجه التقريب » . ثم يسترسل نيبور في ايضاح هذه الملاحظـة بإيراد الأدلة التاريخية التي شاهد صحتها وأدلتهـا ، ويسوق في معرض الحـديث عن فزع ملوك الفرس من النفوذ العربي في تلك السواحل (ص ١٦٨) قوله : « وكان نادرشاه قد رسم خطة تقضي بإلقاء القبض على هؤلاء العرب ، ونقلهم الى سواحـل بحر قزوين ، وإحلال الفرس محلهم ، ولكن مصرعه حال دون تنفيذ هـذه الخطة ، وحالت الاضطرابات المستمرة في بلاد الفرس دون اعتدائهم على حرية هؤلاء العرب ».

(٢) ويصف نيبور الحركة الدينية الاصلاحية التي شاهد تباشيرها في

اطراف الجزيرة ، وصف العالم المتجرد من كل غاية لا تمت الى الحقيقة ، في وقت كان علماء المسلمين انفسهم في جميع ولايات السلطنة العثمانية ، تحارب تلك الحركة ، وتصمها بكل سوء ، فيقول (ص ١٧٦) : « إن اعداءهم يحاولون ان يظهروا مذهبهم بمظهر سيء ، وأن يعملوا على تبغيضه ، بتصويره على غير حقيقتـــه ، وأن ينسبوا إليه ما لا يقول به او يدعو إليه » .

وقد أدرك هذه الحقيقة فيما بعد الرحالة الاسباني « دومنغو باديا اي لبليخ » الذي أسلم وسمى نفسه « الحاج علي بك العبـاسي » حينما جاء الى مكة حاجاً في سنة ١٨٠٦ ، وشاهد موكب الامام سعود بن عبد العزيز في ذلك العام ، فقد سجل في مذكراته قوله (٣٠٢) : « الحقيقة تفرض عليّ أن أعترف انني وجدت جميع الوهابيين [١] الذين تحدثت إليهم على جانب من التعقل والاعتـــدال ، وقد استقيت منهم كل المعلومات التي أوردتها عن مذهبهم » – الى ان قال – : « ان النـاس لم يفهموا المعنى الاصلاحي لهدم المزارات وتقويض أضرحة الاولياء التي كان المؤمنون يؤدون لها واجب الإجلال ، وقد كاد هذا الإجلال يتحول الى نوع من العبادة التي لا تجب الا لله وحده » .

ولعل من المفيد – ما دمنا بصدد الحديث عن هذه الدعوة الدينيـة الاصلاحية – أن نشير الى رأي للكاتب الفرنسي « الكسندر دوماس » على جانب كبير من العمق في ادراك ما كان متوقعاً لتلك الحركة من الانتشار ، فقد قال (ص ٣٤٧) : « إن الاصلاح لوشيك الحدوث ،

---

١ – أطلق خصوم هذه الحركة الاصلاحية كلمة (الوهابيين) على القائمين بها ، تشويهاً لها ، وتنفيراً منها ، ولهذا فالقائمون بها ينفرون من هذه التسمية ، حتى بعد ان أصبحت علماً .

من القوقاز الى رأس زنجبار ... ان مئتي مليون مسلم اليوم يتعادون ويتنازعون . تجمعهم نقطة عقائدية واحدة هي الحج .. ولكن المستقبل في غمرة كل ذلك للوهابيين وحدهم ، ولمذهبهم الذي يختفي امامه الوف الاولياء ، وامام مبادئهم الخلقية التي تكاد تكون انجيلية ، ينمحي ذلك الانحلال الشرقي المنتشر في اكثر العواصم » . قال دوماس هذا القول ، والضعف يدب في مفاصل حكومة الامام فيصل بن تركي ، والسيطرة الخارجية تقطع اجزاءها جزءاً فجزءاً ، ومع ذلك فقد تحققت نبوءة هذا الكاتب .

وتقول مؤلفة كتاب « اكتشاف الجزيرة » (ص ١٧٧) ، عن الرحالة « نيبور » : « وتكمن احدى مآثر نيبور العديدة في أنه أدرك الأهمية التي كانت الحركة الوهابيــة مزمعـة ان تحرزها وهي ما تزال في مهدها ، وفي أنه أعطى اوروبة عنها معلومات صحيحة وقد أمرّها بغربال حكمه الموضوعي الدقيق ، ونزهها عن كل هوى » . ويحسن ان يضاف الى قول الكاتبة الفاضلة : بأن الباحث العربي يجد فيما سجله نيبور عن رحلته حقائق عن سكان شرق الجزيرة العربية ، وعن احوال ذلك القسم من بلادنا ، يلقي اضواء بدونها لا نتبين معالم تاريخ ذلك القسم ، على ما تتصف به تسجيلاته من ايجاز .

ولعل من أمتع فصول هـذا الكتاب ، الفصل المتعلق بـ « اكتشاف عسير » - ص ٢٥١ - حيث تتجلى في هذا الفصل ما تتصف به المؤلفة من روح علمية منصفة ، تتحرى الحقيقة ، فقد ربطت بين الحديث عن إقليم عسير وبين حملة محمد علي - والي مصر - للقضاء على حكم آل سعود ، مشيرة الى ما جرّته هذه الحملة المشؤومة على تلك البلاد من خراب ، وما نشرته بين قبائلها من فوضى ، ولن يعدم القارىء - بين فصول الكتاب الاخرى - من لمحات خاطفة تبرز الغزو التركي المصري لبلاد العرب بجرّداً

من معاني الانسانية والاخلاق ، بخلاف ما أضفي عليه من صفات الدفاع عن الاسلام من قبل طائفة من المؤرخين ، المشوهين للحقائق ، وكيف يكون مدافعاً عن الاسلام من لا يتورع من اسناد الحكم في احدى المدينتين الكريمتين الى (توماس كيث) من فرقة (الهايلندرز الـ ٧٢) — ص ٢٣٢ — ولا يجد وازعاً من دين او خلق عن إتلاف المزروعات، وهدم المنازل ، وقطع الرؤوس ، وصلم الآذان ، وذبح الأسرى ، وغير ذلك من مظاهر الهمجية والوحشية ، مما صوّره الرحالة الفرنسي « موريس تاميزيه » الذي رافق الحملة المصرية الى عسير ، بكل مرارة وأسى .

لا يزال (إقليم عسير) مفتقراً الى مراجع تاريخية ، كغيره من أقاليم الجزيرة — باستثناء الحجاز — ولهذا فإن المجلدين اللذين سجل فيهما هذا الرحالة الذي زار ذلك الاقليم كاتبـاً لأحد اطباء الحملة الفرنسيين مشاهداته وملاحظاته يعتبران من المراجع المفيدة عن هذا الاقليم .

ولعل في سرد اسماء بعض المواضع التي مرّ بها الرحالة ، وسجل عنها بعض المعلومات ما يرسم لنا معالم تلك الرحلة .

سار الجيش من جدة في السابع عشر من ايار سنة ١٧٣٤ متّجهاً الى الطائف ، ماراً بِبَحْرَة — حَدّاء — وادي فاطمـة — بئر البرود ، وعندها شاهد (تاميزيه) أطلالاً وصفها بالأهمية ، من الناحية الأثرية ، وتحدث عنها بإسهاب — كما تحدث عن سكان قرية السَّيْل من قبيلة « عُتَيبة » بعد اجتيازه قرية الزّيمة ، ولما بلغ الطائف وجد مجال الوصف ذا سعة ، فرسم في وصفها صفحات فيهـا إبداعٌ ، وفيها صدق تصوير ، ثم تابع الجيش سيره صوب عَسير ، فجزع وادي ضَرَاء (ص ٢٦٢ : دورة خطأ) فوادي رَنْيَة (لا رَيْنَة كما في ص ٢٣٣ و دَنْيَة ص ٢٦٣) فوادي

هِرْجاب ، فوادي شَتْهران ، حتى بلغ قريـة خَميس مُشَيْط ، حيث دارت رحى المعركة .

وعند العودة من الرحلة اتخذ رحالتنا ساحل تهامة طريقاً له ، مجتازاً بلدة أبي عَرِيش ، متـابعاً رسم لوحاته لكل مكانٍ يمرُّ به ، مصوّراً كل حادثة تلفت نظره ، ببراعة ووضوح .

لن نسير مع (بركهـارت السويسري) مؤلف كتابي « رحلة الى بلاد العرب » و « ملاحظات عن البدو » الذي زار الحجاز عام ١٨١٤ و « دومنغو بادليـا اي لبليخ الاسباني » المعروف باسم الحاج علي بك العباسي الذي شاهد موكب الامام سعود بن عبد العزيز في مكة سنة ١٨٠٦ ، فهما على جانب عظيم من الشهرة في عالم الرحالين ، ومؤلفـاتهما ما تزال معيناً مورداً للبـاحثين ، غير ان مما يستدعي العجب ما لقيه الرحالة الاسبـاني ، الذي ظهر بمظهر وجيه من سلالة بني العبـاس ، من شريف مكة من حفاوة ورعاية ، قلّ أن يحظى بهما من هـذا الوالي أحد من أبناء جلدته ، فهل كان ذلك عن مجرّد بلاهة يتصف بها هـذا الوالي ، أم أن وراء الامر ما وراءه ؟! إن مما لا شك فيه ان بلاهة شريف مكة – أيّاً كان باعثها – قد عادت بفائدة ذات أثر حميد على البلاد ، وعلى الباحثين في تاريخها ، بوجه خاص .

وماذا عن القسم الشمالي من نجد ، مقر امارة « آل رشيد » ؟

لقد زارت نبيلة انكليزية تدعى « الليدي آن بلانت » هذه البلاد ، في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، إبّان حكم الامير محمد بن عبدالله الرشيد ، أعظم أمير رشيدي ، امتدّ حكمه حتى شمل نجداً كلها . وقد اشتمل المجلدان اللذان تضمنا أخبار تلك الرحلة ، على الكثير الشيّق من

أنباء ذلك الحاكم ، ووصف بلاده في عهد حكمه . وأما ما قبل ذلك فإن المعلومات الوافية عن تلك الامارة ما تزال تعوز الباحثين[1].

واقد قام الرحالة الفنلندي « جورج أوغست والان » برحلتين الى مدينة حائل بين عامي ٤٥ و ١٨٤٨ في عهد الامير عبدالله بن رشيد ، مؤسس الامارة الرشيدية ، ويمكن القول اعتماداً على النماذج الموجزة التي نقلتها مؤلفة هذا الكتاب (في الصفحات ٢٧٢ الى ٢٨٨) مما دوّنه من مشاهدات اثنـــاء رحلته ، عن حائل ، وعن بلاط ابن رشيد ، وعن اسلوب حكمه — بأن المعلومات التي سجلها تصلح اساساً يعتمد عليه من يعنيه دراسة احوال تلك الامارة[2].

من خلال هذه اللمحات القصيرة تبوز للقارىء قيمة هذا المؤلف ، لا من حيث شمولهُ لمعلومات ودراسات تاريخية في مجال الريادة والرحلات ، بل لأنه يبسط امام القارىء العربي المعني بدراسة تاريخ الجزيرة — ميداناً واسعاً ، ممهد الطرق ، واضح المعالم .

لقد قسرتنا مقتضيات العصر الحديث على مجاراة الغربيين في سنن الحياة اليومية ، في البيت ، وفي الشارع ، وفي المدرسة ، وفي كل مكان

(١) وقد ترجم الاستاذ محمد أنعم غالب ما يتعلق بتلك الامارة ، ونشرته (دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر) في الرياض سنة ١٩٦٧/١٣٨٦ ، غير أن قسماً كبيراً من الرحلة مما لا يتعلق بامارة آل رشيد ، لم يعرب بعد .

(٢) وقد طبعت رحلته بعنوان : « صور من شمالي جزيرة العرب في منتصف القرن التاسع عشر » في بيروت سنة ١٩٧١ . بترجمة الاستاذ سمير سليم شبلي ، ومراجعة الاستاذ يوسف ابراهيم يزبك . ولكن الترجمة — ويا للاسف — مع كثرة أخطائها في كتابة الاسماء العربية ، لم تكن كاملة ، فقد حذف منها من النصوص ما جعل الباحث لا يعتمد عليها ، ومنها ما ورد في إشارات مؤلفة هذا الكتاب .

ألا يجدر بنا أن نسعى لمجاراتهم في مضمار البحث والسعي لإدراك الحقائق العلميـــة ، بنفس الاسلوب الذي وطّن هؤلاء الرواد المغامرون أنفسَهم على الأخذ به ، لتكييف حياتهم تكييفاً يمكنهم من الوصول الى الغايات التي يسعون إليها ؟

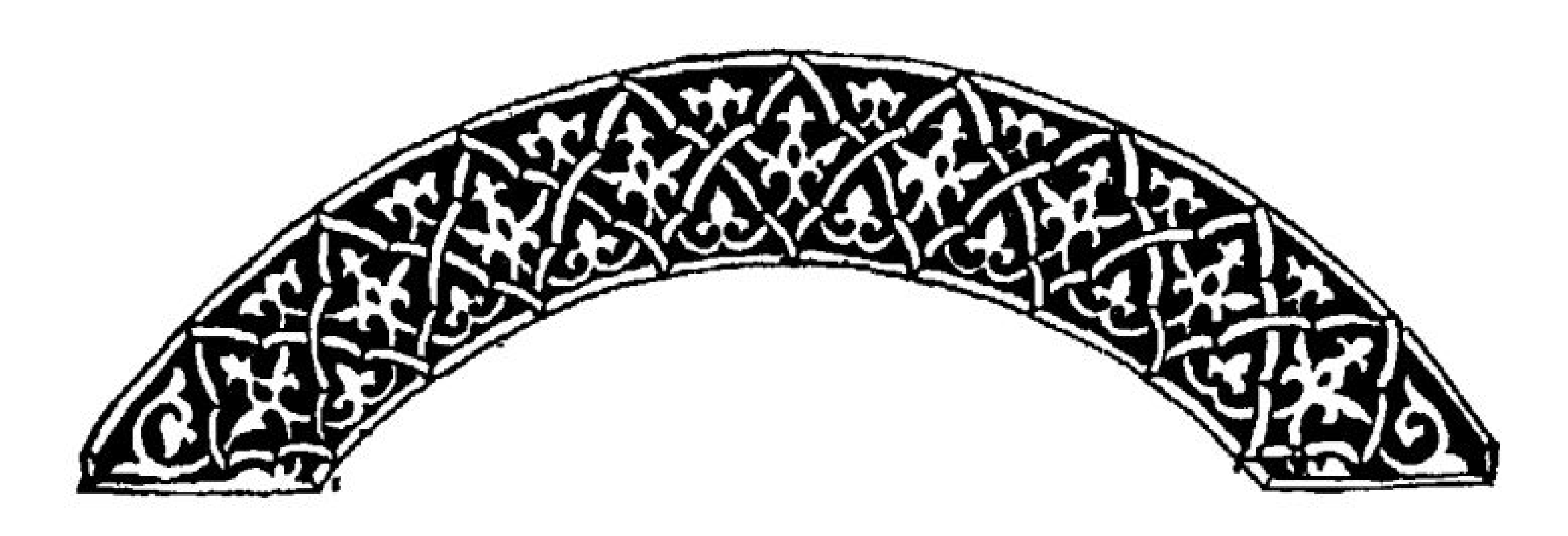
إن القارئ العربي كثيراً ما تعتريه حالة من الريبة والشك حيـــال كتابات الغربيين عن العرب ، وهي حالة مع منافاتها للحكمة العربيـــة القديمة : (الحكمة ضالّة المؤمن يلتقطها حيث وجدها) لا تتفق مع المنطق القويم في شيء ، فالحقُّ يجب قبوله ، أيّاً كان مصدره ، والباطل لا يتَوقفُ رَفْضُه على معرفة مصدره ، وأولئك – بحُكم بُعْدِهم عنّا ، وجهلهم لأحوالنا في الماضي – تشوب كتاباتِهم عنا شوائبُ من الخطأ ، لا ينبغي أن تكون حائلا بيننا وبين المعرفة ، بل الأجدر بها أن تكون من الحوافز التي تدفعنا الى معرفة كل ما يكتب ، عن بلادنا وتاريخنا ، لنقبل الحق وننتفع به ، وننفي الزّيْفَ ونأباه .

ثمّ الكمالُ – من قبلُ ومن بعد – لمن له الكمال .

حمد الجاسر

الجزء الاول

رفع الستار



شبه الجزيرة العربية القارة المفقودة

إذا ما اتخذنا وجهة النظر الأوروبية ، وهذا ما سنفعله هنا ، أمكننا القول انه اعتباراً من القرن الخامس للميلاد ، وحتى يقظة الرغبة الكبرى في المعرفة خلال عصر النهضة ، لم يكن لأوروبة أية فكرة عن شبه الجزيرة العربية .

كانت قارتنا الأوروبية قد سادها جهل يكاد يكون مطبقاً ، بعد أن طغت على الحضارة الرومانية التي عرفتها ، موجات الغزو البربرية في القرنين الرابع والخامس . وقد احتفظت الأديرة بشيء من المعرفة القديمة في المخطوطات التي كانت تنسخ فيها بكثير من الصبر . كانت أوروبة تتقدم متخذةً مركز ثقل قاري لها في اكس - لاه شابيل أو في رافس ، أما العالم الإغريقي - اللاتيني ، فقد كان البحر الأبيض المتوسط قلبه النابض .

كانت التجارة ، والحروب ، فيما سلف ، ما بين سواحل هذا البحر الذي نشأت حوله أولى حضارات العالم . وكان أغنياء الإغريق والرومان يستهلكون يومياً أفاويه الهند ، والكهنة يحرقون أمام آلهتهم بخور بلاد العرب ، والجيوش تحارب الفرس أو هنيبعل ، ولكن بالنسبة إلى أوروبة البرابرة ، لم يكن البحر سوى حدٍّ وسور لا يمكن تجاوزهما .

إن هذا الفاصل ما بين أوروبة من جهة ، والشرق من جهة أخرى، قد ازداد عمقاً منذ أن ظهر الإسلام . فمنذ أن جهر محمد بالنبوة سنة ٦٢٢ ، أعلن الجهاد المقدس في الشرق . وقد أوقف ذلك ، باديء ذي بدء ، نشاط التجار الذين تهيبوا السفر إلى بلاد تسودها الحروب ، وسرعان ما أصبح على جانبي البحر الأبيض المتوسط لا حضارتان متباعدتان فحسب ، بل عالمان متعاديان .

ثم اجتاحت الجيوش الاسلامية في اندفاعها الجبار الذي لا يقاوم سورية (٦٣٣) ، وفلسطين (٦٣٨) ، وبلاد ما بين النهرين (٦٤٠) وأرمينية وجورجية وقرقازية (٦٤٢) ، ثم بلاد الفرس ، وكردستان ، وآذوبيجان ، وعيلام (سوزيان) وفارسيستان ، حتى بلاد آمود اريا (الاوكسوس) حيث أوقفت تقدمهم مقاومة الأتراك .

ولم تقف الجيوش العربية عند سواحل البحر الأبيض المتوسط ، وانما اجتازت هذا البحر واحتلت الجزر الواقعة في القسم الشرقي منه ، كما انها غزت ، في الوقت ذاته ، جميع البلدان الساحلية : مصر (٦٤٢) ، وليبيا ، وطرابلس الغرب ، والمغرب ، ولم تتوقف إلا عند شاطيء المحيط الأطلسي .

وبعد فترة من الهدوء الموقت دامت ثلاثين سنة ، بسبب النزاع على الخلافة ، بلغت الجيوش العربية في حربها مع الأتراك واحات أفغانستان ، وأبواب الصين ، ومقاطعة السند كلها في بلاد الهند (٧٠٧) ، أما في غربي البحر الأبيض المتوسط الذي احتلت جميع جزره ، فقد أخضعت قرطاجة العاصية ، وسحقت البرابرة ، واتجهت من هناك شطر اسبانيا فاحتلتها بكاملها (٧١٠) ، ثم تدفقت موجة الفتح العربي منها إلى ناربون (٧١٩) ، وقرقاصون ، ونيم ، وبروفانسية ، وصعدت نهري الرون والصون حتى بورغونية ، وأخيراً حتى اللوار . وهناك تمكن شارل مارتل من إيقاف زحف الجيوش الإسلامية في بواتيه (٧٣٢) ، واضطرها

لى التراجع حتى ناربون . وأوقف الزحف العربي في الوقت ذاته أمام بيزنطية سنة (٧٤٣) ، فكانت تلك هي الحـــدود التي قدّر له ألا يتخطاها أبداً .

لقد وضعت موجة الفتح المتـدفقة فاصلاً مادياً ما بين أوروبة وبلاد العرب . وقـــد أنشأ العرب خلال القرون التي عقبت الفتوحات في إمبراطوريتهم التي كانت تضم اسبانيـــة ، حضارة باهرة ؛ فاتنة ليس بأبهتها فحسب ، بل بازدهار العلم والفكر أيضاً . ويخيل إلينـــا أن الغرب أخذ آنئذ يتعرف إلى بلاد العرب ، مهد الإسلام الذي كان الغربيون يرتادون جامعاته .

على أن هذا التعرف لم يكن كافياً ، لأن العرب المنتصرين ، الخارجين من الصحراء العربية كانت انتصاراتهم قد تغلبت عليهم . فقد جعلت منهم الاسكندرية ومكتبتها الشهيرة قوماً متعلمين ، وهؤلاء العرب الذين فتنتهم المعرفة ، والجمال ، والترف ، والذين كانت عواصمهم قد غدت بغداد ، والقاهرة ، وطليطلة ، لا مكة والمدينـــة ، أخذوا يحتقرون الأرض الجحود اللاهبة ، التي خرج منها اجدادهم لغزو العالم .

لقد اصبحت الجزيرة العربية مهملة من جديد ، ولم يعد يهتم بالتعرف إليها ابناؤها الذين استوطنوا – خارج حدودها – بلداناً نشأت فيهـــا أقدم حضارات العالم

ولكن بعض الرواد المسلمين ، حاولوا بعد انقضاء عدة قرون على ذلك ، التعرف إليها من جديد . فزار ابن بطوطة في سنة ١٣٢٨ مكة ، واليمن ، وظفار ، وعمان ، ولذا أمكننا اعتبـــاره اول رائد عصري لشبه الجزيرة العربية . بيد ان هذا الاستكشاف الكثير النواقص لم تفد منه أوروبة التي لم تستطع قراءة ما كتبه ابن بطوطة وغيره من اغلب المؤلفين المسلمين ، إلا خلال القرن التاسع عشر حين كانت معرفتهـــا ببلاد العرب قد تجاوزت ما كتبه المؤلف القديم .

بلغت الحضارة الإسلامية أوجها ما بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر ، وكانت هذه الفترة فترة استراحة فاصلة بين تدفق الموجتين المتعاكستين : الموجة الدافعة بالإسلام إلى غزو الغرب ، والموجة المهيبة بالغرب إلى مهاجمة العالم الإسلامي ، لاستعادة قبر المسيح والأماكن المقدسة .

دخل الصليبيون من بلاد بيزنطة ، إلى بلاد فلسطين وحدود الجزء الشمالي من شبه الجزيرة العربية ، فهل أتاح لهم ذلك أن يتصلوا اتصالاً مباشراً بشبه الجزيرة المجهول ، الغامض ؟

لقد ساد السلام سنة ١٨٨١ ما بين مملكة القدس التي كان يحكمها بودوان دي انجو الرابع ، وجيرانها المسلمين . وكان هذا الملك الشاب الذي قرض البرص اطرافه ، شخصية مسيحية اسطورية ، تتغلب لديها القيم الروحية على كل شيء آخر .

على ان صاحب إحدى اقطاعاته المعروف باسم رينولد دي شاتيون ، ذا الدم الفوار ، سيد الكرك ، الذي مثله رينه غروسه فارساً قاطع طرق ، تنم ملامحه عن التوحش ، وممثلا للطبقة الاقطاعية الدموية السلابة في الغرب ، تحول في الشرق إلى بدوي فرنسي لا يفهم الحرب إلا في سبيل الغزو ... إن رينولد هذا لم يكن يشبه مولاه ، وقد دفعته روح النهم والطمع المستبدة به ، التي أثارها ما كان يسمعه عن الكنوز المكدسة في معبد المدينة ، إلى القيام بتجاوز الحدود ، ودخول شبه الجزيرة العربية ، غير مكترث بالمعاهدات التي كان مولاه ملك القدس قد وقع عليها .

تقدم رينولد ورجاله في صيف عام ١١٨١ في القسم الصحراوي من شبه الجزيرة المجاور لتخوم اقطاعته ، ولم يتمكن من بلوغ المدينة ، ولكنه فاجأ قافلة آمنة متجهة من دمشق إلى مكة ، وسلبها كل ما كانت تحمله .

أسف بلاط القدس لنبأ هذه الغزوة كل الأسف ، وتملكته من جرائها الحيرة ، واشمأز بودوان الرابع من هذا العدوان كل الاشمئزاز ، ولكنه

عجز عن حمل صاحب اقطاعته على إعادة الأسلاب إلى السلطان صلاح الدين»
واضطر مرغماً إلى التسليم بالحرب التي أعلنهـــا دي شاتيون على العرب
بتلك الطريقة .

واغتنم دي شاتيون فرصة تساهل مولاه ، فاحتل ميناء حربياً واقعاً
على خليج العقبة ، ونقل إليه على ظهور الجمال ، سفناً فلسطينية مفككة ،
أعاد تركيبها فيه . وما كادت هذه السفن الخمس الكبيرة تصبح جاهزة ،
حتى وجهها مع خمس سفن هجومية صغيرة ، لمحاصرة جزيرة « غراي »
لإشغـــال الجيوش الإسلامية ، وأرسل العدد الأكبر من قطع اسطوله
يجوب شواطىء البحر الأحمر ، ويعكر صفوها ، ويلقي فيهـا الذعر من
سنة ١١٨٢ الى سنة ١١٨٣ .

نزلت قوات رينولد دي شاتيون على احد شواطىء الحجاز ، واستعدت
للزحف على المدينة .

ولكن صلاح الدين ، من جهته ، أمر بتفكيك بعض السفن ونقلهـا
من مصر إلى البحر الأحمر ، لانجـــاد العرب المروعين . واستعد أمير
اسطوله للقيام بهجوم معاكس على سفن رينولد ، فأسر السفن التي كانت
تحاصر جزيرة « غراي » ، ثم أخـذ يطارد جنوده . وأدرك السفن التي
كان بحارتها يحاولون الالتحاق بالجنود المتوجهين لمهاجمة المدينة المقدسة ،
ودمرها . وعند المضايق الصحراوية الواقعة على بعد مسيرة خمسة أيام من
البحر الأحمر ، ومسيرة يوم واحـد إلى المدينة ، هوجم الجنود الثلاثمائة
من الفرنجة الذين كان قـد انضم إليهم عدد من « الفراريين » المسلمين ،
وتم القضاء على معظمهم . وأعدم في مكة والمدينة عدد من المائة وسبعين
جندياً الذين نجوا من الموت في المعركة ، واقتيد الباقون أسرى إلى مصر ،
ولم ينج بالفرار احد منهم . ويذكر ابن جبير انه شاهد جنود الفرنجة لدى
وصولهم « مربوطين على ظهور الجمال ، وقد أديرت وجوههم نحو ذيولها

إمعانا في إذلالهم ، بين قرع الطبول والصنوج ، وهتاف الشعب . وقد حزت اعناقهم فيما بعد . »

وهكذا ظلت شبه الجزيرة العربيـة مصونة الحمى . ولم تلبث فلسطين ان سقطت بكاملها في ايدي المسلمين

وجاء فتح الأتراك العثمانيين فغمرت جيوشه البلقـــان ، وبيزنطة ، وشرقي البحر الأبيض المتوسط ، وبسط الخلفاء الأتراك سلطانهم على معظم البلدان الإسلامية ، ولكن شبه الجزيرة العربية ، ظلت ممتنعة على الفتح التركي ، بفضل صحرائها التي هلكت فيها عطشاً الجيوش التي وجههـــا السلطان سليمان سنة ١٥٥٠ .

وبما أن الأتراك كانوا قد اعتنقوا الإسلام ، فقد ظلت إمبراطوريتهم ، بالنسبة الى الاوروبيين عالماً مغلقاً معادياً ، شأن الامبراطورية العربية ، ووقفت اوروبة والاسلام وجهاً لوجه كعالمين كل منهما غريب عن الآخر ، يتعذر تداخلهما مادياً وروحياً .

وهكذا أسهمت القطيعة ما بين ساحل البحر الأبيض المتوسط الناجمـة عن غزوات البرابرة ، وحرب الاسلام المقدسة الهجومية ، ونسيان الحضارة الاسلامية لمهد روادها الأوّل ، ومقاومـــة الجزء الصحراوي من شبه الجزيرة العربية لغزوة رينولد دي شاتيون ، الغزوة المسيحية الوحيدة ، والعداوة الدينية المزمنة ، كل هذه أسهمت في ان يسدل ما بين اوروبة الناشئة وشبه جزيرة العرب ، ستار كثيف من الجهل الشديد .

لقد كان كل ما يعرفه الأوروبيون ان النبي محمداً ولد في شبه الجزيرة العربية ، وان اسم المدينتين المقدستين فيها مكة والمدينة . وكان يسود اعتقاد خاطىء بأن جثمان النبي محمد معلق في الهواء في معبد مكة . ولم تكن اية سفينة اوروبية تزور سواحل شبه الجزيرة العربية ، ولم يكن يدخلها اي مسيحي ، إلا إذا اعتنق الاسلام ، وتخلق بأخلاق العرب ، وساكنهم .

على ان الاهتمام بالتبشير بالانجيل في بلاد الحبشة المسيحية ، المقابلة لشبه الجزيرة العربية ، كان قد حدا بالبابا يوحنا الثالث إلى ان يرسل اليها الراهب الدومينيكي ، غليوم آدم ، الذي يرجح انه كان فرنسياً ، فتمكن من مسايرة حدود شبه الجزيرة العربية .

لقد توجه هذا الراهب فعلاً إلى هرمز الواقعة في مدخل الخليج العربي ، ومنها إلى عدن حيث مكث سنتي ١٣١٣ و ١٣١٤ ، ثم أبحر نحو جنوبي إفريقية ، بعد ان قضى تسعة اشهر بين ظهراني السكان المسيحيين في جزيرة سقطرة . ثم عاد إلى فرنسا ، وتوفي في البلاط البابوي في آفينيون .

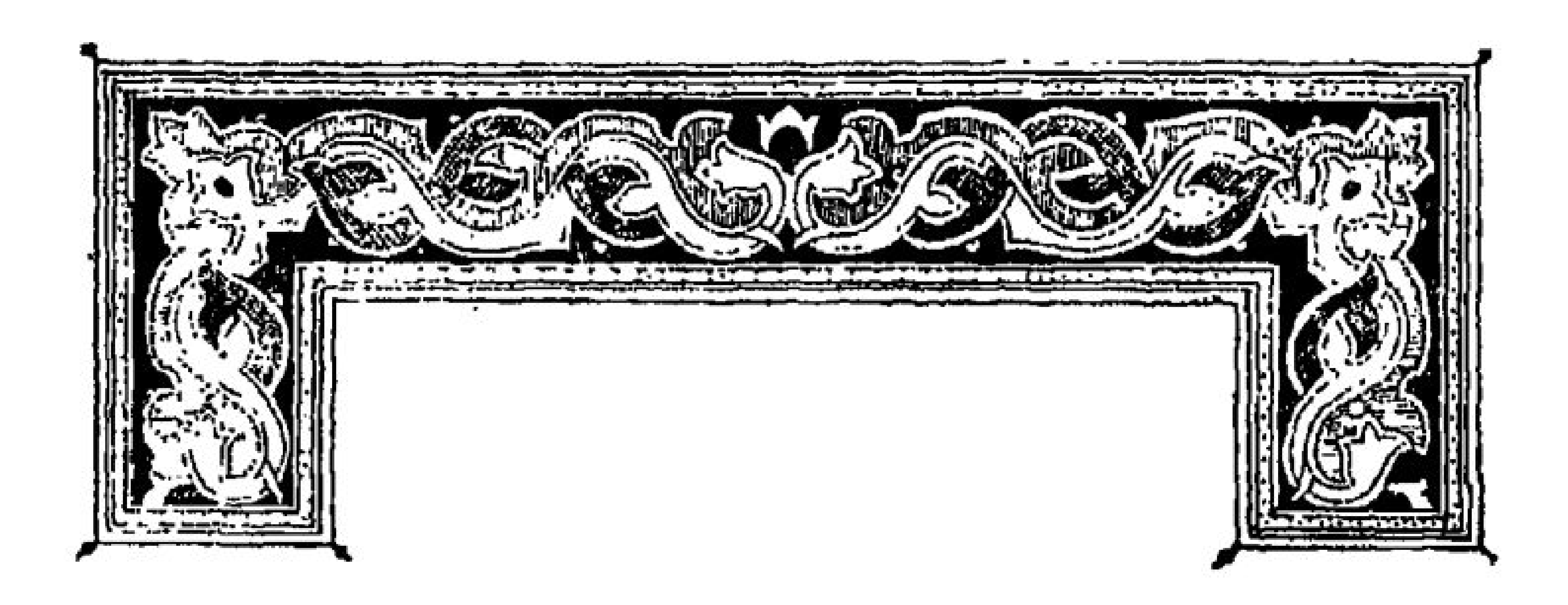
يدلنا هذا على أن ثمة عدداً صغيراً جداً من الاوروبيين لم يكن يجهل جهلاً تاماً شؤون المحيط الهندي في القرن التاسع عشر ، وأحوال الملاحة والتجارة فيه ، والدور الاستثنائي الذي كانت تمثله عدن ، والمطامع التي كان يستثيرها هذا المرفأ الكبير . وقد برهن هذا الراهب ، في الوقت ذاته ، عن بعض الآراء الفلكية السابقة لعصره ، إذ انه قدّر في آن واحد ان الأرض كروية ، وان في الامكان الوصول إلى الجانب الجنوبي من إفريقية الذي كان موقعه مجهولاً .

ولكن هذه الحالة النادرة تؤلف الشذوذ المثبت للقاعدة ، والمبين للجهل المطبق الذي كان يتخبط فيه الأوروبيون فيما يختص بشبه الجزيرة العربية .

لقد كان شبه الجزيرة العربية ، البالغة مساحته خمسة اضعاف مساحة فرنسا ، المتعذر الوصول إليه ، لأن شواطئه مغلقة على البحر الأبيض المتوسط بمجموعة من البلدان الاسلامية المعادية ، المعروف لدى القدماء رغم اعتبارهم إياه غريباً ، كان شبه الجزيرة هذا ، بالنسبة إلى الاوروبيين الجدد ، عالماً مفقوداً ، عالماً يستثير التشوق اكثر من قارة مجهولة ، لبس لأنه يخفي بقاعاً يجب استكشافها ولا علم لأوروبة بشكلها وحقائقها

فحسب ، بل لأنه كان يشكل إطاراً لحضارتين : حضارة إسلامية بمدنها المقدسة الغامضة ، وحياتها الاجتماعية ، وعاداتها ، وسكانهـــا ، وحضارة عريقة في القدم لم يكن يعرف الناس إلا تخميناً ، انها كانت من أغنى الحضارات في العالم القديم . فكانت الرغبـــة في المعرفة هي التي أهابت بأوروبة إلى اكتشافها من جديد .





من خلال كتب القدماء

اضطرمت نار حب الاطلاع ، والمعرفة ، والاكتشاف في أواخر القرن الخامس عشر . فأعار ملوك البرتغال القباطنة المعروفين بالجرأة والاقدام ، مراكب سيروهـــا على طول ساحل افريقية الغربي لاكتشاف بلدان جديدة . وبينا كان هؤلاء يمخرون عباب البحـــار عكف آخرون على مطالعة ما اكتشفوا من كتب الأقدمين ، وعثروا في خلالها على التاريخ القديم ، والمعارف التي اكتسبها البشر قديماً .

وأيقظت هذه الاكتشافات العقول ، فأخذت تتساءل عن كل شيء : عن النجوم ، وشكل الأرض ، والشعوب ، والعادات ، والقارات المجهولة ، والقارات التي كانت معروفة فيما مضى .

وطفق الناس يقرأون التوراة بأعين جديدة ، فأدركوا انها تضم بـين دفتيها تاريخاً الى جانب الحكمة والدين .

عندئذ سقط الحجاب عن وجه من وجوه شبه الجزيرة العربية . كان قد أهمل في عالم النسيان منذ ما يقارب العشرة قرون ، وأخذ ينبعث من خلال الرقوق المصفرّة .

قرأ الناس في التوراة ، في سفر الملوك ، ان سليمان ، وقد أدرك ان

في الامكان الابحار الى بلاد اوفير نزولاً بالبحر الأحمر للبحث عن الثروات المدهشة ، بنى اسطولاً في ميناء ايزيون جابر ، وان مراكبه عادت من بلاد اوفير حاملة اربعمائية مَنٍ ذهباً (سفر الملوك الاصحاح ١١ الرقم ٢٨) . فأين يقع ميناء سليمان هذا ؟ وأين تقع بلاد اوفير هذه بنوع خاص ؟

ولكن الأمر الذي يغري المخيلة ، زيارة ملكة سبأ التي اجتذبتها شهرة سليمان الحكيم ، فأقبلت تزوره ، تصحبها حاشية غفيرة غنية التجهيز ، وجمال تحمل الطيوب ، وكميات كبيرة من الذهب والحجارة الكريمة قدمتها الى سليمان (ملوك ص ١٠ آية ٢ و ١٠) . فما هي مملكة سبأ هذه التي كانت على هذا الثراء الأسطوري ؟

لا شك في أن الناس كانوا يعرفون الرواية الحبشية التي تذكر ان ملكة سبأ كانت احدى ملكات بلادهم ، وانهم يتحدرون بوساطتها من سليمان الذي لا يمكن ان يكون قد رفض القيام نحو الملكة الضيفة بواجب اللياقة الاول الذي كان في وسعه أن يقوم به .

وقد ورد في التوراة اسم مملكة اخرى باسم سبأ ربما كانت واقعة في بلاد الحبشة

ولكن الناس كانوا قد أخذوا يقرأون من جديد كتب الاغريق التي كانوا يجدون نسخاً منها في بطون مكاتب الأديرة حيث كانت قد اجتازت القرون الوسطى .

ثم ان الكثيرين من كتّاب الاغريق كانوا قد كتبوا عن شبه جزيرة العرب . فقد استقى هيرودوس مؤرخ القرن الخامس قبل الميلاد من مصر ، معلومات طريفة عن شبه الجزيرة العربية ، وأغنامها الغريبة ذات الأليات الدهنية الضخمة ، وطيوبها الشهيرة : كالبخور ، والصبر ، وخيار شنبر ، والقرفة ، والكافور ، واللادن ، وسمع من المصريين

روايات عن الأخطار التي تعترض سبيل من يقومون بجمع نتاج هذه الطيوب . فالأفاعي المجنحة تحمي أشجار البخور ، ويقتضي ابعادها عنها بالدخان ، وعلى من يريد جمع خيار مثبر من احدى البحيرات ، ان يكسو جسمه كلياً بجلود الثيران اتقاء للسعات الحيوانات المجنحة ، ويجنى الكافور من وكنات الطيور الجارحة بذبح ثور ، ونثر لحمه إرباً في أسفل الصخور العالية ، فتحمل الطيور حملاً ثقيلاً من اللحم ، الى وكناتها فتهوي لثقل الحمل ، جاعلة العطر الثمين في متناول طالبيه . أما اللادن فيعلق بلحى الماعز فيما هي ترعى الشجيرات التي تحمله .

ولكن من الواضح ان هذه الروايات كانت تحتوي على شيء من الخرافة .

وبعد انقضاء عصر على ذلك ، بحث ثيوفراست تلميذ ارسطو ، وقد اعتاد ان يضمّن الفلسفة ملاحظات علمية عن كل شيء ، في كتابه الذي أسماه « تاريخ النبات » عن طيوب بلاد العرب الشهيرة . فلم يكتف بوصف شجيرات الصبر والبخور ، بل أورد معلومات مفصلة عن زراعتها والمتاجرة بها فقال : « تحدث شقوق في الشجيرات يقطر منها سائل صمغي بقطرات شبيهة باللؤلؤ . ويكوّم كل واحد نصيبه من الصبر والبخور بالطريقة ذاتها ، ويتركها في عهدة رجال يقومون بحراستها ، بعد أن يكون قد نصب على كومته لوحة كتب عليها عدد الكيلات في الكومة ، وثمن الكيلة الواحدة . ويقبل التجار ، فاذا رأى أحدهم كومة أعجبته ، كالها ووضع ثمنها مكان البضاعة . ثم يأتي الكاهن فيأخذ ثلث الثمن للإله ، تاركاً ما تبقى ، في أمان لصاحب البضاعة ، حتى يأتي فيأخذه . »

وتحدث ثيوفراست عن السبئيين من سكان جنوبي شبه الجزيرة العربية ، واصفاً إياهم كمحاربين ، او زراع او تجار ، يسافرون على وجوه البحار على ظهر سفن ، او على زوارق من جلد . ولكن اكثر نشاطاتهم مكسباً

تقل المقر الذي يستخرج منه أقوى العطور ، الى البلدان المجاورة .

وفي مستهل القرن الأول للميلاد ، رسم المؤرخ اليوناني ديودور صورة اكثر حياة ، لبلاد العرب ، بلاد الطيوب ، والسكان السبئيين فقال :
« تفوح في طول البلاد وعرضها روائح عطر طبيعي ... وتنمو على طول الساحل اشجار البلسم ، والقرفة وهي نبتة من نوع خاص ، لطيفة المنظر عندما تقطع ، ولكنها سريعة الذبول . وفي داخل البلاد غابات كثيفة تنمو فيها أشجار البخور والصبر الضخمة ، وأشجار النخيل ، والكافور ، وغيرها من الأشجار ذات الروائح العطرية . ومن المستحيل تمييز خواص كل شجرة منها وطبيعتها بسبب وفرة عدد أنواعها ، وضخامة كميات العطور المستخرجة منها . والعطور المستخرجة تبدو كأنها سماوية وغير قابلة التفسير ، وهي تتملك حاسة الشم وغيرها من الحواس لدى كل من يشمّها ، حتى ان المسافرين ، لا يفوتهم التمتع بهذه المتعة ، رغم كونها على مسافة بعيدة من الساحل ، اذ تحمل الريح التي تهب من اليابسة في الصيف ، روائح الأشجار العطرية فتوصلها الى الجزء المجاور لها من البحر .. والذين يتمتعون بهذه الروائح العطرية يخيل إليهم وكأنهم تذوقوا طعام الخلود .

« أما السبئيون فأنهم متفوقون على جميع العرب المجاورين ، وغيرهم من الشعوب ، بثرواتهم وبذخهم بنوع خاص . وهم في الواقع ، يحصلون على أفضل الأسعار في مقايضات البضائع والصفقات التجارية ولهذا السبب ، ولكون بُعد بلادهم قد جعلهم في منأى عن الغزو زمناً طويلا ، تراكمت لديهم اكوام الذهب والفضة ، ولاسيا في سبأ حيث يقوم القصر . والأقداح المختلفة التي يستعملونها مزينة بنقوش ذهبية وفضية ، وقد استعملوا الاسرة ، والمشاجب والقوائم الفضية ، واتسمت سائر أنواع الأثاث التي استعملوها بفخامة لا يكاد يصدقها العقل ، وانتصبت في مقدمة منازلهم مجموعة من الأعمدة الطويلة ، بعضها مذهب والبعض الآخر مزدان بتيجان تحمل رسوماً فضية » .

من المحتمل ان تكون مملكة السبئيين قد سبقت بعشرة قرون عصر الملكة الخارقة العظمة التي قامت بزيارة الملك سليمان . ولكن السبئيين ليسوا الشعب الوحيد الذي اشتهر في جنوبي شبه الجزيرة العربية . فقد تحدث الجغرافي اليوناني سترابون حوالي مستهل القرن الميلادي الأول ، عن الشعوب الأربعة الهامة ، ناقلاً معلومات كان قد أوردها ايراتوستين الفلكي الاسكندري الكبير ، الذي عاش قبل ذلك بثلاثة قرون . وهذه الشعوب الأربعة هي . أولاً المعينيون في القسم الواقع على ساحل البحر الأحمر ، وأكبر مدينة من مدنهم قرنة او قرنانة . ويجاورهم السبئيون وعاصمتهم مريابة ، ثم القتبانيون الذين كانوا يقيمون على طول المضيق الذي يستعمل للمرور ، وعاصمة ملكهم مدينة تمنة ، وأخيراً ، في اقصى الجهة الشرقية الحضرموتيون ومدينتهم سبتة . وكانت كل مدينة من هذه المدن خاصعة لزعيم واحد ، مزدهرة كل الازدهار ، تزينها المعابد والقصور . »

وكان السبئيون وجيرانهم ينقلون بالقوافل البخور ، والأفاويه المستوردة بالقوارب من بلاد الهند ، ويوصلونها عن طريق « الجرعاء » إلى الخليج العربي ، وعن طريق غربي شبه الجزيرة العربية الى خليج العقبة ومدينة البتراء .

ويذكر سترابون ان السبئيين قد جمعوا ثروات طائلة من المتاجرة بالطيوب ، فاقتنوا أواني مطبخ ذهبية وفضية ، ومزهريات ، وشبجباً ، وأكواباً كبيرة ذات أغطية . وكانت مساكنهم بادية الفخامة ، والروعة ، كسيت أبوابها وجدرانها وسقوفها بالفسيفساء الذهبية والفضية والعاجية المزدانة بالحجارة الكريمة .

ولا يدهش القارىء اذ يعلم من المؤرخ نفسه ان الامبراطور الروماني أوغسطس ، كان قد وطد العزم سنة ٢٤ قبل الميلاد ، على أن يستولي على تجارة القوافل هذه التي تكسب سكان الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة

العربية تلك الثروات الاسطورية ، وعهد الى القائـــد آثيليوس غالوس بقيادة حملة لهذا الغرض . وقد كانت حملة شاقة ، محزنة رغم انهـا كانت مظفرة في بادىء الأمر . وتمكن هذا القائد على الرغم من الأمراض التي فتكت بجيشه في ذلك المناخ اللاهب ، الرطب في المنطقة السـاحليـة ، من احتلال مدينة نجران . واستطاع ورجاله ، بعد ذلك بستة أيام ، من قهر العرب غير المسلحين تسليحـاً جيداً ، على مقربة من أحـــد الأنهر . ثم توجهوا ومعهم دليل من أهالي البلاد نحو مدن العربيـة السعيدة . وكان السير ، بالنسبة الى أفراد ذلك الجيش ، مضنياً عبر ذلك البلد الفقـير ، الشديد الحرارة ، المحروم من الماء ، تكتنفهم الصحراء من كل جانب ، وربما يضللهم الدليل في مسالك غير موثوق منها ، وقد بلغوا مدينة مريابة فحاصروها ، ولكن العطش كان قد أخذ يتهددهم بالفناء . فهل كانت تلك المدينة هي مأرب عاصمة السبئيين ؟ ان الاجابة على هذا السؤال لا تزال حتى اليوم موضوع جدل . فقد أدعى الرومانيون انهم بلغوا مدينة تقع على مسيرة يومين من بلاد البخور .

ولكن الجيش وقد استبد به اليأس والمرض ، وتهدده العطش بالفناء ، وخشي خيانة الدليل ، اضطر الى التراجع قاطعـاً في شهرين الطريق التي استغرقت ستة اشهر في الذهاب .

وأصدر الملك أوغسطس مخطوطة في عدة نسخ تباهى فيها بالظفر الذي أحرزه ، ولكن ذلك لم يحل دون اخفاق الرومانيين اخفاقـــاً نهائياً في السيطرة على التجارة العربية . فقد دافعت طبيعة بلاد السبئيين عنهم دفاعاً أفضل من دفاع أسلحتهم امـام هجوم الرومان الذين لم يكن قـد قهرهم أحد بعد . وهكذا اضطر الناس الى التعرف بالاختبار ، الى طبيعة هذه الارض غير المضيـاف ، التي لا يستطيع العيش فيهـا الا من اعتـادوا اقتحام الصعاب .

لقد كانت شبه جزيرة العرب حسب رواية ايراتوستين بالفعل ، تتألف

من جزأين كبيرين يختلف كل منها عن الآخر كل الاختلاف . ففي الجهة الجنوبية العربية السعيدة التي يقول « ان عدة أنهر ترويها ثم تختفي في السهول والبحيرات ، وهي خصبة التربة ، يكثر فيها العسل والماشية وتنعدم فيها الخيول والبغال والخنازير ، وفيها كل اصناف الطيور الا الدجاج والأوز » . أما في الجهة الشمالية فتقع العربية القفراء « وهي بلاد رملية ، قاحلة ، ينبت فيها بعض النخيل ، والاقنثة (شوك اليهود) والطرفاء ، وتنعدم فيها المياه الا مياه الآبار ، ولا يقطنها غير البدو من العرب وهم رعاة ابل » .

واذا كان لدى الناس في مستهل القرن الأول للميلاد هذه الفكرة الموجزة عن طبيعة البلاد ، وسكانها ، وحضارتهم ، فلم يكن لديهم فكرة واضحة عن شكل شبه الجزيرة العربية اذ لم يكونوا قد تعلموا آنذاك رسم الخرائط .

لقد ذكر هيرودوت ان سيلاكس وعدداً من البحارة اليونانيين نزولاً عند أمر داريوس ، ملك الفرس (حوالي سنة ٥١ ق. م.) استطاعوا ان يدوروا حول شبه الجزيرة العربية ، ابتداء من مصب نهر الأندوس في بلاد الهند حتى بلاد مصر التي بلغوها عن طريق الجزء الأعلى من البحر الأحمر . لقد كان الناس يدركون اذن ، منذ زمن بعيد ، ان شبه الجزيرة العربية يقع على أحد حدوده بحر يتمكن المرء من بلوغ بلاد الهند عن طريقه . ولكن بينما نعرف اليوم ان البحر الأحمر ، والمحيط الهندي ، والخليج العربي تتصل ببلاد العرب ، كان الأقدمون يتصورون بحراً واحداً يحد السواحل العربية بكاملها ، ويطلقون عليه اسم بحر أريتريا (أي الأحمر) .

ولم يتمكن الملاحون الاغريق حتى القرن الثاني الميلادي من اعطاء فكرة واضحة عن شكل الساحل الحقيقي في مجمله ، لأنهم لم يكونوا قد

تمكنوا بعد من القيام بدورة كاملة حول شبه الجزيرة العربية .

لقد كان العرب ، في الواقع ، يعتبرون مضيق باب المندب شديد الخطورة ، ولذلك أطلقوا عليه هذا الاسم ، ولم تكن الملاحة في المحيط الهندي الواقع ما وراء هذا المضيق ، ممكنة الا باتجاه الرياح الدورية فيه . وتهب هذه الرياح الدورية من شهر شباط (فبراير) حتى آب (اغسطس) من الجهة الجنوبية الغربية ، دافعة السفن نحو بلاد الهند ، أما خلال الأشهر الستة الأخرى فانها تهب من الجهة الشمالية الشرقية باتجاه شبه جزيرة العرب . ولم يعرف البحارة الاغريق خلال عصور عديدة ، استخدام هذا النظام الذي تتبعه الرياح الدورية .

لهذا السبب أورد الملاحان آغاثا رشيد وآرتميدور وصفاً دقيقاً مفصلاً ، لشاطىء البحر الأحمر ، وموانئه ، وصخوره غير البعيدة عن وجه الماء ، وسلاسل سواحله ، وسكانه ، دون ايراد اي ذكر لميناء حضرموت لكونه واقعاً ما وراء مضيق باب المندب .

وقد توصل هيبالوس في القرن الثاني قبل الميلاد ، الى اكتشاف وسيلة لتنظيم رحلة بحرية كاملة ابتداء من البحر الأحمر ، بحيث يتم الوصول الى باب المندب حين تكون الرياح الدورية ملائمة الهبوب . ومنذ ذلك الحين فقط ، بدأ الاغريق يقومون برحلات بحرية منتظمة الى بلاد الهند ، واستطاعوا ان يمخروا على مقربة من ساحل حضرموت .

ونجد في المؤلفات التي وضعت في مستهل التاريخ الميلادي عدداً متزايداً من المعلومات عن داخل البلاد . فقد أورد المؤرخ الروماني بليني في القرن الثاني للميلاد لوائح باسماء القبائل ، والمدن ، والقرى في القسم الأوسط من شبه جزيرة العرب ، وبرهن عن معرفة ادق بالسكان ، الحضر منهم والبدو .

ويذكر كتاب « دورة حول بحر أريتيريا » لمؤلف مجهول ، اسماء

الطرق التي كانت تربط ما بين مملكة سبأ والبتراء من جهـــة ، وبينها وبين عمان وحضرموت والجرعاء على الخليج العربي من جهة اخرى .

وأخيراً نجـد في كتـاب بطليموس أطلساً حقيقيـاً يحتوي تعليقـات وشروحاً ، وقد نُسقت فيه المعلومات المجموعة حتى أيامه ، تنسيقاً دقيقاً .

ان رجال عصر النهضة لم ينظروا الى هذا الكتـاب كمجموعة معارف فحسب ، بل اعجبوا بمـا احتواه من الاكتشاف العـــلمي الذي سمح بأن تعين على الورق مواقع الاماكن المعروفـة المختلفة . ولم يكن ذلك ممكناً الا بتقسيم العـالم بصورة اصطلاحيـة بمتوازيات خطوط العرض ابتـداء من خط الاستواء : وبمتوازيات خطوط الطول ابتداء من نقطـة حددها الجغرافي في جزيرة فيترول . وبالنسبة الى هذه المتوازيات أمكن تحديد المواقع الجغرافية للأماكن المختلفة ، ووضعها على الخارطة .

والجزيرة العربية التي رسمها بطليموس ممدودة عرضـاً نحو الاسفل ، وضيقة في الاعلى . وقد رسم فيها الجغرافي أربعة أنهر كبيرة ، وسلاسل جبال وعدداً كبيراً من الاسماء .

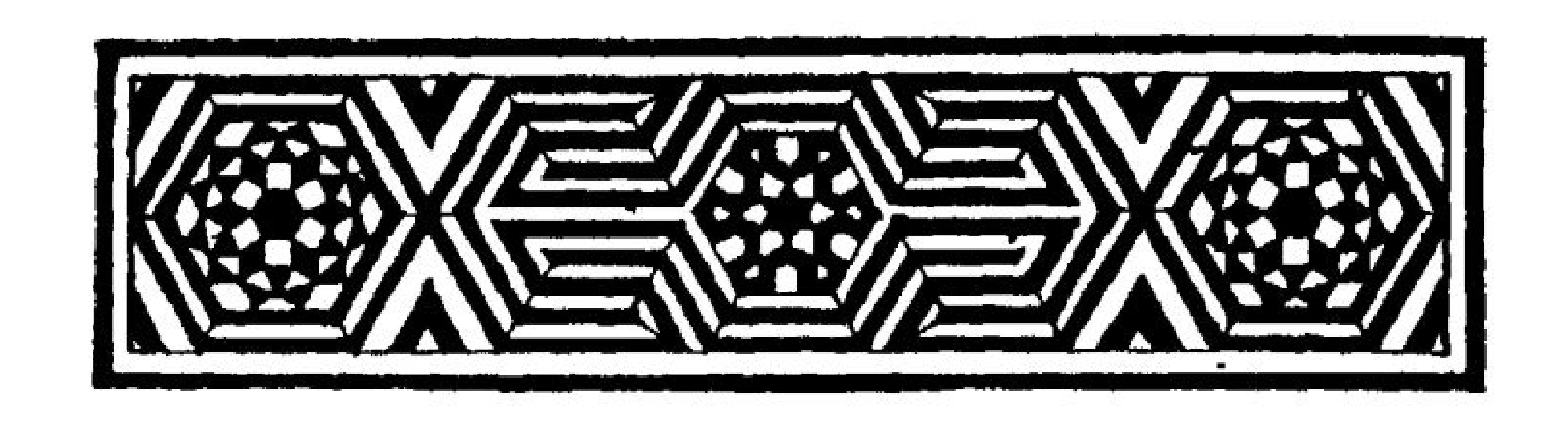
لقد أدهشت هذه المعرفة رجـال عصر النهضـة . ولكنهم كانوا قـد تعلموا في مدرسة المؤلفين القدماء ان يتحروا صحة المعرفة ، وان يصروا عـلى التحقق بأنفسهـم ، رافضـين الاستماع الى الروايات . فـلم يكتفـوا بالاطلاع على ما كُتب ، ولكنهم تحرقوا شوقاً الى الرؤية بأعينهم . ومن ثم منشأ ذلك الشوق الملـح الى السفر الذي سمح برؤية أراض جديـدة ، وأناس جدد ، وعادات جديدة ، وكلها موضوعات للملاحظة والتأمـل في وسعهم تقديمها لمواطنيهم . ولكن أوروبة كانت قد أخذت تقدم مادة اكتشافات عديدة فكيف السبيـل الى دخول الشرق الاسلامي ، الشرق المعادي ؟

ومع هذا ، فقد وجد رجل كتب ما يلي : « ان الرغبة التي أهابت

بالكثيرين الى رؤية الممالك الدنيوية ، هي التي يبدو انها قد دفعتني الى العمل نفسه . وبما ان الممالك والمقاطعات الاخرى كلها قد أعلن عنهـــا الكثيرون ، عقدت العزم على رؤية المقاطعات والممالك التي لم يقم اجدادنا بزيارتها إلا فيما ندر . واتكالاً على معونة الله ابحرنا من البندقية عند هبوب رياح ملائمة » .

كان هذا سنة ١٥٠٣ ، وكان ذلك الرجل لودفيكو دي فارتيما .





لودفيكو دي فارتيما

هل سبق احد لودفيكو دي فارتيما في زيارة بلاد العرب ؟ يعتقد احد المعاصرين ان كابوت ، الرحالة الكبير ، قام بزيارة مكة بين سنتي ١٤٧٦ و ١٤٩٠ ، ولكن الشكوك تحوم حول صحة ذلك . على ان هناك امراً لا يتسرب إليه الشك وهو ان الملك جان عاهل البرتغال قد ارسل إلى شبه الجزيرة العربية سنة ١٤٨٧ بدرو دي كوفيلها الذي كان يتكلم العربيـــة ، للتحقق من إمكانية الذهاب إلى الهند مروراً بالبحر الأحمر . وقد بلغ أحد موانئهـا عن طريق برية بالانضمام إلى قافلة من المغاربة متوجهة إليها من القاهرة ، وأبحر منهـــا على ظهر مركب إلى عدن ، ومنهـــا إلى بلاد الهند . وما كاد يعود إلى القاهرة حتى تلقى أمراً من مليكه بالذهاب إلى بلاد الحبشة ، وقد قام بذلك قيـاماً حسناً الى درجة أنه أقام فيهـا مدة ثلاثين سنة كاملة . وقد روى كوفيلها لكاهن سفير برتغالي مثّل بلاده في الحبشة من سنة ١٥٢٠ الى سنة ١٥٢٦ قصة أسفـاره المليئة بالحوادث مضمناً إياها حديثاً عن سفرة زعم أنه قام بها الى مكة والمدينة . فهل قام ، حقيقة ، بتلك السفرة ؟ إذا كانت هذه السفرة قد تمت بالفعل فإنها على كل حال لم تزد شيئاً على معلوماتنا

عن شبه جزيرة العرب ، لأنه لم يكتب عنها شيئاً .

وقد كتب المدعو ارنولد فون هارف ، خلافاً لذلك ، قصة رحلاته التي أدعى القيام بها الى كولونيا ، فالبندقية ، فالاسكندرية ، فالقاهرة ، فجبل سيناء ، وزعم انه اجتاز من هنالك شبه جزيرة العرب الى عدن ، وأبحر منها الى سوقطرة ، فسيلان ، وزار بلاد الهند ومدغشقر ، وقطع جبال القمر ، واكتشف منابع نهر النيـــل الذي تتبعه حتى القاهرة ، وعاد منها الى اوروبة ماراً بفلسطين وسورية وتركية .

ولكن مثلما تتيح لنا الفرصة اليوم ان نرى كيف يقوم الصحافيون المعاصرون « بتتبيل » رواياتهم ، والتأثير على القراء الذين لا دراية لهم بتحري المعرفة ، يبدو ان عدداً من الناس صدق رواية ارنولد فون هارف آنذاك ، على اننا نستطيع اليوم ان نتبين اخطاءه ، وعدم الترابط المنطقي في روايته ، والحماقات التي ارتكبها فيها ، حين نقارنهـا بالمعلومات المكتسبة . ومن الظاهر انه لم يزر إلا القاهرة ، وسيناء ، وفلسطين وسورية . ولكنه قـد استقى بعض المعلومات عن بلاد بعيدة ، أراد أن يعرضها ، وكأنه شاهدها بأم العين ، دون ان يفهم ما رواه عنها ، ويدقق فيه .

لقد كسب منها ، في حكم الأجيال الآتية ، لقب اول موزع للأنباء الكاذبة . اما لودفيكو دي فارتيما ، فإنه يبـــدو ، على العكس ، صادق الرواية ، موضوعياً ، إيجابيـــاً ، رغم انه لم يتمكن من تجنب إيراد بعض الأخبار التي سمع بها اثناء رحلته الى بلاد الهند ، كأنهـــا اخبار شهدها بأم العين .

ليس اصل لودفيكو دي فارتيما معروفاً ، فبعض من يستشهدون به يدعونه « البولوني » ، وبعض آخر يطلق عليه اسم « الروماني » . فقـد كتب احد مؤرخي الاكتشافات في القرن الثامن عشر انه « كان رومانيـــاً من أسرة باتريزي النبيلة ، ولكنه اشتهر باسم لويس فارتيما البولوني الذي انتحله في مذكراته » .

ومهما يكن من امر ، فانه ما من قصة رحلة لاقت ، طوال نصف قرن ، مثل النجاح الذي لاقته قصة رحلته . فقد تعاقبت طبعاتها وترجماتها خلال ثلاثين عاماً دونما انقطاع ، وظهر منها بعض الطبعات في القرن السابع عشر .

وما يزال كتابه شائعاً حتى اليوم ، لاسيما وان مؤلفه قد برهن عن كونه قاصاً رائعاً ، فضلًا عن كونه شاهد عيان اميناً ، وما ذلك لانصرافه إلى الأدب ، إذ كان على العكس بعيداً كل البعد عن اللجوء إليه ، متحاشياً كل التحاشي وصف جمال الأشياء ، فقد كتب عن دمشق : « من المؤكد ان المرء لا يستطيع وصف جمال المكان وجودته » ، ولكنه يمتاز من غيره بأنه لم يحاول قط ان يُدهش ، وان يضخم ما يراه ، وان يعظم قدر نفسه . انه يبحث عن المعلومات التي يفيد نقلها ، فيذكر عن المدن عدد بيوتها ، ومساجدها ، والأحداث البارزة في تاريخها ، ومنتوجاتها التي يراها في الأسواق ، وازياء ملابس اهلها ، وصورة صحيحة عنهم ، وعاداتهم . ويكمن سحر روايته ، في دقة الملاحظة وصحتها ، وفي ما تتسم به من واضح الوصف ومحكمه ، هذا عدا عما في مغامراته من لذة النسق الروائي الخيالي .

لقد غادر البندقية سنة ١٥٠٣ فبلغ القاهرة ، ثم بيروت ، فطرابلس ، فحلب ، واخيراً دمشق حيث أقام مدة لتعلم العربية . وتعرّف في مصر وفي سورية إلى المماليك ، اولئك الجنود الذين كانوا يقومون بمهام الشرطة لحساب السلطان التركي . وكانوا في الحقيقة من الأسرى المجريين ، والفالاشيين ، والصربيين ، والبلغاريين ، وغيرهم من الأوروبيين الالمان ، والقطالانيين ، والصقليين ، والايطاليين ، الذين كانوا يُنقلون الى مصر بعد ان اعتنقوا الاسلام . وكان هؤلاء الجنود بما عرف عنهم من عدم اكتراث بالواجبات الدينية ، وروح الفوضى ، والرغبة في المشاكسة قد استثاروا احتقار المسلمين وكرههم . ويروي لنا دي فارتيما نفسه السلوك الفاسق

الذي كانوا يسلكونه تجاه نساء دمشق .

ولكي يحقق دي فارتيما رغبته في رؤية اشياء جديدة ، لم يجد افضل من التعرف الى ضابط من ضباط المماليك ، عهد إليه والى ستين من رجاله بحراسة قافلة حجاج متجهة الى مكة مؤلفة مما يقارب خمسة آلاف شخص ، وخمسة وثلاثين ألف جمل ، ومرافقته في الذهاب والاياب ، فقبل الضابط ، وأصبح دي فارتيما من المماليك (بقوة المال واشياء أخرى .. كنت أعطيه إياها) .

لذا فقد قدّر له وذلك إذا صح على جانب عظيم من الأهمية ، أن يتعرف الى مدينتي الإسلام المقدستين ، وقبر النبي ، وحرم الكعبة ، وأعظم شعيرة من شعائر الدين الإسلامي وهو الحج .

فقد بلغ ، في المرحلة الأولى من الرحلة ، الى مزيريب في حوران . وكانت هذه المنطقة المتاخمة للمناطق الزراعية والمتحضرة ، دائمة التعرض لغزوات بدو الصحراء . وكان الرومان قد اضطروا الى إنشاء حدود محصنة لإيقاف هذه الغزوات .. وقد أدرك دي فارتيما الذي بقي ثلاثة ايام في مزيريب كل الادراك ، طباع البدو الذين التقى بهم لأول مرة ، والأحوال السائدة في منطقة الحدود هذه ، فكتب يقول : « عندما يحين موعد جمع المحاصيل الزراعية ، يراهم الناس في الصباح الباكر على مقربة من المدينة التي يجدون فيها الحنطة والشعير مدروسين ، نظيفين ، رغم اعتقاد الناس في الليل السابق انهم على بعد مائة ميل من المدينة ، فيملأون اكياسهم ويذهبون بها ، ويحدث لهم أن ينطلقوا ليلة ونهاراً كاملين على صهوات الخيل دونما استراحة ، وعندما يصلون الى بيوتهم يسقونها حليب النوق البارد المرطب ، ويبدو كأن هذه الخيول تطير كالبزاة

« واعلموا ان معظم هؤلاء الناس — ما عدا زعماءهم — يركبون الخيل بلا سروج ، ويرتدون نوعاً من القمصان . وجهاز حربهم رمح من القصب

المنـــدي يتراوح طوله بين عشرة أشبار واثني عشر شبراً ، وينتهي في طرفه بقطعة من حديد . وإذا ما أرادوا ان يقيموا سباقاً رأيتهم لاصقين بمتون خيلهـم ، خفاف الحركة كأن بهم نشوة ، قصار القامات ، سمر الوجوه ، صوتهم شبيه بصوت النساء . وعـددهم كبير الى درجة يتعذر معها تقديره ، والمنازعات والحروب تظل قائمة بينهم . وهم يسكنون الجبال ، وعندما يسمعون بمرور قافلة باتجاه مكة ، يأتون للتصدي لهـا وسلبها ، وينقـــلون امتعتهم ونساءهم واولادهم وخيـامهم على ظهور الجمال ، بيوتهم شبيهة بخيام المحاربين ، وهي مصنوعة من الصوف الخشن ».

وقد اختبر مع القافلة الممر القسري المرهق لبلوغ احد الآبار ، اثناء اجتيازها منطقة قاحلة ، حيث قضى ثلاثون شخصاً نحبهم عطشاً ، وحيث تُرك عدد من المحتضرين على جوانب الطريق ، وقد دفنوا في الرمال حتى الأعناق .

ولم يكن دي فارتيما ليعرف ان القافلة كانت تجتاز آنذاك « النفود » ، وهو جزء من الصحراء يمتد عرضاً في شمالي شبه الجزيرة العربية . وقـد اضطرت القـافلة ايضاً الى الوقوف في وجه البدو الذين كانوا يحاولون تقاضي بعض المال عن المياه المستقاة من آبارهم ، أو غزو القافلة . وكان المماليك يُبدون شجاعة فائقة في هذه المناسبات ، فلم تفقـد القافلة سوى رجل واحد وامرأة واحدة .

ولم يورد دي فارتيما في كتابه اسماء المواقع المختلفة التي مرت بهـــا القافلة مكتفياً باسم مزيريب نقطة الانطلاق ، وباسمي مكة والمدينة اللتين كانت القافلة تقصدهما .

ويذكر دي فارتيما ان القافلة بلغت وادي سدوم وعمورة بعد مسير اثنين وعشرين يوماً . ومن الواضح ان ذلك ليس صحيحـــاً لأن هاتين المدينتين تقعان على شاطىء البحر الميت وقـد سبق لدي فارتيما ان اعلمنا انه ليس بالرجل الذي يستقي معلوماته من الكتب . ولكنه يورد هنا

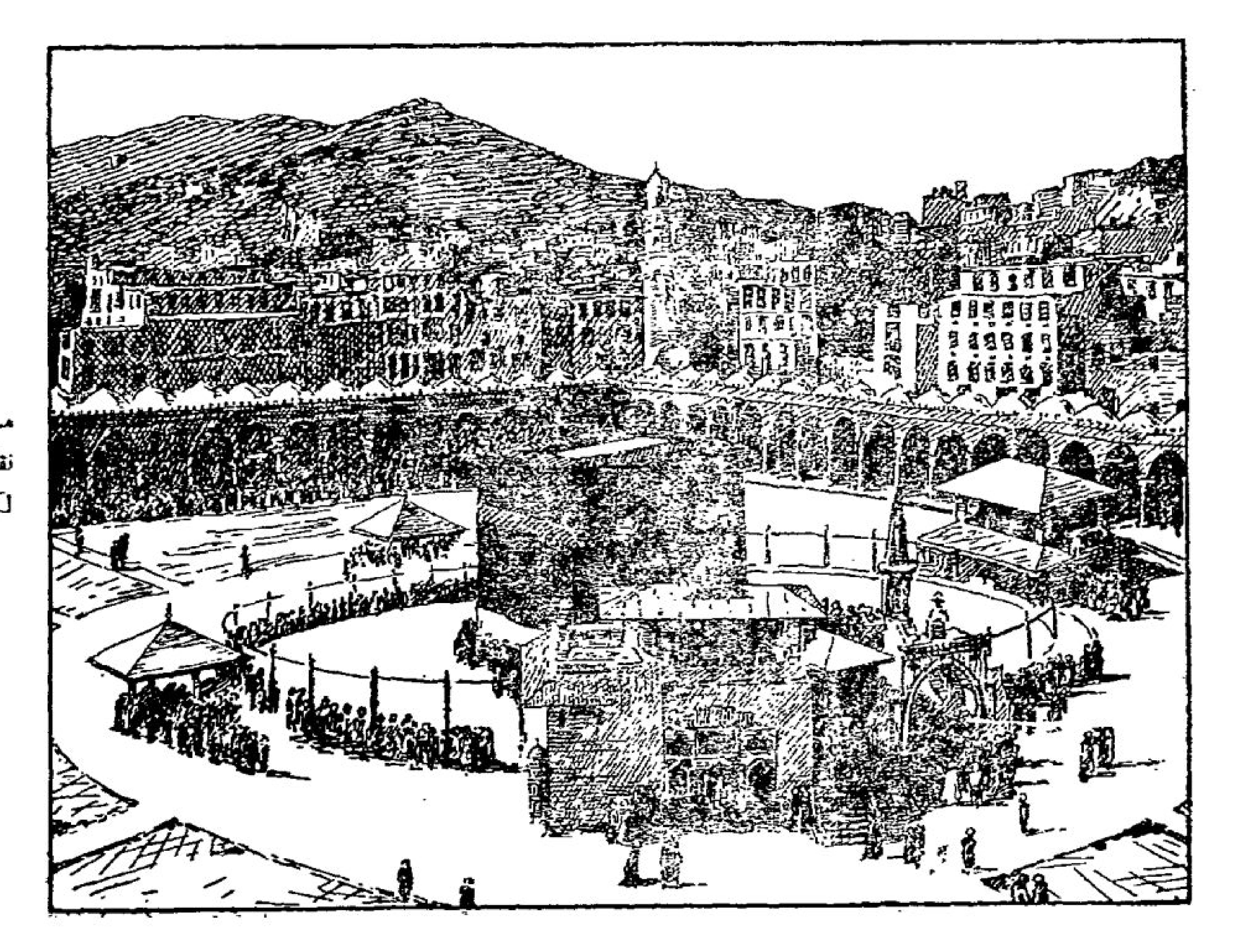
خليطا بما يتذكره من التوراة فيقول ان سكان هاتين البلدتين لا بد ان يكونوا قد ارتكبوا ضروباً من المعاصي ، حتى أنزل بهم ذلك العقاب ، لأن كل ما يحيط بـــذلك المكان من أراضٍ قاحل لا ماء فيه ، ولا ينتج أي شيء . ويضيف الى ذلك قوله : « لقـــد كانوا يعيشون على المن ، وبما انهم لم يعترفوا بنعمة الله ، وبسبب آثامهم الفاحشة ، عاقبهم الله بأعجوبة منه ، ولا يزال المرء يرى اطلال هاتين المدينتين » .

ان في ما كتبه دي فارتيما صدى للعقيـــدة الاسلامية ، فلا يزال المسلمون حتى يومنا هذا ، يعتبرون هاتين المدينتين القديمتين المهدمتين ، كمدينتين لعنهما النبي . ولا شك في ان دي فارتيما قد خلط هذا النوع من الاعتقاد بما تذكره من معاقبـــة العبرانيين في الصحراء لتذمرهم من الرب ، ومن معاقبة سدوم وعمورة .

إننا نظن ، إذا أخذنا بعين الاعتبـار ايام السير المذكورة ، ان المدينتين الواقعتين في ثلاثـة اخماس المسافة ما بين دمشق والمدينـة ، لا يمكن ان تكونا سوى مـدائن صالح والعلا . وقـد مر بهما دي فارتيما متوهماً انهما سدوم وعمورة ، ولم يخطر بباله ان هناك حضارة عريقة في القدم ، لا تزال في حاجة الى من يكتشفها .

ومر بسفح جبل يراوح محيط دائرته بين عشرة اميال واثني عشر ميلاً ، فكتب : « هنـاك يسكن اربعـة او خمسة آلاف يهودي ، وهم عراة تماماً ، يراوح طول الواحد منهم بين خمسة وستة أقدام ، اصواتهم شبيهـة بأصوات النساء ، لونهم أميـل الى السواد منه الى السمرة ، لا يأكلون الا لحم الغنم ، ولا شيء لديهم غيره . وهم مختونون يجهرون بيهوديتهم . وعندما يتمكنون من إلقـــاء القبض على احد المسلمين ، يسلخون جلده حياً » . وأغلب الظن ان هؤلاء اليهود إما ان يكونوا عشيرة خيبر او عشيرة دغتي ، الذين شهدوا أياماً عصيبة في القرن التاسع عشر .

واخيراً بلغ دي فارتيما المدينـــة . وكان يُظن في اوروبة ان جثمان



مسجد الكعبة في مكـــة
نقلاً عن صورة فوتوغرافية :
لكراجفكي في المجلة الجغرافية
الوطنية .

النبي محمد معلق في الفضاء في البيت الحرام بمكة . فكان لفارتيما الفضل في تصحيح هذا الاعتقاد الخاطيء إذ رأى بالفعل قبر النبي في المدينة .

وصف المسجد بأنه مربع ، ينتصب فيه اربعماية عمود ابيض من الحجر المحرق ، وذكر أنه رأى فيه ما يقارب الثلاثة آلاف مصباح كلها موقدة دائماً ، وفي أحد أركانه برج مربع مكسو بالحرير منطلق بأعراش من النحـــاس ، يُدخل إليه من باب صغير ، يرى على كل جانب من جانبيه ما يقارب العشرين كتـــاباً من كتب سيرة النبي ، وأحاديثه ، ووصاياه ، وأعمال عظماء المسلمين المدفونين فيه ومآثرهم ، وهو يضم في الحقيقة : قبر النبي والخليفتين أبي بكر وعمر ، ويذكر دي فارتيما ان هـــذا البرج يضم ايضاً ، قبور علي وعثمان وفاطمة بنت النبي . ومن الواضح أنه قد أخطأ من قال له ذلك فيما يختص بالإمام علي ، أما فاطمة فلا يعتقد بدفنها هناك إلا الشيعة ، وأما عثمان فقبره في مدفن آخر من مدافن المدينة .

ويقول دي فارتيما انه لم يرَ وأصحابه وهم ذوو عقول راجحة ، الأنوار التي يؤكد المسلمون انهم يرونها تنبعث ليلًا من قبر النبي .

على ان دي فارتيما أحسن دون ما تحيز وصف الشعائر التي كانت تمارس في مكة ، وأعجب بالمدينة المقدسة المحاطة بالجبال . وذكر أن الأراضي التي تقع حولها قاحلة ، وان المواد الغذائية تأتيها من القاهرة عن طريق ميناء جدة الواقع على البحر الأحمر ، ومن بلاد الهند وبلاد فارس وسورية ، وانه يردها كميات كبيرة من الجواهر والأفاويه من بلاد الهند وبلاد الحبشة ، وكميات كبيرة من منسوجات القطن والكتان والحرير من بلاد البنغال ، وان تجارة الجواهر ، وأصناف الأنسجة الحريرية والقطنية ، في هذه المدينة المزدحمة بالناس ازدحاماً لا مثيل له في أي مكان آخر ، ناشطة نشاطاً لم ير مثله في حياته ، وان العطور تباع بالجملة تحت قبـاب المسجد الكبير ، بينما تباع الجواهر بالقرب من بابه .

يُعرف بما كتبه بوركهاردت ان الكعبة ، قدس أقداس مكة ، وقد أعيد بناؤها كلياً سنة ١٦٢٧ . أما دي فارتيا فقد رآها في حالتها القديمة . وقد ذكّره المسجد المستدير ، الرائع كل الروعة ، بمدرج الكوليزيه في رومة . وفي فسحة مكشوفة في وسطه ، برج صغير يقدر كل من جوانبه بما يراوح بين خمس وست خطوات ، أحيط بنسيج من الحرير الأسود هو الكعبة . ويمكن الدخول إلى الكعبة من باب من الفضة ، يقع أسفله على ارتفاع قامة رجل ، وقد وضع على كل من جانبيه إناء مليء بالعطر . وترى حلقة ضخمة في كل ركن من أركان البرج .

ويروي لنا رحالتنا كيف ان الجميع ، قبل بزوغ شمس الثالث والعشرين من شهر ايار (مايو) أخذوا يطوفون حول الكعبة مقبلين زواياها ، وبعد الفراغ من ذلك ، جعلوا يقتربون من بئر « زمزم » التي تقع على بعد اثنتي عشرة خطوة منها ، وهم يسيرون القهقرى . وفيما يستغفر المؤمن الله بصوت مرتفع يلقي على رأسه ثلاثة أسطل من الماء ليبتل حتى اخمص قدميه ، لا يستثنى من ذلك احد ولو كان مرتدياً ثوباً من ذهب ، لأن ماء هذه البئر يعد مطهراً للخطايا ، ويتوجه الجمهور بعد ذلك إلى أسفل جبل « منى » لتقديم الأضاحي ، فيقوم كل مؤمن بنحر عدد من الخراف يتراوح بين اثنين وخمسة ، ويحتفظ بشيء من لحمها لاستعماله الشخصي ، ويوزع ما تبقى على الفقراء ، والفقراء كثيرون ، يتنازعون لا اللحم فحسب ، بل قشور الخيار التي تلقى اليهم على الرمل .

وفي اليوم التالي بعد ان يقوم الحاج بإعلان التوبة ، يسرع الجميع بالعودة إلى البلدة . ويلاقون في منتصف الطريق جداراً كوّمت في أسفله كمية من الحجارة الصغيرة ، على كل واحد ان يقوم برمي احداها كأنه يرجم بها عدواً غير منظور .

ويشرح دي فارتيا هذه الشعيرة الدينية فيقول إنها رمز لطاعة اسحق ، ودليل على الرغبة في الاقتداء بها . فقد جاء في التعاليم الاسلامية ،

أن الشيطان حاول إقناع إسحق بعدم اللحـــاق بأبيه ابرهيم العازم على التضحية به ، فطرده اسحق مرتين ، وفي المرة الثالثة رجمه بالحجارة لكي تتم مشيئة الله .

ويـــذكر دي فارتيما ايضاً ان الحمام يغزو مكة ويحدث اضراراً جسيمة ، ولكن ما من احد يقـــدم على قتل حمامة واحدة ، لأنهم يعتقدون أنها تتسلسل من الحمامة « التي كانت تكلم النبي محمداً بوصفهــا الروح القدس » .

ويذكر لنا اخيراً ، انه رأى في احد جوانب المسجد وحيدي قرن حين كانا قد أهديا الى سلطان مكة . وتبدو هذه الرواية من قبيـــل الخرافات ، وأن لا أساس لها من الصحة ، ولكنها ليست كذلك لأن من المؤكد ان وحيد القرن موجود في غابات بلاد الحبشة الكثيفة .

★

كانت اوروبة مزمعــة إذن ، منذ ذلك الحين فصاعداً ، أن تعرف شيئاً ، ولو مختصراً ، عن كيفية تأدية فريضة الحج الشاقــة ، الحج الذي هو من أركان الدين الإسلامي ، ويجعــل من المؤمن مسلماً حقيقيـــاً جديراً بالجنة .

ومما يثير الإعجاب موضوعيـــة الرحالة ، الذي يلاحظ للمرة الأولى شعائر مجهولة ، والذي يحسن السؤال ، وفهــم المعنى الروحي لمناسك الحج .

وقـد كان مزمعاً ان يطلع مواطنيه على مجـالي جزء آخر من بلاد العرب ، بعد ان أطلعهم على الجزء الصحراوي منهـــا ، وعلى المدينتين المقدستين . وما هذا الجزء إلا العربية السعيدة .

لم يفكر رحالتنـا المملوك قط بالعودة مع القافلة إلى دمشق ، وفيما كان يشتري ذات يوم بعض البضائع لرئيسه ، اتهمه احد النـــاس بأنه

ليس مسلماً ، وعبثاً أقسم « برأس النبي ... » انه مسلم ، واضطر الى مرافقة متهمه الى منزله للتفاهم معه . وحين دخل المنزل أفهمه متهمه ، باللغة الإيطالية ، أنه سبق له أن قام بزيارة لايطاليا ، وانه رآه هناك . فشرح له دي فارتيما أنه أسلم في القاهرة ، وأصبح من المماليك . فسر متهمه المسلم بذلك ، وأحاطــه بالإكرام والاحترام . ثم دار الحديث بينهما عن شؤون الساعة ، فعلم دي فارتيما ان السبب في تناقص تدفق الثروات في تلك السنة على البلاد عما سبقها من السنين ، عائد الى ان مراكب ملك البرتغال كانت قد اخذت تصل المحيط ، وتبلغ حتى خلجان فارس والعربية .

كان ذلك ، في الواقع ، سنة ١٥٠٩ . وكان الملاحون البرتغاليون قد توغلوا في رحلاتهم الاستكشافية طوال ساحل إفريقية الغربي ، الى درجة ان فاسكو دي غاما ، أفلح بين سنتي ١٤٩٧ و ١٤٩٩ في الدوران حول رأس الرجاء الصالح . وبتجاوزه الطرف الأقصى من شبه الجزيرة الأفريقية: ألفى نفسه في المحيط الهنـدي ، وبصعوده ، بحذر كلي في بادىء الأمر ، الساحل الافريقي الشرقي ، بلغ الشواطىء العربية .

وهكذا ، فيما كان دي فارتيما يتعلم العربية في دمشق ، كان فاسكو دي غاما ، من جهة الجنوب يساير السواحل العربية . وعندما علم دي فارتيما بذلك تظـاهر بالاستياء الشديـد وبالعداء نحو النصارى ، وطلب من صديقه المسلم ان يساعده على التخلص من القافلة ، ومن وجوده في سلك المماليك ، ليتمكن من التوجه الى ملوك الجنوب ، أعـداء البرتغاليين ، وتعليمهم صنع المدافع . واتفقـا على خطة . وبينما كان رنين الأبواق يتعالى داعياً المماليك الى الالتحاق بفرقتهم ، وصوت المنـادي ينذر المتخلفين بعقوبة الأعدام شنقاً ، كان دي فارتيما مختبئـاً في شقة الحريم الخاصة بزوج التـاجر المسلم وابنة أخيه ، مستودعاً الله روحه ، مذعوراً كل الذعر من ذلك الانـذار . واخيراً هدأ روعه برحيل القافلة ، وأحاطته

زوج مضيفه وابنة أخيه الفاتنة بفائق العناية ، وأسلمتاه ، حسب توصية رب البيت ، الى قافلة متجهة الى مصر عن طريق ميناء جدة .

ولم يكد يبلغ جدة ، حتى أمّ المسجد ، واستلقى فيه ارضاً متظاهراً بالمرض ، وبقي فيه اربعة عشر يوماً لا يخرج منه إلا ليلًا لشراء الطعام . واخيراً ، وجد سفينة متجهة الى بلاد الفرس فركبها بعد ان تدبر أمره مع قبطانها .

ويتحدث دي فارتيما عن الصخور القريبة من وجه الماء ، وعن الصعوبات التي تتخلل الملاحة ما بين جدة وجزيرة قمران ، وعن البدو العراة ، الذين يرجمون بحجارة مقاليعهم ، من ينزل من الرجال ليشتروا لهم طعاماً ، وأخيراً عن دخوله الى ميناء جيزان الجميل الذي عدّ فيه خمساً واربعين سفينة ، وأدهشه ان في البلدة عنباً ، ودراقن ، وسفرجلاً ، وتفاحاً ، ورماناً ، وليموناً ، وبرتقالاً ، في وفرة جديرة بالجنة .

ورأى في جيزان ايضاً كميات وافرة من اللحم ، والحنطة ، والشعير ، والذرة البيضاء التي يصنع الأهلون منها خبزاً ممتازاً . وذكر ان الناس يمشون شبه عراة ، ولكنهم يعيشون كمسلمين .

وأخيراً وصلت السفينة التي كانت تمخر على محاذاة سواحل باب المندب الى ميناء عدن . ويقول عنها دي فارتيما انها اشد مدينة سهلية تحصيناً رآها في حياته ، ترتفع الجبال على جانبيها ، والأسوار على الجانبين الآخرين منها . تشرف عليها خمس قلاع ، ويقدر سكانها بخمسة أو ستة آلاف بيت . وترسو السفن في مينائها في أسفل احد الجبال ، ويرتفع في أعلى هذا الجبل حصن منيع . والحر فيها شديد الى درجة ان السوق تقام فيها في الساعة الثانية بعد منتصف الليل . والسفن التي ترسو فيها تأتيها من بلاد الهند ، والحبشة ، وبلاد فارس ، ولا تكاد السفينة تدخل ميناءها ، حتى يقبل ضباط السلطان يسألون عن نوع البضائع التي تحملها ، والبحارة الذين على ظهرها ، ثم ينتزعون أشرعتها

ودفنها ليتأكدوا من انها لن ترحل قبل تأدية الضريبة المتوجبة للسلطان .

كانت سفن البرتغاليين تطوف المحيط ناشطة امام عدن في سنة ١٥٠٤ ، وكان انطونيو دي صولدانيا قد اكتشف جزيرة سقطرى سنة ١٥٠٣ . ولما نزل دي فارتيا في عدن كان الناس يشعرون بخطر البرتغاليين ، لذلك لم يكد احد رفاقه ، لسوء طالعه ، يوجه اليه شتيمة ، وكانت هذه الشتيمة توجه عادة الى الكفار ، حتى اتهم بأنه نصراني يتجسس لحساب البرتغاليين ، وألقي القبض عليه ، وسيق في اليوم ذاته الى قصر السلطان كي يعدم . وقد تأخر تنفيذ الاعدام به لغياب السلطان . وفي اليوم الثالث وصل الى عدن خمسون أو ستون مسلماً هربوا سباحة من السفن التي وقعت في ايدي البرتغاليين ، وهجموا على قصر السلطان يريدون قتل دي فارتيا ورفيقيه السجينين معه ، ولكن حارسهم انقذهم بإغلاق الباب في وجوه المهاجمين .

وبعد انقضاء خمسة وستين يوماً سيقوا الى روضة ليمثلوا امام السلطان الذي كان منهمكاً باستعراض الجيوش التي يستعد لارسالها لمحاربة سلطان صنعاء التي تبعد عن روضة مسيرة ثلاثة ايام . ولم يحل انشغال بال دي فارتيا بالمصير الذي سيؤول إليه دون ملاحظته الجيش ، وتعداده . فقد رأى ان الثلاثة آلاف جندي المؤلفة منهم فرقة حرس السلطان من اصل الثمانين ألفاً الذين يتألف منهم ألجيش كله ، كانوا أحباشاً تم شراؤهم في الثامنة من عمرهم ، ودربوا على القتال ، مسلحين برماح يحملونها باليد وسيوف قصيرة عريضة ، يحمل كل منهم مقلاعاً لف حول رأسه لإلقاء الحجارة ، وضع بينه وبين الرأس عود من الخشب يدعونه مسواكاً ينظفون به اسنانهم . يرتدون ثياباً من نسيج أحمر او ملون بلون آخر ، فوقها سترة قطنية تقيهم ضربات الأعداء . ويجعلون لهم ، عادة ، حتى الأربعين او الخمسين من عمرهم ، قرنين مصنوعين من شعرهم ، ويشبهون

الجداء . ويذكر دي فارتيا ان خمسة آلاف جمل ترافق الجيش .

وهنا تبدأ بالنسبة إليه ، مرحلة تجارب . فحين استعلمه السلطان امره ، أفاد بأنه مسلم ، ولكن حين طلب إليه ان يؤدي الشهادتين ، أرتج عليه ، ولم يعرف ان يتفوه بكلمة واحدة ، وهو يقول انه لم يعرف ما اذا كان ذلك خوفاً من العقاب ، ام مشيئة من الله سبحانه وتعالى . فألقي في السجن ، وقيد بالسلاسل الحديدية ، ولم يعطَ إلا رغيفاً من خبز الذرة صباحاً وآخر مساء .

ولكي يتيح احد الثلاثة فرصة الهرب لرفيقيه ، تم الاتفاق فيما بينهم على ان من تقع القرعة عليه ، يجب ان يتظاهر بالجنون وقـــد وقعت القرعة على دي فارتيا .

ويدعي ان الملكة رأته من نافذتها ، وهو يقوم بضروب من الشذوذ ، فرقت لحاله لا سيما وان بيـاض بشرته أثـّر فيها كل التأثير . فكان يتلقى الضربات صامتاً ليجيد تمثيل دوره ويستعجل مناسبة الهرب لرفيقيه ، ومن جهـة اخرى كان ينال ما يغدقه عليه سراً حسن التفات الملكة ووصيفتيهـا . ويزعم رحالتنا انه رفض النزول عند رغبة الملكة وتحقيق امنيتهـا بأن تحمل منه جنيناً أبيض البشرة ، خشية ان يظل محتجزاً ، ولو محظياً ثرياً ، إذ لم يكن له سوى امنية واحدة وهي استعادة الحرية والاستزادة من المعرفة .

وقد أخرجته الملكة من السجن ، وظل مدة في القصر ، ثم تمارض واستأذن الملكة بالذهاب لاستشارة ولي من أوليـاء الله يقيم في عدن ، لعله يشفيه ، فوافقت الملكة على طلبه ، وشفي من مرضه طبعاً ، وقام بزيارة عدة مدن بإذن من القصر .

ومر بلحج ، وصنعاء ، وتعز ، وذمار التي نتبينها بسهولة ، ولكنه ذكر ايضاً امكنة يصعب التحقق من هويتها : دمتة (دمنه ؟) والمقارنة

(المقرنة) وديولم (هل هي ريمة أم يريم ؟) واياز (حيس[1] ؟) .

لقد لاحظ هذا النوع من الأغنام التي تحدث عنها هيرودوت في القرن الخامس من قبل الميلاد ، التي تزن إلية الواحدة منها حتى الأربعين ليبرة ، والتي تبلغ من السمنة درجة تجعل سيرها عسيراً . ورأى منطقة دمنة القاحلة التي يسكنها قوم فقراء ، ولكنه وصف سوق إياز[2] التي تردها كميات من الأفاويه والأقمشة القطنية والحريرية ، والثمار الممتازة ، كالعنب ، والدراقن ، والسفرجل ، والتين ، والجوز ، والعنب الممتاز . وذكر ان جبلين متقابلين تعلوهما قلاع حصينة يطلان على المدينة . ولم يستطع دي فارتيا أن يفهم طبيعة الخصومة ما بين سكان الجبلين ، فهم جميعاً يؤمنون برسالة النبي محمد ، ولكنهم ، رغم ذلك يقتتلون فيما بينهم بعنف ، والواقع ان هذه الخصومة ناشئة عن خلاف مذهبي ما بين الطائفة السنية والزيديين الذين لا يعترفون بالخلفاء الثلاثة الأول كخلفاء شرعيين للنبي محمد ، والذين يتزعمهم آغا خان[3] .

ان ياقوت الجغرافي المسلم يذكر ان « المقرنة » قلعة في اليمن ، ولكن دي فارتيا يقول انها مدينة جميلة جداً ، واقعة على هضبة مرتفعة ، يصعد إليها من طريق لا يستطيع اثنان ان يسيرا فيها جنباً الى جنب ، هواؤها ممتاز ، ومعظم سكانها من البيض ، وهي تنتج كثيراً من المحاصيل الغذائية ، وتكثر فيها مياه الصهاريج ، وفي هذا المكان الستراتيجي الرائع يخفي السلطان كنزه من الذهب ، ذلك الكنز الذي يعجز اكثر من مائة جمل عن حمله ..

ويعجب دي فارتيا بأسوار صنعاء الضخمة ، عاصمة اليمن حالياً ،

---

١ و ٢ – لعلها سرياز .

٣ – يتزعم آغا خان الإسماعيليين في سورية أما في شبه الجزيرة العربية فتتبعه فئة قليلة يدعون الباطنية – ليسوا من الزيدية – ويقيم بقاياها في حراز ونجران .

ووفرة ثمارها ، وكثرة ينابيعها ، وبساتينها ، وكرومها ، وتبدو له تعز مدينة قديمة جداً ، بمسجدها الذي يذكّره بكنيسة السيدة مريم المستديرة في رومة ، وقصورها الرائعة ، ويقول انهم يصنعون فيها كميات وفيرة من ماء الورد .

ويصف زبيد الواقعة على بعد مسيرة نصف يوم من البحر الأحمر بأنها مدينة تجارية ممتازة ، تباع فيها كميات من السكر والفواكه ، وتباع فيها ايضاً مقادير كبرى من الأفاويه المستوردة من بلاد بعيدة .

ويعود اخيراً الى عدن ، حيث يتمارض من جديد ، وينام في المسجد حتى يقيض له قبطان سفينة يوافق على إيصاله الى بلاد الحبشة . وبعد أن يمكث فيها فترة قصيرة من الزمن ، يبحر الى بلاد الفرس ، ومنها الى بلاد الهند ، مقاوماً إغراء زواج عرض عليه ، ووعوداً بإغداق الثروات الطائلة عليه ، مجيباً الصديق الذي حاول بذلك استبقاءه : « اعلم انني لا اطوف العالم سعياً وراء الكسب والاثراء ، بل مدفوعاً بدافع الميل والاطلاع . »

لقد كانت خاتمة رحلته سبباً لأكثر ما اكتسبه من الشهرة . وفعلاً ، عندما كان في كلكته في بلاد الهند ، كان البرتغاليون الذين شادوا حصناً في جزيرة سقطرى قد تمكنوا من السفر منها مباشرة الى سواحل الهند ، وقد علم انهم استوطنوا كانونور ، واخذوا يشيدون فيها قلعة . فتمكن من اللحاق بهم في الثالث من كانون الأول (ديسمبر) من سنة ١٥٠٥ دون ان يستثير الشبهة . وحذر نائب ملك البرتغال من الهنود الذين كانوا يتأهبون لمحاربته ، وقد تسلحوا تسليحاً قوياً بالمدافع التي كان جنديان برتغاليان هاربان قد صنعاها لهم . وأهلته الشجاعة التي برهن عنها في المعارك التي نشبت فيما بعد ، لأن ينعم عليه ملك البرتغال دون مانوئيل برتبة فارس عام ١٥٠٨ .

وعاد من لشبونة الى رومة ، فأثابته جامعة البندقية على روايته

المدهشة المليئة بالأحداث ، واكتسب في رومة حماية أسرتي كولونا وسفورزا العظيمتين ، وكذلك حماية الكاردينال كارفاجال الذي موّل ترجمة مؤلّفه الى اللاتينية .

على ان خاتمة حياته مجهولة مثل بدايتها ، ولا يمكننا الا ان نفترض افتراضاً أنه توفي ما بين سنتي ١٥١٢ و ١٥١٧ .

ويضم كتاب دي فارتيما خارطة تظهر فيها شبه جزيرة العرب كما رسمها بطليموس وهي ممدودة عرضاً في الجهة الجنوبية بصورة غريبة .

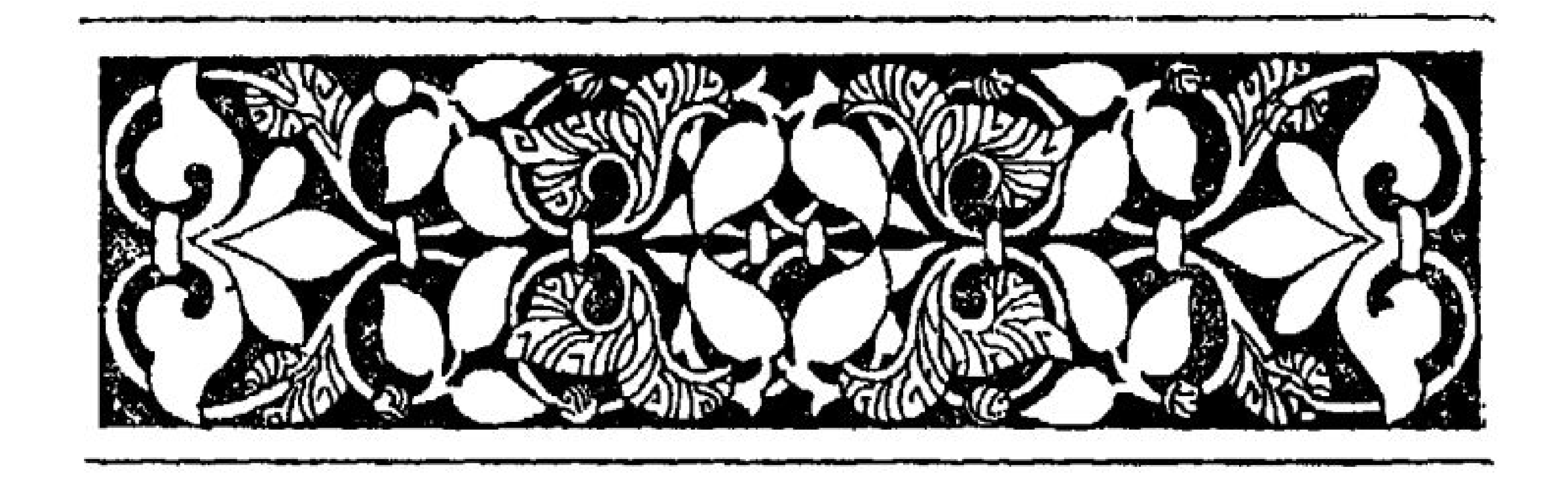
لقد أعطى مواطنيه ، وصفاً مقتضباً ، ولكن صحيحاً ، لما تمتاز به شبه الجزيرة العربية وفي الدرجة الأولى : مدينتاها المقدستان موطنا النبي محمد ، والحج إليها ، ومفارقة جغرافية بين العربية القفراء في الشمال ، والعربية السعيدة في الجنوب ، وتجارتها مع الهند والحبشة ، وبلاد فارس ، ومصر ، ومنتوجاتها من العطور ، وسكانها من البيض والأرقاء السود ، وحضرها وبدوها .

لم يكن ما اكتسبه من معرفة ، علمياً بل كان موضوعياً ، ودقيقاً الى أقصى درجة ممكنة ، لا سيا وقد صدر عن رجل لم يكن يملك أية وسيلة للاستعلام سوى عينيه وذكائه : وقد أحسن دي فارتيما استخدام كليهما معاً .

وكان كل شيء ما يزال بعد في حاجة الى أن يكتشف ، ولكن ذلك لم يعن ان هذا القدر الذي اكتسب من المعلومات لم يكن تلقيناً صحيحاً .

الجزء الثاني

رواد مصادفة



الاسرى

سيكون القرن السادس عشر كلياً عصر السيادة البحرية البرتغالية على البحور الساحلية لشبه جزيرة العرب ، حتى تؤسس شركات الهند الهولندية والانكليزية في أوائل القرن السابع عشر ، فيكون ذلك ايذاناً بالصعوبات التي ستعترض السيطرة البرتغالية بل بأفول نجمها .

كان البرتغاليون يأملون بعد افتتاح الطريق البحرية الى الهند ، مروراً برأس الرجاء الصالح ، أن يحوّلوا إليها لمصلحتهم المتاجرة بمنتوجات بلاد الهند . وكانت هذه المتاجرة تتم فيا مضى عن طريق بلاد العرب ، والخليج العربي ، والبحر الاحمر ، الى الموانىء التركية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط ، بطريق برية بحرية مشتركة . فكان البرتغاليون اذن يهدفون الى سد مداخل الخليج العربي والبحر الأحمر ، كي يتم نقل البضائع بوساطتهم من وكالاتهم التجارية المنشأة على السواحل الهندية والعربية الى لشبونة .

وقد رأينا ان الخطوة الأولى التي قاموا بها هي التركز في كلكته على الساحل الهندي . ومن هنالك ، قرروا القيام بمراقبة حركة النقل التجارية في الخليج العربي . فشيدوا حصناً في هرمز ، وآخر في البحرين ، وثالثاً في عمان على طرف شبه جزيرة العرب . وكان لا بد ، بعد ذلك

من التأكد من مدخل البحر الأحمر ، لذا فقد ظهر اسطول برتغالي سنة ١٥١٣ أمام عدن بقيادة الفونسو دي البوكرك . وقد قام هذا الاسطول بمحاولة هجوم عند الفجر . ولكن الميناء المحاط بأسواره المنيعة أبدى مقاومة شديدة . وكان ألفونسو دي البوكرك قد رسم خطة يحاول فيها الاستيلاء على جثمان النبي محمد في المدينة ، وطلب كنيسة القدس فدية له . فلما أخفق في هجومه على عدن صعد البحر الأحمر ثانية ولم يقم بمحاولة اخرى غير الاستيلاء على بعض السفن . وقد اكتفى البوكرك ، فيما بعد ، بفرض المراقبة على مدخل البحر الأحمر بين طرفي رأس الفرتك ورأس غردفوي .

اتخذ البرتغاليون مراكز في مسقط على الساحل الجنوبي في صحار ، ومطرح ، وقريات .

ومن الطبيعي ان هذه السياسة التجارية الهادفة الى تقوية حركة النقل التجاري بحراً باتجاه لشبونة ، على حساب الموانىء التركية في الشرق ، سببت لهم معاداة الاتراك ، الذين ما كادوا يستولون على مصر ، حتى وجهوا تباعاً حملتين بحريتين (١٥١٩ و ١٥٣٨) لمحاربة البرتغاليين في المحيط الهندي . ولكن النتيجة الأولى والأخيرة التي حصلوا عليها ، كانت الاستيلاء على اليمن التي بلغوها عن طريق ساحل البحر الأحمر ، في كلتا الحملتين .

ومهما يبد الأمر غير متوقع ، فقد أفاد الغرب من الحملة التركية في سنة ١٥٣٨ ، الحصول على قصة هذه الحملة مع وصف مختصر للطرق التي سلكتها في البحر الأحمر وفي اليمن ، بقلم أحد ابناء البندقية . فقد كان الأتراك ، محتاجين بالفعل ، إلى فنيين في الملاحة لحملتهم هذه ، فأسروا في ميناء الاسكندرية ، بحارة سفينة بندقية ، ولم يخلوا سبيلهم الا عند عودتهم منها . وقد نشرت قصة هذا الكاتب المجهول منذ سنة ١٥٤٠ في مجموعة ايطالية لقصص الرحلات .

كان الأتراك قد استولوا في اليمن ، على العاصمة صنعاء ، وعلى المدن الرئيسية فيها ، وكانوا مسيطرين على طرق المواصلات الكبيرة عبر البلاد . ولكن بعض المناطق كانت ما تزال معادية للاتراك ، ميالة الى البرتغاليين . وظلت عدن حتى سنة ١٦٣٥ ، خاضعة للرقابة التوركية (باستثنـــاء فترة العصيان الذي أعلنه العرب عليهم سنة ١٥٤٧) . ولكن على طول الساحل كانت تتعاقب سلطنتا الشحر وظفار التابعتان قانونياً لباشا صنعاء ، وبينهما سلطنة قشن التي كانت تتبعها جزيرة سقطرى . وبمـا ان البرتغاليين كانوا يكتفون بالحصول على قاعدة بحرية في سقطرى كانت هـذه السلطنة ميالة إليهم . وكانت عُمان تحتوي عدة قلاع برتغالية .

وكان البرتغاليين ، عدا عن أهدافهم التجارية ، رغبات في القيام بحرب صليبية ، أو بحملة تبشير . وقد وجهت جهود التبشير الى بـلاد الحبشة ، ومن ثم منشأ رحلات الاستطلاع العديدة الموجهة إلى ساحل البحر الأحمر الغربي بين سنة ١٥١٥ وسنة ١٥٢٨ .

ولكن حاكم الهند البرتغالي الدون استيفاو دي غاما ، قـام برحـلة ارتياد حقيقية إليها سنة ١٥٤١ ، اصطحب فيها الدون جواو دي كاسترو الضابط والرياضي والعالم الفذ ، لذا فقد كان الكتاب الذي وضعـــه باسم « روتيرو » أول مؤلف وضع على أساس الملاحظة العلمية ، والمعلومات الدقيقة التي تمكن رجل غربي من إيرادهـا عن البحر الأحمر . لقد طبـق جواو دي كاسترو في كتابه هذا طرائق جديدة ، ألهمتْه إياها عقليـــة علمية صرفة .

إلا ان هذه المخطوطة القيمة لم تصلنا إلا بعد ان مرت بظروف غريبة . فقد وقعت في يد قرصان انكليزي على ظهر سفينة برتغالية ، فأخذها إلى بلاده وباعها من السيد وولتر واليـــه نحو آخر القرن السادس عشر ، ثم ترجمت الى اللغة الانكليزية ، بعد انقضاء ثمانين سنة على وضعها ، ونشرت سنة ١٦٢٥ في مجموعة انكليزية لقصص الرحلات .

ولم تقم أية مجازفة اخرى على الشاطيء العربي ، غير مجازفـــة لوبو صوارز دي البرغاريا أمام جدة سنة ١٥١٧ ، ومجازفـة روي غونسلافز دي كاميرا الى المخا ، وأدى ذلـك الى معرفة سواحل هـذا البحر معرفة أفضل .

وبما ان البرتغاليين لم يبذلوا أي جهد للتوغل في داخل البلاد ، كان الأسرى وحدهم هم الذين استطاعوا أن يكشفوا الحجاب أمام عصرهم عن بعض نواحي شبه الجزيرة العربية .

كان الأتراك في الواقع ، يستولون على ما أمكنهم الاستيلاء عليه من الأسرى ، ويقبلون الافراج عمن تدفع لهم عنهم فدية مالية هامـة . وكان البرتغاليون بدورهم يبيعون الأسرى الذين يقعون في أيديهم ، كما تشهد على ذلك ، هذه الحادثة الطريفة الجديرة بالذكر ، وهي ان احد الجنود رأى بين الاسرى العرب رجلا يهودياً كان قد انجده ذات يوم ، فسأل القبطان أن يحسم من مرتبه المبلغ اللازم لافتدائه ، وأفرج عنه .

وكان يدخل شبه جزيرة العرب ، ولا شك ، عدد من النصارى ، الذين كانوا قد اعتنقوا الاسلام ، ولكن هؤلاء كانوا يقيمون في بلاد العرب ، ولم يكن للاختبارات التي يقومون بها أية فائدة للغرب .

وتمكن بعض من أوفدوا خصيصاً ، من الاهتداء الى طرق فريدة عبر البـلاد . ولكن لم يزد أي منهم في معرفة عصرهم ببلاد العرب . فـــلا يكفي المرء أن يسافر ، بل عليه أن يلاحظ ويروي . وهذا مـا قام به بعض الأسرى الذين وقعوا في أيدي الأتراك ، فقد اجتاز أحدهم شبـــه الجزيرة من الغرب إلى الشرق ، واكتشف اثنان آخران منهم حضرموت الداخلية وشاهدا للمرة الأولى ، خرائب عريقة في القـــدم ، تشهد على الحضارة العربية ما قبل الاسلام .

وضع قصة الرحـــلة ، التي فرض القـدر على الأبوين اليسوعيين باتز ومونصرات القيام بها ، الأب باتز نفسه ، في كتابه المعروف بتاريخ بلاد

الحبشة ، ولكن هذه القصة التي حفظت في خزائن المحفوظات اليسوعية ، لم تنشر الا في مطلع هذا القرن .

كانت الارسالية التي انشئت في بلاد الحبشة قد تعرضت لمذبحة لم تدع إلا كاهناً واحداً في قيد الحيـاة . فتقرر ارسال الأب مونصرات الطاعن في السن يصحبه الأب بائز ، لتجديد هذه الارساليـة . فأبحرا سنة ١٥٨٩ باتجاه الحبشة ، ولكن سفينتها غرقت في ميـــاه جزيرة خوريا موريا ، فأسرهما العرب الذين يقطنون الساحل واقتادوهما إلى ظفار ، فاتهما بأنهـــما جاسوسان ذاهبان الى بلاد الحبشة لإقناع ملكها بمحاربة الأتراك ، وتقرر سوقهما إلى حضرة ملك البلاد ، وهذا ما سمح لهما بأن يكونا أول أوربيين رأيا مدن وادي حضرموت ، ولكن بعد أية مشقات ؟ فقد أجبرا بادىء ذي بدء ، على السير وراء الجمال ، ثم أركبـا على الجمال بعد أن سال الدم من أقدامهما ، وعجز عن السير الأب مونصرات الطاعن في السن ، واجتازا منطقة صحراوية . ولم يستطيعا ان يأكلا الجراد المقلي الذي قدم لهـــما . وأخيراً ، وصلا ، بعد انقضاء عشرة أيام الى « تريم » حيث هـدد الشعب برجمهما . ولكنهما استقبلا استقبـــالاً اهدأ في « هَينَن » ، حيث مثلا بين يدي « الملك » الذي يقيم في قلعتها . فقامت بمهمة الترجمة بينهــــما وبين الملـــك ، امرأة كانت قد انقذت من الغرق مع ثمانيـة من البرتغاليين ، واعتنقت الاسلام .

وعلى الرغم من ان السلطان كان راغباً في أن يبت في أمرهما بنفسه ، اضطر الى أن يسلم أسياده الأتراك جميع الاسرى . لذلك أرسل الكاهنان الى صنعاء ، بعد أن امضيا أربعة أشهر في حضرموت ، ليمثلا بين يـدي الباشا .

يذكر بائز في وصفه للبلاد ، انها لا تستحق أن تسمى بالعربية السعيدة ، ولكن ما تراه كان يقول لو اجتاز العربية القفراء ؟ يقول بائز إن معظم الأرض بائر ، وان السكان لا يزرعون سوى الذرة البيضاء التي لا تغـل

إلا غلالاً هزيلة ، وأن الجوع ضارب أطنابه في البلاد ، ولكنه ، رغم ذلك ، رأى شعيراً وقمحاً وبلحاً ، وتعرف السجينان كلاهما إلى القهوة ، فقال عنها باثر : « ماء يغلى مع قشرة ثمرة يدعونها البن » لأن سكان جنوبي شبه الجزيرة العربية يستعملون القشرة لا الحب نفسه . ويلاحظ باثر أن من عادات سكان حضرموت بأن يدهنوا شعورهم الأجعد بالسمن . وقد شهد مناحة قامت بها النادبات طوال شهر كامل ، على ابنة السلطان التي امتدت اليها يد الموت . فقال انهن يذررن الرماد على شعرهن مرتين في اليوم ، ويجتمعن على سطح احد المنازل ، وينتظمن في صفين ، ويلطمن صدورهن ، وينتحبن ، ويتعانقن .

أما قبور الفقراء فأكوام من الحجارة في حين تشاد القباب على قبور الأغنياء .

وعند بلوغ تَعِيْنَن المتاخمة للمتلكات التابعة لسلطان الشحر أودع الأسرى في قلعة ، واقيم عليهم حراس فيما كانت الجمال تروى . ثم ساروا في صحراء قاحلة أربعة أيام وأربع ليال . وفي اليوم الخامس بلغوا بئراً أخذوا عندها قسطاً من الراحة . وفي اليوم السادس بلغت القافلة الصغيرة مكاناً يدعى « بلقيس » ، سمح فيه للكاهنين اليسوعيين بالتفرج على أطلال أبنية كبيرة جداً أقيمت بالحجارة التي تحمل كتابات قديمة كان سكان البلاد لا يستطيعون قراءتها . كانت تلك الخرائب ، التي كان سكان تلك المنطقة يدعونها محرم بلقيس ، معبد بلقيس ملكة سبأ . وقيل لباثر أنها أطلال مدينة قديمة عظيمة ، وانه كان لملكة سبأ هناك قطعان كبيرة من الماشية .

وكان الأوروبيون يعرفون الاسطورة الحبشية التي ترقي أصلهم إلى ايوم قامت ملكة سبأ بزيارة سليمان الحكيم ، ولم يكونوا قد انتبهوا انتباهاً كافياً إلى ما كتبه إراتوستين عن مملكة السبئيين في جنوبي شبه الجزيرة العربية . فقال باثر آنئذ في نفسه ، وكان محقاً فيما قال : « إذا صح ان هذه المدينة مدينة ملكة سبأ ، كان ذلك دليلا على ان مملكتها



« سقاية » في شبام بحضرموت نقلاً عن صورة فوتوغرافية لستارك في

كتاب « رحلة إلى حضرموت » .

لم تكن تشمل بلاد الحبشة فحسب بل بلاد العرب أيضاً . وكان لا بد أن تنقضي ثلاثة قرون ، على كل حال ، حتى يتوصل أوروبي آخر إلى تأمل تلك الأطلال الباقية من مملكة السبئيين العريقة القدم ، الطائلة الثراء ، ويلقي على نفسه السؤال ذاته الذي ألقاه بائز ، ويجد له جواباً .

وأخيراً بلغوا صنعاء عن طريق مأرب ، ولم يكن قد سبق بائز ومونصرات إلى وصف صنعاء أحد من الأوروبيين ، وكانت صنعاء التي ألفاها دي فارتيما مزدهرة ، يوم زارها ، قد أخذ نجمها بالأفول تحت الحكم التركي ، ولم يبق فيها سوى ألفين وخمسماية بيت ، خمسمائة منها بيوت يهود .

بقي الكاهنان في صنعاء خمس سنوات ونصف ، سجينين في بادىء الأمر مع ستة وعشرين برتغالياً ، وخمسة نصارى هنود أسروا في مليندة ، ثم سخرا للعمل في البساتين ، وأخيراً أجرا الى « هندي من عبدة الأصنام » . وأرسلا في نهاية المطاف الى المخا سيراً على الأقدام حيث تم افتداؤهما .

إلى جانب هذه الرحلة ذات الفائدة الجزيلة تظهر الرحلة التي قام بها مانوئيل دي آلميدا ، المؤرخ اليسوعي ، سنة ١٦٣٣ ، الذي وقع هو بدوره في الأسر ، ذات فائدة ثانوية . فقد سيق من عدن إلى خنفر ولحج ليس الا . ومما يلفت النظر ، في ما كتبه ، تأخر عدن التي رأى فيها مقابل كل اثني عشر او خمسة عشر بيتاً خرباً بيتاً واحداً قائماً . ولم يكن ذلك نتيجة للحصار الذي فرضه البرتغاليون فحسب ، اذ لم يكن هذا الحصار ذا أثر كاف لينشر الخراب في عدن ، بل لازدهار ميناء المخا ايضاً ، كما سنرى .

إن هاتين القصتين اللتين كتبهما رجلان مثقفان ، واللتين حفظتا طويلاً في خزانة المخطوطات ، لعلى درجة من الصحة لا يمكن ان يتسرب اليها الشك ، في حين ان بعض القصص التي ظهرت في أيامنا هذه تختلف في

شأنها اختلافاً كبيراً ، وهي موضوع ريبة .

أما القصة التي كتبها غريغوريو داكوادرا ، فإن ما أورده فيها من معلومات تاريخية قد ثبتت مطابقته للوقائع التاريخية التي عرفت اليوم بفضل مصادر أخرى ، وفي وسعنا بعد أخذ كل شيء بعين الاعتبار ، كما برهن عن ذلك بكنغهام ، ان نثق بها ونصدقها .

لم يكتب غريغوريو داكوادرا هو نفسه قصة مغامراته ، بل كتبها دامياو دي غويس الذي سمعه مراراً يرويها ، ولكن فائدتها للعلم ، أقل لسوء الحظ من غرابتها التي تجعلها جديرة بالأذكار ، لأن غريغوريو لم يقم برحلته لكي يدون ملاحظاته ، والطريق التي كان أول من سلكها انما فرضتها عليه الأقدار المعاكسة . لقد كان يقود سفينة شراعية ذات صاريين ، وطبقة واحدة ، في قسم من الأسطول معقود لواؤه لديوارته دي ليموس ، يمخر على مقربة من الساحل الافريقي في سنة ١٥٠٩ . فانقطع قلس السفينة ذات ليلة بينما كانت راسية في مقديشو ، ولما استيقظ البحارة ، كانت الأمواج قد جرفتها إلى عرض البحر . وفيما كانوا يقطعون رأس غردفوي ، شاء سوء طالعهم أن تدفع الأنواء سفينتهم نحو زيلع حيث وقعوا في الأسر .

أرسل داكوادرا وبعض رفاقه إلى زبيد هدية « لملك عدن » الذي كان يمتلك عدداً كبيراً من الأسرى . فتعلم العربية ، وكسب ما يقوم بأوده وأود رفاقه من صنع قبعات ملونة كالقبعات التي ما يزال اليمنيون يعتمرونها حتى اليوم .

وبعد انقضاء بضع سنوات ، تغلب أحد الملوك المجاورين على « ملك عدن » فأفرج عن داكوادرا ورفاقه البرتغاليين الخمسة الذين كانوا ما يزالون في قيد الحياة . ويورد التاريخ المحلي ذكر هذا النزاع في سنة ١٥١٦ ، ويذكر إن الملك المجاور انما كان حاكم مكة .

وقـــد تظاهر داكوادرا بأنه مسلم ورع يرغب في زيارة قبر النبي ، فرافق الملك الجديد الى المدينة ، فوصلوها بعد أن كان قد انقضى يومان على رحيل قافلة دمشق . وفيما كان مسلمنا المزعوم يقوم بأداء الشعـائر الدينية المفروضة على من يحجون الى قبر النبي ، استبدت به فجأة حماسة إيمانه المسيحي ، وجعلته في حالة اختطاف ، وقد تأثر المسلمون بذلك الانفعال العاطفي المفاجىء الذي أصاب ذلك الحاج ، واعتبروه وليـاً من أولياء الله . لذا ، فقد تمكن من الحصول على إعانـة مالية ، وأرزاق كافية ، وسمح له بالالتحاق بالقافلة التي كانت قـــد يممت شطر دمشق ، لادعائه بأنه يريد الذهاب إلى كربلاء لزيارة قبر حفيد النبي ، ولكنه ضل الطريق ، وتاه في الصحراء حتى أعياه التعب ، واستبد به الجوع والعطش . وبعد ان تلا صلاة سأل فيها الله ألا يميته في ذلك القفر ، استعد لأن يستودعه روحه ، ولم ينسَ أن يستغفره آثامه . وأحس فجأة أن أناساً غير منظورين يرفعونه ثم ينزلونه على رأس تلة من الرمال . ولما استعاد وعيه رأى قافلة متوقفة للاستراحة ، فتوجه نحوها زحفاً . وقـــد قُبل فيها ، فأوصلته الى بلاد « بابل » ، حيث أدرك البصرة ، وتوجه منهـا الى الهند ، ومن ثم عاد إلى بلاد البرتغال في سنة ١٥٢٠ ، ولم يلبث ان انخرط في سلك الآباء الكبوشيين .

وكانت ستنقضي عدة قرون قبل أن يقام برحلة ثانية تقطع فيها شبه الجزيرة العربية من الغُرب إلى الشرق ، بين المدينة والعراق الحالي

لقد تمكن داكودرا من إماطة اللثـام عن طبيعة شمالي بلاد العرب الصحراوي ، وعن وجود النفود الكبير الذي ضل فيه السبيل .

ولكن القصة التي اكتسبت ، في ذلك العصر ، أكـــبر قسط من الشهرة ، كانت « قصة الرحلات الشهيرة التي قام بها السيد فنسان لبلان من الثانية عشرة حتى الستين من عمره ، الى أقطار العالم الأربعة » ، فقد

طبع منها في باريس ثلاث طبعات ما بين سنتي ١٦٤٨ و ١٦٥٨ ، وترجمت الى الانكليزية في سنة ١٦٦٠ . والسؤال الذي يفرض نفسه على المرء هو هل هذه الرحلات قد تمت فعلاً ، أم انها رحلات من نسج الخيال ؟

يصور فنسان لبلان نفسه رجلًا مصاباً بجنون السفر . فقد وجد وهو ابن مجهز مراكب في مارسيليا ، أن أشد رغبات اللهو المستبدة به ، رغبة التسكع في مركب والده حين يكون راسياً في الميناء . وتمنى ان يقوم برحلة على ظهره ، ولكن أباه لم يحقق له تلك الأمنية ، ولا ريب ، ويقول فنسان :

« ولكنني وقد رأيت ذات يوم من سنة ١٥٦٧ ، وأنا لم أبلغ الرابعة عشرة من عمري ، مركب والدي يستعد للإبحار نحو الاسكندرية ومدينة القاهرة العظيمة ، تسلطت علي تلك الرغبة النبيلة ، رغبة ارتياد العالم ، فوطدت العزم على الاختباء فيه من غير علم أبوي . »

وقد وافق القبطان على خطة ابن سيده ، وأوصله الى القاهرة حيث بقي ثمانية اشهر وهو أصغر من ان يقوم بملاحظات مفيدة ، ولكنه تعلم قليلًا من العربية . ثم أبحر باتجاه مرسيليا ، إلا أن المركب الذي كان على ظهره غرق قرب جزيرة كانديا ، ولم ينجُ من ركابه وبحارته سوى خمسة اشخاص أحدهم فنسان ، آواه القنصل الفرنسي الذي كان يعرف أباه .

ووصل الى المرفأ مركب من مرسيليا . فأخبره أحد البحارة وقد دهش لرؤيته في قيد الحياة ، أن أبويه قد ذرفا على فقده دموعاً أغزر من الدموع التي سكباها على غرق المركب ، وأنهما أقاما له جنازاً . ولكن فنسان الولد لم يفكر قط في ركوب المركب الى بلده ، بل كان يريد الذهاب الى القدس .

لبّى البحار طلبه ، وأوصله الى طرابلس ثم إلى دمشق . ولكنها

تأخرا في احد المرافىء فأقلعت السفينة وتركتها . وكان لا بد لهما من كسب معيشتها ، فاقتاد البحار الحدث الذي بسط عليه حمايته ، إلى مذيريب على طريق القوافل من دمشق الى مكة . وهناك ذهب به الى منزل شقيقه الذي كان قد أسلم مرغماً ، واتخذ لنفسه اسم مراد ، وكان يعيش في تلك القرية كما يعيش الأتراك . فعرض مراد عليهما أن يأخذهما الى مكة ، مع القافلة التي ستمر بمذيريب في طريقها اليه ، ليقوما بالمتاجرة فيها . فأعدوا الزاد والبضائع ، وانضموا الى القافلة التي لم تلبث أن وصلت .

سلك فنسان لبلان ذات الطريق التي سلكها دي فارتيما من قبله ، بما في ذلك موقع سدوم وعمورة ، وهو لا يطلعنا على اكثر مما أطلعنا عليه دي فارتيما . ويقول انه رأى قبر النبي ، ويؤكد انه ليس معلقاً في الفضاء . وقد بهرته كميات الجواهر والثروات الطائلة التي كانت قد أهديت الى هذا المكان المقدس . ورأى مثلما فعل دي فارتيما وحيد قرن في مكة ، ولم يفهم كما لم يفهم دي فارتيما من قبله أية حقيقة من الحقائق الدينية التي رآها في ذلك المكان ، بل ظل يجهل كل شيء ، على وجه التقريب ، عن الدين الإسلامي .

انه لم يأت مكة إلا لكي لا يفترق عن الرجل الذي لا نصير له غيره . وقد قال البحار لأخيه ذات يوم ، إنه يريد الذهاب بشيء من البضائع الى جدة ليبيعها فيها ، فتسلم منه ستة جمال محملة ولكنه اعتبرها ملكاً له دون ما رادع من ضمير ، بذريعة أن أخاه مارق عن دينه ، وقرر التوجه الى العربية السعيدة ، ومن هناك الى بلاد الفرس ، بقصد المتاجرة . وذلك ما دفع فنسان الى الكتابة فيما بعد : « حينئذ علمت أنني في صحبة رجل موغل في الشر » ولكن ماذا كان في وسعه ان يفعل غير اللحاق به ، سعيداً بعدم تخليه عنه .

وقد قطعا منطقة تهامة الساحلية ، ومرّا بجيزان ، وزبيد والقطيف [١] حتى بلغـا عدن ، ويذكر فنسان انهما مرّا بجميع بلدان شبه جزيرة العرب ، متاجرين ، زائرين مدناً جميلةً عديدة ، وكثيراً من الممالك والسلطنات ، تحدوهما الرغبـة الملحة لبلوغ بلاد الفرس . ونفهم من قصته أنهما اجتازا حضرموت التي يذكر اسماء موانئها : ظفار ، وسلالا ، وقنا ، وسلطنة الفرتك ، وانه قطع منطقة زراعة اشجار البخور ، الذي يورد التفاصيل عن جمعـه وعن خواصه ، وعن الذباب الصغير الذي يتكاثر على ثمره الناضج ، وعن الحيوانات التي تتسلق اشجاره وتعبث بثمارها . وهكذا يصل ملاحنا الصغير الى بلاد الفرس ، ويتابع منها رحلاته الى اقطـار المسكونة الأربعة .

ان المرء إذ يفكر في ان معظم هذه القصة مشوش ضعيف المعلومات، يجد نفسه ملزماً على ألا يتوقع اكثر من ذلك من رحالة حدث ، دوّن مذكراته فيما بعد . وهي لا تخلو من النقد المستحب ، ومن الاسمـاء التي يمكن التعرف إليها ، ومن المعلومات التي يمكن تشبيهـا بالمعلومات التي أوردها دي فارتيما : كوحيـد القرن في مكة ، وقلعة المقارنـة في بلاد اليمن ، حيث يخفي الملك كنوزه لكونهـا حصناً طبيعياً يتعذر الوصول إليه . وتذكرنا التفاصيل التي يوردها عن اشجار العطور بـما ذكره كتّاب الإغريق عن زراعتها .

ولكن إذا أنعمنا النظر في قصة هذا الملاح الصغير عن كثب ، وجدنا انه يعرف اشياء كثيرة . يعرف ان العربية السعيدة كانت تدعى « سبأ » في الأصل ، وان العربية البتراء سميت هكـذا باسم مدينة البتراء التي كان يقطنها الأنباط فيما سلف . ولا شك في أنه لم يتعلم هـذه الأمور

---

١) القطيف لا تقع على هذا الساحل ، بل على ساحل البحر الشرقي (خليج العرب) شرق الجزيرة ، وإذن لهذه الكلمة غير صحيحة ، فهل هي طيف ام سليف ام رأس الكتيب ؟

من البدو ، بل تعلمها من كتب المؤلفين اليونان أنفسهم . وهكذا لا يمكن ان يكون قد رأى هنالك ميناء قانا ، كما أن نظره لم يقع على سلطنة الفرتك بالذات ، لأن هـــذا الاسم ليس وارداً إلا في كتب البرتغاليين ، ولم يذكر إلا في خرائطهم .

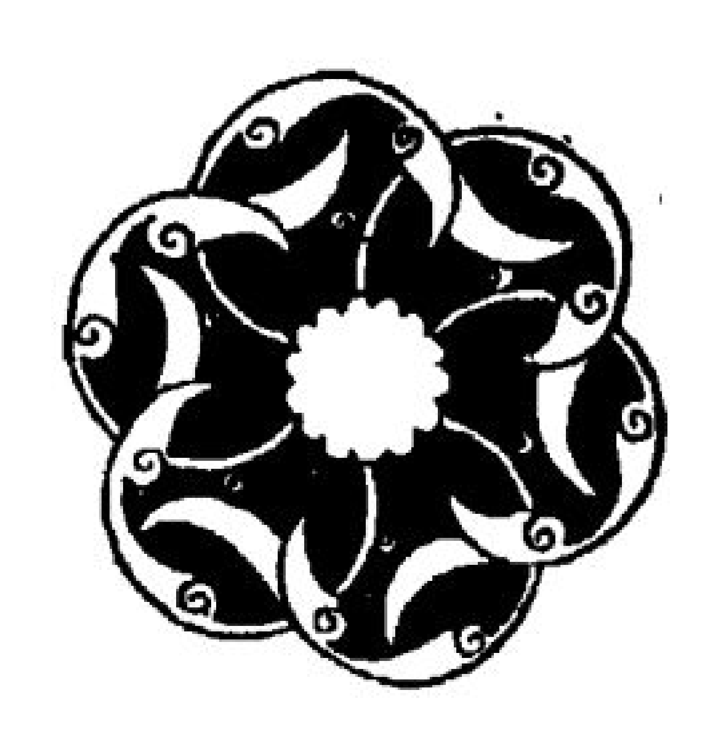
وعندما يذكر وحيد القرن الذي رآه في مكة يستشهد بدي فارتيا ، الأمر الذي يدل على انه قد قرأ قصة رحلته .

وما من ريب في أن هذا الملاح يعرف أشياء كثيرة إنما عثر عليها في بطون الكتب . وهو لا يعلم ، بمزيـد الأسف ، انه لا يمكن أن يعتبر كل ما في الكتب حقائق راهنة . فالاعتقاد يسود اليوم بأن جنوبي شبه الجزيرة العربية لم يكن فيه قط خيار شنبر ، وشجر كافور . فقد شمل هيرودت في وصفه لشبه جزيرة العرب ساحل البحر الأحمر الغربي . ومن جهة اخرى لا نجد لدى فنسان لبلان أية معلومات جديدة ، ذات قيمة لم ينقلها عن الكتب .

لقد اتضحت الحقيقة إذن ، وهي أن فنسان لبلان بطل قصص خيالية ، وأن رحلاته التي « دونها بيير برجرون الباريسي بأمانة رواية عن لسانه » ليست إلا من نسج خيال هذا الاخير . وليس صاحب هذه القصة بحـــاراً لا يفكر إلا في القيام بالمغامرات ، وإنمـــا هو رائد من رواد المكتبات تمكن من تنسيق المعلومات المستقاة من كتب الأقدمين ، والبرتغاليين ، ومن دي فارتيا ، ووضع نوعاً من الجغرافيـــة العالمية في شكل قصة خيالية .

ليست قصة رحلة فنسان لبلان إذن الى المدينتين العربيتين المقدستين ، والعربيـة السعيدة حوالي سنة ١٥٧٠ ، سوى تجميع للمعلومات المكتسبة حتى ذلك الحين . فلنجلّ ذكر بيير برجرون لأنه مهر بتأليف رواية خيالية ، غنية بالمعلومات بالنسبة لمعاصريه .

ولكن الرحلات الحقيقية التي قام بها الأمرى كانت وحدها على جانب من الأهمية بالنسبة الى الاجيال الصاعدة ، لأنها زادت من المعلومات عن النفود والعربية القفراء ، وحضرموت الداخلية ومدنها المزدحمة بالسكان ، وخرائب مأرب . ويعود الفضل الرئيسي الى الأب باثر الذي كان أول من تمكن من رواية الكتابات ، والآثار العمرانية التي خلفتهـا حضارة جنوبي شبه جزيرة العرب العريقـة في القدم ، والذي استطاع ان يتبين المسألة التي فرضت نفسها فيما بعد على المؤرخين وعلماء الآثار . ولو لم يحفظ هذا الكتاب الهام في خزائن المحفوظات المنسية ، لأنار سبيل العلم ، وجنب نيبور الشطط الفادح فيما بعد .





المنافسة ما بين شركات الهند

كان البرتغاليون منذ ايام فاسكو دي غاما قد استأثروا دون أيـــة منافسة ، بالسيادة على الطريق البحرية الى الهند ، طريق الأفاويه والعطور . (وحدث في سنة ١٥٩٥ أن اجتازت احدى السفن الهولندية للمرة الاولى، رأس الرجاء الصالح) . فقد كان للهولنديين امتيازات استثمار في موانىء الشرق . وبينا كانت مصلحتهم توجب عليهم مجـــاملة الاتراك ، كانت مصلحة البرتغاليين تقضي بعدم انقطاع البضائع عن الوصول الى الموانىء الشرقية كي يحصلوا على حصتهم من التجارة البحرية الكثيرة المغانم ما بين الهند وشبه جزيرة العرب ، وبين أوروبة . لأجل هـذا ، سعى الهولنديون الى اكتساب ود الملوك المحليين . وكانت هذه السياسة التجارية المختلفـــة عن سياسة البرتغاليين مزمعة ان تخلق منافسة شديدة بل عـــداوة بين الجانبين .

تأسست الشركة الهولندية للهند الشرقية سنة ١٦٠٢ ، لكن لم يكن مقدراً للهولنديين أن ينشئوا مع شبه جزيرة العرب نفسها علاقات كتلك

التي أنشأها البرتغاليون . ولن يظهر منهم (لكونهم من اتباع المذهب البروتستانتي ، خلافاً للبرتغاليين الكاثوليك) لا صليبين ، ولا مرسلين ، ولن ينشئوا أية قلعة ، بل سيكتفون بارتياد اربعة موانىء هي : المخا ، وعدن ، والشحر ، وقشن . وفي بعض الاحيان مرفأي الحديدة ومسقط. وسيقنعون بإنشاء وكالتين تجاريتين وحسب في المخا والشحر ، وسيكونون وكلاء تجاريين لإحدى الشركات ليس إلا .

ولم يرسل أول مركب هولندي الى بلاد العرب إلا في سنة ١٦١٤ ، لأنهم وجهوا أولى جهودهم نحو بلاد الهند .

في هذه الاثناء ، كان الانكليز قد قاموا بتأسيس شركة انكليزية للهند الشرقية مدفوعين الى ذلك بالسياسة التجارية ذاتها . فأرسلوا في سنة ١٦٠٩ السفينتين « الصعود » و « الرجاء الصالح » اللتين بلغتا عدن بعد رحلة استغرقت سنة كاملة . وكان قائدهما الكسندر شاربيه ، والوكيل التجاري الرئيسي فيها جون جورداين .

كان حاكم عدن تابعاً للباشا التركي في صنعاء . وقد استقبل شاربيه عند نزوله الى الميناء استقبالاً حسناً ، ولكنه استبقي فيه حتى ورود أوامر الباشا الذي سمح بابتياع المواد الانكليزية ، على ان جون جورداين الذي استبطأ عودة القائد الى ظهر السفينة ، احتجز مبعوثي الحاكم . عندئذ أفرج العدنيون عن شاربيه ، ولكنهم زادوا الرسوم الجمركية ، مهددين جون جورداين ، في حال رفضه تأديتها ، بإرساله الى صنعاء لمقابلة الباشا . ولكن جورداين الذي لم يكن بالرجل اللين العريكة ، كان على أتم استعداد للذهاب الى صنعاء .

وقد سرّه ان تنتهي مدة بقائهم في عدن ، وهو يصف المدينة بقوله : « إنها مكان حصين ممتنع ، وأنها محاطة بسور ذي ابواب ثلاثة مغلقة ، جعل الباب الاكثر تعرضاً من بينها للغزوات من القلز ، وهو سهل الانزال عند الطلب ، وتحيط بالميناء جبال تعلوها قلاع ، ومراكز مراقبة،

وتحميه من جهة البحر جزيرة شاهقة تقع على مرمى بندقية من المدينة ، أقيم عليها حصن منيع يتعذر افتتاحه إلا اذا نفدت منـــه المؤن ، لأن موقعه يجعله حصيناً ، فهو جبل أشبه بالقلعة الجبارة . »

لكن عدن التي احتلها الأتراك سنة ١٥٣٨ واستعادها العرب منهم ، ثم احتلها الأتراك مرة ثانية سنة ١٥٥١ ، لم تكن في ذلـك الوقت سوى مدينة مهدمة خربة ، وخلاصة القول انهـــا « مدينة مزعجة ، لا يرتاح الانسان إلى سكناها ، إذ ما من خضار ينبت بين أسوارهـــا ، وليس لسكانها إلا التمتع بمرأى صخورها الوعرة ، ومنازلها المهدمة .. وقد قيل لنا انها لم تر أمطاراً منذ سبع سنين » . ولا مياه عذبة فيها بـل آبار ذات مياه ملحة كمياه البحر .

ويقول جون جوردان إن الميناءين الكبيرين هما المخا وجدة ، أمـــا عدن ففي تأخر تجاري ، لا تأتيها في السنة إلا سفينتـان او ثـلاث من بلاد الهند او من الخليج العربي ، تقترب من ساحلها لبيع الخام ، والعمائم ، والمنسوجات القطنية ، ثم تعود منها محملة بالصمغ العربي ، والبخور ، والصبر ، والفوه ، هذا النبات الذي يباع في الهند كصباغ أحمر .

ان النظام التركي الذي يعيد هذا الميناء ذكره الى الخاطر ، ذو طابع مميز . فالحاكم — وهو الذي سيلقي القبض فيما بعد على ميدلتن ورفاقه — شاب يوناني الأصـــل اعتنق الاسلام ، وعلى شاكلته جميع الأتراك ذوي المناصب الهامة في هذا البلد ، والكل عبيد للباشا . ولا يتجاوز عدد أفراد الحامية في المدينة والحصون معاً الثلاثمائة جندي ، لكنهم ، رغم ذلـك ، قد ملأوا أفئدة الأهلين رعباً بحيث لا يجسر أحـد على النظر إلى وجـه تركـي .

وعندما علم شاربيه أن في المخا امكانية المتاجرة ، قرر الابحار إليها ، موقناً من ان جوردان سيلحق به بعد القيام برحلته إلى صنعاء .

وبدأ جوردان رحلته إلى صنعاء مصطحباً امين سر الحاكم والترجمـان

ومرتدّين عن النصرانية أحدهما فرنسي والآخر ايطالي . وقد رأى في طريقه تتابع المناطق المقفرة تارة ، والبقاع الفاتنة الشديدة الخصوبة طوراً . فبعد منطقة الحوطة التي ينبت فيها القطن ، وجميع أصناف الفواكه ، والتي تسقي فيها الجداول مزروعات الحبوب ، اجتازوا منطقة صحراوية قاحلة تشر فيها قطاع الطرق الهول والرعب . ثم قطعوا جبلاً شاهقاً كثير الحجارة ، ثم سهلاً شديد الخصب . وقد أعجب بمدينة « اب » القائمة على قمة أكمة ، تحرسها قلعة منتصبة في أعلى تلة مقابلة لها ، وبدت له هذه المدينة مزدحمة بالسكان ، وأدهشته خصوبة أراضيها الخارقة التي يقول عنها : « انهم يزرعون فيها القمح طوال السنة ، ويدعون أنهم يحصدون كل ثلاثة أشهر مرة . ويبدو لي ان ما يقولونه صحيح لأنني رأيت بأم العين في آن واحد قمحاً مزروعاً أخضر ، وقمحاً يجري بذره ، وقمحاً قريباً من النضج ، وقمحاً قد تم نضجه وآن أوان حصاده .

ومن ثمّ أخذوا يصعدون جبلاً . والوصول الى نَقيل سمارة[1] يستلزم أربعاً وعشرين ساعة من الصعود . ولكنه اكتشف هنالك زراعة البن ، وعلم ان حبوب هذا البن بضاعة تجارية عظيمة ، لأنها تشحن إلى مدينة القاهرة العظيمة ، وإلى جميع انحاء تركية ، وبلاد الهند . وبعد ان أدهشته هذه المنطقة الجبلية التي ترويها الينابيع ، وتنبت فيها الحبوب والفواكه ، اجتازوا منطقة مقفرة حيث حلوا في أحد الخانات ، ثم بلغوا ذمار المدينة الشديدة الازدحام بالسكان ، التي لا أسوار لها ، الرائعة ، الكثيرة الجنان ، على أن الماء غير موجود في المدينة ، وإنما في آبار خارجها ، يرفعه بواسطة الثيران أناس يعملون مقابل اجور تدفع لهم ، ويسيلونه كل صباح في ميزاب للماء صهاريج المدينة ، وعندما تمتلىء هذه الصهاريج ، تروى الحقول والبساتين كل يوم .

---

[1] النقيل – في لغة اليمنيين – هو العقبة – الممر الصخري بين مضيقي جبل .

وأخيراً بدت لهم صنعاء في سهل بديع المنظر « ذات منازل ومعابد وأبراج جميلة ، وبساتين رائعة ، وقد وجد ان السكنى فيها ممتعة ، وان هواءها معتدل ، بارد في الصباح كما في بلاد الانكليز . »

وتستخرج من جبل واقع على مقربة من صنعاء ، كما يفعلون في ذمار ، كميات من الأحجار الكريمة المتنوعة ، كالعقيق اليماني ، والعقيق الأحمر ، وغيرهما من ضروب الأحجار الثمينة . أما الحكم التركي فأنه يلقى فيها مقاومة شديدة .

ولا يسيطر الأتراك إلا على المدن والطرق الرئيسية التي تشرف عليها القلاع ، ويحتفظ الباشا بعدد من وجهاء العرب كرهائن تضمن له ولاء العشائر ، وتسديد الضرائب (ويلاحظ جوردان ان التجارة في أيدي الهنود من تجار منطقة كُجْرَات ، الذين يديرون وكالات عامة لبيع الأقمشة التي تأتي بها السفن من بلاد الهند ، وتفرغها في مرافىء عدن والمخا ، وجدة .)

★

وقد مر في طريق عودته بتعز ، ولكنه لم يتمكن من زيارتها ، وكتب في تعليل ذلك قائلاً : « كان الناس قد ازدحموا لرؤيتنا إلى درجة اننا لما خرجنا لرؤية المدينة كدنا الا نستطيع الرجوع لكثرة الجماهير التي كانت تزحمنا . »

واضطر جوردان الى قضاء ثلاثة أيام في صحبة برتغالي عجوز متنكر لنصرانيته ، أدعى أنه قد باع نفسه من الشيطان ، وروى له قصصاً غريبة كثيرة وجدها جوردان مسلية .

وأخيراً التحق بسفينته في المخا ، وقد عجز عن الحصول على تخفيض للرسوم الجمركية ، وإذا كان قد نال اذناً ببيع بضائعه ، فقد أمر بعدم العودة الى اليمن إلا إذا حصل على اذن رسمي صادر عن القسطنطينية . ولكنه وجد الاسعار غير مناسبة ، فأقلع باتجاه الهند .

لا شك في ان الاتراك تخوفوا من رؤية الانكليز يتدخلون في تجارة جدة التي كانوا قد احتكروها . لذا فقد ألقوا القبض على هنري ميدلتن الذي أرسلته الشركة ذاتها على رأس ثلاث سفن ، فور وصوله إلى عدن تنفيذاً للأمر الذي كان قد أصدر إليهم بإلقاء القبض على جميع المسيحيين الذين قد يأتون عن طريق البحار .

وقد قام ميدلتن بدوره ، برحلة الى صنعاء ، ولكنه كان أسيراً مع اربعة وثلاثين من بحارته ، وقد تمكن أحد الضباط من الفرار ، واعتنق الإسلام بحـار صغير أدركه المرض ، وقام ميدلتن بتدوين مذكراته ، فيما بعد ، اعتماداً على ذاكرته .

يذكر ميدلتن انهم أحسوا ببرد قارس في الجبل ، وان سهل صنعـاء بدا له وكأن النيران قد التهمت ما فيه ، وكأن الحجارة قد نثرت في كل مكان منه ، ولكنه ألفى المدينة حسنة البنيان .

ولما أخلى الباشا سبيلهم بعد انقضاء ستة اسابيع ، عادا بطريق ذمار ، فتعز ، والمخا ، ولما رأى انه قد احتُفظ به وبرفاقه تحت المراقبة في حالة انتظار لجأ الى الفرار والتحق بسفينته ، وبعد ان نجح في اختطاف رفاقه ، قذف المدينة بقنابل مدافعه انتقاماً وتشفياً .

★

بعد انقضاء اربع سنوات على ذلك ، جاء الهولنديون الى عدن .

كان الحاكم الهولندي العام في مقاطعة « بانتام » من أعمال الهند قد قرر إرسال السفينـة « ناسو » بقيـادة بيتر فان دون بروكه لاستطلاع الامكانات التجارية مع شبه جزيرة العرب . وقـد أستقبله حاكم عدن استقبالاً حسناً . قام قائد الحامية بزيارة السفينة ، وعنـد الظهر سأل القبطان ان ينزل الى المينـاء ، ويحل ضيفاً في قصر الحاكم . في ذلك الحين تعرف فان دن بروكه الى أروع خطر من اخطار البلاد الغربية ،

ألا وهو العاصفة الرملية . فقد كتب يقول : « عند الظهر ، أقبل من اليابسة ظلام شديد شبيه بسيل مدرار من المطر ، تصحبه حمرة شديدة كحمرة أتون متقد ، تملكنا منه العجب وأفزعنا النظر إليه . فأرسل الحاكم يقول لنا بأن نلقي مرساتين أو ثلاثاً غير المراسي التي كنا قد ألقيناها . ولما زالت العاصفة كانت السفينة قد كسيت بطبقة من الرمل الأحمر تبلغ سماكتها ثخانة أصبع . وقد اتجهت العاصفة نحو بلاد الحبشة . وحين نزلت الى البر ، وسرت في صحبة الحاكم إلى قصره وقد أدت القوات العسكرية لنا كل واجبات التحية والإكرام ، قال لي إن السحابة القاتمة جاءت من بحر الرمل ، وان هذه العاصفة الرملية كثيراً ما تدفن قوافل كاملة برجالها وجمالها ، وعندما يعثر عليهم يكونون قد تحولوا الى مومياءات . »

كانت تلك هي المرة الأولى التي ينكشف فيها لأوروبي بصورة غير مباشرة ، الربع الخالي ، وهو الصحراء الوسطى الشاسعة ، فالصحراء التي كاد ان يفقد فيها داكوادرا حياته ، والتي خلفت على حدودها قافلة دي فارتيما ثلاثين من رجالها قضوا عطشاً ، لم تكن سوى النفود ، القسم الرملي الجسيم الذي يتوغل عرضاً في شمالي شبه الجزيرة العربية ، ولم تكن الربع الخالي .

لقد تمكن فان دن بروكه بوصفه من رعايا أمير اورانج حليف سيد القسطنطينية العظيم وصديقه ، من الإقامة في مسكن مريح بانتظار جواب باشا صنعاء على طلباته ، وبما ان الجواب ورد سلباً ، فقد أبحر نحو ميناء الشحر . ولم يكتف سلطان الشحر التابع للأتراك باستقباله استقبالاً حسناً ، معلناً له ان المنطقة ستكون مفتوحة دائماً أمامه كلما قصدها كتاجر محترم ، بل منحه أذناً بأن يوكل عنه اثنين أو ثلاثة من رجاله ليتعلموا العربية حتى موعد عودته في الفصل المقبل .

ان وصفه لميناء الشحر وصف بحار حقيقي ذكر فيه بدقة موقع عرضه

بالنسبة الى خط الاستواء ، ومرساه ، وقلعته الحصينة ، التي تمثل دوراً بارزاً في مقاومة الهجوم ، والتي لا فائدة لها في حالة قصف الميناء بقنابل المدافع .

وذكر فان دن بروكه ان ميناء الشحر هو ميناء السلطان الرئيسي ، ولكن مكان إقامته مدينة حضرمويت ، ولا ريب في انه يعني حضرموت وهو اسم المنطقة الداخلية .

أما عن السكان فقد قال : « انهم ذوو استقامة ، ولطف ، يحبون مصادقة الغير ، متواضعون ، ذوو طبيعة هادئة ، ومؤمنون إيماناً ثابتاً برسالة النبي محمد . ونساء الطبقة العالية محجبات ، شديدات الإغراء ، جميلات المحيا ، رشيقات القوام . ويقوم ذوو الفتيات بتزويجهن من الغرباء مقابل قليل من المال ، وهن في سن مبكرة . (ويذكر الدكتور ب. سرجنت ان هذه العادة ما تزال جارية حتى يومنا هذا لدى عشيرة هموم ، ولكن لا ريب في ان هذه العادة لم تكن عامة في الشحر) » .

ولاحظ فان دن بروكه ان الكثيرين من عبدة الأوثان من هنود وأعجام يقيمون هناك ، ومعظمهم من الصناعيين . ويقول ان المرفأ الذي رأى فيه ثلاثة عشر أو اربعة عشر مركباً ، تؤمه سفن كثيرة في كل سنة ، من بلاد الهند ، وبلاد فارس ، وجزر كوموروس ، ومدغشقر ، ومليندة .

وقد ترك هناك رجلين ، وتوجه نحو قشن حيث أحسن السلطان استقباله ، ورافقه الى قصره بحراسة ألف جندي يحمل كل منهم على كتفه سيفاً كبيراً مسلولاً . وسمح له على الفور بأن يترك هناك عدداً من رجاله حتى عودته . ولكنه قدر ان من الأفضل له أن يستأذن بالانصراف بعد ان علم ان بين ذلك السلطان والبرتغاليين الذين يقصدون بلاده سنوياً روابط صداقة ، وانه من أعداء الأتراك ، فعاد الى بنتام .

وفي السنة التالية قرر مجلس الإدارة ورئيسه جان بيترز كوين ، ان يقوم فان دن بروكه برحلة ثانية يحمّل فيها سفنه مواد غذائية للبيع . فوصل ميناء الشحر في كانون الثاني (يناير) من سنة ١٦١٦ حيث وجد الرجلين اللذين كان قد تركهما هناك ، ثم ذهب الى المخا في هذه المرة ، فوجد في مينائها ثلاثين سفينة منها الكبيرة ومنها الصغيرة ، بين هندية ، وفارسية ، وعربية .

وبعد ان شرح نواياه لرسل الحاكم ، استقبل في قصره بالطبل والمزمار ، وبعد ان شرح للحاكم نواياه مرة ثانيـة ، خلع عليه الحاكم حسب عادة البـلاد ، ثوباً من الحرير الموشى بالذهب ، واستؤجر له ولرفاقه منزل مزوّد بكل ما يلزمهم ، وحددت نسبة الرسوم التي ينبغي له تأديتها لباشا صنعاء عن جميع الصفقات التجارية التي يعقدها ، بثلاثة في المائة . ولم يتبق عليه إلا أن يفرغ البضائع ويبيعها بأسعار ملائمة مقـابل ريالات ذهبية رنانة .

وشهد فان دن بروكه وصول قافلة من حلب فالسويس كانت مؤلفة من ألف جمل محملة بمئتي ألف ريال ، ومئة ألف « دوكا » مجرية وبندقية ومغربية ، وأنواع المخامل ، والأنسجة الحريرية ، وأنسجة دمشق المعروفة بالدامسكو ، وأقمشة البروكار التركي الموشى بالذهب ، والجوخ ، والقرمز ، والزعفران ، وبضائع نورمبرغ ، وقد استغرق وصولها شهرين كاملين .

رأى في عداد البضائع المنقولة بالسفن القصدير ، والفضة الخام ، والجلد الموسكوفي ، والفوة . وجميع هذه البضائع ، كان الفرس والعرب والهنود يقومون بشرائها مقابل البضائع التي جاءوا بها من بلدانهم .

ورأى فان دن بروكه خلال مـدة إقامته ايضاً ، وصول اربعين سفينة قادمة من بلاد الهند ، وبلاد فارس أو من إفريقيـة . ويقول انها « كانت محملة بالأنسجة القطنية والنيلج ، والقرنفل ، وجوز الطيب ، والدارصيني ، وخشب الصندل ، والصبر ، والعاج ، والعنبر الرمادي ،

والزباد ، والخزف والحرائر من صنع بلاد الصين ، والسكر والأرز ، والتبغ وجوز الهند ، والعبيد ، والاماء ، والزنجبيل اليابس ، وألياف جوز الهند ، واللبان . وكل هذه الأصناف كانت تفرغ إما في مكة ، أو في السويس أو في القاهرة . واخيراً رأى في عداد المواد التي كان يجري الاتجار بها ، « البن » وقد قال انه نوع من الحبوب السوداء التي يصنع منها سائل أسود يشرب حاراً . وقد تعرف هو ايضاً للمرة الأولى الى القهوة ، على الرغم من انه لم يرَ مزروعاتها خلال رحلته .

ولو فكر فان دن بروكه بذلك ، لما تمكن أي شيء غير رؤية مزروعات البن من اعطائه فكرة أحسن عن تجارة البن في الأزمنة القديمة ، تلك التجارة التي أكسبت الحبشيين ، وسطاءها ، خلال حقبة طويلة من الزمن ، ثروات طائلة .

أورد فان دن بروكه عن المخا معلومات فنية دقيقة وموقعها العرضي بالنسبة الى خط الاستواء ومرساها ، ويذكر انه رأى قلعة صغيرة مستديرة الشكل ، شيدت بالحجارة الزرقاء في عهد السير هنري « ميدلتن » .

وذكر ان « المخا » لم تكن سوى قرية يقطنها بعض الصيادين منذ اربعين أو خمسين سنة خلت . ولكن عندما استولى الأتراك على البلاد ، ازدهرت تدريجياً لأن مراكب عاهل القسطنطينية الأعظم التي تأتي من السويس في كل سنة محملة بالبضائع الثمينة ، كانت تتعرض لأخطار جسيمة لدى اجتيازها مضيق باب المندب في طريقها إلى عدن ، وأضاف الى ذلك سبباً آخر لنمو المخا وازدهارها هو الحصار الذي كان البرتغاليون قد فرضوه على مدخل البحر الأحمر .

كان ميناء المخا قد أصبح ميناء دولياً . وكان الحاكم فيه وما ينيف على الثلاثمائة جندي أتراكاً ، وما تبقى من الجنود عرباً ، اما السكان فقد كانوا ينتمون الى جنسيات متعددة ، ثلاثة آلاف من البانيانيين

العاملين في التجارة وبيع الآلات الحديدية والصرافة والصناعة ، وعدد من اليهود ، والهنود ، والأعجام والأرمن .

وكانت الحرارة شديدة ليلا ونهاراً بحيث انه لم يكن ليستطيع العيش لو لم يكن يسكب عليه الماء باستمرار .

وبعد انقضاء شهر واحد ، أرسل الباشا من صنعاء كتاب اعتماد الى الهولنديين ، أمر فيه رعاياه والحكام باستقبالهم في كل مكان مثلما يستقبلونه هو ، وأمر قبطان مراكبه بمرافقة فان دن بروكه على رأس عشرين جندياً تركياً للمحافظة على سلامته ، وإيصاله إلى قصره . وفي اليوم التالي بدأوا رحلتهم على ظهور الخيل .

وقد مروا في طريقهم بمدن موزع ، وحاسب ، ويفروس ، وقال عن هذه البلدة انه يتعذر الاستيلاء عليها ، كالمقرنة التي أورد ذكرها دي فارتيما ، لانه يُرقى اليها في شِعب لا يكاد يتسع لشخصين معاً ، وقد أهدى اليه حاكم هذه البلدة معطفاً من الجوخ جاءه في أوانه لأن البرد القارص كان قد اخذ يتهددهم .

وعند وصوله الى تعز استقبل استقبالاً فخماً ، وقد تجول فيها ووقعت من نفسه موقعاً حسناً . رأى فيها ستة ابراج شاهقة ، ومساجد عديدة ، ومدفناً رائعاً لأحد الباشوات ، بدا حديث البناء ، وقيل له انه كلف اكثر من مائة ألف ريال ، ووجد انها مركز تجاري هام .

وتابع طريقه في الجبل فأدهشه ، والبلاد آنئذ في بدء شهر آذار (مارس) ، ان يرى أعمال الحراثة والبذر قائمة ، فيما كان حصاد الحنطة الناضجة على قدم وساق .

لقد لاحظ ، مثلما فعل جوردان من قبل ، خصب التربة الخارق للعادة ولاسيما في منطقة تعز ، هذه التربة التي يذكر امين الريحاني انها تعطي اربعة مواسم في السنة الواحدة .

واجتاز اب ، ومقدر ، ونقيل سمـاره ، حتى بلغ ذمار التي استقبله حاكمها المجري الأصل الذي أقامه الاتراك عليهـا استقبالاً فخماً ، وقـد ذكر انها مدينة فقيرة بالمدافع ، وان احد الايطاليين كان قد شاد لحاكمها قصراً من الحجارة الزرقاء .

واخيراً ، بما ان فان دن بروكه كان في طريقه الى صنعاء ، أهدى إليه حاكم هذه المدينة جواداً رائعاً ، مزيناً بالذهب والفضة ، ليدخـل مدينة صنعاء وهو معتلٍ متنه . وقـد استقبل فيها بتظاهرات الجنود ، ورفع البيارق ، وجاء الباشا ومائتان من الوجهاء على ظهور الخيل للقائه ، وقد ارتدوا حللاً من الذهب والفضة ، ينبعث منها لألاء عجيب في أشعة الشمس المائلة نحو المغيب .

واستقبله الباشا على الفور في قصره الذي لم يبلغه إلا بعـــد شديد عناء ، لكثرة ازدحام الناس ذوي الفضول على جوانب طريقه ، وعندما أجاب على الأسئلة المتعلقة بما يهدف إليه من وراء رحلته ، أكد له الباشا انه يرحب به كل الترحيب ، وسأله أن يأخذ قسطاً من الراحة قبـــل متابعة المحادثات بعد ان خلع عليه كساء من البروكار الذهبي ، وأكرم مثواه ، وقدم له أفخر الأطعمة ، كما انه من جانبه ، قـدم الى الباشا كثيراً من الهدايا التي كان قد جاءه بها .

ولا شك في ان مظاهر الترف التي أتى على وصفهـا كانت تدل على ذوق رفيع . من ذلك وصفه لتلك الحديقة التي حوت كل اصناف الفواكه : « لوز ، ودراقن ، وليمون ، وعنب ، وورود لا حصر لانواعها ، ومتنزهات عديدة ، وفوارات مياه وسرادق بديعة » . ولإتمام اللوحة « فهد مخيف مدجن ، يأكل فتات الخبز من على المائدة دون ان يؤذي احداً » . ثم يأتي على وصف المدينة : اسوارها الحصينة ، وابراجها ومساجدها ويضيف الى ذلك ذكر الحمامات الحارة (الحمامات التركية) حيث كان الرجال يغتسلون أولاً قبل ظهور الشفق ، ثم تغتسل النساء من بعدهم .

ويلاحظ ان الحركة التجارية ناشطة يقوم بها البانيانيون ، والهنود ، والفرس ، واليهود ، وان النساء محجبات ترافقهن الاماء العديدات ، كما هي الحال في تركيا . والاماء هؤلاء جلبهن من المسيحيات اللواتي يختطفهن الاتراك من انحاء الشرق . وبهذه الوسيلة عمرت هذه البلاد » .

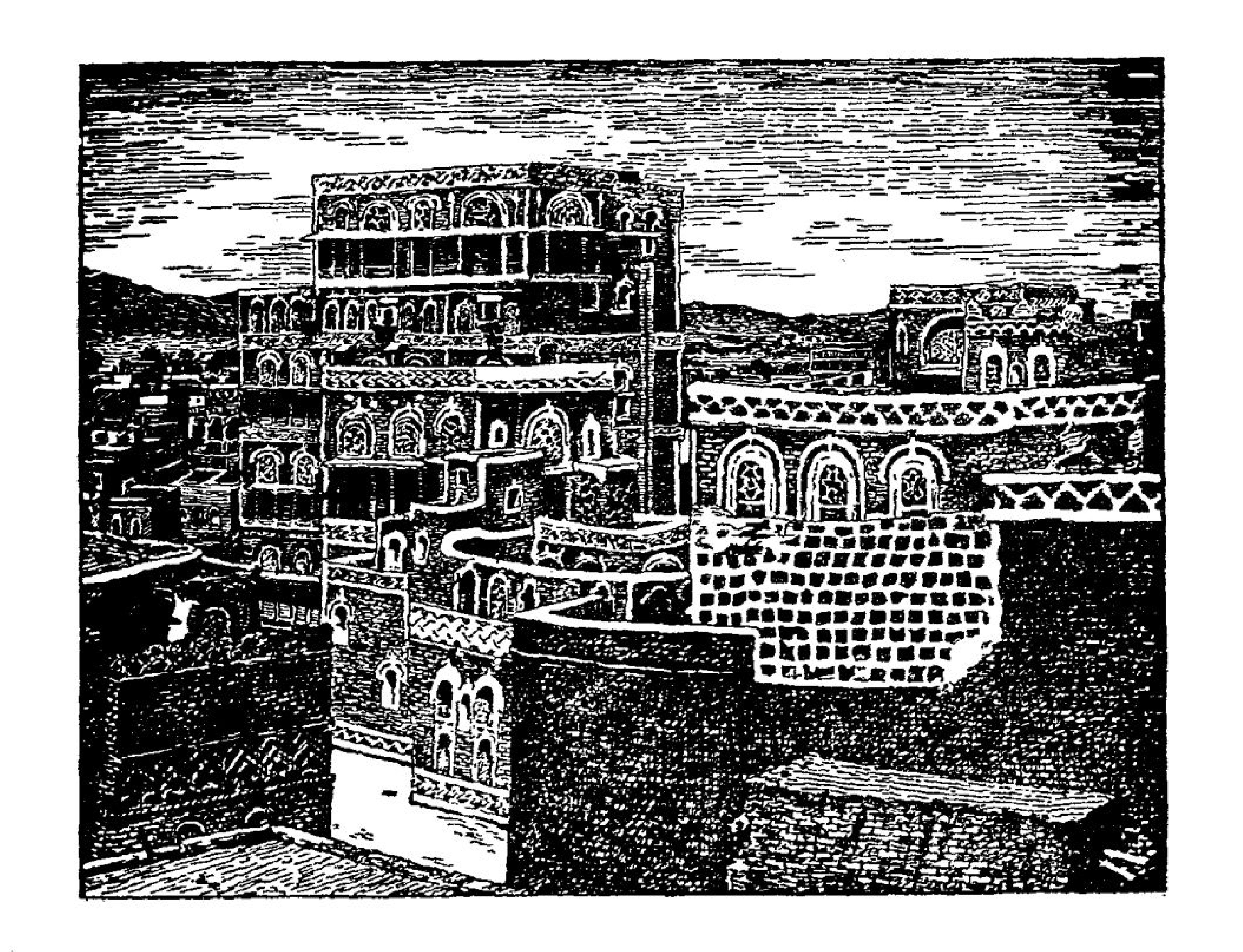
وكان الباشا نفسه بحري المنشأ ، وقـــد عين بمنصب نائب عن سيد القسطنطينية العظيم لمدة ثلاث سنوات . ولكنه في الواقع كان متربعاً على كرسي الحكم منذ تسع سنوات ، وقد سمع الناس يقولون انه سمم رجلين كانا قد أرسلا للحلول محله .

وكان هذا الباشا الكثير البذخ قد وسّع سياسة الرهائن للاحتفــــاظ بسلطته على العشائر العربية . ويذكر فان دن بروكه ان عدد هؤلاء الرهائن كان قد بلغ الألف ما بين رجال ونساء وأولاد من اخوة واخوات وابناء عظماء المقاطعات التي أخضعت بهذه الوسيلة ولم تعد تقوم بأي عصيان.

وقد رأى فان دن بروكه ، الى جانب البذخ التركي « كنزاً عظيماً ، وبقايا عديدة من الماضي ، ولاسيما منزلاً كبيراً يقـال انه بني على عهد نوح ، كانت تقيم فيه زوجات الباشا تحت حراسة بعض الخصيان ، ورأى ايضاً بالاضافة الى ذلك ، معبداً رائعـاً في مدخله قطعة كبيرة من الخشب منزّلة في بوابة من القلز يقال انها من بقايا فلك نوح . وقـــد أروه بئراً قالوا ان يعقوب قام بحفرها »

ورأى فان دن بروكه على مقربة من بئر يعقوب « أثراً قديماً اختفى اليوم ، وهو معبد مربع مقام على قطعة من الارض منبسطة ، يحتوي على مائة عمود يؤلف كل منها حجرة واحدة » .

وعلى الرغم من ان الباشا استقبله استقبالاً فخماً ، فقد اخبره انه لا يستطيع ان يوافق على طلبه بإبقـاء بعض رجاله في المخا ، لأنه لم يأت بكتـاب من سيد القسطنطينية الكبير ، إذ كان ائمة الإسلام يخشون ان يرسخ الأجانب اقدامهم شيئاً فشيئاً على مقربة من مكة . وكان البحارة



منازل قديمة في صنعاء : نقلاً عن صورة فوتوغرافية للسيدة فأيين .

غير المرتبطين بنظام ، قد اوغلوا فعلاً في غياب فان دن بروكه حتى ميناء الحديدة ، مبررين بذلك هذه المخاوف .

وهكذا ، بسبب هذا العمل الأخرق ، لم يحصل فان دن بروكه على شيء آخر غير إبقاء نسبة الرسوم ثلاثة في المائة ، الامر الذي يدل على الحظوة ، إذ كان التجار الهنود والاعجام يؤدون رسوماً تبلغ نسبتها من خمسة عشر الى ستة عشر في المائة .

وبعد ان قام فان دن بروكه بزيارة بستان آخر غاية في الروعـــة استأذن الباشا بالانصراف في السادس عشر من شهر ايار (مايو) فتلقى منه ثوباً جديداً من البروكار المذهب ، ووصل الى المخا بعد ثمانية ايام ، وأخذ منها رجاله متخلياً عن فكرة تأسيس وكالة تجارية فيها ، وتوجه الى بلاد الهند .

★

ان هذه المهمة التي أحسن فان دن بروكه القيام بها كان من المقدر لها فيما بعد ، ان تؤول الى إخفاق عاجل .

لقد حصلت الشركة في سنة ١٦١٨ على فرمان تركي للقيام بتجارة سلمية في موانىء بلاد اليمن . ولكنها أمرت بألا يتقدم رجالها نحو مكة ، اي من مرفأي ينبع وجدة . (لكن كوين رئيس مجلس الإدارة لم يستغل هذا الفرمان على الفور) .

في هذه الاثناء كانت المنافسة قد اخذت تشتد بين الهولنديين والانكليز. فقد جرت معركة ما بين قوات كوين وقوات جورداين البحرية ، الذي ارغم على خوضها رغم التفاوت ما بين قواته وقوات منافسه المفاجئة ، فلقي فيها حتفه .

وأرسل فان دن بروكه مرة اخرى إلى شبه الجزيرة العربية . فترك في عدن هرمان فان جيل ومعه كمية من البضائع ، في حين قام هو بزيارة سقطرى ، وقام فان جيل هذا بزيارة الباشا في صنعاء قبل ان يتوجه الى المخا.

في هذه الاثناء كان النزاع البحري مستمراً ما بين البرتغاليين من جهة

والانكليز والهولنديين الراغبين في وضع حد لسيطرتهم على البحار من جهة اخرى . وقد تحقق هذا الأمر ، وأصبح أمراً مقضياً في سنة ١٦٢٢ حين استولى الهولنديون على عدد من السفن البرتغالية .

كانت الاتفاقيات تقضي بألا تتعرض السفن التي تؤمن خط الهند لأي ازعاج ، ولكن الهولنديين ارتأوا مهاجمة سفن « الدّيْبُل » التي كانت تقوم بنقل بضائع برتغالية ، فدفعوا ثمن النكث بالعهود المقطوعة غالياً جداً . اذ كان العرب يعتبرون سفن « الدّيْبُل » كمصدر أكبر للربح بالنسبة إليهم . وهكذا سبب الهولنديون لأنفسهم نقمة العرب عليهم واستياءهم منهم .

وبالاضافة إلى هذا كان الحاكم الذي عينه الأتراك في صنعاء يقدم على سرقة أموال الدولة دونما حياء .

ولما توجه الهولنديون في بعثة إلى زبيد لتجديد رخصتهم ، ألقي القبض عليهم وأودعوا السجن . فقد ادعى الباشا ان الخسارة الشخصية التي أصابته من جراء احتجاز سفن « الدّيْبُل » بلغت مليونا من الريالات . كما انه أمر بتوقيف الهولنديين الذين كانوا في المخا .

وبعد ان افرج عن فان دن بروكه ، وأوقف مرة ثانية وسيق إلى صنعاء ، علم ان الباشا يرغب في شراء اموال الوكالة الهولندية التجارية إذا ما أعيدت السفن المحتجزة وأموالها إلى أصحابها . ولما رأى فان دن بروكه ان ليس في وسعه الخروج من هذه المفاوضات العقيمة ، استطاع الحصول على اذن من الحاكم في المخا بركوب البحر ، تاركاً دي ميلده رهينة .

وقد أعدم الباشا شنقاً بسبب تساهله ، وذهبت الجهود التي بذلها الهولنديون بين سنة ١٦٢٣ وسنة ١٦٢٨ للإفراج عن اسراهم ، وعن أموالهم المصادرة ، ادراج الرياح .

وعاش دي ميلده حياة اسطورية ، لم يعرفها مواطنوه إلا عن طريق السمع ، فقد سجن في صنعاء تارة ، وفي زبيد طوراً ، وكان في تعز حين اعلنت الثورة العربية على نير التسلط التركي سنة ١٦٢٦ ، وخدم

ـدي ميلده الاتراك مخلصاً ، إذ صنع لهم المدافع . ولكنه وقع أسيراً في ايدي العرب سنة ١٦٣٢ ، ولم يكن اخلاصه للاتراك بما يشفع به .

وقـــد اضطر الهولنديون الى التخلي عن امل الافراج عنه ، والى متابعة اعمالهم التجارية في بلاد العرب ، حيث كانت الثورة قد شلت كل وسائل النقل التجارية بالقوافل والمراكب على السواء .

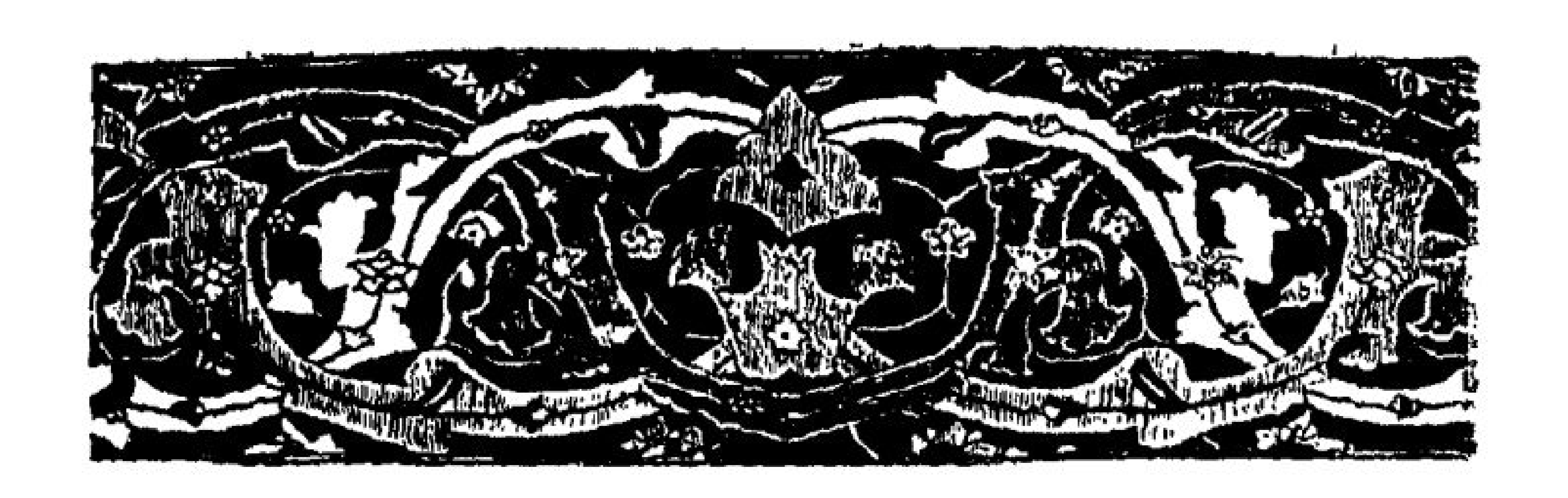
على ان احد القبـاطنة الهولنديين قام بآخر محاولة في سنة ١٦٢٨ إذ ابتاع اربعين بالة من البن ، وكان البضاعـة التجارية الرئيسية في المخا ، وقد وصلت هذه الكمية إلى بلاد هولندة في سنة ١٦٣٣

كانت أوروبة مزمعة ان تتذوق هذا المشروب العربي ، والى درجـة ان شبه جزيرة العرب اصبحت في نظر ابناء القرن الثامن عشر بلاد البن قبل اي شيء آخر .

لقد كان البن في القرن الثامن عشر موضوع نزاع مستمر نشب على طريق بلاد الأفاويه ما بين شركات الهند الشرقية . وكان من المقدر للسيادة البحرية والتجارية التي فرضهـا البرتغاليون خلال القرن السابق ، الا تعيش زمنـاً اطول بالنظر الى الجهود المشتركة التي بذلها الانكليز والهولنديون لتحطيمها .

اما بالنسبة الى بلاد العرب نفسها ، فقد كان هـــذا القرن ، عصر تسلط الحكام الاتراك الميالين الى البذخ ، وسرقة أموال الدولة ، والذين كان الفضل لفان دن بروكه في اطلاعنا على نمط معيشتهم ، المقتبس كلياً عن بلاد الفرس ، والشبيه بطراز الحياة في قصص ألف ليلة وليلة .

وفي القرن الثامن عشر تقلص ظل هؤلاء الحكام الذين جرفتهم موجة الثورات العربية العارمة ، وتخلص العرب من الأتراك الذين طردوا من البلاد طرداً تاماً .



الحجاج الى مكة

ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات ، مقام ابراهيم ومن دخله كان آمناً ، ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين .

(سورة آل عمران ٩٧ و ٩٨)

الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقون يأولي الألباب . ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام ، واذكروه كما هداكم وان كنتم من قبله لمن الضالين . ثم أفيضوا من حيث افاض الناس واستغفروا الله ان الله غفور رحيم . فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا ، فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق .

(سورة البقرة ١٩٨ - ٢٠١)

فيما كانت أبواب العربية السعيدة تفتح أمام الغربيين الذين يؤمون سواحلها سعياً وراء المصالح التجارية ، كانت منطقة المدن الاسلامية المقدسة محروسة حراسة مشددة خشية أن يتسلل إليها أحد الأوروبيين ، وكانت موانىء هذه المنطقة محرّماً عليهم دخولها .

لقد كان محظوراً على غير المسلمين تحت طائلة عقوبة الموت ، دخول الأرض المقدسة الواقعة حول مسجد مكة . وكان الدخول الى هذه المنطقة ، والسير نحو « بيت الله » لاحراز الرحمة السماوية ، حلم كل مسلم مؤمن ، حلماً يحاول المستحيل كي يحققه ، مرة واحدة في حياته على الأقل . لذا فقد كان المؤمنون من جميع اقطار العالم الاسلامي يسلكون مختلف الطرق المؤدية إلى مكة .

وفي الفترة الواقعة ما بين عام ١٦٠٤ وعام ١٧٣٩ ، ترك لنا أربعة من مشاهير الحجاج ذكريات رحلاتهم ، وقد جاء أحدهم من القسطنطينية ، والثاني من بلاد الهند ، والثالث من مدينة الجزائر ، أما الرابع وكان المسلم الوحيد فيما بينهم ، فقد قدم من بلاد الفرس .

قام بزيارة الأماكن المقدسة في سنة ١٦٤٣ رحالة غريب ، متنكر ، لم يكن سوى المطران ماثيو دي كاسترو ، القاصد الرسولي في بلاد الهند . ولهذا الرجل ، في تاريخ الكنيسة ، أهمية خاصة ، لأنه وقد ولد براهمياً في جزيرة واقعة الى الشمال من غوا في بلاد الهند البرتغالية ، كان أول كاهن ، ثم مطران ، من سكان تلك البلاد الأصليين ، وهذا ما يفسر قصته المضطربة ، الكثيرة الحركة ، المفعمة بالانفعالات المختلفة .

لقد كان البرتغاليون ، في الواقع ، يريدون الاحتفاظ باحتكار الارساليات الكاثوليكية إلى بلاد الهند . ولكن رومة كانت تدرك جيداً الخطر الكامن في ربط النصرانية بالاستعمار ، وفي ترك السلطة العليا على إدارة الارساليات لملك البرتغال . لذا فقد حلمت بانشاء اكليروس من سكان البلاد أنفسهم ، قادر على نشر بشارة الانجيل في البلدان البعيدة ، بأكثر

ما يكون من التفهم ، وخارج نطاق كل اعتبـــار سياسي او اقتصادي ، ولكن البرتغاليين لم يكن ليرضيهم قط أن يروا اكليريكيين من أهـــالي البلاد . وحينئـذ قرر ماثيو الشاب ، وقد رأى ان من المتعـذر عليه في بلاده الانخراط في سلك الاكليروس ، ان يذهب الى رومـة سعيـاً وراء تحقيق هدفه المنشود ، فوصل الى مدينة القدس ، حيث تعلم اللاهوت خلال سنوات عديدة ، ولم يلبث ان نال لقب ملفان في اللاهوت ، وسيم ، لا كاهناً فحسب ، بل قاصداً رسولياً ، مكلفاً من رومـــة مباشرة ، بانشاء ارسالية خارج حدود البلدان التي فتحها البرتغاليون ، وزود بصلاحية سيامة أهالي البلاد .

وكانت عودته الى بلاد الهند إيذاناً بحملة شعواء شنها عليه البرتغاليون ، زادها عنفاً مزاجه العصبي ، وقلة حنكته الديبلوماسية . ولم يلبث وقـــد رأى التهم تكال لارسالبته جزافاً ، وكهنته يلقون في غياهب السجون ، وخشي أن يكون مصيره هو مماثلاً لمصيرهم ، ان قرر مراجعة رومة . فقام برحلته الى مصر براً ، ماراً بشبه الجزيرة العربية ، خوفاً من أن يقع في قبضة البرتغاليين فيما إذا سلك طريق البحر .

وهكذا لقيه ذات يوم في المخا انطونيو دي آلميدا اليسوعي فادعى أنه الكاهن القائم بخدمة المطران ماثيو دي كاسترو ، وطلب من انطونيو ان يقرضه بعض المال مقابل سند يُدفع في المطرانية . فأعطاه دي آلميدا بعض المال ، ولم يعرف الا فيما بعد ، ان الرجل الذي استقرضه المال انما كان المطران نفسه ، وأنه بعد ان افترق عنه قام بزيارة قبر النبي وبلغ بلاد مصر ثم رومة سالماً معافى . ولا شك في انـه — إذا صحت روايتـه — الكاهن المسيحي الوحيد ، أو بالأحرى المطران والقاصد الرسولي الوحيـد الذي قام بزيارة المدن الاسلامية المقدسة ، ولكنه لم يكتب بنفسه شيئـاً عن ذلك .

وقد روى فيما بعد ، شابان وقعا في الأسر ، واشتريا كعبدين ، قصة الحوادث السيئة التي ساقتهما الى المدن المقدسة . وكان أحدهما جوهان فايلدن من مواليد نورمبرغ ، الذي كان يؤدي خدمته العسكرية في الجيش الأمبراطوري في المجر ، فأسره الأتراك واقتادوه الى القسطنطينية . وقد جاء به سيده سنة ١٦٠٤ إلى مكة والمدينة لاداء فريضة الحج . ولما استعاد حريته في سنة ١٦١١ ، وعاد إلى وطنه قام بكتابة مذكراته عن هذه الرحلة .

أما ثانيهما فقد كان شاباً انكليزياً يدعى جوزف بيتس دكسيتر ، اختطفه أحد القراصنة الجزائريين سنة ١٦٧٨ وهو ما يزال في الخامسة عشرة من عمره ، وباعه من ضابط خيالة قرر أن يجعل منه مسلماً . وقد قام بالحج الى الأماكن المقدسة برفقة سيده ، بعد ذلك بعدة سنوات . وهناك اعتقه سيده من الرق . وفيما كان يقوم بالخدمة بالاجرة ، كان يسعى للعثور على وسيلة تمكنه من مغادرة البلاد . فانخرط في سلك الجندية ، وأصبح من أفراد كوكبة الخيالة التي أرسلها السلطان العثماني إلى الجزائر ، وفي الطريق لاذ جوزف دكسيتر بالفرار في مدينة ازمير ، ومن هناك تمكن من الوصول إلى بلاد الانكليز .

ولم تُعرف القصة التي نشرها في بلاد الانكليز سنة ١٧٠٤ الا في هذه البلاد نفسها ، ويبدو ان ما من احد عرف لها قدراً هناك . ولكننا عندما نقرأ الآن ما كتبه عن الحج وعن المدينتين المقدستين ، تتملكنا الدهشة لدقة التفاصيل .

لا شك في أن الرق الحدث كان متوقد الذكاء ، ولم تكن عيناه في جيبه . وقد رسم الأشياء ودون أي تنميق ، بموضوعية تستلفت النظر . وتمكن من التعمق في فهم عقلية الحجاج الدينية ، فوصفها باحترام كلي ، رغم أنه لم يؤمن بما يؤمنون . وهكذا يصف لنا الاحترام الفائق الذي يُخص به الأولياء ، ويزيد في أهمية هذه الشهادة ، اقدام الوهابيين على

على الغاء هذه العادة ، وعدم وجود أي وصف قديم لها .

يقول في قصته : « بعد ان انقضى اثنا عشر يوماً على ابحارنا من السويس ، وصلنا الى مكان اقيم فيه على الساحل قبر لأحد الحبساء المسلمين ، أي أحد الأولياء ، او المشاهير بتدينهم وتقواهم ، وكان قد انقضى على وفاته بضع مئات من السنين . فلما بلغنا ذلك المكان ، قام أحد البحارة بموافقة بقية رفاقه ، بصنع قارب صغير ، يبلغ طوله قدمين تقريباً ، وجاء كل حاج يرغب في اظهار إحسانه إكراماً لذلك الحبيس ، فأخذ منه بعض الدراهم لتلك الغاية . حينئذ اخذوا شموعاً صغيرة ، وقارورة من الزيت ، ووضعوها في القارب مع المال المجموع . ولكنني اعتقد انهم لم يضعوا في القارب الا جزءاً يسيراً من المال ، واستبقوا معظمه لأنفسهم وبعد أن فعلوا ذلك ، رفعوا أيديهم سائلين الحبيس بركته وأدعيته من أجل توفيقهم في رحلتهم . ثم أنزلوا القارب الى البحر ، وهم لا يشكون أبداً في أنه سيبلغ قبر الحبيس لمؤانسته ، رغم ان موقعه موحش .

« لقد توفي هذا الحبيس ، حسبما تروي سيرهم ، اثناء رحلة قام بها إلى مكة ، لذلك تراهم يجلون ذكراه كل ذلك الاجلال . »

وهو يلاحظ بعد انقضاء بضعة أيام على ذلك ، عادة اساسية من العادات التي تمارس في الحج ، ويظهر احسن من اي شاهد آخر سبقه ، قيمة الاحرام ، فيقول : « في رابغ على بعد مسيرة أربعة ايام من مكة ، يحرم الذكور من الحجاج ، اي انهم يخلعون ثيابهم ويأتزرون بحرامين او وشاحين كبيرين من القطن الأبيض . يأزرون وسط جسمهم بالأول فيصل حتى كعبي القدمين ، ويغطون بالآخر القسم الأعلى من الجسم عدا الرأس ، ولا يلبسون اي شيء آخر ، وانما ينتعلون حذاء ذا نعل رقيق لا يغطي وجهه سوى أصابع القدمين . ويسيرون على هذا الشكل ، كتائبين متواضعين من رابغ إلى مكة للاقتراب من المسجد ، مكابدين حرارة الشمس اللاهبة التي تقشر جلود ظهورهم وأذرعهم ، وتنفخ رؤوسهم نفخاً

شديدا ، طوال المدة التي يرتدون فيها ثوب الاحرام المتواضع ، والتي تبلغ سبعة ايام على وجــه التقريب ، يراقبون مزاجهم مراقبة شديدة ، ويحترسون من شهواتهم كل الاحتراس ، ويفرضون على ألسنتهم مراقبــة صارمة ، ولا ينفكون يتلفظون بعبارات التقوى ، ويحرصون على ان يظلوا على وفاق وسلام مع من يحتمل ان يختلفوا معهم ، ويعتبرون إثما ، وشيئاً مخزياً ، ان يضمروا السوء لأي كان من الناس . »

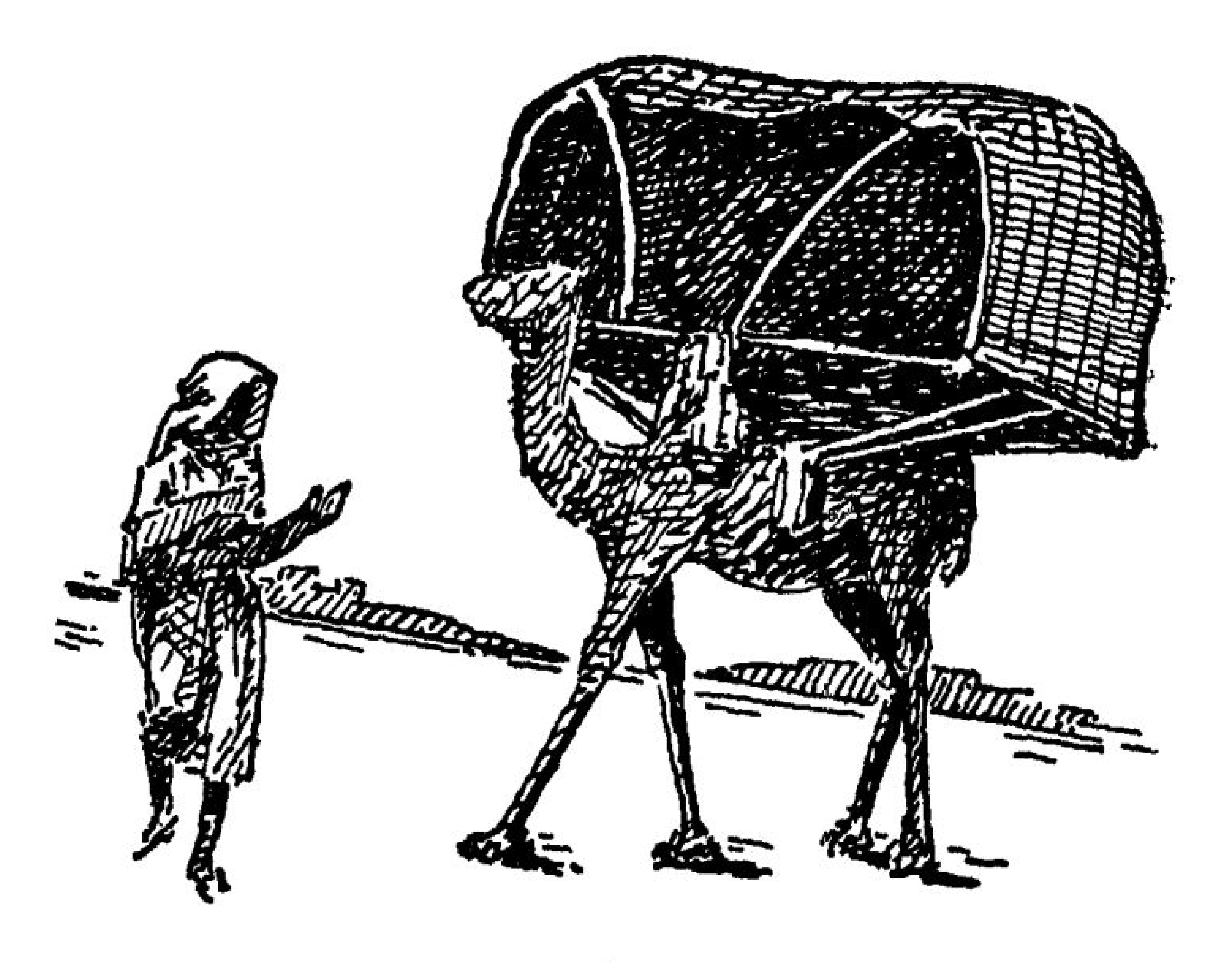
اننا نعتقد ان ما من احد غيره استطاع ان يصف بمثل هذه الموضوعية المدركة الاستعداد الديني الذي تكون عليه جماهير الحجاج الى مكة .

سنرى في القرن التاسع عشر ، علي بك ، يشرح شرحاً فلسفياً العمل التقوي الأكبر في الحج : الاجتماع على جبل عرفات . ولكن بيتس "دكستير قد فهم احسن من غيره معنى ذلك من وجهة النظر الاسلامية اذ قــال : « لقد كان مشهــداً قادراً ، في الحقيقة ، على اختراق القلب ، ان يرى الانسان تلك الالوف المؤلفة من الرجال المرتدين ثوب التواضع ، وأماتة الجسد ، مكشوفي الرؤوس ، وقد بللت الدموع خدودهم ، ويستمع إلى زفرات الحزن وتنهداته التي تصعدهــا صدورهم ، وهم يستغفرون الله خطاياهم ، ويعاهدونه ان يحيوا حياة متجددة . »

ويصحح بيتس بعض الأخطاء والمبالغات التي يجدها في الكتب المعاصرة له ، ويصف وصفاً بالغ الصحة الاماكن والشعائر (خلا خطأ يتعلق بما يظنه قبراً لإبراهيم ، ولو عُرف كتابه ، وُقدّر قدره ، لما تبقى لعلي بك في سنة ١٨٠٧ ما يطلع اوروبة عليه بهذا الشأن .)

ولكن ربما لم يكن من الممكن ان يفتتن القرن السابع عشر بوصف ذي موضوعية لا تصنّع فيها ، تؤلف لحناً مفرط الواقعية .

ولكنني لا اعتقد ان في الامكان ، مثلاً ، اعطاء وصف اكثر امانة وحيوية عن تنظيم القافلة ، من الوصف الذي اورده :



هودج على ظهر جمل .

« في اليوم الاول لمغادرتنا مكة لم يكن هنالك اي نظام ، بل كانت الفوضى ضاربة أطنابها ، ولكن في اليوم التالي بذل كل واحد جهده للتقدم الى الامام ، وكان هذا سبباً في وقوع منازعات ، ومشاجرات كبيرة . ولكن حين اخذ كل واحد مكانه في القافلة ، حافظ الجميع على امكنتهم بنظام وهدوء ، حتى وصلت القافلة الى القاهرة . وكانت اربعة جمال تسير في المقدمة ، يتبعها الجميع في صف وقد ربط كل منها إلى الآخر .

« يُدعى مجموع هذه الجمال قافلة . وهي تقسم الى عدة قطر لكل منها اسمه ، وهو يضم عدة مئات من الجمال . وتتحرك القافلة كل قطر في اثر الآخر ، كجيوش منفصل بعضها عن بعض . وعلى رأس كل قطر

سيد كبير ، أو ضابط محمول في هودج على ظهر جملين احدهما الى الأمام والآخر الى الوراء ، مكسو بقماش مشمع يعلوه قمـــاش أخضر انيق الترتيب .. ويسير ايضاً في مقدمة كل قطر جمل مجلل يحمل اموال القافلة ، وقد علّق له على جانبيه جرسان يسمع رنينها من بعيد . وحول أعناق بعض الجمـال ، وحول قوائم البعض الآخر ، جلاجل مستديرة ، يضاف الى رنينها اصوات الخدم السائرين على الاقدام على مقربـــة من الجمال ، والذين لا ينفكون يحدون طوال الليل ، فتتألف من مجموع تلك الاصوات ضجة سارة جداً ، وتتواصل الرحلة مفعمةً لذة . وهم يقولون ان هذه الموسيقى تزيد الجمال خفة وحيوية . وهكذا تسير القافلة في نظام تام كل يوم ، ولولاه لسادت الفوضى والبلبلة بين جماهير غفيرة العدد كالجماهير التي تضمها القافلة .

« وعندهم في الليل ، وهو الوقت الرئيسي للسفر بسبب حرارة الشمس المحرقة ، اضواء يرفعونهـا على رؤوس ، نوعٍ من الصواري لهداية الحجاج في سيرهم ، وهي مواقد من النحاس تشعل فيها كسارة الحطب اليابس التي يحملها احد الجمال في اخراج كبيرة احدثت في اسفلها فتحة يستطيع الخادم ان يخرج منها الحطب كلما احتاجت النار الى شيء من الوقود . ولكل قطر ساريته الخاصة التي يعلق في أعلاها عشرة مواقد او اثنا عشر موقداً ، ولكل قطر شكلُ مواقده الخاص . فبعضها بيضوي ، والبعض مثلث ، والبعض مستطيل ، والبعض الآخر بأشكال حروف هجائيـــة تسهل على من في القافلة تبين القطر الذي ينتسب إليه . وتُحمل هـــذه الصواري في مقدمة القطر ، وتنصب الواحدة قرب الاخرى عندما تتوقف القافلة للاستراحة . وهي ترفع خلال النهـار ايضاً غير موقدة ، فيعرف الحجاج من شكل المواقد وعددها القطر الذي إليه ينتمون . »

كان جوزف بيتس قد رأى هذه القافلة تخرج من مدينـة الجزائر ، وتقام لها الأفراح اينما مرت . ولكن قافلة الحجاج انما كانت تأخذ أوج روعتها في القاهرة . وقـــد كتب عالم اكليريكي ايرلندي اسمه ريتشرد بوكوك ، زار القاهرة وسيناء سنة ١٧٣٩ ، في جملة الرحلات التي قام بها ، وصفاً حياً لتشكيل القافلة في القاهرة .

إن أولى حفـلات الحج في الواقع ، هي الحفلة الفخمة التي تنقل بهـا إلى القافلة الكسوة التي تُغطى بها الكعبة وقبر النبي في المدينة ، هذه الكسوة التي تُصنع في القصر المصري خلال السنة .

في اليوم الثالث من عيـــد الفطر الذي يلي صوم رمضان ، يتوجه موكب للمجيء بالكسوة من القصر الى مسجد الحسن . « ويؤلف هذا الموكب جميع شيوخ المساجد ، والهيئات التجارية المختلفـــة ، تتقدمهم الأعلام . » وعندئذ تخرج الكسى فيتسابق الناس الى لمسهـا ولثم ايديهم ورفعها الى رؤوسهم .. وتصل الجمعيـــات المختلفة رافعة بيارقها ، تتقدم اولاها جوقات موسيقية ، والاخرى جماعات الراقصين ، وكان بعض هؤلاء يبدون في حالة اختطاف ديني ، ويقومون بألوف الحركات بأيديهم ورؤوسهم ، والبعض لا يرتدون سوى سراويل قصيرة ، والبعض الآخر يغيبون عن الوعي كمن قد قطعت انفاسهم . » ثم يأتي المحمل ، كساء قبر النبي ، الموشى بالذهب على احمر واخضر ، يحمله جمل صبغ بالحناء .

ويقول بوكوك : « لقـد علمت ان هذه الجمال تربى لهـذه الغاية ، وانها لا تستخدم لأي عمل آخر لأنهـــا تعتبر شبه مقدسة . وأكد لي بعضهم ، ان الاتراك كانوا في فورة حماستهم ، يجمعون الزبد الذي يخرج من افواه هذه الجمال للتبرك به ، وتكسو الجمل بكامله تقريباً أقمشة البروكار الفاخرة ، والاجواخ الغالية الثمن ، وكلها موشاة ، ويتبع هـذا الجمل ثلاثة جمال لا يقل جهازها عن جهـــازه فخامة ، ثم ستة جمال اخرى يمتطيها ستة احداث . » ويليه كساء قبر ابرهيم ، ثم فرقة « الاشاوس »

ثم ضابط كبير من الباشوات يتبعه وكيل خزانة الكسوة المكلف بكل ما يُرسل الى مكة ، والذي يركب جواداً رائع العـــدة ، ثم يأتي الانكشاريون ، وضباط الباشا يتقدمون كساء الكعبة .

ويتوقف الحملة بين الحين والآخر ليتسنى للشعب لمس الكسوة ، وأخيراً تأتي القافلة ، بكل ما فيها من ضروب الزينة . « فقد زين كل من الجمال الخمسة التي تتقدم كل جماعة ، بريشة نعامة حمراء رائعة جُعلت على رأسه وأخرى على خطامه ، وتدلت على جانبي رأسه شرابـة صغيرة زين اعلاها بريشة من اللون ذاته . وزينت عُدد هذه الجمال بالأصداف . وتدلى على جانبي رأس كلٍّ من الجملين الثاني والثالث جرس طوله قدم تقريباً بالإضافة الى الزينة المذكورة . »

تخرج القافلة دون انتظام متجهة نحو « سبيل علام » الواقعة على بعد ثلاثة او اربعة اميال من القاهرة ، حيث تخيم ثلاثة ايام . ثم تتجه الى البحيرة حيث تخيم ، ولا يعود امير الحج الى القاهرة ابداً . ولا يستطيع المرء ان يرى شيئاً أجمل من هذا المخيم ، فجميع العظماء ينصبون خيامهم هناك ، ويقضون الوقت في المآدب والأفراح ، ويقصده جميع السكان ليسهموا في العيد ، وتنتهي الأمسية بإيقاد نيران الفرح والألعاب النارية .

بعد خروج موكب الكسى تبدأ القافلة المؤلفة من اربعين ألف نسمة ، سيرها وتقوم بالاعمال التجارية الهـــامة ، على هامش الحج ، وتعود منه محملة ببضائع بلاد فارس وبلاد الهند .

هكذا كان الناس يستطيعون ان يروا قافلة الحج المنطلقة من الـقاهرة في مطلع القرن الثامن عشر ، وربمـــا كانت شبيهة بالقوافل التي كانت تنطلق منها في ايام جوزف بيتس قبل ذلك بخمسين عاماً .

★

اما القافلة الاخرى التي كانت تنطلق من دمشق ، فإن طريقهـــا لم

يكن سهلاً عبر العربية البتراء المقفرة ، كما علمنا من مذكرات دي فارتيما.

وبعد انقضاء سنتين على إقامة بوكوك في القاهرة ، كتب لنا عبد الكريم ، احد نبلاء كشمير قصة حجه من بغداد الى مكة ، مع قافلة دمشق .

كان وهو المسلم الذي تضطرم العاطفة الدينية في صدره متشوقاً الى ان يؤدي هذه الفريضة الاسلامية ، فحصل على اذن من عاهله طهماز قولي خان ، بأن يرافق رئيس اطبـــاء البلاط ابوبي خان ، الى مكة المكرمة .

وفي دمشق عين لكل حاج مكانه في القافلة ، واتخذت كل فصيلة من الجمال مكانها بسرعة ، ثم بدأ السير .

« اذا كانت المحطات متباعدة كثيراً ، تسير القافلة ليلاً ونهاراً ، ولا تتوقف إلا ساعة واحدة في موعد كل صلاة من الصلوات الخمس ، وخلال هذه الاستراحة القصيرة تبرك الجمال وهي محملة . وتعطى القافلة ، بالإضافة الى ذلك ، استراحة في منتصف الليل مدتها ساعة ، ويطلق امير الحج اثناء الليل سهماً نارياً ، ليعلم من هم في المؤخرة ان القافلة ستتوقف . ويتنقل جنود امير الحج من مكان الى مكان .

« وفي المحطة الثالثة بعد دمشق ، تتزود القافلة بكل ما تحتاج إليه استعداداً لقطع الصحراء . فيأتيها البدو ليبيعوا الحجاج منتوجاتهم . وبعد ان تكون القافلة قد اكملت استعدادها وتموينها بالأرزاق ، تستأنف السير.

« وعند اجتيـاز القافلة الجبال التي أقدمت فيها عشيرة ثمود على قطع بطات قوائم جمل النبي ، قامت القافلة بإطلاق النار دفعة واحدة بكل ما لديها من اسلحة نارية ، وقرعت الطبول ، وتعالى التصفيق ، فأحدث ذلك ضجة شديدة ، ويدعي سائقو الجمال ان جمالهم تقضي نحبها حزنـــاً وهي تسمع أنين جمل النبي ، إذا هم لم يحدثوا تلك الضجة . »

واجتازت القافلة منطقة « سدوم وعمورة » التي اتى دي فارتيما على ذكرها ، والتي لا تبعد كثيراً عن منطقة خيبر ، ويقول عبد الكريم :

« ما يزال يقيم هناك عدد كبير من اليهود الذين يعتقدون ان ما من شيء يسر الله اكثر من ذبح حاج يوم مكـــة .. وعلى الرغم من جميع الاحتياطات الحكيمة التي اتخذهـــا امير الحج ، لم يتمكن من الحيلولة دون اختطاف ثلاثة حجاج من القافلة ، وقتلهم رميـــاً برصاص البنادق .. »

وهو يذكر على غرار بيتس ، ما يُدخله الى النفس من سرور ، منظر ذلك العـــدد الكبير من الاضواء المنتشرة في كل القافلة ، والتي تؤلف اثارة متنقلة ، وحداء سائقي الجمال ، وذلك بما يعوض بعض الشيء عن التعب الشديد الذي يدرك السائر في الصحراء .

« ومن الممكن تحمل التعب لولا القلق الذي يوحيـــه الى النفس باستمرار البدو من العرب . وفي وسعي ان اضع مجلداً ضخمـــاً عن الحيل التي يلجأ اليها هؤلاء اللصوص ، ولكن الذين لا يعرفونهم ربمـــا اتهموني بالتلفيق او المبالغة . ويكفي ان اذكر هنا بعض الحيل الاكثر استعمالاً ، فبينما يكون ، مثلاً ، اكثر افراد القافلة نائمين في الليـــل على ظهور الجمال السائرة ، وقـــد اضناهم التعب ، يقترب خمسة او ستة من البدو ، من الجمـــال التي يبدو انها أثمن حملاً من غيرها . ومن المعروف ان حمل الجمل مرتب بحيث تكون البضائع إلى جانب ، ومؤونة الطريق الى الجانب الآخر . فبينما يفتح بعضهم الحمل وينتزعون منه البضائع يسند البعض الآخر المؤن من الجانب الآخر لئلا تقع ، فتوقظ المسافر الذي لا بد من ان ينذر القافلة بالخطر . ولكنهم لا يكادون يُفرغون رزمة البضائع ، حتى يرخوا كل شيء ويلوذوا بالفرار ، وتثور ثائرة الجمـــل لدى رؤيته صاحبه وما تبقى من الحمولة يسقطان على الارض ، ويتملكه الذعر ويحاول التخلص من رفاقه . وغالباً ما يوطأ صاحب الجمل باخفاف بعيره في غمرة تلك الضجة فيفقد حياته ..

« والأعراب يجرون بسرعة فائقة .. فقد كان احد وجهـــاء شيراز

يتوضأ ذات يوم ، فأقبل اعرابي من ورائه واختطف ابريق وضوئه ، وراح يجري كالسهم . »

وسنرى فيا بعد ، بفضل دارفيو ، وبور كهاردت بأية روح رياضية ، وبأي مفهوم ترتبط هذه السرقات من وجهة نظر البدو .

واخيراً وصل عبد الكريم مع القافلة الى المدينة بعد ان قضى احد رفاقه نحبه اعياء .

الوصف الذي يخص به عبد الكريم المدن المقدسة لا اهمية خاصة له بالنسبة إلينا ، لأنه قد اقتبسه من كتاب كارستن نيبور ، مضيفاً إليه ما تثيره في النفس رؤية الهدايا النفيسة المقدمة لقبر النبي في المدينة ، التي يقوم بحراستها اربعون خصياً يظن ان الطمع لن يدفعهم الى سرقتها لانعدام ذريتهم .

وهو يورد ايضاً وصفاً مقتبساً عن الكاتب التركي كاتب شلبي ، للأرض المقدسة في مكة فيقول : « ان هذه الارض تمتد الى مسيرة ثلاثة اميال من جهة المدينة ، والى سبعة اميال من جهة اليمن والعراق ، والى عشرة اميال من جهة جدة . وتعتبر كل هذه البقعة والجبال التي تشملها اراضي مقدسة . »

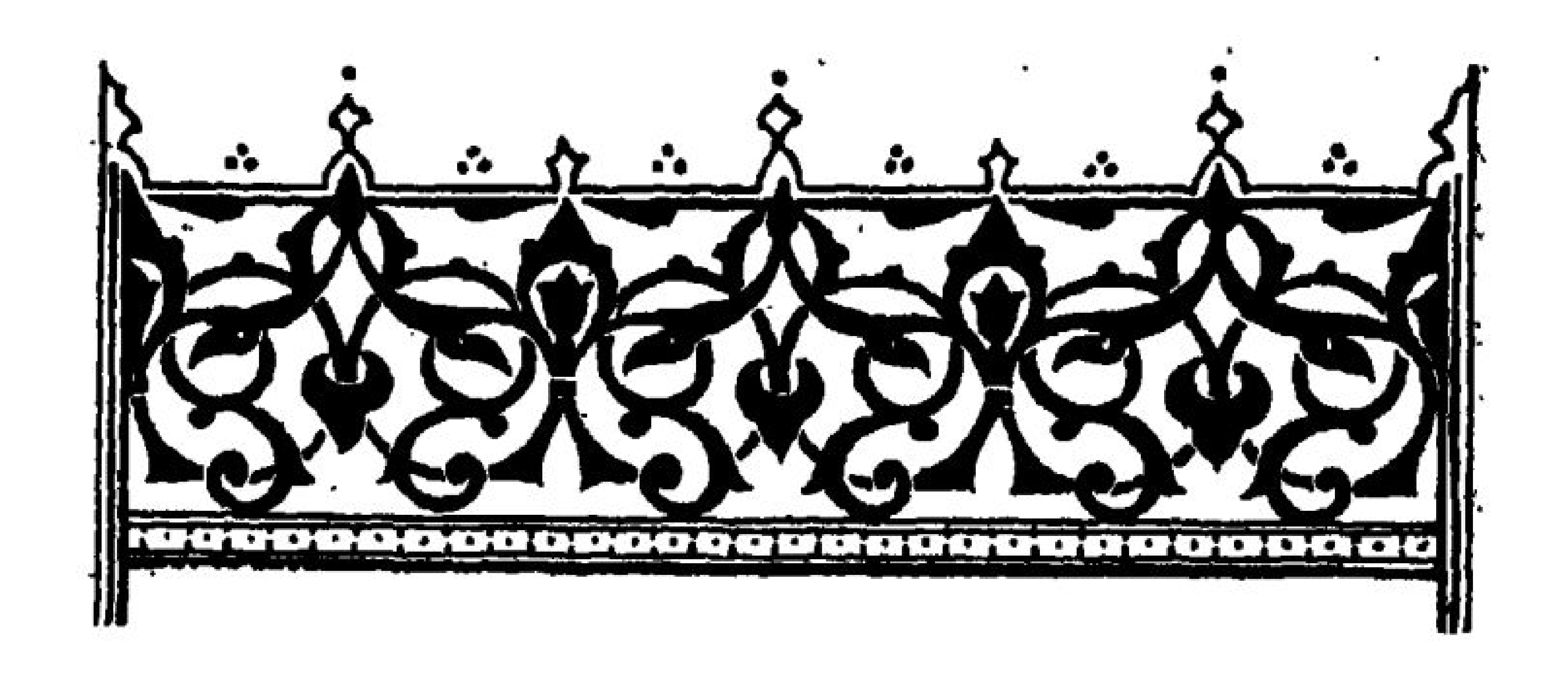
ويشدد عبد الكريم على جبل ابي قبيس من بين هذه الجبال للاسباب التالية : ١ - لقد نقل الله اليه الحجر الاسود . ٢ - لقد دفن فيه آدم . ٣ - أطل ابرهيم من على قمته ، ودعا جميع شعوب الارض الى زيارة الكعبة . ٤ - في اعلاه اجترح النبي اعجوبة شطر القمر باشارة من يده . ولكي يخلد المسلمون الأول ذكرى هذه الاعجوبة شادوا في أعلاه بناء يشبه المغارة أسموه « محل شق القمر » . وهذا البناء من الاماكن التي يرجح ان الوهابيين قد حرّموا إقامة شعائر التعبد فيها ، ولن يُعثر له على ذكر في قصص الرحالين الذين قصدوا شبه جزيرة العرب فيا بعد .

وبعد ان حج عبد الكريم الذي تبدو قصته ضعيفة جداً من ناحية المعلومات الجديدة التي تتضمنها ، وقضى ثلاثة اشهر في مكة ، أبحر الى جدة في طريقه الى البنغال التي وصل اليها سنة ١٧٤٢ .

★

كانت الحاجة ما تزال تدعو الى الحصول على وصف دقيق شامل للأراضي المقدسة ، ولكن كان قد اصبح في الإمكان على الاقل ان يتصور المرء ، منذ ذلك الوقت فصاعداً ، ايمان الحاج وتسليمه المفرط ، والقيمة الدينية الصحيحة لتأدية فريضة الحج لدى المسلمين ، وان يتصور القافلتين القادمتين إلى الاراضي المقدسة ، احداهما من دمشق والاخرى من القاهرة ، عبر المشاق ، والاخطار ، في مظاهر متضاربة من الفاقة ، والبذخ ، وهما تحملان حجاجاً مؤمنين من اقصى انحاء العالم الاسلامي .





بـلاد البن

كانت الجزيرة العربية طوال عصور عديدة بـلد الطيوب والعطور ، وساحل الطريق البحرية الى بلاد الهند ، إلا أنها غدت في القرن الثامن عشر ، لمدة طويلة ، بلاد البن .

ولا شيء يعطي فكرة عما كانت عليه بلاد العرب آنئذ ، وما كانت تمثله للأوروبيين ، أفضل من الفكرة التي أعطاها الكتيب المسمى « رحلة إلى العربية السعيدة » الذي وضعه دي لاروك النبيل الفرنسي ، المشبع بروح التطلع والموضوعية والنقد ، واختيار الأحسن ، التي اتصف بها واضعو الموسوعات في ذلك العصر .

لقد تمكن دي لاروك من جمع الرسائل والكتب التي خطها بحارة سان مالو الذين كانوا قد قاموا برحلة إلى اليمن في سنتي ١٧٠٨ و ١٧١٠ أولاً ، ثم في سنتي ١٧١١ و ١٧١٣ فنشرها بشكل رسائل . ولم يكن أولئك البريطانيون قد ركبوا البحار إلى تلك البلاد النائية إلا سعياً وراء البن الذي كان مبتغاهم الوحيد في تينك الرحلتين .

لقد اهتم الطبيب الجراح — على ظهر احدى تلك السفن ، وكان قوي

الملاحظة ، عالماً في الطبيعيات — بقضاء اوقات فراغه على اليابسة للحصول على معلومات عن زراعة تلك الشجرة الثمينة وتصويرها . وقد نشر دي لاروك هذه المعلومات بشكل بحث صغير ، وأهاب به فضوله من جهة أخرى ، الى جمع كل ما أمكنه جمعه من المعلومات والكتب عن البن . فتفحص بعين الناقد المدقق كل الأبحاث التي كتبت في الموضوع ، ولزم — بنوع خاص — جانب الكتاب الذي كان قد وضعه السيد دي غالند نقلاً عن كتابين عربيين وضعا في الموضوع ، في ذلك الوقت .

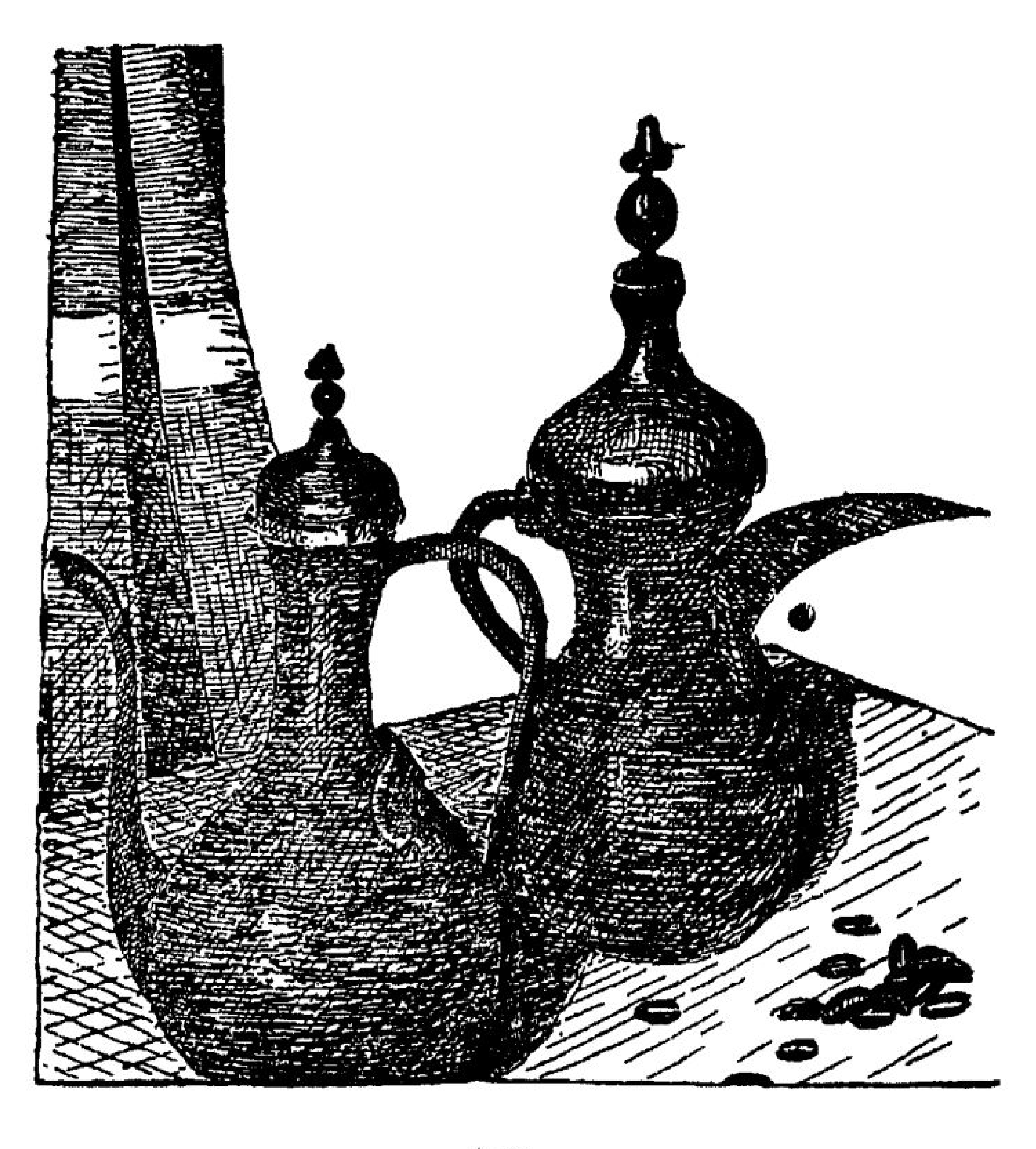
وكان دي لاروك ابن رحالة كبير من مرسيليا جاء بالبن الى فرنسا لاستعماله الخاص منذ سنة ١٦٤٤ ، كما كان باريسي الأصل متضلعاً من تاريخ مدينته ، فأضاف الى كل ما تمكن من جمعه ، قصة انتشار البن في فرنسا وفي مدينة باريس . حتى انه نشر نخبة من القصائد باللاتينية والفرنسية ، لم يأنف ألمع رجال الفكر والأدب من نظمها في مدح « هذا المشروب المفيد » الذي خصه جان سيباسقيان باخ نفسه بأحد ألحانه .

لقد شاع استعمال البن في بلادنا الى درجة رسخ معها في اذهاننا الاعتقاد بأنه كان مستعملاً عندنا منذ أقدم الأزمنة ، وشق علينا التصديق بأن استعماله لم ينتشر في بلاد الشرق إلا منذ أربعة قرون خلت ، في حين أنه لم يمض على استعماله في بلاد أوروبة اكثر من قرنين . ولم نعد نتصور قط الحماسة التي أثارها عبر أوروبة في الشعر الغنائي ، ظهور هذا المشروب :

أية لذة تعدل لذتك
حين تُعدّك أيد ماهرة
تكفي رائحتك لامتلاك
من لم يختبروا سحرك
أيها المشروب الذي أحب
سدْ وسِل في كل مكان

وأطرد الكوثر نفسه
من موائد الآلهة
أعلن الحرب أبداً
على عصير بنت الكرمة الفتان
وأذق الأرض
هدوء السماء اللذيذ »

(نظم فوزليه – موسيقى بونيه)



ولكننا ما زلنا لا نعرف إلا القليل من المعارك الحامية الوطيس التي نجمت عن ظهور البن ، بين عشاقه ورجال الدين ، في الشرق والغرب على السواء .

تذكر الأساطير ان بعض الرعاة هم الذين اكتشفوا مزايا شجيرة البن ، اذ أحسوا ان ماعزهم الذي رعاها ، أخذ يقفز مرحاً ، نشيطاً ، مبدياً علامات الجذل والغبطة . ومهما يكن من أمر ، لم ينشأ التعامل التجاري بالبن في أول عهده في بلاد الحبشة حيث تنمو شجيراته من تلقاء نفسها ، بل في جنوبي الجزيرة العربية . ويقال ان مفتياً من عدن عمم استعمال البن بين دراويشه بعد ان لاحظ انه يطرد النعاس ، ليسهل عليهم إقامة الصلوات ليلاً . ولم يلبث سكان عدن ان قدروا مزايا هذا المشروب تقديراً أقل روحانية من تقدير مفتيهم ، وانتقلت عادة استعماله من عدن الى مكة حوالي سنة ١٥٠٠ ، ثم الى المدينة والمدن العربية الأخرى ، ثم الى القاهرة . وأنشىء في هذه العواصم ، ومن بعد ذلك في القسطنطينية ، مقاه لشرب القهوة فتحت أبوابها للجميع ، وكان الناس يستطيعون ، وهم يشربونها ، ان يلعبوا بالشطرنج وطاولة النرد .

ولكن انتشار استعمال القهوة لم يتم دون حرب شعواء أعلنها على شاربيها رجال الدين المسلمون الذين رأوا ، لما تحدثه من تنبه ، ان من الواجب ان تحرم تحريم المسكر . واشتد الجدال الديني في مكة والقاهرة ، وأغلقت المقاهي في القسطنطينية ثم أعيد فتحها ، ولكن رجال الدين خسروا المعركة في نهاية الأمر . فاذا كانت المقاهي قد أغلقت فان القهوة تربعت على العرش في المنازل ، وأصبح ابريق القهوة من أدوات المنزل الضرورية كالدست ، وابريق الوضوء .

في ذلك الحين ذاق بعض الرحالين طعم هذا المشروب الأسود في شبه جزيرة العرب ، وتعرف اليه بعض الأوروبيين في مصر ، وتركيا معاً .

وصل البن الى البندقية في مطلع القرن السابع عشر ، وقد رأينا ان

استيرادام عرفته سنة ١٦٣٣ ومثلها لندن في ذات الوقت على وجه التقريب . وبعد أن أدخل بعض المسافرين عادة استعمال القهوة في منازل أصدقائهم في مرسيليا ، أخذ بعض التجار يستوردونها من القاهرة .

وأصبحت مرسيليا وليون ميدان معركة جديدة قامت بسبب القهوة . ولم يكن معلنو الحرب في هذه المرة علماء الدين الاسلامي ، بل علماء معهد الطب .

وبلغت المعركة أوجها سنة ١٦٧٩ حين قدم طبيب شاب اطروحة ، بمناسبة تخرجه من معهد الطب ، وكان قد طلب إليه ان يبحث فيما إذا كان استعمال القهوة مضراً بصحة سكان مرسيليا ، الى جانب ثلاثة موضوعات اخرى تتعلق بمسألة القهوة ، وقد جزم الطبيب الشاب في أطروحته بأن المواد النافذة التي تكثر في القهوة ، قوية النفوذ عظيمة الحركة الى درجة انها اذا ما انتشرت في الدم ، تنتقل بادىء ذي بدء إلى جميع اجزاء الجسد ، ومن هناك ، تهاجم الدماغ ، وبعد ان تذيب كل رطوبة وكل مواد خشنة فيه ، تفتح جميع مسامه ، وتحول دون وصول الأرواح الحيوانية التي تحدث النوم الى الدماغ ، عندما تأخذ هذه المسام في الانغلاق ، ومن ثم تحدث هذه الأجزاء البالغة بما فيها من خواص سهراً عاصياً في غالب الأحيان إلى درجة أن العصارة العصبية التي تعتبر قوتها ضرورية لتجديد الأرواح تنفد كلياً ، فترتخي الأعصاب ، وينجم عن ذلك العجز والشلل . وينتاف الدم الذي سبق له ان احترق ، تستنزف العصارة من جميع اجزاء الجسم الى درجة ينحف معها الجسم كله نحافة مخيفة .. فيجب الاستنتاج من هذا كله ان القهوة مضرة لمعظم سكان مرسيليا .

ولكن معهد الطب لم يتمكن من حمل سكان مرسيليا على النفور من القهوة التي اصبحت منافسة للخمور في سائر انحاء فرنسا ، على ان هذا التقرير لم يكن خاطئاً كلياً ، وقد ادرك ذلك مدمنوها بطريقة أقل تفلسفاً وتحليلاً ، ولكن أشد اقناعاً ولا ريب .

ان زيارة أحد السفراء الأتراك لباريس في سنة ١٦٦٩ هي التي فتحت الباب رسمياً لدخول القهوة إليها . وقد حاول بعض الأرمن والشرقيين، افتتاح محلات لتقديم القهوة فيها ، ولكن نوع هذه المحلات لم يجتذب الباريسيين . وقد نجح أكثر من هؤلاء باعة القهوة المتجولون في الشوارع .

وفي اواخر القرن السابع عشر فكر الفرنسيون في افتتاح قاعات لشرب القهوة لا عامية ولا عادية بل مزينة بالفرش ، والمرايا ، واللوحات ، والثريات ، حيث كان يقدم الشاي والمشروبات الروحية ، والحلويات ، والمربيات . وكانت تلك الفكرة ممتازة قدّرها الباريسيون قدرها أكثر من المشروب العربي ذاته ، لما فيها من سحر المنادمة والمحادثة ، فقد غدت المقاهي ملتقى الأشراف من الناس . ويذكر دي لاروك « ان رجال الادب ، والشخصيات المعروفة برزانتها ، لم يكونوا يستخفون بهذه المجتمعات المريحة كل الراحة ، الملائمة للمناقشات الادبية والتاريخية في جو من اللهو ، دون اي ازعاج او تكلف » وفي الوقت الذي كتب فيه دي لاروك ما كتبه عن القهوة ، كان قد افتتح في باريس ما لا يقل عن ثلاثمائة مقهى . ومن المعلوم ما أصبح لهذه المقاهي من اهمية في تاريخ الادب الفرنسي في القرن الثامن عشر .

★

هكذا غدت الحبوب الصغيرة التي تحملها شجيرات البن في شبه جزيرة العرب في الاعوام الاولى من القرن الثامن عشر ، ليس فقط ذات قيمة بالنسبة الى اوروبة ، بل ضرورية للحفاظ على حقيقة اجتماعية ذات طابع فرنسي ، كانت قد دفعت الى نشأتها .

وكان تجار مرسيليا قد احتفظوا حتى ذلك الحين باحتكار استيراد البن من القاهرة ، ولكنهم أخذوا يتساءلون عن سبب عدم اقدامهم على شرائه من شبه الجزيرة العربية مباشرة .

كانت الثورة العربية قد طردت الأتراك من شبه الجزيرة ، ولم يكن قد بقي في أيديهم الا ميناء جدة ، وكانت بلاد اليمن خاضعة لحكم إمام . وما كاد العدو يستتب حتى افتتح الهولنديون ثانية وكالة تجارية في المخا ، بالنظر الى ان التجارب التي اجروها في زراعة البن في باتافيا لم تسفر عن النتائج المرجوة . اما الشركة الانكليزية للهند الشرقية ، فإنها كانت ترسل في كل سنة بعض السفن الى المخا ، وكانت تستورد حمولة سفينة من البن كل سنتين مرة واحدة الى مدينة لندن .

وقد أسس تجار سانت مالو هم أيضاً شركة لاستيراد البن من منشئه . وهكذا تمت بين سني ١٧٠٨ — ١٧١٠ — ١٧١١ — ١٧١٣ الرحلتان اللتان كتب دي لاروك قصتها . وللرحلة الثانية اهميتها الخاصة في تاريخ اكتشاف شبه جزيرة العرب ، لان القدر كان سيتيح لاثنين من البحارة في تلك الرحلة ، سلوك طريق العاصمة ، والبقاء فيها وقتاً كافياً للتجول فيها وفي ضواحيها ، كضيفين مكرمين قدمت لهما كل واجبات الضيافة .

فقد سأل الملك المصاب بمرض ، الفرنسيين الذين كانوا قد نزلوا الى ميناء المخا هل بينهم طبيب يستطيع شفاءه من دملين كان مصاباً بهما . فأرسل اليه الجراح الثاني في البعثة ، يصحبه ألبد دي لاغرولودير الضابط الأكبر لبحارة السفينة بونديشيري ، كمندوب عن فرنسا لدى ملك اليمن . فبدآ السير باتجاه العاصمة حاملين الهدايا تخفرهما فصيلة من الخيالة ، وعدد من الجمال .

قطعا الطريق في أسرع ما يمكن مارين بمَوْزَع ، وتعز ، ومنزول ، وقبالة ، ويريم ، وذمار ، وكانت هي الطريق التي سبق لدي فارتيا أن سلكها . ولكنهما توقفا على بعد ربع فرسخ من ذمار ، لأن الملك الذي كان قد أعيد الى العرش بفضل الثورة العربية ، قد شاد عاصمته هناك ، في سهل لطيف من منطقة مؤاب ، يزرع فيه الأرز ، والقمح ، وأشجار الفاكهة ، وكروم العنب ، الى جانب البن الذي شاهدوا شجيراته

ابتداء من تعز . وقد استغرق شفاء الملك ثلاثة أسابيع قضوها هناك .

ومما يجدر بالاهتمام ، من وجهة النظر التاريخية ، المقارنة ما بين نمط المعيشة في بلاط هذا الملك العربي الذي وصفه هذان الرحالتان وبين نمط المعيشة الذي شاهده فان بروكه في عهد الأتراك . فقد عقب الترف التركي ، بساطة مفرطة في المعيشة . فالقصر الملكي يكاد يكون عارياً ، يتسم بالزهد . وحديقته بستان للخضار غرست فيه شجيرات البن . والحلة التي يرتديها الملك من قماش لا بأس بنعومته ، وهي بسيطة خالية من الزينة ، ولا يميزها من غيرها إلا إزارها المصنوع من الحرير الناعم الأبيض . وقد أدرك لاغرولوديير أن تلك البساطة متعمدة بدافع المبدأ الديني . وهذا المبدأ ، على كل حال ، يكشف للمرة الأولى ، عن طبيعة الملكية العربية الخاصة هناك ، اذ ان الامام او الشريف الذي يمسك بزمام الحكم يجب ان يكون من سلالة النبي ، وهو يمثل السلطتين الدينية والزمنية معاً .

ولا يبدو الامام بمظهر الأبهة الملكية الا عندما يؤدي صلاة الجمعة في المسجد ، وما يزال هذا صحيحاً في أيامنا الحاضرة . فالوصف الذي أورده دي لاغرولوديير للمرة الأولى ، يعطينا فكرة عن مظاهر الأبهة الاسلامية والعربية بنوع خاص : « يبدأ السير باتجاه المسجد في الساعة الثانية من بعد الظهر ألف جندي يقومون بأطلاق جماعي للنار لدى خروجهم من القصر الملكي ، في نظام جيد . ومن بين هؤلاء الجنود صفان من حملة البيارق الموشاة التي تدعى بيارق محمد وعلي . ويتبع هؤلاء الجنود مباشرة مائتا خيال من حرس الملك يحملون بالاضافة إلى السلاح العادي ، وهو البندقية والسيف ، حراباً قصيرة مهدبة الأسنة . ويتبع الخيالة ضباط القصر الملكي وأفراد الحاشية ممتطين صهوات جياد مطهمة ، ثم يظهر الملك على مسافة منهم ، على متن جواد أبيض رائع ، هادىء ، خصص منذ زمن طويل لركوبه وحده ، مزين تزييناً نفيساً . ويمسك أحد الضباط وهو راكب جواداً بديع العدة ، بمظلة فوق رأس الملك تقيه حرارة الشمس المحرقة ،

ويتقدم الملك مباشرة أحدُ الضباط حاملاً قرآناً موضوعاً في كيس من القماش الأحمر نقشت عليه بعض الأحرف العربية البارزة وأحيط بأهداب ذهبية . ويتبع الملك أحدُ الضباط على متن جواده ، حاملاً سيفه الذي زين غمده وقبضته تزييناً بديعاً . ويستمر قرع الطبول ، والصنوج ، والنفخ في المزامير ، ما دام الموكب الملكي سائراً .

« وفيما الملك سائر في موكبه الفخم ، يجد في طريقه خمسين جواداً من خيرة جياده ذات سروج رائعة النقوش ، وأعنة مزينة بالذهب والفضة ، علق إلى أحد جانبي سروجها سيف جميل جداً ، وإلى الجانب الآخر فأس قتال ، وقد جيء بهذه الجياد من ذمار حيث اسطبل الملك الرئيسي . ويتبع هذه الجياد عدد مماثل من الجمال لا تقل تجهيزاً عن الجياد وضعت على ظهورها جلال ذات قبضات من الفضة ، وزينت رؤوسها بباقات من ريش النعام الأسود . ولم يؤت بهذه الجياد والجمال الرائعة التجهيز الا لمجرد التزيين والتظاهر بالأبهة .

« يدخل الملك وحده الخيمة التي تقوم مقام المسجد ، ويبقى فيها ساعة كاملة يتمم خلالها ما يفرضه عليه مقامه الديني بوصفه اماماً ، من تلاوة بعض الصلوات الجهرية ثم القاء الخطاب الذي يستهله بحمد الله ، ويشيد فيه بذكر النبي محمد ، ويختتم بالدعاء للأمير الحاكم ، ويتلو الأمراء وجميع الحضور الصلاة لدى تلاوة الملك لها ، ويحذون حذوه في كل ما يقوم به ، لأن الخيمة مفتوحة جيداً ، ويستطيع الناس جميعاً ان يشاهدوا الامام .

« وبعد الفراغ من الصلاة ، يمتطي الملك جواده على رنين الصنوج ، وقرع الطبول ، وانغام المزامير ، ولعلعة الرصاص الذي يطلقه الجند لدى خروج الملك من الخيمة ، ويعود موكب الملك الى القصر في ذات النظام الذي جاء فيه ، بين هتافات الشعب وأدعيته له .

« ولدى وصول الموكب الى مؤاب ، يدخل قسم من الخيالة باحة القصر ويظل القسم الآخر في الخارج ، وبعد أن يدخل الملك ، تجرى مباريات

كثيرة في سباق الخيل ، وفي اشتباك فريق من الفرسان بفريـق آخر في معركة حربية تُمثل تمثيلا . »

ومما يستحق ذكره للتاريخ ان الفرنسيين شاهـدوا وصول سفراء من قبل سيد القسطنطينية الاكبر ، جاؤوا بوصفهم اصدقاء في هـــذه المرة ، ولكن ذلك لم يحل دون احتجاجهم على بيـع الاوروبيين كميات كبيرة من البن في الموانىء العربية ، الامر الذي أحدث ارتفاعـاً فاحشاً في سعره ، وسبب الكساد للتجارة في الموانىء التركية . فاستقبل الامـــام رسل مستعمري الامس استقبالاً حسناً سريعاً ، ولكنه لم يغير موقفه الودي من الفرنسيين الذين كان يلتذ بسؤالهم عن بلادهم ، وملكهـم ، وفرساي ، والبلاط ، والادارة ، والجيش .

لقد كان لاغرولوديير وباربيه أول أوروبيين رسمـــا صورة لمختلف الطبقات الاهلية والاجتماعية في جنوبي شبه جزيرة العرب . فقد ذكرا ان في العاصمة حياً يقطنه اليهود « وهم يجبرون على الانسحاب إليه كل مساء ، لأنه لا يحق لهم ان يبيتوا في المدينة . » وان أشد الطبقات غرابة طبقة البانيانيين ، الذين يقومون في هذا الجزء من بـلاد العرب بجميع الأعمال التي يقوم بها اليهود في تركيا ، والسماسرة في أوروبا ، ولا سيما السمسرة في تجارة البن ، انهم أصلا من بلاد الهنـد ، وخاصـة من جزيرة « ديو » الواقعة في مملكة كامباي القريبة من صورات ، يأتون بلاد العرب منذ نعومة اظفارهم ، للاثراء عن طريق التجارة ، ولهذه الغاية ذاتهـا ينتشرون في جميع انحاء الهند الأخرى . من بينهم تجار دوو ثروات طائـلة ، ووزانو ذهب وفضة ، وأناس يمتهنون مهناً مختلفة .. وديانتهم ضرب من عبادة الأصنام غريب ، خشن ، لأنه يقـــال انهم يعبدون كل أنواع الحيوان ، ولاسيما البقرة التي يخصونها بمحبة فائقة ، وعبادة خاشعة . وقد رسخت في عقولهم عقيدة التقمص فلا يقدمون على ايذاء أي كائن حي .. واغلى أمنية لهم

عندما يحين أجلهم ، ويزورهم الموت ان يتمكنوا من الأمساك بذيل بقرة ، لعل روحهم تدخل جسم هذا الحيوان الحبيب .. ومن عاداتهم الحسنة انهم يغفرون الاساءات بسهولة ، وانهم لا يقدمون على الاضرار بالغير ، وخلاصة القول ان ظواهرهم تدل على طيب الخلق ، حتى ليقال ان اسم البانيانيين الذي يعرفون به يعني « الاناس السذج الأبرار » . ولهم لغة وكتابة خاصتان ، لا أظنها الا لغة اهل ماليبار وكتابتهم . أما ملابسهم فغريبة ، ولا سيا غطاء الرأس وهو ضرب من عمامة من النسيج الأبيض ، يبذلون جهدهم في جعلها شبيهة برأس البقرة وقرنيها ، يرتدون مدرعة طويلة من نسيج القطن الأبيض ... ولكنهم لا يستعملون سراويل داخلية ، ومعظمهم يمشون حفاة . ويستعمل وجهاؤهم بالاضافة إلى ما ذكر ، وشاحاً من الحرير الأبيض طرزت جوانبه بالحرير المتعدد الألوان . ولا يسمح العرب لهؤلاء البانيانيين بالزواج من بناتهم ، أو بانشاء علاقات مع النساء ، فيضطرون ، عندما يجمعون بعض المال ، ويريدون الزواج ، الى العودة الى بلاد الهند للبحث عن زوجات لهم . »

كانت اليمن قد غدت السوق العالمية لتجارة البن . ولم تكن سوق البن تقام في المخا ، بل في بيت الفقيه التي كانت تبعد عنها مسيرة يومين ، والتي كانت بقلعتها ومساجدها ، أكبر من المخا . تقام سوق البن في بقعة تجارية تشمل فناءين كبيرين قامت على جوانبها أروقة مسقوفة ، يأتيها العرب من الريف ، حاملين البن في خروج كبيرة من الحصير ، يحمل الجمل خرجاً واحداً منها . ويتم شراء البن عن طريق السماسرة البانيانيين .. فقد وضع في صدر السوق أريكة يبلغ ارتفاعها أربع أقدام ، فرشت بالسجاد يجلس عليها ضباط الجمرك والحاكم نفسه في بعض الأحيان . ويقوم هؤلاء الضباط بتسجيل وزن البن الذي يجري وزنه أمامهم ، وثمن البن الذي يتم بيعه ليصار الى استيفاء حصة الملك منه ، ويستخدم الوزانون موازين كبيرة ، وعيارات ليست سوى أحجار ضخمة ملفوفة بالقماش ..

يؤتى بالبن يوماً إلى بيت الفقيه من الجبل الذي لا يبعد عنها اكثر من ثلاثة فراسخ . وفيها يجري شراء كميـــات البن لحساب تركية ومصر ، وتشحن على ظهور الجمال الى أقرب ميناء ، ومنه بحراً الى جدة التي كانت مـا تزال في أيدي الأتراك ، ومنها الى السويس حيث تقوم قوافل الجمال بتوزيعها على جميع انحاء مصر ، أو السفن بنقلها الى موانىء البحر الأبيض المتوسط الواقعة تحت حكم الأتراك .

لقد لفت نظر هذين الرحالتين طريقة زراعة البن . فذكر انه اذا ما زرع على ارتفاع يقل عن ألف متر عن سطح البحر ، وجب زرعه تحت نوع من أشجار الحور . أما اذا زرع في أماكن يفوق ارتفاعهـا الف متر ، وتبلغ أعلى قمم اليمن ثلاثة آلاف متر من الارتفـــاع ، فلا حاجة إلى حمايته . ويجري ريه ، وفقاً لمراحل ازهاره ، بوساطـة حفرة تحفر حول جذوره . ويمكن ان تحمل شجيرة البن في آن واحـــد ازهاراً ، وأثماراً حمراء ، وأثماراً جافة ، ولكي تجمع الحبوب الجافـــة . تفرش حصر تحت الشجيرات ، وتهز هذه الشجيرات فتتساقط عليها حبوبها الجافـــة ، وأراد لاغرولوديير وباربيه ان يعطيا مواطنيهما فكرة واضحة عن شجيرات البن ، فقاما برسم بعض الشجيرات وما عليها من الأزهار ، والأثمار الحمراء ، والأثمار الجافة . ولكن بعض الباريسيين ، تمكنوا من أن يشهدوا بـــأم العين شجيرة بن تحمل ثماراً ، كان قد جاء بها بعض الهولنديين ، واهدتها مدينة أمستردام الى الملك لويس الخامس عشر الذي عرضها في حديقة قصره .

لا شك في ان رحـــلة دي لاغرولوديير وباربيـه لم تزد من غنى المعلومات الجغرافية عن جزيرة العرب ، لأن الطريق التي سلكاها كان قد سلكها غيرهما من قبل ، ولانهما لم يرسما اي مخطط لهـا . ولكن النـاس كانوا ما يزالون في حاجة الى الكثير من المعلومات غير المعلومات الجغرافية ، ففضل هذين الرجلين كامن في انهما عاشا مع العرب ، مظهرين لهـــم كل مجاملة واحترام ومحبة . ولكن مسايرتهما لمضيفيهما العرب لم تبلغ حـــد

قبولها بخلع حذاءيها عند دخول قاعة المقابلات الملكية في القصر . وقد وجه إليها نيبور فيما بعد اللوم على ذلك . ولكن اذا كانت هذه العادة لا تؤثر أي تأثير على كرامة الناس الذين اعتادوا انتعال البابوج ، فهي تؤثر اشد التأثير على كرامة من اعتادوا استعمال الأحذية والجوارب .

★

من وجهة النظر الديبلوماسية ، لم يكن مقدراً للاتفاق الذي عقد في اشأم الأوقات ألا تشوب جوه الغيوم . فقد خالف حاكم المخا الاتفاقية فيما بعد ، سنة ١٧٠٩ ، فأرسلت شركة الهند الفرنسية قطعة من الاسطول للسؤال عن سبب تلك المخالفة التي اعتبرتها خيانة . وقد وصلت قطعة الاسطول هذه إلى المخا في شهر كانون الثاني (يناير) من سنة ١٧٣٧ بقيادة لا غارد جازيه ، وحاولت باديء ذي بدء سلوك سبل المصالحة ، ولكنها حين رأت ألا فائدة من ذلك اضطرت الى قذف القلاع ببعض القنابل ، ولا حاجة الى القول انه حصل على ترضية بنتيجة ذلك .

وقد قام دي لاروك في كتابه بتسجيل النتائج التجارية لحملة بحارة سانت مالو ، وكانت ولا ريب شديدة الخطورة . وقد رسم هذا الكتاب النابض بالحياة صورة عن اليمن في القرن الثامن عشر ، في ظل حكم عربي أقيم من جديد بعد زوال عهد الاتراك ، لم يره فان دن بروكه ، وفي زمن لا غد له ، كانت اليمن فيه واحد من أشهر الأسواق العالمية .

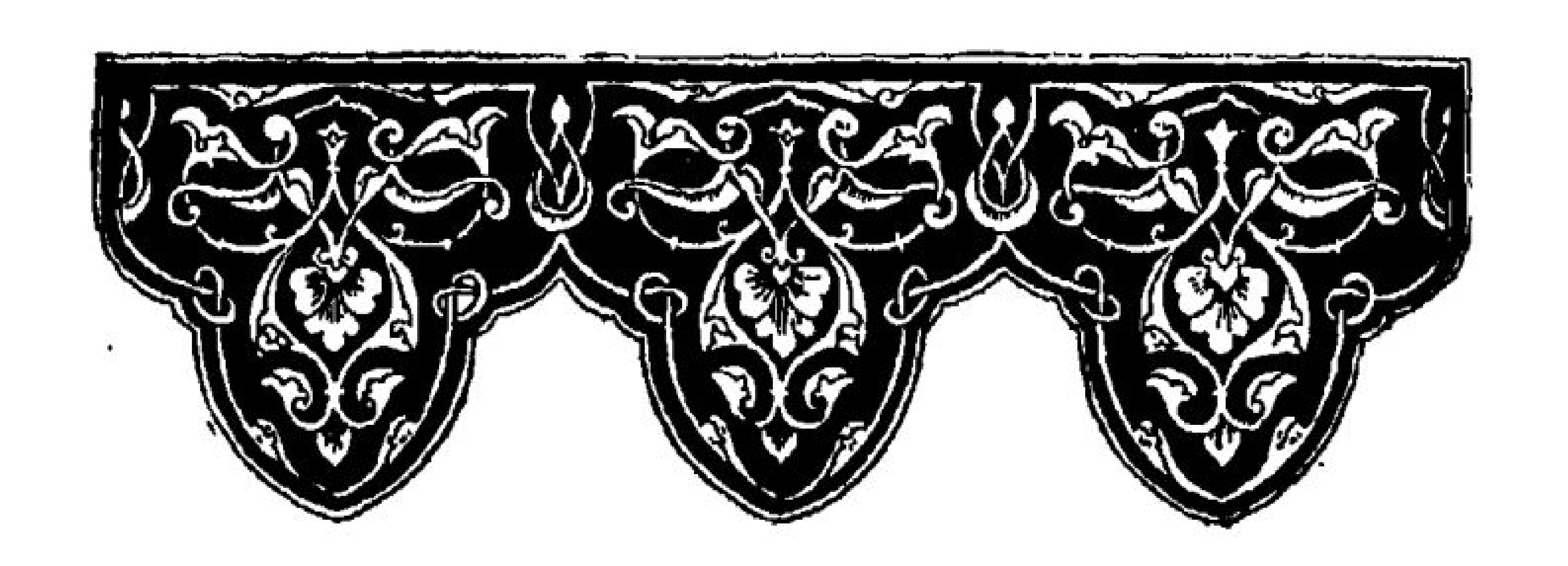
ولم يلبث الهولنديون في الواقع ، أن نجحوا في زراعة شجيرات البن في بلاد جاوه ، بانتظار اليوم الذي ثبت فيه ان بلاد البرازيل قادرة على انتاجه بكميات هائلة ، فقل طلب البن العربي شيئاً فشيئاً ، وأخذ عهد البن الزاهر في شبه جزيرة العرب يميل نحو الزوال .

ان ذلك الميناء الذي رأى فان دن بروكه ثروات الشرق تتدفق عليه ، والذي كان أعظم مركز في العالم للاتجار بالبن ، كما وصفه بحارة سانت مالو ، قد تحول منذ ذلك الحين ، خلال قرنين ليس إلا ، إلى ذلك

الخليج الكسول الذي أتت قصة هنري دي مونفريد على ذكره . ولكن ، على الرغم من ان المخا قد درج اسمها في طيات النسيان والاهمال ، يكفيها فخراً أنها أعطت اسمها لأفخر نوع من أنواع البن في العالم ، هذا النوع الذي ينبت في أعالي جبال اليمن .

ان فضل دي لاغرولوديير وباربيه كامن في أنهما خلّفا لنا صورة من ماضي شبه الجزيرة العربية الذي لا تستطيع الحدثان ، على ما يبدو ، ان تغير شيئاً منه .





قنصل فرنسي لدى البدو

اقتضى اكتشاف العربية السعيدة ، اعني الجزء الجنوبي من شبه جزيرة العرب اجتياز رأس الرجاء الصالح ، اما العربية الفقراء فقد كانت على مقربة من البحر الابيض المتوسط . كان يكفي اجتياز منخفض الاردن ، وقطع المرتفعات المشرفة عليه من جهة الشرق ، للاطلال على المساحات الشاسعة الواسعة من الاراضي القاحلة التي يخيم عليها الصمت ، صحراء من المقذوفات البركانية السوداء ، او قفار تشرف فيها بعض المرتفعات الطبيعية على الاراضي المنسية الممتدة جنوباً الى ابعد من مدى النظر .

على هذه المرتفعات ترقد الآن خرائب القلاع الرومانية ، وعلى تخوم هذه البقعة الخاوية تمتد نصب الحدود العسكرية التي تحمل كتابات رومانية ، إذ كانت رومة قد انشأت على حدود المنطقة المتحضرة ، منطقة عسكرية تواجه المنطقة الصحراوية .

فهل هجر الناس هذه المنطقة لان متاريسها الدفاعية لم تكن ذات فائدة في صد الهجمات ؟ يظهر ان الواقع كان على خـــلاف ذلك . ففي تلك المناطق الصحراوية القاسية يبدو ان اناساً كانوا يقيمون ، عرفوا بالبدو ، أي سكان البادية .

عندما تسقط أخف الامطار ، او ينزل ندى الشتاء على الارض ، فتنبت الاعشاب القصيرة ، يظل البدو في هذه الصحارى حيث تجد جمالهم ما يكفيها من الاعشاب والنباتات . اما إذا أقبـــل الصيف ، فأحرق الاعشاب والرمال ، وجعل من هذه الصحارى اماكن تتعذر الإقامـــة فيها ، فان البدو ينزحون الى تخوم المنطقة المعمورة ، فلسطين وسورية ، ويتزودون منها إما عن طريق الغزو ، او عن طريق التبادل بينهم وبين الحضر . وكان لا بد من مراقبـــة هذا التسلل الموسمي الذي يقوم به البدو ، ولهذه الغاية أنشئت منطقة الحدود العسكرية المحصنة ، ولكن ، لم يكد الرومان ينسحبون ، حتى تهدمت حصونهم ولم يبقَ للرقابة من أثر ، واصبح تسلل البدو حراً الى درجة ان المناطق السورية والفلسطينية المتاخمة للصحراء غدت شديدة الخطورة ، ولم يعد باستطاعة احد ان يخاطر بالسفر إليها من غير ان يخشى التعرض للسلب .

لم يعد أي حضري يغامر بالدنو من هذه المنطقة ، ولهذا كان اجتياز الحدود الشمالية لشبه الجزيرة العربية التي لم تكن تبعد سوى مائة وخمسين كيلومتراً عن سواحل البحر الابيض المتوسط — على خط مستقيم — أشد تعذراً من بلوغ حدود العربية السعيدة النائية .

ومنذ ان قام رينو دي شاتيون برحلته لم يحاول أي اوروبي ان يدخل بلاد العرب من حدودها الشمالية .

غير ان البدو كانوا قد بسطوا سلطتهم على رقعة واسعة الى درجـة انهم احتلوا في القرن السابع عشر ، شبه جزيرة سيناء بكاملها ، وطردوا الرهبان الكرمليين الذين كانوا ينتعلون احذية من غير جوارب والذين كانوا يقيمون في دير جبل الكرمل العريق في القدم . وقـد طُلب الى الملك لويس الرابع عشر ان يتدخل لدى اميرهم للسماح بعودة الرهبان الى ديرهم ، فأوعز الى سفيره الذي كان يقيم في صيداء في فلسطين ، ان يقوم بهذه المهمة . ولم يكن السفير العجوز قادراً على القيام بمثل هـذه

المهمة الشاقة ، ولكنه كان قد تبنى يتيماً من أسرته يدعى لويس دارفيو ، ذكياً الى درجة انه تعلم خمس لغات اثناء وجوده في بلاد الشرق ، من بينها العربية والتركية والفارسية ، فطلب منه ان يقوم بذلك . فتزيا لويس دارفيو بزي وجيه تركي ، وامتطى جواده الأصيل ، في سنة ١٦٦٠ ، واتجه نحو منطقة البدو التي كان يخشى الناس دخولها ، ليحمل الى امير البدو طلب مليكه . وهكذا قدّر لأوروبة للمرة الاولى ان تطلع على تقرير نيّر يروي حقيقة غزاة الصحراء اولئك .

لم يدون لويس دارفيو مذكراته إلا بعد ان قام بمهمة مفاوض ناجح لعقد معاهدة تونس في سنة ١٦٦٨ ، وبمهمة سفير لدى الباب العالي العثماني في سنة ١٦٧٤ ، وبوظيفة قنصل في مدينة الجزائر (١٦٧٤) ثم في حلب في سني ١٦٧٩ و١٦٨٦ ، ثم انسحب الى مرسيليا ، وتزوج من سيدة ذات مؤهلات رفيعة . وقد شغل اوقاته بالتفكير في الكتب المقدسة التي كان يراها في اللغة العبرية ، وفي الآباء الرسل . ولكنه بالاضافة الى ذلك ، دوّن مذكراته عن الرحلات التي قام بها ، وعما رآه في اثنائها .

ولم يقدم دي لاروك على نشر المعلومات التي دوّنها الفارس دارفيو عن جماعات البدو ، إلا بعد أن أدركت المنية هذا الأخير . فأصدر في سنة ١٧١٧ كتاب « رحلة في فلسطين نحو الامير الكبير زعيم امراء البادية العرب المعروفين بالبدو » .

ومن الخطأ الفادح الحكم من هذا العنوان ان لا علاقة لهذا الكتاب باكتشاف بلاد العرب . ولم يخطىء نيبور الذي قرأه وذكر اسمه بعد انقضاء خمسين عاماً على ذلك ، في صدد كتابته عن شبه جزيرة العرب . وربما كان من علامات الضعف في التاريخ ، عدم اظهار الاهمية الفعلية التي كانت لهذا الكتاب في تطوير المعارف الخاصة ببلاد العرب .

ويكفي ، في الحقيقة ، ان يقرأه المرء كي يدرك ان البدو الذين يسميهم بدواً عرباً ، خرجوا بعض الوقت الى خارج حدودهم ، ولكنهم كانوا قد عادوا الى داخلها تاركين سيناء للأتراك ، حين وضع دي لاروك

كتابه . لقد كانوا بدواً عرباً اتسم نمط معيشة اميرهم وكبار زعمائهم بطابع التأثير التركي . وكان الامير ، فعلاً ، معترَفاً به لدى سيد القسطنطينية الأعظم الذي كان قد منحه « حق استيفاء الضريبة من قرى شبه جزيرة سيناء وموانئها شريطة تأمين حرية الطريق ، وخفر البريد ، والقوافل التجارية التي تمر ببلاده . وإقراراً بذلك كان قد مُنح لقب باشا والامتيازات التي يتمتع بها حامله .

لذا فقد كان من الطبيعي ان يرى الإنسان طابعاً تركياً في ثياب الأمير وزوجته وبناته ، وفي الأثاث الذي تحتويه خيام كبار القوم عنده . ولكن داوفيو رأى فيهم ، باستثناء ذلك ، بدواً حقيقيين فاستحق التقدير لكونه اول من استطاع ان يفهم هذا المجتمع الخاص ويصفه . ولا يسع المرء الا ان يعجب بالطريقة التي عرف بها ، قبل عصر بور كهارت وسيتزن بقرن كامل ، كيف يفهم روح ذلك المجتمع ومبادءه فهماً عميقاً هادئاً مدركاً ، محبباً الى النفس .

لقد تمكن داوفيو بفضل أدبه وكياسته ان يدهش الامير ، ويكتسب محبته ، فقضى الاسابيع الطويلة في مخيم العرب البدو ضيفاً معززاً مكرماً. فقد دعي الى الخيام المختلفة ، والى حفلات القنص ، والى مباريات سباق الخيل ، وجلسات المنادمة ، فعاش معهم ، ولم يقصّر عن بذل الجهد للتعلم منهم .

ـ ان انتهى من كتابة قصة إقامته بينهم وضع بحثاً حقيقياً في « أخلاق عرب البادية وعاداتهم » . وليس العمل الذي قام به مجرد جمع معلومات ، بل عملاً فتح به عيون أبناء الغرب على حقيقة غير قابلة للتصديق ، وهي ان اولئك القوم الذين يقومون بالغزو ، هم رغم ذلك، على جانب من الأخلاق السامية ، يحفظون الذمام ، ويكرمون الضيف الى اقصى حدود الكرم ، يغارون على العرض ، ويتحلون بالإباء والشمم . فكيف يمكن التوفيق بين كل ذلك ؟

لا شك في ان دارفيو قــد ترك الخَلَف أموراً كثيرة كي يقوم بدراستها درساً عميقاً ، ويفسرها ، ولكنه احسن فهم عقــدة المبادىء التي تربط ما بين العناصر المختلفة لهذه العقلية البدوية والمجتمع البدوي ، اللذين لا مثيل لهما في العالم كله .

أكانوا غزاة ؟ نعم . وقد جعلت منهم أعمـال الغزو التي انصرفوا إليها أعداء لكثير من شعوب الأرض . فليس لهم ، خلا العناية بقطعان الماشية ، عمل آخر غير التعرض لمن يسلكون الطرق الصحراوية . » وهم لا يكادون يرون احد المارة هناك حتى يغطوا بعماثم القسم الأسفل من وجوههم كي لا يُعرفوا ، ويرفعوا الرمح عالياً في ايديهم ، وينقضوا عليه، ويبدأوه بالعربية بالجملة التالية : « انزع ثيابك ايها اللعين ، فخالتك عارية — يعني بها قائلها ان زوجته في حاجة الى ما تلبسه — أمن العدل ان يكون ملبسك أحسن من ملبسهـا ؟ » ولا ينفكون يوجهون أسنة الرماح الى صدر العابر المسكين حتى ينالوا منه ما يريدون . وهم يدعون له في بعض الاحيان سروالاً صغيراً او قميصاً ، بعد ان يكون قد نضا ثيابه طوعاً ، ورجاهم ألا يرجعوه الى اهله عاريــاً . كما انهم يتركون له ساعته ، لأنهم لا يريدون ان يدعوا احداً في الطريق ، وقد جرد من كل شيء ، واصبح لا يملك اجرة عودته الى بيته » .

ثم انهم يعتبرون امراً طبيعياً قيامهم بسلب السفن التي تكون قــد جُرفت الى سواحلهم . ويذكر تاميزيه وغيره انهم لا يترددون عن تضليل السفن في معابر البحر الاحمر الخطرة ، إذا ما رفض اصحابهـا اعطاءهم شيئاً طوعاً واختياراً . ويفعلون بالقوافل مثلمـا يفعلون بالسفن ، فهم يتركون الناس عراة ويتقاسمون الأسلاب .

ويروي دارفيو بصورة ممتعــة ، قصة وقوع الأخ الفونس وسفينته المحملة بالمسابح الى اسبانيا ، في ايدي البدو ، وعودة هـذا الكاهن كما

خلق الله آدم الى جماعة المسافرين من الجنسين ، الذين كانوا قد تُركوا في وضع لا يختلف عن وضعه ، وكيف انه لم يبق في تلك الليلة أيـة بدوية لم تحلّ ذراعيها بعدد كبير من المسابح ، ولم يبق أي بدوي لم يتلهّ بصوت خشخشتها بين اصابعه وهو يحتسي القهوة .

وليس الغزو حرباً ، لأنهم لا يهاجمون إلا إذا وثقوا من تفوق قوتهم . اما إذا غُلبوا على امرهم ، فإنهم لا يسددون الرماية للقتل ، رغم ان الغيظ يتملكهم إذا لقوا مقاومة أو جرحوا ، لأن الهدف الذي يرمون إليه ليس سوى الحصول على الغنيمة . وقـد وجد دارفيو ان البدو لا يعتبرون الغزو وسلب المارة جريمـة ، كما لا يعتبر الاوروبيون القنص جريمة .

ويعتقد البدو انهم من نسل اسماعيل الذي ظلمـه اخوته ، وهم إذ يقومون بأعمال الغزو إنما يثأرون له .

ان قصص التوراة تروي ان سارة زوجة إبرهيم ، لما رأت إنهـا قد شاخت ولم تنجب ولداً ، قدّمت لزوجها خادمتها المصرية هاجر ليضاجعها بدلاً منها ، قائلة له : « ارجوك ان تضاجع خادمتي ، لعل الله يرزقني منها اولاداً » (تكوين ١ ص ١٦ عدد ٢) الا ان هاجر اخذت تحتقر سيدتها بعد ان حملت من إبرهيم . ولكن سارة نفسها ، حسب وعـد رسول خفي أرسل إليها ، رزقت ولداً ، بعد انقضاء بضع سنوات على ذلك أسمته اسحق ، وعده الملاك ان الله سيقيم معه ومع نسله حلفاً أبدياً (تكوين ١ ص ١٧ عدد ١٩) وقد أقام ابرهيم وليمة كبرى بمناسبة فطام اسحق . ورأت سارة ابن هاجر المصرية يضحك فقالت لإبرهيم : « اطرد هذه الأَمة وابنها ، لأن ابن الأمة يجب ألا يرث مع ابني اسحق » فلم يرق ذلك لابرهيم بسبب ابنه اسماعيل . ولكن الله قال له : « لا تهتم بشأن الولد وبسبب أمَتك . افعـل ما تطلبه منك سارة ، لأن من

اسحق سيخرج النسل الذي سيحمل اسمك ولكنني ، مع هذا ، سأخرج أمّةً من ابن الأمَة ، لأنه من صلبك » .

فأخذ ابرهيم في اليوم التالي ، شيئاً من الخبز وقربة ماء أعطاها هاجر .. ثم طردها وابنها . فتاهت في صحراء برسابا . وعندما نفد الماء من القربة ، وضعت الولد تحت عوسجة ، وابتعدت عنه مرمى قوس وجلست .. لانها قالت انها لا تريد ان ترى الولد يموت . واخذت تبكي .. فسمع الله صوت الولد ، فنادى ملاك الله هاجر من السماء قائلاً ، « ما بالك يا هاجر ؟ لا تخافي شيئاً .. انهضي وخذي الولد ثانية لانني سأخرج من نسله أمّة عظيمة » . وفتح الله عينيها ، فرأت بئراً ، ملأت منه القربة وسقت الولد .

وكان الله مع هذا الولد فكبر ، وسكن الصحراء ، وأصبح من الرماة بالقوس (تكوين ١ ص ٢١ عدد ٨ — ٢٠) وكان الله قد أنبأ هاجر مقدّماً ان « هذا الولد سيكون كالحمار المتوحش ، وانه سيرفع يده في وجه الجميع ، وان أيدي الجميع سترفع في وجهه ، وانه سينصب خيمته قبالة جميع اخوته » . (تكوين ١ ص ١٦ عدد ١٢)

وقد لمس دارفيو لدى البدو ايماناً لا يتزعزع بأنهم نسل اسماعيل . ولكنهم لا يرون فيه كما ترى التوراة « ابن الخادم » بل إبن ابرهيم البكر ، الذي أصابه من الوراثة بلاد العرب بكاملها ، وهي في نظرهم ، أفضل بكثير من ارض كنعان التي أصابت اسحق ويقول دارفيو : « ان العرب البدو رغم ذلك يعتقدون إنهم قد غبنوا ، وأسيئت معاملتهم ، ولذلك يعوضون انفسهم عما أصابهم من حيف بإلحاق ما أمكنهم من الضرر بنسل اسحق والناس قاطبة » . وهنا يكمن تفسير ما يعنيه الأمر الذي يصدرونه الى من يريدون سلبه من طلب استرداد الحق السليب : « اخلع ثيابك ايها اللعين ، فخالتك عارية تماماً » . فالبدوي إذ يسلب

الهاوة لا يقوم إلا باسترداد الحق الذي حرمه إياه اسحق .

« انهم يورون نمط الحياة التي يحيون باقتناعهم بأنهم من سلالة اسماعيل، فهذا الأصل الرفيع الذي يُغالون بالتباهي به ، لا يسمح لهم بتعاطي الصناعات الميكانيكية ، او بحراثة الارض . انهم لا يقومون بأي عمل ، ولا عمل لهم سوى ركوب الخيل ورعاية المواشي ، ومراقبة الطرق الكبيرة » .

« انهم يعتبرون جميع المسلمين من غير البدو (أي من غير المنحدرين من أرومة عربية أصيلة[1]) ، كأولاد غير شرعيين لهم ، او كمغتصبين لحقوقهم في الوراثة ، ويعدون من العار الارتباط برباط المصاهرة معهم ، الامر الذي يشين أصلهم الشريف » .

ولو قرأ تاميزيه ، الذي سنراه في جدة سنة ١٨٣٤ ، كتاب دارفيو ، لما أدهشه ان يسمع احدى البدويات من ربات الحسن الرائع تقول انها تؤثر حياة الفقر التي تعيشها على أية حياة قد يمنحها زواج بالغ التوفيق من احد ابناء المدن قد تطمح إليه ولكنها تعتبره انحطاطاً عن مقامها .

يجب ان يفهم المرء معنى ما كتبه دارفيو كي يدرك مقدار الفخار لدى هذا الشعب .

والبدو متدينون ولا ريب ، ولكنهم يأتون في غالب الاحيان على ذكر الله ولا يقرنون بذكره الا القليل من الدين ، لأن احداً لم يلقنهم إياه .

ان الشعور بالشرف ، شرف الأسرة والسلالة ، هو المسيطر لديهم ، وهم يحمونه ويغارون عليه غيرة رهيبة . ويلاحظ دارفيو ان الزوج ليس المكلف بحماية شرف العرض ، إذ يكفيه ان يفترق عن المرأة الآثمة.

---

١ - تعني كلمة عرب او أعراب في النصوص السابقة للاسلام سكان البادية الرحّل بخلاف أبناء الحضر .

كي يتبرأ من كل عار . ولكن الأب ، والأخ في حال عدم وجود الأب ، هو المسؤول عن حماية هذا العرض . ويذكر الفارس دارفيو ان والداً أحس ان ابنته قد حملت ، فجمع جميع اقربائه في مأدبة عشاء ، وأراهم عند تناول القهوة رأس ابنته التي قتلها إنقاذاً لشرف الأسرة .

لم يستطع دارفيو ان يعرف الى اية درجة يخضع البدو لقانون شرف دقيق ، مقدّرٍ للظروف ، ينظر في قضايا السرقة ، كما ينظر في الثأر والعفو ، إذ ان ذلك كان قد استبقي لمن يأتون من بعده . ولم يلاحظ ايضاً ان الكرم الذي يظهرونه نحو الضيف لا يتأتى عن حبهم للضيافة فقط ، بل هو التزام شرف عندهم : « عندما يقوم المرء بزيارتهم بدافع من سلامة النية ، يرى لديهم اموراً تستطيع اخجال امم اوروبة التي لا يقدر الانسان ان يعيش بينها الا بقوة المال . فالأمر عند هؤلاء البدو يختلف كل الاختلاف عما هو عليه في اوروبة ، إذ لا يكاد الإنسان يصل الى مخيمهم حتى يُستقبل في خيمة ، ولا يستطيع البدوي ان يقدم له إلا حصيرة يجلس وينام عليها ، لانه لا يملك أثاثاً اكثر إراحةً وأثمن منها .. ولكن لا ينقصه شيء لحسن الاستقبال ، ولتقديم جيد الطعام . ولا ينفق الضيف النازل عليهم شيئاً ، بل يحيطون خدمه ومرافقيه بمثل ما يحيطونه به من عناية ، من غير ان يكلفه كل ذلك شيئاً سوى عبارة « عوضكم الله » يتلفظ بها وهو يودعهم لاستئناف سفره . وإذا ما رغب في المكوث بضعة ايام بين ظهرانيهم كان من حقه ان يستقبل الزائرين ، ويُدعى الى رحلات قنص ، ومباريات رمي الرمح في مخيمات امراء آخرين ، والى أي مكان آخر يمكن ان يجد فيه ترفيهاً ، ويجد في كل مكان أناساً يمحضونه الود . وعندما يريد متابعة طريقه ، ليس عليه الا امتطاء جواده ، والانصراف مع رفاقه من غير ان يتكلف شيئاً » .

ومع ذلك يعيش هؤلاء الأسياد العظام الكرماء عيشة تقشف ، رغم ان هؤلاء البدو كانوا ينعمون بمحالفة الاتراك ، ويتمتعون بأشياء غير معروفة في البادية ، إذ كانت تُرى في خيمة الامير بعض النمارق ، والأواني الخزفية الصينية . ولكن البدوي لا يملك إلا الحصر ينام عليها متوسداً حجراً . ويقوم الكلاب بحراسة المخيم ليلاً . اما الأفراس – لأن البدو يبيعون الاتراك الفحول من الخيل – فان البدو مغرمون بهــا ، وتعد من افراد الأسرة ، فترقد في الخيمة حيث يُرى الاولاد نائمين منبطحين على البطون على رقبة الافراس او المهور من غير ان تزعجهم هــذه الحيوانات ، وكأنهم لا يجسرون على التحرك خشية ان يؤذوها » .

ان العرب الذين يصورهم لنا دارفيو ذوو وقار ، ورزانة ، واعتدال، كثيرو الضحك ، قليلو الكلام ، يتحدثون في موضوعات شريفة ، يتلهون بألعاب جماعية كالشطرنج والدامة ، لا يلعبون قط على مال ، ولا يتحدثون عن النساء ابداً .

وتزيّن النساء على هواهن : « يشمن أذرعهن بأشتات الاشكال ، يضعن الازهار على رؤوسهن ، ويصبغن أقـدامهن وأيديهن صباغاً سيئاً بنوع من الحبر ديغي اللون ، ويخضبن اظافرهن بصباغ مائل الى الحمرة ، يصنعنه من تراب اخضر يدعى الحناء ، وينقطن وجوههن بنقاط زرقاء لا للتجمل فحسب ، بل لإيقاف الانظار ايضاً عند هــذه النقاط لئلا يتجاوزها خبث السحرة الى اشخاصهن فيؤذيهن » .

فالبدو يخشون ، بالفعل ، عين السوء ، لذا وجب على من يكون بينهم ألا يطري أبداً جمــال طفل أو حسن صحته ، لئلا يسبب له الاطراء عاهة او مرضاً ، ولا يتحدث البدوي عن زوجته الا ويدعوها « عجوزة » ولا سيا إذا كانت شابة وجميلة .

لا شك في ان طريقة الأكل لدى البدو ، وهي تبدو غريبة في عين الاوروبي ، قد أدهشت دارفيو ، فللأمير مائدة ، أعني قطعة جلد كبيرة مستديرة على الطراز التركي ، موضوعة على الارض . ولكن البدوي العادي لا مائدة له ولا سماط . فالطعام يُقدم عند البدو العاديين في ثلاث او اربع جفان ، وصحاف خشبية ، خشنة الصنع ، مُلىء بعضها لحماً ومرقاً ، والبعض برغلاً أو أرزاً ، والبعض الآخر انواعاً من الاطعمة المتبلة . ويجلس البدو لتناول الطعام متحلقين ، بحيث تتجه كتف الواحد منهم الى صدر جاره ، وتتجه الأيدي اليمنى كلها نحو الصحاف ، اما الأيدي اليسرى فتجعل الى الوراء خارج الحلقة ، ولا تُستعمل إلا للاستناد إليها فيما إذا تكاثر عدد الطاعمين وازدحموا في جلستهم . يأكلون المرق او الحساء بباطن اليد ، والبرغل والأرز بملء اليد ، ويعصرونه في راحتهم ، ويجعلون منه كبة تملأ فمهم كلياً ، وإذا ما تبقى منها شيء في يدهم او على لحيتهم نفضوه بدون تكلف . وإذا نهض احد الطاعمين حل محله احد الجالسين وراءه ممن ينتظرون دورهم ، والخدم يأكلون بعد الجميع ثم يضعون الصحاف بعضها فوق بعض ويحملونها الى بيت الامير . ويذهب الذين تناولوا الطعام فيعبون من ابريق كبير متناوبين .. ويغسلون ايديهم بالتراب والماء ، عندما لا يجدون صابوناً .

**

لقد ذكر دارفيو كثيراً من المعلومات عن اخلاقهم وعاداتهم ، وعن القضاء والزواج ، والطعام ، والسلاح ، والطب لديهم ، ولكن إليه يعود الفضل بالدرجة الاولى في اظهاره مزاجهم المركب الذي يدفعهم الى اعمال الغزو ولكنه يأمرهم بالجود ، والأمانة ، وكبر النفس ، والتباهي بأصلهم الذي يجعلهم ، في نظر انفسهم فوق مستوى سائر الشعوب ، ويعطيهم الحق في امتلاك اموال الغير . وهكذا خطا دارفيو الخطوة الأولى بذكاء فائق نحو معرفة الخلق العربي ، لان كل عربي حقيقي يملك خلق البدوي ، وفضائله ، وعقليته .

وقد قام القبطانان بلايستد وايليوت اللذان كانا يعملان في شركة الهند في لندن ، بعد قرن من ذلك (١٧٥٧) ومن بعدهما الرحالة الانكليزي غريفيز في سنة ١٧٨٦ ، بوصف جزء آخر من البـــادية ، وهو الجزء الشمالي الشرقي الواقع على تخوم ما بين النهرين حيث تمر القوافل النظامية بين البصرة (على مصب دجلة والفرات) وحلب في سورية . وتعتبر الملاحظات التي دونوها من وجهة نظر علم خصائص الاجناس البشرية لا اهمية لها ، لانهم كانوا مجرد مسافرين عابرين . فاذا كان غريفيز ، قـد أظهر بعض الاهتمام بالحياة في المخيمات ، وبعادات العرب اصحاب القوافل في مواقفهم من البدو الغزاة ، لم يبدِ بلايستد وايليوت تجاه اهالي تلك البقعة الا عدم الاكتراث والاحتقار ، وقد كثرت المشاجرات فيما بينهما وبين من استأجراهم من الاعراب ليدلوهما على الطريق .

فهل يُعد موقفهم هذا جنوناً منهم ؟ ان هذا الجنون لدى الفرنسيين، على كل حال ، لا يمكن اصلاحه كما تثبت ذلك القصة التاليـة التي رواها بلايستد : « ابتعد عن القافلة شاب فرنسي كان يساكنني خيمتي ، وجرى، على ما اظن ، نحو خيام العرب مدفوعاً بدافع الفضول .. ولما لم يعد في وقت العشاء ، ظننت انه لم يبتعد عنا الا للقيـام بزيارة الاوروبيين الآخرين الذين كانوا يخيمون على مقربـة منا . فأرسلت من يسأل عنه لدى الهولنديين فلم يُعثر عليه . فأرسلت ثلاثـــة من العرب على جمال سريعة للبحث عنه ، فلم يجدوا له اثراً . واخيراً شوهـد في خيمة من خيام العشيرة التي لم تكن تبعد عنا كثيراً ، وقـــد احتدم النزاع بينه وبين افرادها بعد ان سلبوه كل ما كان يحمله وأوشكوا إن يقضوا على حياته . وقد عانينا صعوبة كبرى في انقاذه ، ولم يفدنا الوعيد شيئاً ، ولم نتمكن من استرجاعه الا بعد ان دفعنا فدية عنه . ولم أجسر على ان اقول له شيئاً ، لأنه كان ما يزال يعتقد انه محق وانهم مخطئون » .

ولكن هؤلاء الرحالة لم يكونوا ليهتموا بإضافة مكاسب جديدة الى

علم خصائص الاجناس البشرية (الاتنوغرافيا) بل كان كل ما يبغونه مما كتبوه ان يستفيد من تجاربهم غيرهم ممن يريدون ان يسلكوا الطريق التي سلكوها . وهكذا يقدم ايليوت هذه النصائح : « تزيوا بالزي التركي ، وتسلحوا ببندقية وسيف ، وزوج من الطبنجات ، لتحملوا منهـا ما تريدون » .

أما بلايستد فأبرع في الوصف ، وهو يعطي فكرة عن مظاهر البادية المختلفة ، هذه البادية الرملية المليئة بالحصى في بادىء الأمر ، مع بعض الاشواك ، ثم « ذات الارض الرخوة ، الاسفنجية ، المليئـة بالرمال ، وادغال الشجيرات البرية » ثم « ذات المرتفعات والمنخفضات ، مع بعض الادغال هنا وهناك ، وتلال الرمال التي كونتها الرياح . هكذا يصف منطقة الرمال في ضواحي تدمر .

اما غريفز الذي سلك تلك الطريق من وجهـة معاكسة ، فان ملاحظاته أدق وقد عني بتدوين درجات الحرارة . وكان وآلان مزمعاً ان يعطي فيما بعد ، صورة جغرافية قيمة في الحقيقة .

ولكن أهم ما أضيف من المعلومات بالنسبة الى ذلك العصر ، كانت المعلومات المتعلقة بسكان البادية ، اكثر منها بالبادية ذاتها ، التي دوّنهـا دارفيو في شبه جزيرة سيناء .

وصفوة القول ، لقد توافرت لدى الغربيين في نهـاية القرن السابع عشر معلومات اساسية ، في جميع الابواب : العربية السعيدة ، والمدن المقدسة ، وعالم البـادية . ولكن باستثناء دي فارتيما الذي كان وحده رائداً مطلعاً ، نزيهاً ، كان الآخرون جميعاً رواد مصادفة .

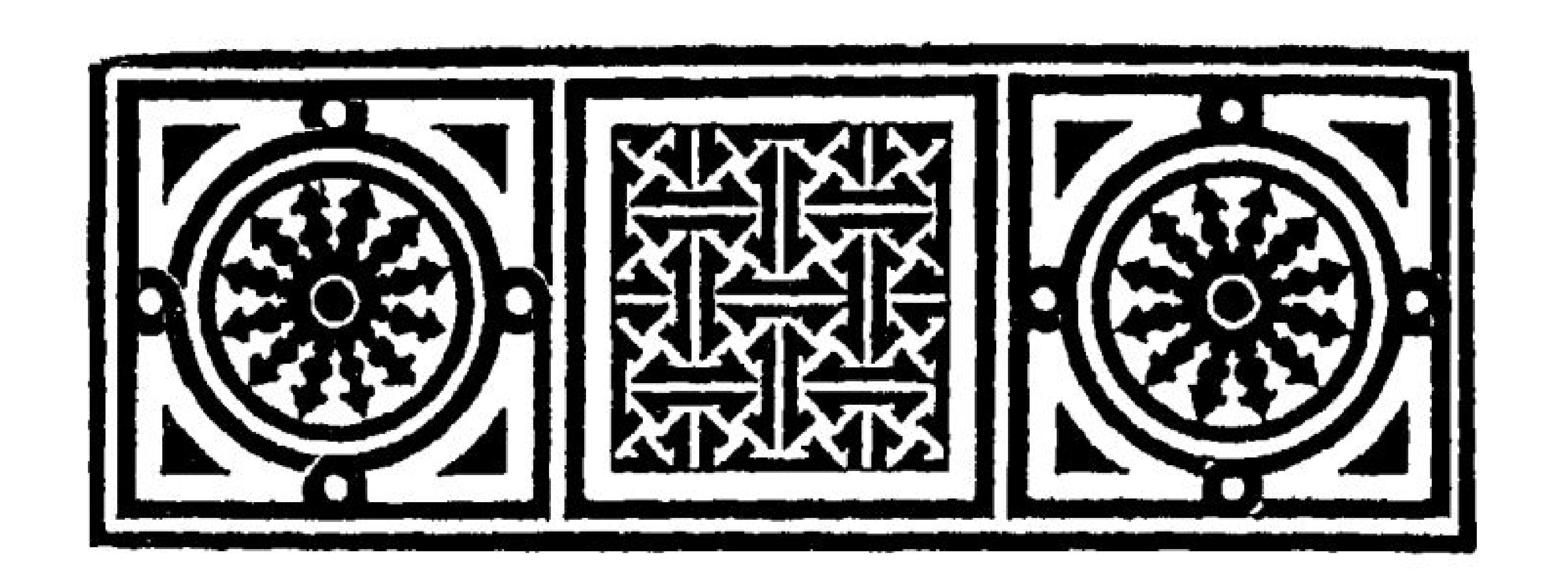
ان كتابَيْ دي لاروك اللذين يرويان قصتي رحلتيه الخاطفتين ، كانا قد اخذا يتسمان بسمة النهج والاهتمام العلميين اللذين كانا مزمعين ان يجعلا من السفر ، اعتباراً من القرن الثامن عشر ، ارتياداً بكل ما في الكلمة من مدلول .

ان الارتياد سيهدف ، منذ ذلك الحين ، إلا إذا كانت تقصد من ورائه أغراض سياسية ، الى زيادة المعلومات عن شبه الجزيرة العربية في بابٍ من الابواب . ولكن لدى البعض ، لم يكن حب المغـــامرة ، والرغبة في رؤية ما لم يُنشر عنه شيء ، ليتخليـــا عن مكانهما الاول ، لأي غرض آخر . وسيعرف البعض معرفة تامة على وجه التقريب كيف يكونون رواداً ، ويظل الآخرون ، تقريباً ، مغامرين وحسب . على ان البلاد العربية كانت من الغرابة بحيث انها فرضت على كل رجل من هؤلاء المصممين على السعي وراء المعرفة ، حتى على العلمـــاء غير المغرمين بالمخاطرة ، ضرورة العيش عيشة خطرة .



الجزء الثالث

مولد الريادة



فجر العلم

خلال هذه القرون كانت المعارف العلمية قد نمت في أوروبة . وكان ارتياد ما وراء حدود القارة الأوروبية مزمعاً ان يغدو أخصب ، فتنير سبل الرحالين معرفة جديدة . إذ لا يكفي الانسان في الحقيقة ، المرور بمكان ما ، والنظر إليه ، والكتابة عنه ، ليغدو رائداً حسناً . فبقدر ما يكون الانسان مطلعاً ، يزداد فهمه لما يرى ، ويدرك مغزى ما يتعلمه . هكذا كان عمل رجال العلم مزمعاً ، طوال العصور التالية ، ان يهدي سبيل الرائدين ، ويسخر اكتشافاتهم لتزويد من يعقبونهم في مهام الارتياد ، بالجديد من المعرفة .

وكان العلم الذي تقدم بنسبة طردية مع الملاحة والارتياد ، هو بلا مشاحة علم الجغرافية ، ولاسيا علم رسم الخرائط الجغرافية .

قبل عهد فاسكو دي غاما واكتشاف الدورة حول إفريقية عن طريق الرجاء الصالح ، لم يكن في الإمكان رسم شبه الجزيرة العربية على الخرائط العالمية الا استناداً الى معطيات بطليموس . لذا لم ترسم الخرائط المسطحة

الاولى للكرة الأرضية كخرائط فراموره في سنة ١٤٦٠ ، وجوان دي لاكوزا في سنة ١٥٠٠ ، وكانتينو في سنة ١٥٠٢ ، الا صورة الجزيرة العربية كما تتجلى في كتب الجغرافي اليوناني .

ولكن القراء يذكرون وصول فاسكو دي غاما الى سواحل جنوبي شبه جزيرة العرب في سنة ١٤٩٨ ، ووصول لويس دي فارتيما الى اليمن عن طريق البحر الاحمر في آن واحد على وجه التقريب . فقد مكنت المعلومات الجديدة التي زود بها العلم هذان الرحالتان رسامي الخرائط في ايامهما من رسمها على خرائطهما . فقد طبع راسم خرائط كبير كان يشتغل في سان ديه خريطتين مسطحتين للكرة الارضية ، احداهما سنة ١٥٠٧ والثانية سنة ١٥١٦ . ولا يُرى على الخريطة الاولى اي جديد عن شبه جزيرة العرب ، اما على الخريطة الثانية فقد ظهر تخطيط ساحلي جديد — رغم كونه مغلوطاً — واسماء مدن جديدة كصنعاء ، وتعز ، وزبيد ، والمقارنة . ولا شك في ان هذا الاسم الاخير يدلنا على المصدر الذي استقى منه راسم الخرائط هذا معلوماته الجديدة ، وهو قصة رحلة لويس دي فارتيما التي ظهرت سنة ١٥١٠ ، لأن قصر المقارنة الشهير الذي أورد وصفه لم يُذكر اسمه بهذا الشكل لا في الكتب العربية ، ولا في كتب الرحالة المتخلفين عنه .

وقد أفاد والدسيمولر ، في الوقت نفسه ، من المعلومات التي أوردها الملاحون البرتغاليون عن السواحل . فالعلم الجغرافي ، بالفعل ، مدين لخلفاء فاسكو دي غاما بالشكل الجديد لوضع الخرائط ، اذ لم يهتموا بأن يرسموا على الخرائط الاماكن التي لم يحصلوا على أية معلومات عنها ، بل بتحديد خطوط السواحل قدر الامكان ، ومواقع الموانىء . وسوف تتمكن المعرفة الدقيقة بشكل السواحل من ان تنمو بفضل وضع هذه الخرائط المعروفة باسم « بورتولان » . لقد وضع برتغالي مجهول في سنة ١٥١٠ ، خريطة حفظت في دار الكتب في وولفنبوتل ، ولم تصدر عنها

نسخ جديدة الا اعتباراً من سنة ١٩٢٩ ، وقد حولت تلك الخريطة المعلومات التي حصل عليها خلفاء فاسكو دي غاما الى مخطط للمحيط الهندي والبحر الاحمر . وكان البحار البرتغالي فرانسيسكو رودريغز قد قام في الفترة الواقعة ما بين ١٥٢٤ و ١٥٣٠ برسم سواحل المحيط الهندي والشرق الاقصى .

ولكن الخريطة التي حددت بصورة نهائية شكل المحيط الهندي الغربي، وحسنت تحسيناً بيناً رسم شبه الجزيرة العربية ، والخليج العربي ، إنما هي خريطة بدرو وجورج رينل الموضوعة بين سنتي ١٥١٩ و١٥٢١ . ويتضح ذلك بسهولة عند مقارنتها بالخرائط التي وضعت استناداً الى المعلومات المستقاة من بطليموس اليوناني .

ولكن السواحل ليست وحدها ما يجب رسمه على الخرائط . وعلى الرغم من ان خريطة الاخوين رينل منمقة تنميقاً حسناً بالموضوعات الجديرة بالتصوير ، نراها خالية من المعلومات عن داخل البلاد .

قام جاكو بوغاستالدي في سنة ١٥٦١ بوضع خريطة انتشرت انتشاراً واسعاً ، فقد بدت فيها شبه جزيرة العرب لمن يلقي عليها اول نظرة مليئة تماماً ، ولكنها في الحقيقة تكاد تكون خالية من كل معلومات جدية . فقد ابدى آ. كامرر ملاحظة عنها فقال انها باستثناء السواحل وموانئها لا تحتوي إلا على المدينة ، ومكة ، وصنعاء ، ونجران ، ومأرب ، وشبام ، وفرتو ، وذمار ، ورضى كأسماء صحيحة ، ولكن ما تبقى فيها لا يعدو كونه من صنع الخيال . ولكننا نجد لهذا تفسيراً صحيحاً عندما نعلم ان « كتاب رحلات السيد فنسان لبلان الشهيرة » الذي صدرت منه اول طبعة في سنة ١٦٤٨ ، أورد هذه الاسماء الخيالية الى جانب الاسماء الحقيقية . وكان كل ما فعله راسم الخريطة أن اعتمد اكتشافات بيير برجرون . وهكذا نرى الى اية درجة تخدم التقارير

الارتياد الصحيحة المعرفة ، والى اية درجة يؤخرها ويضللهـا الغش حتى غير المقصود .

ولم تلبث ان عرضت خرائط منقحة لشبه الجزيرة العربية استناداً الى معلومات أدلى بها الرواد . وهكذا في وسعنا ان نجد بين محفوظـــات الجغرافي دانفيل المودعة في دار الكتب الوطنية في باريس خريطة من صنع الجغرافي الهولندي فان دراآ ، منشورة في سنة ۱۷۱۳ ، رسمت عليهـــا الطريق التي سلكها هنري ميدلتن . وقد رأينا ان لاروك حاول ان يقدم خريطة لليمن رسمت عليها الطريق التي سلكها لاغرولوديير وباربيه . ولكن الفضل في وضع خريطة لشبه الجزيرة العربية وهي الخريطة الاولى الصحيحة على وجه التقريب والخريطة الاولى التي تتبين فيها من اول نظرة صناعة عصرية يعود الى دانفيل جغرافي لويس الخامس عشر ، وقد أصدرها سنة ١٧٥٥ . والواقع ان القرن الثامن عشر كان قد سجل نهضة عقليـة علمية جديدة .

وليس عمل دانفيل هذا بعيداً عن الاخطاء ، فقـــد خلا من الخليج العربي وشبه جزيرة قطر ، وخليج الكويت . ولن يـــدهش المرء ان يجد في داخل البلاد ، اخطاء في المواقع العرضية بالنسبة الى خط الاستواء ، ونواقص ، لأنه لم يكن اي اوروبي قد تعرف الى هذه الاماكن . ومن المدهش بالاحرى ان يكون دانفيل قـد توصل الى فكرة صحيحـة ولو إجمالية عن مجموعة شبه الجزيرة العربية . وما ذلك إلا لأنه أطال تمحيص قصص الرواد ، والخرائط الموضوعـة سابقـاً ، وكتب الجغرافيين العرب التي كانت قد اكتشفت وترجمت . كان العلم في الحقيقة قـد أحرز ايضاً تقدماً في مجالات اخرى .

بينما كان البرتغاليون ، والهولنديون والانكليز ينزلون مراكبهم الى الشواطىء العربية ، كان العلماء بالآداب القديمة قد اخذوا يشعرون بفوائد الاطلاع على مؤلفات الكتاب المسلمين . فقد صدر من مطبعة آل مديشي

في سنة ١٥٩٢ مختصر كتاب جغرافي للإدريسي الذي عاش في بلاط ملك صقلية في القرن الثاني عشر ، واستخدم مؤلفات بطليموس والمسعودي وغيرهما من الكتّاب ، وقام هو بنفسه بعدة رحلات . ولكنه كان قد اهتم بوضع مؤلف تناول فيه البحث عن المناطق المناخية في العالم .وهكذا ، نراه لا يتوقف عند ذكر معلومات مفصلة عن شكل البلاد . اما بالنسبة لشبه الجزيرة العربية فهو لا يعطي سوى معلومات طوبوغرافية عامة عن الجزأين الغربي ، والجنوبي الغربي منها ، وهو يقتبس معلومات بطليموس فيما يتعلق بما تبقى من شبه الجزيرة العربية ، او بعض المعلومات التي وصلته عن طريق السماع ، ولكنه لا يعرف البلاد بنفسه . فهو يتحدث عن حضرموت في جملة ، وعن الصحراء الوسطى في جملة اخرى

قام بترجمة هذا المختصر راهبان مارونيان ، ونشر في باريس سنة ١٦١٩ تحت عنوان « جغرافية فيوبنسيس » .

ان القارىء الغربي ، حين يتأمل الخرائط المرفقة بذلك الكتاب ، ليحس وكأنه امام لوحة فنية مجردة يصعب فهمها . فقد رسمت حدود شبه الجزيرة العربية بخط عدسي شديد التكسير ، محاط بهلال نير ،وتبدو في المساحة المحدودة القائمة التي تمثل شبه الجزيرة خطوط مستقيمة منفصل بعضها عن بعض متداخلة في نوع من الأقراص الملونة الكبيرة المزينة بأسماء عربية .

إنه مفهومٌ لعلم وضع الخرائط يوقعنا في حيرة ، غير ان الأطلسين ، اطلس الإدريسي الصغير في سنة ١١٩٢ واطلس الإدريسي الكبير في سنة سنة ١١٩٤ ، عمل كبير ، يعجب المرء بقيمته ، إذا ما علم انه كان في وسع من يتأملها في القرن الثاني عشر ان يأخذ عن شبه جزيرة العرب الفكرة التي تعطيها عنها الخريطة التي ذكرنا ان ك. ميلر قام بنسخها وان يتعرف فيها الى فرنسة وهي لا تفوق شبه حزيرة العرب تشويهاً .

على ان الغرب ، عندما اطلع على هذا العمل في أواخر القرن السادس

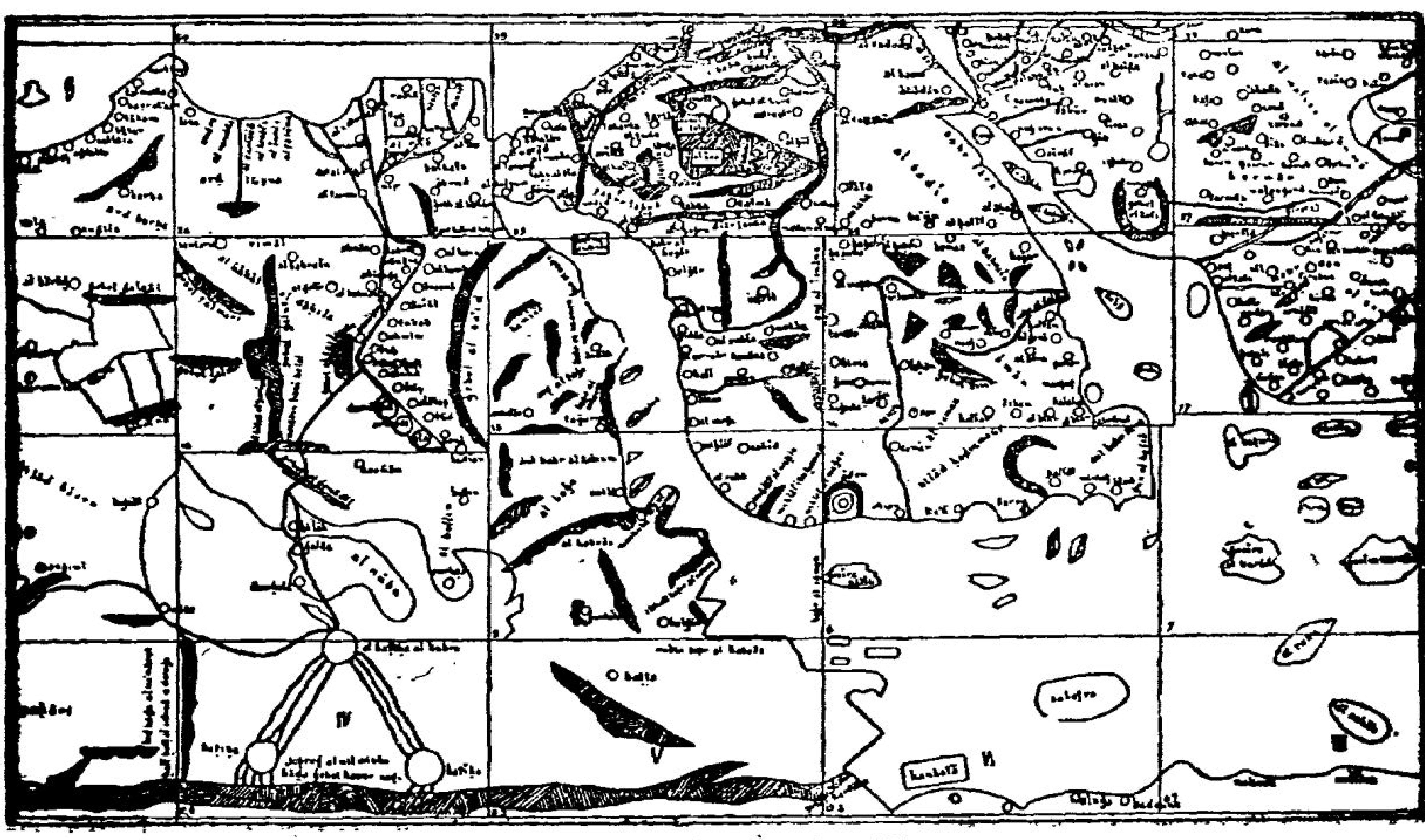
عشر كان قد رأى خرائط مسطحة للكرة الارضية تمثل شكل السواحل الحقيقي، وهيئة الاراضي . ولم يكن قد تبقى الا التقاط معلومات عن داخل شبه الجزيرة العربية . فغدا عمل الإدريسي ، والحالة هـــذه ، لا يعطي الا شيئاً قليلاً .

وقد كان لمؤلف الجغرافي المسلم المعروف بأبي الفداء (١٢٧١– ١٣٣١) فوائد أعم . ولكنه ، هو بدوره ، لم يكن يعرف من شبه الجزيرة العربية الا طريق الحج ، ولا يعطي الا معلومات عامة جداً عن الجزأين الغربي والجنوبي الغربي منها .

وكان لاروك اول من أصدر ، عقب صدور قصة دارفيو ، ترجمة فرنسية لكتاب أبي الفداء المعروف « وصف شبه جزيرة العرب » في سنة ١٧١٧ ، ولكن ترجمة لاتينية عنه كانت قد صدرت في لندن منـــذ سنة ١٦٥٠ .

ولا يكتب ابو الفداء بدوره ، في علم الجغرافية ، على الطريقـــة الاوروبية . فهو يقوم بدراسة اشتقاق اسماء الاماكن ، ويضع لوائح بأسماء المدن والمقاطعات ، مورداً عنها المعلومات التي تمكن من جمعها ؛ فيسرد أبياتاً شعرية ، وروايات تناقلها الناس ، ويذكر المسافات بين نقطة وأخرى عندما يمكنه ذلك مقدّراً اياها بمسيرة أيام .

ها هي ذي مثلاً احدى اللمحات الأشد طولاً ، اللمحة الخاصة بالحجر ، حيث رأى دي فارتيما خرائب مدن حلت عليها اللعنة ، وقد حاول غيره من الرواد الوصول اليها في مطلع القرن التاسع عشر ، يقول ابو الفداء ان الحجر تقع استناداً الى ابن حوقل في الجبال التي تبعد مسيرة يوم واحد عن وادي القرى ، ويضيف ان ذلك ليس صحيحاً ، وانه يعرف ان المسافة تتجاوز مسيرة خمسة ايام ، ويقول ان منطقـــة حجر كانت تسكنهـــا قبيلة ثمود التي قال الله عنها : « وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذي الأوتاد ، الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيهـا



« أطلس الإدريسي » كما نقله ك. كيلر

الفساد ، فصب عليهم ربك سوط عذاب » ، ويضيف انه رأى جبالاً وفيها مغاور ومياه ، وهذا ايضاً ما عبر الله عنه بهذه الكلمات : « وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين » . تسمى هذه الجبال « الأثالب » ويتوقف فيها الحجاج من سورية وهم في طريقهم الى مكة ، ويقال ان النبي قد حرم شرب مياه هذه الجبال .

أما عن موقع منطقة كبيرة كالدهناء فيكتفي بأن يقول انها ارض مترامية الأطراف تبدأ من بلاد نجد ، وتمتد حتى منطقة عشيرة تميم . ومن المفهوم ان دانفيل ، الذي عني بالإفادة من هذه الاشارات ، لم يتوصل الى تعيين موقع المنطقة بدقة تامة . ويبلغ أبو الفداء الذي يكتب على هواه ، في عدم الدقة احياناً ، درجة الخطأ ، وهكذا يقول : وتقع في بلاد اليمن ايضاً حضرموت البلاد المزدهرة التي يقيم فيها ابناء قبيلة ثمود ، وهي تبعد عن الشحر مسيرة اربعة ايام .

والمعروف ان حضرموت ليست في بلاد اليمن[1] . ويمكننا إدراك خطأ هذه اللمحة الفادح عندما نتبع فون وريده الى قلب هذه البلاد كما سنرى في الفصل الاخير من هذا الكتاب . ولن يدهشنا بعد ذلك ان يكون دانفيل قد أغفل في خريطته ذكر شبكة الطرق ما بين الأودية الثلاثة التي تؤلف وسط هذه المنطقة .

ويخدع احياناً ابو الفداء الذي يعمد الى مجرد ترتيب المعلومات تحت اسماء الاماكن ، بتشابه ألفاظ الاسماء فتحت اسم « شبام » يخلط المعلومات المعطاة عن شبام اليمن بالمعلومات عن شبام حضرموت . ونحن نشعر بهذا الخلط اليوم ، لكن دانفيل ومعاصريه لم يكن في وسعهم تفادي الوقوع في مثل ذلك الخطأ . واليك ما كتبه ابو الفداء : شبام احد جبال

---

١ ـ جغرافيو العرب القدماء ، يعدون حضرموت جزءاً من اليمن الذي يمتد من جبال الحجاز جنوباً ، حتى عُمان شرقاً .

اليمن الشهيرة ، وقد شيدت عليه قلعة . وشبام مثل عاصمة بلاد حضرموت بينها وبين صنعاء واحد وستون فرسخاً ، واحدى عشرة محطة ، ومحطة واحدة بين شبام وذمار .

ويبدو أن هـــذا الخلط هو الذي دفعه الى ان يضع حضرموت في بلاد اليمن .

وهكذا يتضح ان لمحات ابي الفداء الاثنتين والاربعين الخاصة بالاماكن الواقعة في شبه الجزيرة العربية ، ليس من السهل الاستعانة بهـــا لوضع خريطة .

*

كان من المقدر للعنـــاية الموجهة الى الكتب العربيـــة ان تنمو شيئاً فشيئاً ، وإننا لمدينون للمستشرق الفرنسي الكبير دهربلوت بكونه اول من قام بمحاولة نشر إجمالي للكتب الاسلامية ، فقـــد أورد في مؤلّفه المعروف « بالمكتبة الشرقية » مقتطفات من ياقوت وابن خلدون وحاجي خليفة[1] . ولكن حركة الدراسات العربية التي نشطت في القرن التاسع عشر ، هي التي كانت الدافع الى نشر جميع كتب هؤلاء المؤلفين وغيرهم من الجغرافيين المسلمين كالاصطخري ، والمقدسي ، وابن بطوطة ، وترجمتها . على ان الغرب كان قد توغل بعيداً في ارتياد شبه الجزيرة العربية نفسها ، فغدت المعلومات المعطاة في كتب هؤلاء المؤلفين القدماء ، عديمة النفع تقريباً بالنسبة إليه .

منـــذ النهضة التي دفع فيها ايراسم بالغرب الى الامام ، بانشائه في جامعة لوفان « كلية اللغات الثلاث : اللاتينيـــة واليونانية والعبرية »

---

١ – حاجي خليفة هو مؤلف كتـــاب « كشف الظنون في اسامي الكتب والفنون » .



بلدة شبام في وادي حضرموت (تصوير : ه. فون ويسمان) .

كانت دراسة اللغات السامية قد تقدمت تقدماً محسوساً . وكانت الابحاث في نصوص التوراة تقتضي معرفة اللغة العبرية ، وكان في اسبانية التي خضعت زمناً طويلاً لحكم المسلمين ، عدد كبير من الاساتذة في اللغة العربية . وقد اكتشفت الفائدة الكامنة في مقارنة ألفاظ من لغات سامية مختلفة بعضها ببعض تربط بينها قرابة ، كالقرابة الموجودة بين اللغتين الايطالية والفرنسية من اصل اللغات الرومانية . إذ كان من المحتمل ان تلقي هذه المقارنة ضوءاً على معاني ألفاظها وعلى فهم قواعدها . وكان مزمعاً ان يولد علم اللغات المقارن للغات السامية في مطلع القرن الثامن عشر .

كان العالم الايرلندي ادورد بوكوك قد انكب على كتابة تاريخ العرب حسبما كان يمكن استنتاجه من المصادر الادبية . وقد اصبح كتابه المعروف « نموذج من تاريخ العرب » الذي صدر في سنة ١٦٥٠ حجة بحيث أن ص دي ساسي كان سيهتم بإعادة طبعه في مطلع القرن التاسع عشر .

ولكن الناس كانوا قد اخذوا يشعرون بحاجة الى نهج تاريخي موضوعي ، مؤسس على استعمال الوثائق الخطية الباقية من العصور السالفة ، لذلك لم تكن الجهود تبذل لقراءة المخطوطات العربية فحسب ، بل لقراءة الكتابات المنقوشة على الحجارة في اوائل الاسلام . وسنرى ان علماء أوروبة ، سيتمكنون ، في القرن الثامن عشر ، من قراءة الكتابات الاثرية بالخط الكوفي الذي كان مثقفو اليمن قد عجزوا عن ترجمته .

وكانت دراسة وثائق الماضي الاصلية قد اعتبرت في ذلك العصر امراً اساسياً الى درجة انه اسس في باريس في عام ١٦٦٣ مع الاكاديمية الفرنسية ، واكاديمية العلوم ، اكاديمية للآداب والخطوط الاثرية ، لم تزل موجودة في مؤسسة المجمع العلمي الفرنسي حتى يومنا هذا .

واخيراً كان قد اخذ الناس يلحون على طلب الموضوعية العلمية فيما يختص بمعرفة الناس ، والبلدان ، والحضارات الغريبة ، فقد زخرت صدور اصحاب العقول النيرة في القرن الثامن عشر ، الذين أطلق عليهم آنئذ اسم « فلاسفة » ، وصدور واضعي الموسوعات غير الضالين في تيه الجدل الديني المخالف لروح التسامح الذي كانوا يعلنون التحلي به ، برغبة جديدة واعية ، في معرفة اخلاق الشعوب النائية وشؤونها . وكان التسامح ضمانة الفهم السليم لعقليات تختلف عن عقليتهم .

ان العلماء ، سواء منهم الجغرافيون ، وعلماء اللغات ، والمؤرخون ، والفلاسفة ، أو أساتذة العلوم الطبيعية ، قد شعروا برغبة ملحة في أن يدرسوا في كل البلدان غير المعروفة جيداً ما تستطيع هذه البلدان ان تعلمهم اياه .

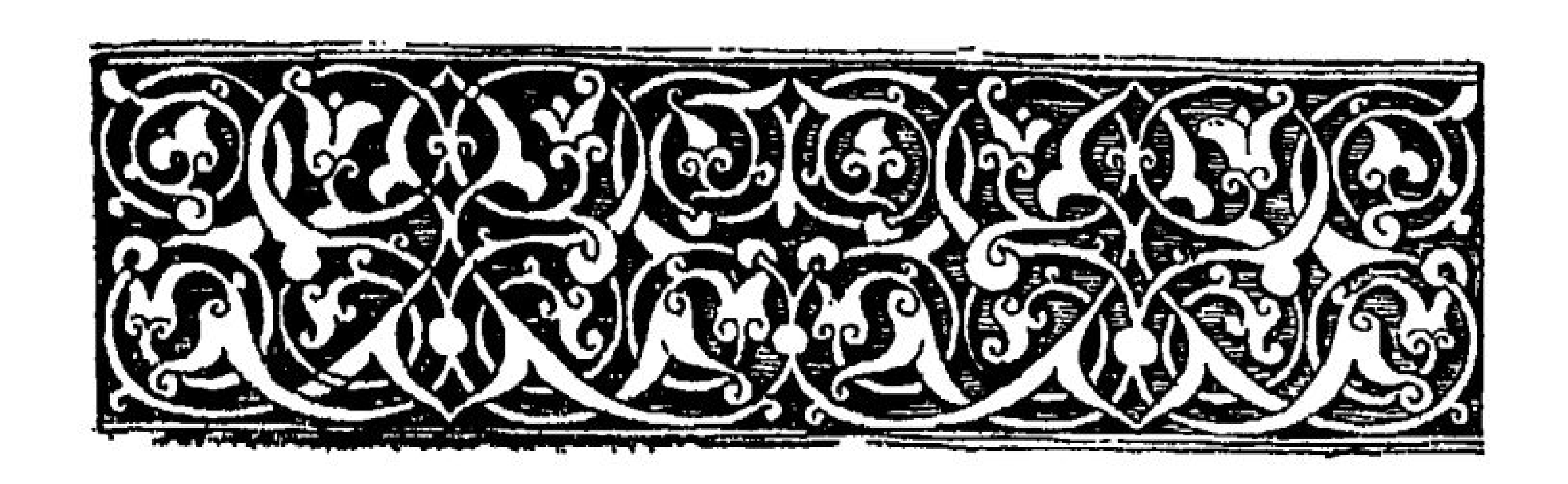
هكذا ولدت الرغبة العلمية الحارة ، القادرة على دفع العلماء الى القيام بأخطر المغامرات ، وكانت مزمعة منذ ذلك الحين على أن توقد نارها في افئدة ابطالها ، وفي صدور شهدائها في بعض الاحيان .

وفيما يختص بشبه الجزيرة العربية ، فكر ميخائيلس استاذ علم اللغات في جامعة غوتنجن ، في ان يقترح ارسال بعثة علمية الى هذه البلاد . فتحدث في ذلك الى احد وزراء فريدريك الخامس ملك الدانمارك . وقد لقي هذا الاقتراح قبولاً حماسياً لدى الملك الذي عين خمسة علماء للقيام بهذه المهمة ، وأصدر تعليماته بشأن اولئك الرواد ، ونشر في الوقت ذاته لائحة بالأسئلة والمعضلات التي اقترح عليهم ميخائيلس السعي للاجابة عليها وايضاحها ، وطلب الى العلماء الاجانب ان يضيفوا إليها أسئلتهم ، وقد تلقت البعثة من هؤلاء العلماء اسئلة عديدة قبل سفرها ، وكان أبرزها كما يذكر نيبور اسئلة الجمعية الملكية الفرنسية للآداب والخطوط الاثرية ، ولم تتلق البعثة الاسئلة التي ارسلها الانكليز إليها إلا

في بومباي . وكانت هذه الاسئلة تتعلق بعلم اللغات ، والجغرافيــة ، والعلوم الطبيعية ، والطب ، والدين ، والمجتمع ، والقضاء ، والعادات .

وهكذا ركب البحر في كانون الثاني (يناير) من سنة ١٧٦١ ، باتجاه اليمن خمسة مندوبين من علماء أوروبة ، عهد إليهم بجموع رغبات هذه القارة المختلفة في المعرفة ، وزوّدوا بكل المعلومات والمعارف التي كانت قد اكتسبت حتى ذلك الحين : « قصص الرحالين (ولا سيما دي فارتيما ودي لاروك) وكتاب ابي الفداء باللغة العربية ، وخريطة دانفيل » .





كارستن نيبور

النموذج الكامل للرائد العالم ذي النزعة الإنسانية

وصل اعضاء البعثة العلمية التي أرسلها ملك الدانمارك الى مرفأ القنفدة العربي الصغير في التاسع والعشرين من شهر تشرين الاول (اكتوبر) من سنة ١٧٦٢ وكانوا خمسة : الاستاذ فردريك فون هافن الاخصائي في اللغات الشرقية ، والاستاذ بيتر فورسكال الاسوجي المولد وتلميذ عالم النباتات الكبير لينه ، المكلف بتدوين الملاحظات الخاصة بعلم الحيوان ، وجورج غيوم بورنفانيد الفنان المكلف بتصوير النماذج التي يجمعها علماء العلوم الطبيعية ، والمناظر الطبيعية ، والملابس ، واخيراً كارستن نيبور المهندس المكلف بتدوين المعلومات الجغرافية ، ومعهم احد خدم الملك الاسوجي . وشاءت الاقدار ألا يعود من هؤلاء الرجال الستة الذين نزلوا الى البر العربي في ذلك اليوم من تشرين الاول (اكتوبر) من سنة ١٧٦٢ إلا رجل واحد ، هو نيبور ، رغم ان أية فاجعة لم تكن سبباً لذلك . وقد كان رأي نيبور الذي بقي على قيد الحياة ان الاجهاد الذي سبب الموت لرفاقه كان ناتجاً عن تسرعهم المفرط في رؤية البلاد ، دون ان



کارستن نیبور

تردعهم الحرارة المحرقة عن ذلك ، فتعرضوا لتعب مضن . اضف الى ذلك ، انهم لم يعتقدوا ان من الواجب عليهم اقتباس نمط المعيشة اليمنية ، بل ظلوا ، في مجتمعهم الصغير ، محتفظين بعاداتهم الاوروبية ، يتناولون كثيراً من اللحوم ، ويتمتعون طويلًا بهواء الليـل البارد ، ولا يحتاطون للاختلاف الشديد ما بين مناخ الليل ومناخ النهار ، ولا يحترسون من ندى الصباح الذي كان العرب يحترسون منه ، فلا ينامون بدون غطاء .

ولما ظل نيبور وحده ، قرر ان يتعود طريقة المعيشة الشرقيـــة ، وذلك ما أكسبه صحة ممتازة . وبعمله هذا لم يعد يلاقي أية صعوبة مع سكان هذه البلاد . ان هذا الدرس جدير بأن يحفظ وكذلك بجمل السلوك الذي سلكه .

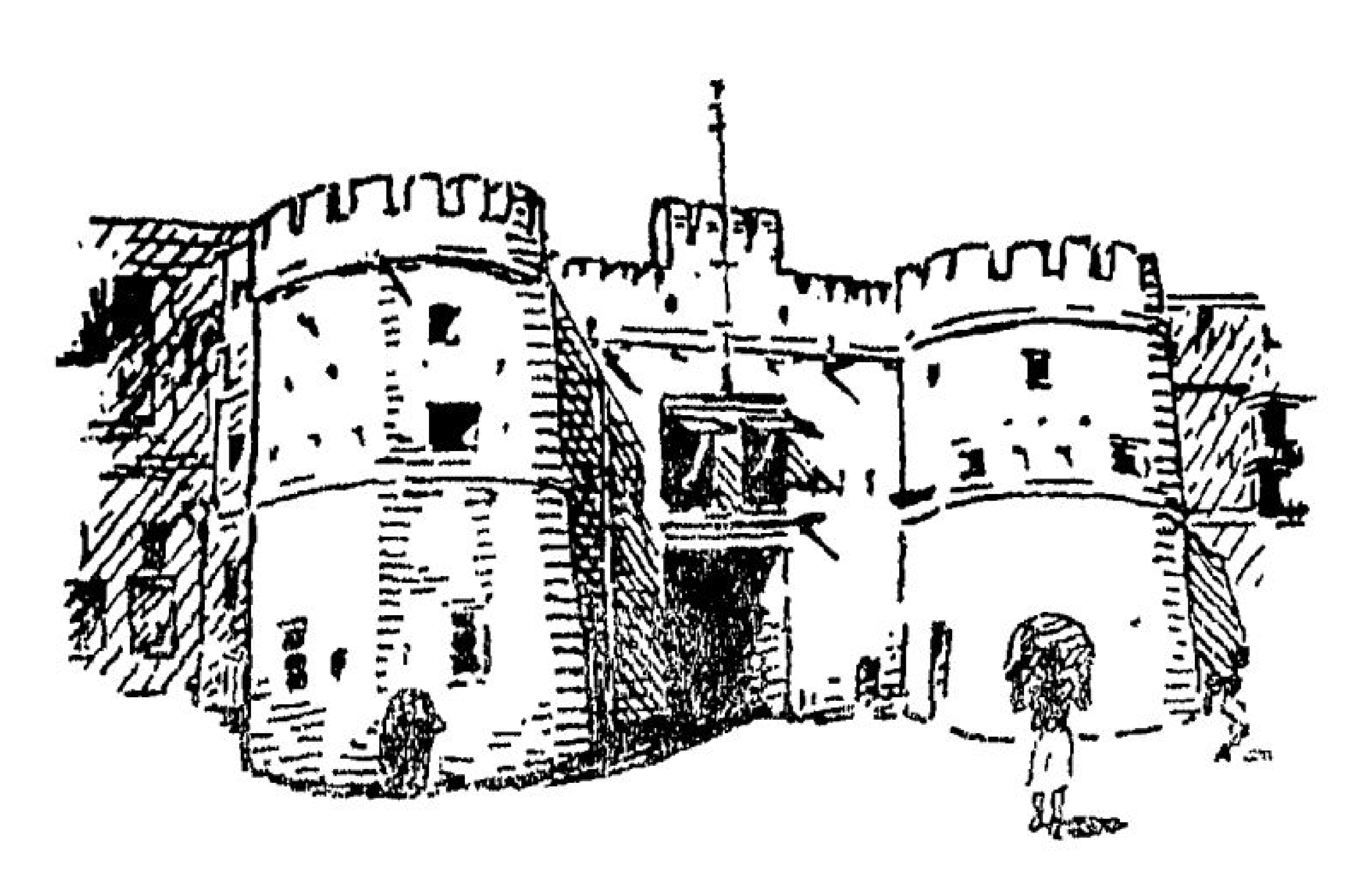
لم يحس بأي شعور من التعالي والازدراء تجاه اهالي البلاد ، وعرف كيف يؤدي واجب الاجلال لملك اليمن كأنه ملك بلاده ، ولا شك في ان لاغرو لوديير وباربيه كانا قد سلكا هذا السلوك ذاته . على ان نيبور تجاوز الحد في سلوكه بالنسبة الى الاهلين واستحق بذلك الثناء . فقـــد ذكر « ان السكان كانوا يسببون لهم كدراً في غالب الاحيان ، ولكنه قبـل ان يحكم عليهم ، ويشعر بالاهانة من أي شيء ، توسل كل ذكائه لفهم هؤلاء الناس . وهكذا لا يلبث ان يقول مدققاً : « لقد اعتقدنا أننا مصيبون في التذمر من مضايقتهم بسبب عدم معرفة البلاد وسكانها ، وغاب عن بالنا ان الانسان لا يمكن ان يسافر حتى في بلاده دون ان يلاقي ازعاجاً . فاذا كان هناك من حاول سرقته في بعض النزل الخاصة بالمسافرين ، وإذا كان رجال الجمارك قد أظهروا استبداداً ، ألا يمكن ان يحدث مثل ذلك في أوروبة ؟ »

ويثور نيبور على الرأي المتسرع الذي كوّنه مواطنوه عن العرب ، فقد أدرك ، وكان قد أفاد من مطالعة كتاب دارفيو ، ان في شبه الجزيرة العربية لصوصاً ، كما هي الحال في جميع بلدان العالم ، ولكنهم اكثر

لصوص العالم تمدناً ، لأنهم عوضاً عن ان يحذوا حذو اللصوص في تركية الاوروبية الذين يقتلون من يريدون سلبهم ، لا يقدمون ، الا فيما ندر ، على قتل من يسلبونهم ، إلا إذا أبدوا مقاومة شديدة او جرحوا احدهم ، حتى انهم يقومون بإضافة بعض من يسلبونهم ، والإحسان اليهم ، فيردون اليهم بعض المأكولات والثياب العتيقة ، ويرافقونهم في بعض الاحيـــان خوفاً من ان يلقوا حتفهم في الصحراء . » ويضيف الى هذا قوله : «ان من الخطأ اطلاق اسم عصابة من اللصوص على هؤلاء القوم الذين يرئسهم مثل هؤلاء الشيوخ العظـــام ، الذين يعتبرون اسياداً لا منازع لهم على الصحراء ، والذين لهم كل الحق في التصدي لمن يريدون ان يشقوا لأنفسهم طريقاً في اراضيهم بالقوة ، والذين يعتقدون اعتقاداً راسخاً بأن لهم الحق في تلقي الهدايا ورسم المرور والرسوم الجمركية مثل سائر الشعوب التي تفرض رسوماً جمركية على المسافرين والبضائع »

وهو لم يلمس لدى الناس الذين التقى بهم عـــداوة تجاه الاوروبيين فقال : «ان سكان اليمن مهذبون ازاء الاجانب ، وفي وسع الانسان ان يسافر في امبراطورية الإمام حراً ، آمناً كما يفعل في اوروبة . ولكن يجب على الاوربيين ألا يمسوا إحساس سكان البلاد . وفي الامكان ، بسهولة تامة ، اكتساب صداقة السكان بإطلاعهم على المعـــارف ، لأن العرب بعكس الاتراك ، لا يخجلون التعلم من الاوروبيين . يجب على المسافر ان يتجنب انتقاد ما لا يعجبه ، مع العلم انه يجب ألا يتوسل الخداع لاستمالة العرب ، لأنهم يحبـــون الصدق ، وهم يعرفون انهم لا يخلون من النقائص ، ولكنهم لا يريدون ان يهزأ الغير من نقائصهم هـذه » وهو يظهرهم ولديهم هذه العادة التي لا وجود لها في أمم اوروبة وهي « محاولة مساعدة الاجنبي الذي يريد تعلم لغتهم ، وعدم السماح لأنفسهم بالسخرية منه إذا اخطأ التعبير » .

واخيراً يحذرنا نيبور من اعتبار الرحلة الى شبه الجزيرة العربية ، رحلة



باب قديم في الحديدة

لهو ومتعة : « فالشبان الذين يحبون الرفاهية ، والموائد الشهية ، ومعاشرة النساء يجب ألا يذهبوا الى بلاد العرب ، يجب ان يكون معلوماً انه إذا كان هنالك كثيرون من العرب يتناولون المآكل الشهية ، فعلى المسافر ان يكتفي بالحلول في الخان حيث يعد طعامه بنفسه ، وان يحمل فراشه ، وأدوات المطبخ الخاصة به ، ان من أراد ان يجاري سكان البلاد في عيشة الرفاهية التي يحبونها ، تعرض لنفقات باهظة ، اما معاشرة النساء فهي ممنوعة بتاتاً . »

*

ان يحمل هذا الموقف إزاء الاجنبي ، مهما كان الاجنبي شديد الغرابة ، لأحسن ما حققته النزعة الانسانية في القرن الثامن عشر ، فروسو يبذل جهداً لتفهم « المتوحشين » الى درجة يحاول إيجاد تبرير لأعمالهم ، ومونتسكيو يصب جام غضبه على رؤوس الناس المحدودي العقول الذين

كانوا يتساءلون : هل يمكن المرء ان يكون فارسياً ؟ لقد اصبح مقروآً ان العادات هي التي تميز الشعوب بعضها عن بعض ، وليس على المرء إلا ان يفهم هذه العادات ليجد في كل اجنبي رجلا له فضائله ونقائصه ، وربما اخطاؤه ، ولكن على كل حال له شرفه وكرامته اللذان يجب ان يكونا محترمين .

ليست تلك النزعة شبيهة بأخوّة اليوم ، التي يقتضي ترسيخها شيئاً من المحبة وفي بعض الاحيان شيئاً من نقيضها : البغض . وانما هي اخوّة مؤسسة على الوعي ، والعقل النير ، والاقتناع بأن في كل انسان قيمة وكرامة انسانية يكفي المرء ان يحسن تبينها . وهذا هو موقف نيبور .

كان الاختبار سيبرهن على ان ذلك السلوك هو السلوك الأنجع لبلوغ الهدف والحصول على المعارف . وقد تقيد اعضاء البعثة بهذا السلوك باتفاق وتعاون في بادىء الامر . فتوجه العلماء الخمسة من القُنْفُذَة الى اللُّحَيَّة ، وكانوا يقولون فيما بينهم انهم في طريقهم الى الهند ، ولكنهم اخذوا يتجولون في الاماكن المجاورة لها . كأنهم تلامذة يقومون بنزهة عوضاً عن الذهاب الى المدرسة . فذهبوا بادىء ذي بدء الى بيت الفقيه ، سوق البن الكبيرة . وعندما رأوا ان سفرهم لا يثير اية صعوبة ، طابت لهم المغامرة فذهب كل منهم الى جهة . فقصد فورسكال الجبال بحثاً عن النباتات ، وقرر نيبور ارتياد المنطقة الساحلية ، منطقة تهامة المنخفضة ، الشديدة الحرارة . وأوغل الآخرون في الجبل حتى تعز وزبيد . وعند ابتداء فصل الصيف اجتمعوا في بيت الفقيه ثانية وعادوا منها الى المخا .

هناك اعترضتهم متاعب شديدة في الجمرك . فلدى تفتيش امتعتهم وجد معهم أفاعٍ محفوظة في آنية مليئة بالكحول « فاتهموا بأنهم يريدون إسكار الناس وتسميمهم » واحتجزت امتعتهم في دائرة الجمرك ، وألقي الى الشارع ما كان في مسكنهم من كتب وأوراق ولم يتمكنوا من الحصول على مسكن آخر . ولخيراً تبرع احد ابناء المدينة ، لحسن حظهم ، بقبولهم

في منزله ، وعرض عليهم تاجر انكليزي مساعدته . وأخذ الحاكم يشعر نحوهم شعوراً افضل من ذي قبل حين عالج الدكتور كامر رجله وتمكن من شفائها .

على ان الحرارة المؤذية في المنطقة المنخفضة كانت قد أثرت في صحتهم جميعاً تأثيراً سيئاً . فكان فون هافن أول من توفي منهم ، عندئذ قرروا ان يرحلوا من المخا الى تعز ، انتجاعاً لمناخها الجبلي الاكثر ملاءمة للصحة . وبما ان سكان تعز لم يظهروا لهم من الاعتبـار مثل ما لقوه من سكان المخا ، حيث كان الناس قد اعتادوا رؤية الاجانب ، استعدوا للعودة الى المخا ، ولكنهم تلقوا دعوة من الإمام لزيارته في صنعـــاء واتجهوا شطرها .

ولم يكونوا قـد قطعوا نصف المسافة حين اضطروا الى التوقف في بريم لتردي صحة فورسكال، الذي لم يلبث ان فارق الحياة بعد بضعة ايام . فاستأنفت الجماعة التي قل عددها ، السير في طريق صنعاء مروراً بذمار ، والحدفة ، فوصلوها في السادس عشر من شهر تموز (يوليو) .

استقبلهم الإمام باللطف الذي استقبل به سلفه الفرنسيين . فتمكنوا من ان يقوموا بالزيارات التي أرادوها ، وعنوا بصورة خاصة بالجاليـــة اليهودية في العاصمة .

ولكنهم سلكوا طريق العودة بعـــد انقضاء عشرة ايام على وصولهم لشعورهم بالإعياء ، مارين ببيت الفقيه وزبيد الى المخا . وقد وافق تاجر انكليزي على إيصالهم الى بلاد الهند على ظهر مركبه . فتوفي بورنفانيد والخادم في اثناء الرحلة ، ثم توفي كامر بعد وصول المركب الى بلاد الهند بأيام قلائل ، وبقي نيبور وحده في قيد الحياة .

*

قرر نيبور العودة الى شبه الجزيرة العربيـة لاتمام مهمته ، وتوجه في



مشهد من جبل البن في اليمن ، من كتاب رحلة نيبور عام ١٧٦٥ .

هذه المرة الى عمان ، وبلغ مسقط في شهر كانون الثاني (يناير) من سنة ١٧٦٥ . وعوضاً عن ان يطيل البقاء في هذه المقاطعة لزيارة جميع انحائها ، قرر اتباع التعليمات التي كان قد أصدرها إليهم الملك عند خروجهم من بلاد الدانمارك ، والقاضية بعودتهم عن طريق بلاد الفرس ، وبين النهرين ، وقبرص ، وآسية الصغرى .

وقد نشرت قصة هذه الرحلات باللغة الالمانيــة في سنة ١٧٧٢ ، وباللغة الفرنسية في السنة التالية ، ولكن بالنظر الى ان هذه الطبعة اعتبرت ناقصة ، اتبعت في سنة ١٧٧٩ بطبعة ثانية مراجعة ومنقحـة [1] . وظهرت عنها ترجمة باللغة الانكليزية في سنة ١٧٩٢ ، ثم صدرت منها طبعة نهائية الشكل في الالمانية سنة ١٨٣٧ . وقد نشر نيبور ملاحظات فورسكال عن انواع النباتات والحيوان على حدة في سنة ١٧٧٥ ..

عوضاً عن السنوات الثلاث التي كان الملك قد حددها لتقضيهـا البعثة في رحلتها ، لم يمكث نيبور في شبه الجزيرة العربية سوى اثني عشر شهراً. ولم يزر إلا جزءاً يسيراً منها ، وكان الجزء الذي يعرفه الاوربيون اكثر من غيره ، وهو موطن البن من المخا الى صنعاء .

ومع ذلك ، وهذا ما سيتيح لنا قياس فعاليــة طريقته ، زادت هذه الرحلة التي لم يشعر بها الناس آنئذ ، في المعلومات عن شبه الجزيرة العربية زيادة عظيمة لا بكمية المعلومات فحسب بل بنوعيتها ايضاً .

ان رؤية الأشياء والمرور بها ليس بالأمر الهام ، ولا يمكن التعلم منها ، الا اذا تأملها المرء ملقياً على نفسه الأسئلة ، مدركاً الفوائد التي يمكن أن تكون لها من وجهة النظر هذه أو تلك . وقد رأينا ان هؤلاء العلماء قاموا برحلتهم مزودين باسئلة الملك ، والجمعيات العلمية ، ولم يكن أي شيء

---

١ - رجعنا إلى هذا الكتاب للتوسع في هذا الفصل بالاضافة الى ما اقتبست المؤلفة منه .

أنسب منها لمساعدتهم على الملاحظة . وإذا كانت المعلومات التي جمعت تشمل بذلك العدد الكبير من الموضوعات المختلفة ، من بعض التوضيحات عن مقاطع وردت في التوراة ، او عن بعض الألفاظ العبرية ، الى تجهيز الجمال ، إلى الرياح الصحراوية ، فالجراد ، فالأمراض ، فالقضاء ، فالفضل في ذلك يرجع إلى وعي الاهتمام الذي اثارته في عقولهم الاسئـلة المطروحة ، حول كل شيء .

على انه كان لا بد ، جواباً على تلك الرغبة الحارة الواسعة المدى ، من جمع معلومات صحيحة قدر الامكان . وقد أحسن نيبور القيام بذلك بشكل يثير الاعجاب .

لقد كان نيبور يسافر راكباً حماراً كمسافر عادي ، ومتزيياً بالزي التركي من عمامة الى رداء بدون اكمام فوق قميص من الكتان الى زوج من البوابيج . وكان يستخدم سجادة صغيرة كبردعة لحماره ، وسفرة لطعامه ، وفراشاً لنومه ، ويحمل معه معطفاً يتغطى به ليلا ، وقربة ماء ، وآلات للقياس : كالبوصلة ، والساعة ، وربع الدائرة الخاصة بعلم الفلك التي كان قد صنعها استاذ من غوتنجن ، والمنظار لمراقبة الكواكب ، وبعض الكتب . وكان قد تعود الاستغناء عن كل رفاهية ، وأكل الخبز الرديء .

بهذا الزي لم يكن يلفت الأنظار اليه ، ولم يكن يحاول مقابلة الشخصيات الهامة اذ كان قد شعر ان هؤلاء لا يعرفون عادة إلا الشيء القليل ، ولا يكلفون أنفسهم عناء تلقينهم رجلا أجنبياً . كان يتكلم من العربية ما فيه الكفاية ، فقد بدأ يتعلمها قبل قيامه بالرحلة واتفق منذ وصوله مع رجل ماروني كان يتكلم الايطالية ، على أن يعلمه لغة البلاد العامية . وكان يبذل جهوده للتعرف إلى التجار ، أو العلماء ، أو أي شخص سواء أكان يهودياً ام بدوياً ام اوروبياً مارقاً من دينه ، شريطة أن يكون قادراً على الاجابة على اسئلته ، فان لديه من الأسئلة ما يستطيع أن يلقيه حول كل شيء ، وكان باستطاعة كل انسان ان ينيره عن أمر من الأمور



أعرابي في ملابس الرجال التقليدية في اليمن ، من كتاب رحلة ابيور عام ١٧٦٥

فكان يسأل الحاخام عن الكلمات العبرانية ، والفقيه العربي عن الشريعة الاسلامية ، وأي انسان كان ، عن الأماكن والعادات ، والأمور المختلفة . وقد علم كيف يستفيد من المعرفة التي كان قد جمعها رجل هولندي اعتنق الاسلام ، وأولع بتاريخ الامراء الحاكمين وقضى بضع سنوات في إعداده .

لم يكن يحسن الاستفهام عن روية فحسب ، بل كان يغربل المعلومات التي يحصل عليها بغوبال عقل نقاد . وكان يلقي الأسئلة ذاتها على عدة أشخاص ، قدر ما يستطيع ، فيتمكن من مراقبة أصلح الأجوبة والحكم عليها . وعندما لا يتمكن من التثبت من صحة رواية ما ، كان ينقلها على علاتها ، منبهاً القارىء الى أنه تركها لحكمه . وهكذا كانت المعلومات التي يحصل عليها دقيقة ممتازة .

★

عندما يقرأ الانسان وصف نيبور لشبه الجزيرة العربية ، يطلع على الكثير من شؤون العرب ، طبقاتهم الاجتماعية ، وسلاسل الانساب ، وطبقة الأشراف ، والدين ، والخلافات المذهبية القائمة بين الفرق الاسلامية المختلفة : السنية ، والشيعية ، والزيدية ، والثأر للدم ، والاجراءات القانونية الصحيحة للثأر الذي يسبب الكثير من النزاع الدامي بين العشائر . ويطلع على عادات المآكل ، والمسكن ، والاستقبال ، والتحية ، والملبس ، والزواج ، والخصاء ، والختانة ، وعلى سير الشعراء والخطباء ذوي الشأن العظيم لدى العرب ، ويحصل على معلومات عن المدارس والجامعات القرآنية ، وعلم تاريخ الأحداث عند العرب ، والفلك ، وعلوم السحر والتنجيم ، وعن عادات الدراويش الشديدة الغرابة ، والطب ، والأمراض ، وقد استعمل الملاحظات التي دونها زملاؤه فبحث في منتوجات الجزيرة العربية والمعادن والحجارة الكريمة ، وفي الأشجار والنباتات ، والزراعة ، والحيوانات . وبما أن مخطوطات عربية عرضت عليه فقد اهتم بوضع لائحة مقارنة بين مختلف أنواع الخطوط . واهتم بإظهار جميع الكتابات التي شاهدها على الحجارة

بالخط الكوفي ناقلاً عنها صورة طبق الأصل ، وكذلك فعل بالنسبة الى النقود .

على ان مهمته الأساسية كانت الجغرافية . ومن البدهي أنه لم يستطع رسم خارطة كاملة لشبه الجزيرة العربية ، إذ أنه لم يتجول فيها كلها مستعملاً أدوات القياس ، ولكنه رسم خرائط خاصة بكل منطقة زارها أدخلت تحسيناً كلياً على المعلومات التي كانت قد جمعت حتى ذلك الحين ، على الرغم من أنه لم يصحح كل الأخطاء التي وردت في خارطة دانفيل .

وعلى الرغم من أنه لم يتمكن من رسم خارطة كاملة لشبه الجزيرة العربية بذل قصارى جهده في جمع المعلومات عن طبيعة مناطقها المختلفة ، وكان أول من وصفها للقراء الأوروبيين .

ولا شك في أنه عرف اليمن أكثر من غيرها . فقد أظهرها بمناطقها المزروعة ، والفقيرة ، ودساكرها وأسواقها ، وقلاعها ، وقراها الزراعية . ففي لغة الشعراء تختصر أربع مدن تاريخ الحضارة اليمنية وهي صنعاء الملقبة بالمدينة ، وتعز المعروفة بالروضة لاستنادها إلى جبل صَبِر الذي تعد سفوحه المتراوح ارتفاعها فوق سطح البحر بين ٢٠٠٠ و ٣٠٠٠ متر من أخصب بقاع الجزيرة العربية وأغناها مزروعات ، وزبيد التي تكنّى بالمدرسة لوجود جامعة قرآنية فيها ، وأخيراً ذمار المعروفة بالجواد إذ أن فيها تربى أجود الخيول اليمنية من سلالة الخيول العربية الشهيرة .

وقد كان نيبور أول من كون فكرة عن تجزئة اليمن السياسية ، بحيث غدت قطعة فسيفساء من الأمارات المستقلة في ذلك العهد ، فقد كان فيها منطقة صنعاء التي كان يحكمها الامام ويبلغ طولها ثمانية وأربعين فرسخاً ، وعرضها عشرين فرسخاً ، يضاف إليها الموانىء الواقعة على البحر الأحمر ومنطقة تهامة الساحلية ، وفي الجنوب امارة عدن التي كان يحكمها شيخ مستقل ، وفي الشمال الغربي منطقة ابي عريش التي كان يحكمها شريف ، وفي أعلاها باتجاه الحجاز منطقة كبيرة يسكنها البدو ،

وفي الشمال الشرقي بلاد حاشد وبَكيل التي تقطنها مجموعة قبائل يحكمها عدة شيوخ ، تقع في شمالها امارة نجران ، وفي الشرق مقاطعة الجوف الكبيرة حيث مدينة مأرب التي يحكمها شريف ، وحيث يحكم القرى والصحراء عدد من الشيوخ المستقلين .

وتقع ما بين الامارات والمناطق الآنفة الذكر مناطق أصغر منها ، مثل نهم وخولان ، وجفا ، يحكم كلًا منها شيخ او اكثر ، وكوكبان التي يحكمها سيد . ويذكر نيبور ان كوكبان كانت قد حافظت على استقلالها في عهد الاحتلال التركي ، وان حاكمها كان يحمل لقب امام . ولكن أحد جدود امام صنعاء كان قد طرد الأتراك ، وبسط سلطانه على معظم انحاء اليمن ، وخفض رتبة إمامها الى رتبة سيد .

ويعيد نيبور هذه الامارات إلى أصلها فيقول ان حاشد وبَكيل منطقة عشائر ذات مزاج ميال إلى القتال ، تقدم جيوشاً لامام صنعاء ، وهي ترجع أصلها إلى زواج شبه خيالي بين أميرة وحبيبها رغماً عن أبيها الغضوب ، الا انه يضيف إلى ذلك قوله « اخشى ان تكون هذه القصة مجرد خرافة ركبت لتروى في المقاهي . » ولا شك في أن هذه الرواية عريقة في القدم ، ان صحت ، لأن عشائر حاشد وبَكيل وارد ذكرها في الكتابات الأثرية التي نعرفها اليوم .

وهنالك منطقة اخرى مميزة هي منطقة الجوف ، السهل الفسيح الذي تتناوب فيه الأراضي الرملية والصحراوية والأراضي المزروعة ، والذي يحد حاشد وبَكيل من الشمال ، وحضرموت من الجنوب الشرقي ، ومنطقة صنعاء من الشرق ، وتحدها الصحراء في الشمال الشرقي . والمدينة الرئيسية في هذه المنطقة مأرب التي لا تضم سوى ثلاثمائة بيت متواضع . ويضيف نيبور إلى ذلك قوله : « يزعم السكان أنه قد عثر فيها على خرائب قصر للملكة بلقيس او ملكة سبأ ، ولكن ليس فيها أية كتابات اثرية على

الحجارة ، ولذلك لا تستحق عناء القاء نظرة عليها . ولكنه قد اخطأ بذلك خطأ فادحاً .

وقد تحدث إليه الناس عن سد سبأ الذي كان يسد مجرى أحد الانهر ، ويشكل حوضاً لري السهل كله ، فقال : « كان ارتفاع الجدار متراوحاً بين أربعين وخمسين قدماً ، مبنياً بالحجارة المنحوتة ، وما تزال آثاره باقية من الجانبين . ولكنه لا يحتجز المياه التي تجري في السهل .. » ويستنتج : « وهكذا ليس في الحوض الكبير القريب من مأرب ما يدهش . »

هنا يمر نيبور الذي أولى اهتمامه مختلف الامور ، دون اكتراث باكتشاف مثير من غير أن يدرك أهميته . انه لمن الصحة بمقدار ، ان لا فائدة من رؤية معطى عملي إذا لم تدرك الفائدة التي يمثلها ، والمعرفة التي يمكن الحصول عليها منه . فلم يكن نيبور وحده الذي لم يستطع ان يكتشف أن في الامكان الحصول على معلومات عن التاريخ من مجرد تفحص حجارة الآثار القديمة الخربة ، بل شاركه في ذلك عصره كله ، لأن علم الآثار قد نشأ فيما بعد ، ولم يكن الاهتمام يوجه إلا الى الكتابات الأثرية ، لأمكانية اعتبار النصوص الواردة فيها كوثيقة خطية ، لذا كانت الخرائب التي لا كتابات أثرية فيها ، والسد الذي لم يعد قادراً حتى على احتجاز الماء ، من الامور الجديرة بالإهمال في نظر نيبور . وكان لا بد من انقضاء عصر كامل حتى يتعلم الناس ان يكوّنوا رأياً غير هذا الرأي ، وحتى يقوم بعض العلماء بمغامرة الذهاب الى اليمن لمشاهدة هذه الجدران القديمة المتداعية ودراستها .

أما عما تبقى من شبه الجزيرة العربية فقد أعطى نيبور فكرة واضحة . فقد ذكر كل شيء عن حضرموت ، وعشائر البدو المستقلة فيها ، ومدنها ، وبخورها وتجارتها التي تضاءل شأنها منذ ان قام الاوروبيون بالمتاجرة بمنتوجات الشرق .



سيدتان من القسم الداخلي لليمن ، من كتاب رحلة نيبور عام ١٧٦٥

ولم يرَ من عمان الا مسقط ، ولكنه سمع ان جبالهـا غنية بأنواع الفواكه ، وان كميات كبيرة من التمور تُصدر منها ، وان مياه بحرها غنية جداً بالاسماك . وهو يذكر شيئاً عن تاريخ ائمتها الحاكمين ، وعن التقلبات التي طرأت على هذه البلاد التي اجتاحهـا الفرس بسبب النزاع الذي كان قائماً بين امرائها ، ثم انقذها من ايديهم* بطل بارع همام .

وفي صدد الخليج العربي ، يتحدث إلينا نيبور عن الهولنديين ، وعن تاريخ انشاء مراكز لهم في جزيرة خارج الواقعة تجاه الساحل الفارسي ، وعن قصة صراعهم مع الفرس فيقول : « كان الهولنديون يقومون بتجارة واسعة النطاق مع البصرة ، حيث كان يدير مركزهم التجـاري البارون كنيفوس متمتعاً بقدر عظيم من الاجلال . وقد أُلقي هذا الرجل الالماني في السجن على اثر نزاع نشب بينه وبين حاكم المدينة بسبب قضية تختص بأصول اللياقة ، وأوشك ان يجز عنقه لو لم يفتد نفسه بمبلغ طائل من المال . وقد حصل قبل ابحاره الى باتافيا على شهادة من المركز التجاري في البصرة تبرر تصرفه ، فوافقت شركة الهند الشرقية الهولندية على كل ما صدر عنه من اعمال .

« وكان السيد كنيفوس ، عـلى اثر الخلاف الذي نشب بينه وبين حاكم البصرة ، قد اتفق مع نافر ، امير بندر رجق الذي كان يملـك خارج ، على نقل المركز التجـاري الهولندي الى هذه الجزيرة مقـابل جعالة سنوية يقبضها منه . فاستحسنت الحكومة في باتافيا هذه الخطة التي كانت ممتازة في الحقيقة ، وأرسلت البارون ومعه سفينتان كبيرتان لتنفيذها .

ولم يكـد يبلغ جزيرة خارج حتى استولى على بعض مراكب البصرة واحتجزها حتى يستعيد المبلغ الذي افتدى به نفسه . وانشأ مستودعـاً مربعاً على البر ، أقام على أركانه الأربعة تدرجاً أربعة أبراج زود كلاً منها بستة مدافع . ولكن الأمير نافر الذي ساءه اقدام الهولنديين عـلى

هذا العمل ، قام بمهاجمتهم . فهاجموه بدورهم الا انهم لم يتمكنوا من إدراكه لسرعته . بيد ان هذه الحرب الصغيرة كانت مزمعة ان تكلف الشركة شيئاً كثيراً .

وبعد ان حكم البارون كنيفوس جزيرة خارج حكماً مطلقاً طوال خمس سنوات حل محله السيد فاندرلهولست الذي كان قد خبر العرب لاشغاله فيما مضى وظيفة في البصرة ، واعتقد ان من واجبه ان يواصل مع الامير مهنا الحرب التي كانت قد أثيرت على والده . ولجأ الامير مهنا إلى الحيلة فاستولى على مركبين هولنديين مسلحين ، وحاول عبثاً النزول الى البر . عندئذ وسع السيد فاندرلهولست تحصيناته ، ورسم مخططا لمدينة لم تلبث ان اصبحت آهلة بالسكان الفرس والعرب .

من المحتمل ان هذه المستعمرة كانت كثيرة المرابح بالنسبة الى المستخدمين فيها ، ولكن نفقات الحرب والحاميات استنفدت ارباح الشركة ، الا ان توقع ازدهار التجارة في المستقبل أغرى الشركة على الاحتفاظ بها مدة اطول . لذا فان السيد بوخمن ، الحاكم الجديد ، عقد صلحاً مع الامير مهنا ، فلم يعد هنالك ما يعرقل الحركة التجارية .

إلا ان خلفه السيد فان هاوتنغ الذي كان يجهل عقلية العرب واخلاقهم، والذي لم يكن لديه موظفون ذوو خبرة ، لم يبرهن عن تبصر في تصرفه، فلم يهتم بالمحافظة على الحياد في النزاع القائم ما بين امير ابي شهر والامير مهنا . بل اتفق مع الأول فهاجم الثاني في جزيرة خونري التي كان قد لجأ إليها وقد ترك الامير مهنا اعداءه يقتربون ، ولما وجدهم آمنين ، انقض عليهم بخيالته وأنزل بالهولنديين وقوات ابي شهر هزيمة نكراء . وشجعه النصر فأنزل قواته الى جزيرة خارج وحاصر مدينة خارج . وقد سمح السيد فان هاوتنغ لنفسه بالانقياد الى نصيحة رجل فارسي له ، فأذن للامير مهنا واتباعه بدخول المدينة للتفاوض في شروط تسوية .

عندئذ أسر العرب الهولنديين وأرسلوهم الى باتافيا . وقد حدث ذلك في اواخر كانون الاول (ديسمبر) من سنة ١٧٦٥ .

ولم يكن في حكم المحتمل ان تزعج الشركة الهولندية للهند الشرقية نفسها بالإقدام على إخراج الامير مهنا وقواته من خارج وتجديد مستعمرتهم فيها .

ويقول نيبور ان على طول الساحل العربي قبائل مستقلة ، وانه « ما من قبيلة تعيش بسلام مع غيرها من القبائل » وان جزيرة البحرين التي كانت تضم فيما مضى ثلاثمائة وخمساً وستين مدينة وقرية ، لم يبقَ منها سوى مدينة واحدة محصنة وأربعين أو خمسين قرية ، إذ أن الحروب المستمرة دمرت ما تبقى من تلك المدن والقرى ، وان صيد اللآلىء يعطي البحرين شهرة خاصة .

وتنتج هذه الجزيرة البلح بكثرة ، ولكن اعتمادها في الدرجة الأولى على صيد اللؤلؤ ، ويدخل على حاكمها سنوياً من الرسوم على هذين الصنفين ما يقدر بثلاثمائة ألف ليرة فرنسية يستعين ببعضها لتأمين حامية المدينة .

ويذكر نيبور الكويت فيقول :

« الكويت او القرين كما يسميها الأعجام والأوروبيون ، ميناء بحري يبعد مسيرة ثلاثة ايام عن بلدة الزبير او البصرة القديمة ، يعيش سكانها على صيد اللؤلؤ والاسماك . ويقال انهم يستخدمون في صيد هذين الصنفين البحريين ما ينيف على الثمانمائة قارب . وتكاد هذه البلدة تقفر من السكان في الاشهر الثلاثة من السنة ، لخروج الجميع إما للصيد او الاتجار . »

ويضيف نيبور ان النزاع يدور بين الكويتيين المتمسكين بالاستقلال وشيخ الحسا الطامع في احتلال الكويت ، وإذا ما وجه هذا الشيخ جيشه إلى الكويت لاخضاعها ، هجرها أهلها الى جزيرة فيلكة الصغيرة

حاملين معهم امتعتهم . ولا تزال ثمة خرائب قلعة برتغالية بادية للعيان على مقربة من الكويت .

ويتحدث نيبور عن الامارات والمشيخات الصغيرة المنتشرة على الساحل العربي للخليج ، فيذكر امارة الحسّا التي تعرف ايضاً بهَجَر التي تصدّر الحمير والجمال ، ويعيش سكان الاجزاء الداخلية منها على البلح وسكان سواحلها على صيد اللؤلؤ والاتجار بالسلع الاجنبية على نطاق واسع .

ويقول نيبور : « وينقسم سكان الحسّا ، فيما يختص بالدين ، الى شيعيين وهم سكان المدن ، وسنيين وهم القرويون والبدو الرحل . إلا ان عدداً من اليهود ، وعدداً اكبر من الصابئين او المسيحيين المعروفين بطائفة القديس يوحنا ، يقيم فيها [1] .

« وكانت الحسا في ما مضى احدى ولايات الامبراطورية العثمانية . ومع ان العرب حطموا نير الاستعمار العثماني منذ زمن بعيد ، ما يزال يقطنها عدد من سلالة الباشوات القدماء ، متمتعين بأملاكهم الواسعة إلا انهم لا يشتركون في الحكم .

« ويحكم امارة الحسا في الوقت الحاضر شيخ عشيرة بني خالد العربية ، وكان اسم الشيخ الذي يحكمها في سنة ١٧٦٥ عَرْعَرْ . وعشيرة بني خالد من أقوى العشائر العربية ، وهي منتشرة في الصحراء انتشاراً يتيح لها انتهاك القوافل التي تسلك الطريق الواقعة بين بغداد وكالب . ويسكن معظم انحاء الحسا البدو وغيرهم من العشائر الصغيرة ، ولكنهم يخضعون جميعاً لشيخ بني خالد . »

ويتحدث عن القطيف فيقول انها مدينة ساحلية متوسطة تبعد خمسة

---

١ - لم يُعرَف في التاريخ ان الاحساء (الحسا) سكنها أحد من غير المسلمين بعد ان ظهر الاسلام وزالت المجوسية منها .

ميال المانية عن جزيرة البحرين ، يعيش سكانها على صيد اللؤلؤ . ومن يعجز منهم عن صيده لحسابه الخاص ، يعمل لحساب مغامرين من الاجانب يؤمونها في الاشهر القائظة من السنة التي تؤلف موسم الصيد . ويقال ان مناخ هذه المدينة غير صحي في فصل الصيف . وما تزال خرائب قلعة برتغالية قديمة ظاهرة للعيان على مقربة منها .

اما الساحل الفارسي للخليج فيقول بصدده :

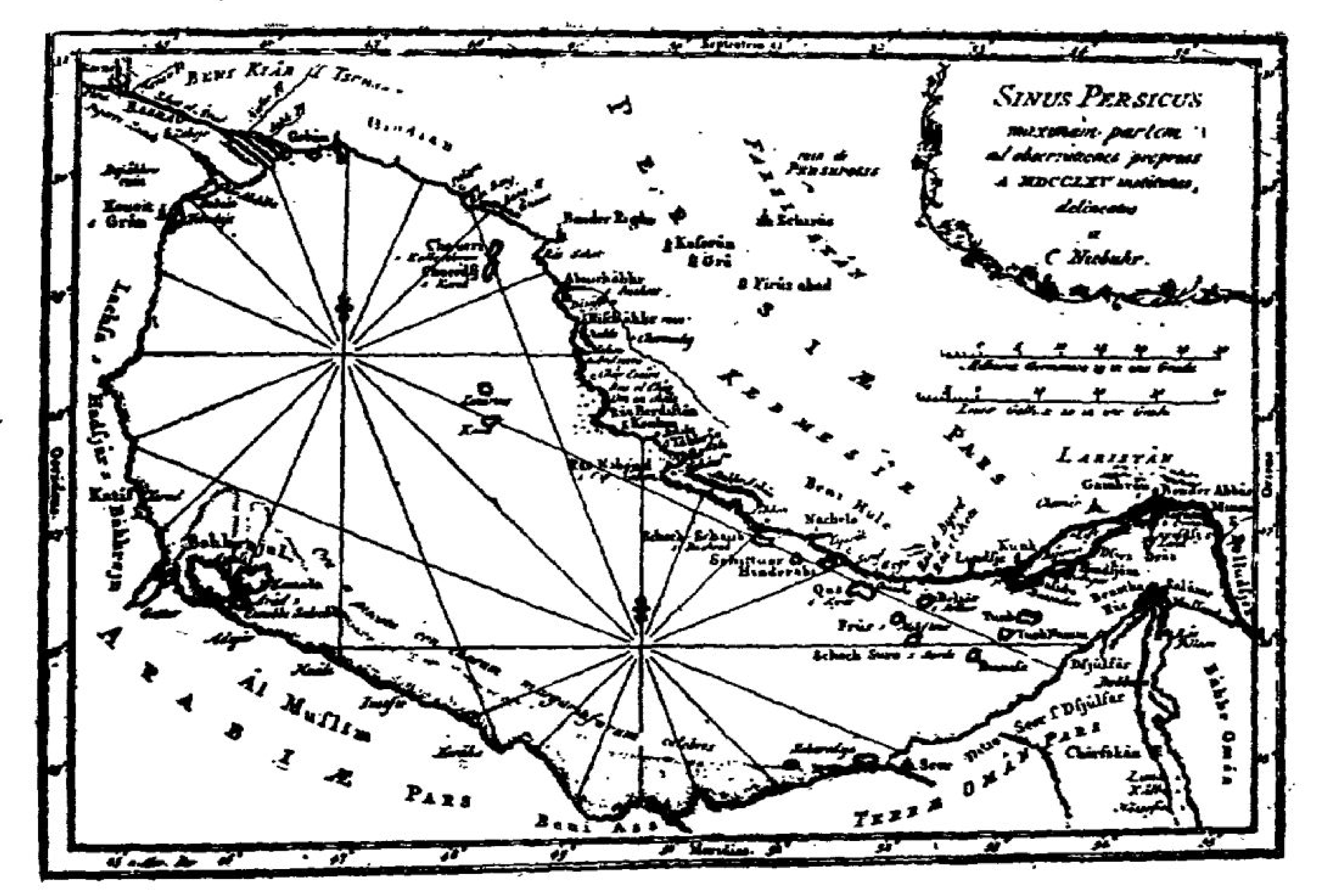
« لقد أخطأ جغرافيونا ، على ما اعتقد ، حين صوّروا لنا جزءاً من الجزيرة العربية خاضعاً لحكم الفرس . لأن العرب ، هم الذين يمتلكون ، خلافاً لذلك ، جميع السواحل البحرية للامبراطورية الفارسية من مصب الفرات الى مصب الاندوس على وجه التقريب .

« صحيح ان المستعمرات الواقعة على السواحل الفارسية لا تخص الجزيرة العربية ذاتها ، ولكن ، بالنظر الى انها مستقلة عن بلاد الفرس ، وان لأهلها لسان العرب وعاداتهم فقد عنيت بايراد نبذة موجزة عنهم .

« يستحيل تحديد الوقت الذي أنشأ فيه العرب هذه المستعمرات على هذا الساحل . وقد جاء في السير القديمة انهم أنشأوها منذ عدة عصور سلفت . واذا استعنا باللمحات القليلة التي وردت في التاريخ القديم ، أمكن التخمين بأن هذه المستعمرات العربية نشأت في عهد اول ملوك الفرس . فهناك تشابه بين عادات الايشتيوفاجيين القدماء وعادات هؤلاء العرب .

« انهم يعيشون جميعاً على نمط واحد ، متبدين ، منصرفين الى الحروب والمنازعات ، يصطادون اللؤلؤ ، ولا يأكلون سوى البلح والسمك ، ويطعمون ماشيتهم بدورها سمكاً .

« وهم يتعشقون الحرية الى درجة قصوى شأن اخوانهم في البادية . ويكاد يكون لكل بلدة شيخها ، وهو لا يتقاضى شيئاً من رعاياه . واذا كان لا يملك ثروة ، توجب عليه ان يكسب رزقه بجهده ، كما يفعل رعاياه .



الخليج العربي
كما رسمه
كارستن نيبور
في رحلته سنة
١٧٦٥

إما بنقل البضائع أو بالصيد . وإذا حدث ولم يرضَ القوم عن الشيخ الحاكم ، خلعوه وانتخبوا من أسرته من يحل محله .

« سلاحهم بندقية ذات فتيل ، وسيف قصير عريض ، وترس . وجميع مراكب الصيد عندهم قابلة التحويل الى مراكب حربية . ولكن اسطولاً يتوقف غالباً كهذا الاسطول لصيد السمك للطعام ، ويجب عليه في الوقت نفسه مطاردة العدو ، لا يمكنه القيام بأي عمل ذي اهمية كبرى . ان معاركهم مجرد مناوشات ، وغارات لا نهاية حاسمة لها ابداً ، ولكنها تسفر عن نزاعات مستمرة ، وعداء دائم .

« اما مساكنهم فمتواضعة الى درجة ان العدو لا يكترث بهدمها . وهكذا لا يملك هؤلاء القوم شيئاً يخسرونه على اليابسة ، فتراهم يلجأون الى متون مراكبهم عند اقتراب العدو ، ويختبئون في بعض جزر الخليج ، حتى ينسحب وهم على يقين ان الفرس لا يمكن ان يفكروا في الاستقرار على الساحـــل المجدب ، والتعرض لغزوات العرب الذين يرتادون البحار المجاورة .

« وكان نادرشاه قد رسم خطة في أواخر ايامه تقضي بإلقـــاء القبض على هؤلاء العرب ، ونقلهم الى سواحل بحر قزوين ، وإحلال فرس محلهم . ولكن مصرعه الفاجع حال دون تنفيذ هذه الخطة ، وحالت الاضطرابات المستمرة في بلاد الفرس منذئذ ، دون اعتدائهم على حرية هؤلاء العرب .

« وطريقة الحكم عندهم ، ووضعهم السياسي ، يبدوان لي شديدي الشبه بما كانت عليه بلاد الاغريق القديمة . والاصطدامات الدامية ، والثورات الخطيرة ، لا تنفك تجري على سواحل الخليج ، ولكن العرب لا مؤرخين لديهم يذيعون شهرتهم في ما وراء حدودهم الضيقة . »

ويتحدث نيبور بإسهاب عن العشائر والاقوام العربية التي تقطن الساحل الفارسي للخليج ، فذكر ان الاراضي التي تملكها عشيرة المولة الغفيرة

العدد تمتد من بندر عباس الى رأس بردستان ، وتملك جميع الموانيء الواقعة في هـذا القسم من الساحل . بعض هذه الاراضي متعرق الوجه ، اجدب ، ولكن فيها صفا من التلال كضهر عصبان ، ممتداً حتى البحر ، مكسواً بالأشجار التي تقطع وتصدر الى الخارج .

وعلى الرغم من هذه الخيرات الطبيعيـــة ، لا يتعاطى افراد عشيرة المُوَلّة الزراعة بل يعيشون على القنص والصيد ، وهم سنيون يُعرفون بين جيرانهم بشدة البأس . ولو وُحّدت قوام لتمكنوا من الاستيلاء على جميع المدن الواقعة على الخليج ، ولكن لكل مدينة تقريباً شيخها ، وعلى الرغم من ان شيوخها جميعاً ينتمون الى أسرة واحدة ، فهم يؤثرون الشظف والفقر مع الحرية ، على الجاه والثروة تحت سلطة شيخ كبير .

وأبرز شيوخ المُوَلّة في ذالك العهد شيخ سير وهو من ابناء هـــذه البلاد ومن عشيرة المولّة ، ويملك مدن كونك ولنجة ورأس حتى المجاورة لغامبرون ، ويقوم رعاياه بتصدير الحطب للوقود والفحم . وشيوخ موغو وتجيرق ، ويقال ان ابناء هذه المقاطعة الثانية أشجع افراد عشيرة المُوَلّة. وسكان المقاطعتين معاً يقومون بتصدير الاخشاب . واخيراً شيوخ بندر نخيلو ، ونبند ، وعلو ، وتيحري ، وشيلو ، وكنكون ، وقد اشتهر ابناء بندرنخيلو بكونهم غواصين ماهرين . ويقيم يهود وبانيانيون في مدينة كيكون التي عرف سكانها بكونهم مسالمين اكثر من سائر افخـــاذ عشيرة المولة .

اما الفرس الذين لا يملكون سفناً ويعيشون على الزراعة فإنهم يشغلون المنطقة الواقعة ما بين بو شهر ورأس بردستان .

ولمدينة بو شهر ، عاصمة الامارة التي تحمل الاسم ذاته ، ميناء لا بأس به ، تستطيع السفن ان تدنو فيه من البيوت . وقد دفع وضعه هـذا ملك الفرس نادرشاه الى وضع اسطول فيه ما تزال بعض بقاياه ماثلة للعيان .

ومنذ ذلك الحين ازدادت شهرة هذه المدينة واتسعت رقعتها ، وهي ميناء شيراز ، والانكليز وهم الشعب الاوروبي الوحيـــد الذي يتاجر مع بلاد الفرس يملكون فيه مصنعاً .

ان العرب الذين يقيمون في امارة ابي شَهَر لا ينتمون الى عشيرة المولة ، بل هم افراد ثلاث أسر كبيرة بارزة ، استقرت اثنتان منهـا في هذه البلاد منذ زمن بعيد ؛ اما الأسرة الثالثـــة وهي تعرف باسم المطارفة ، فقد تحالفت والأسرتين الاخريين ، وتوصلت الأسر الثلاث الى الاستيلاء على الحكم . وها هم اليوم قـــد انقضى على حكمهم البلاد عدة سنوات

ويملك نافر ، الشيخ الحالي ، وهو من أسرة المطارفة ، جزيرة البحرين ايضاً الواقعة على الساحل العربي ، والتي تمكنه من تسيير بعض السفن . وله ايضاً ممتلكات واسعة في خرام شهر أعطاه إياها الملك كريم خان الذي يحتفظ بأولاد نافر كرهائن لديه تأميناً لولائه .

لقد كان الشيخ نافر سنياً ، ولكنه اعتنق المذهب الشيعي وتزوج من امرأة فارسية رغبة في ان يعين اميراً للاسطول الفارسي . وقد أغاظ هذان العملان أسرته ، وسببا له كرهاً لدى جيرانه ورعاياه ، ولم يعد العرب يعتبرون اولاده في عداد اشرافهم .

اما بندر ريك فهي مركز الأمير الذي يدعى بهـذا الاسم ، وهي مدينة محاطـــة بالاسوار ، تقع الى شمالي بو شهر . وهي عاصمة الدولة الصغيرة التي تضم عـدة اماكن اخرى في خرام شهر ، لذا كان اميرها الحاكم تابعـاً نوعاً ما لكريم خان . ان عرب هذه الامارة يقضون حياتهم في البحار ، اما الفرس الذين يقيمون في اجزائها النائية فيتعاطون الفلاحة والزراعة .

وافراد الأسرة الحاكمة في بندر ريك من عشيرة بني كعب العربية ،



امرأة من الخليج العربي تبيع خبزاً ، من كتاب رحلة نيبور عام ١٧٦٥

وأصلهم من عمان ، ولكن بالنظر الى ان جد الامير الحالي اعتنق المذهب الشيعي وتزوج من امرأة فارسية ، لم يعد العرب يعتبرون هذه الاسرة في عداد الأسر العربية العريقة الشرف .

ويشتهر حاكم بندر ريك الامير مهنا ، في طول البلاد وعرضها بقسوته ، فقـــد قضى على عدد من اقربائه ليتربع على العرش دون اي منازع ، وأغرق شقيقتين له لأن احد الامراء المجاورين لامارته تقدم إليه بطلب يد احداهما ، وقضى على حياة كل مولودة رزقها . وكان هذا الحاكم قد بلغ الثلاثين من عمره في سنة ١٧٦٥ .

وقع الامير مهنا مرتين في يد الشاه كريم خان . وقد فر من الأسر الأول الذي وقع فيه ، على اثر هزيمـة اصيبت بها الحكومة الفارسية . وتقدم في المرة الثانية بطلب للافراج عنه بوساطة شقيقة له متزوجـة من ضابط في الجيش الفارسي . ولم تكد قدماه تطآن بـــلاده ، حتى أعلن تمرده ، وأخذ يقوم بغزو القوافل ما بين شيراز وبو شهر ، ويتعـاطى اعمال القرصنة ، فأمر كريم خان بمعاقبته ، وفرض حصاراً على عاصمته ، ولكن دون ما جدوى .

وفي سنة ١٧٦٥ أرسل كريم خان يطلب عائدات املاكه الواقعـة في خرام شهر ، ولكن الامير مهنا أساء معاملة رسوله وأمر بحلق لحيته . فوجه كريم خان جيشاً قوياً احتل بندر ريك وجميـع الاملاك التي تخصه . الا ان الامير مهنا كان من الفطنة بحيث انه انسحب وجيوشه وعدد من رعاياه ، قبل فوات الأوان ، الى جزيرة مقفرة تدعى الحويري ، حيث اخذ ينتظر انسحاب الجيوش الفارسية . ولم تكد هذه الجيوش تنسحب ، حتى خرج من الجزيرة ، وطرد الحامية الفارسية من بندر ريك ، واستعاد ممتلكاته .

وتقيم عشيرة بني كعب في اقصى طرف من سواحل الخليج . وقد

لمع اسمها في عهد سلمان بن سلطان بن ناصر شيخها الحالي ، الذي بلغت شهرته حتى أوروبة على اثر معركة نشبت بينه وبين الانكليز استولى فيها على بعض سفنهم .

اغتنم الشيخ سلمان فرصة الاضطرابات التي كانت ناشبة في بلاد الفرس، ومساوىء الحكم في البصرة ، فأخذ يخضع جيرانه الصغار لسلطته ، ثم استولى على مقاطعات كبيرة واقعة في بلاد العجم ، واعداً الملوك الذين كانوا يتنازعون العرش فيما بينهم بأن يدفع لهم الجزية . ولم يفكر أيٌّ منهم بطلب الجزية عدا كريماً ، بل كانوا يقنعون بالمبلغ الزهيد الذي يرسله سلمان إليهم . عندئذ وجه سلمان فتوحاته نحو البصرة . وقد أنشأ علاقات صداقة متينة مع سلطان تلك البلاد ، واستولى اخيراً على جميع الجزر الواقعة بين مصبات الفرات المعروفة ببلاد شط العرب . ولما بلغت فتوحاته الأنهر الصالحة للملاحة بذل قصارى جهده لانشاء قوة بحرية . فبنى مركبه الاول في سنة ١٧٥٨ وكان عنده في سنة ١٧٦٥ عشرة مراكب كبيرة وسبعة صغيرة .

ووجه كريم خان في سنة ١٧٦٥ ذاتها لمحاربة الشيخ سلمان جيشاً اقوى من ان يتمكن من مقاومته . فنقل كنوزه وجيوشه من جزيرة الى جزيرة هرباً من العدو المهاجم حتى أوصلها الى غربي شط العرب ، حيث تعذر على جيوش الفرس ادراكه لافتقارهم الى السفن ، فاضطرت الى النكوص على أعقابها . عندئذ أمر باشا بغداد قواته ان تهاجم سلمان ، ولكنه انسحب الى ما بين الجزر ، ونجا في هذه المرة من الاتراك مثلما نجا قبل ذلك من الفرس .

وتمتد بلاد عشيرة بني كعب من صحراء بلاد العرب الى بلاد هنديان ، ومن جهة الشمال الى امارة هويفه ، وتروي تربتها عدة أنهر بين صغيرة وكبيرة ، وهي غنية بالبلح ، والأرز ، والحبوب ، والمراعي . مدنها

الرئيسية داملك الواقعة ضمن بلاد الفرس ، وحطر ، وغوبان الواقعة عند احد مصبات نهر الفرات ومركز احد الشيوخ .

★

ويعود نيبور اخيراً الى نجد ، المنطقة الكبرى الواقعة في اواسط شبه الجزيرة العربية ، والحجاز المنطقة الواقعة على سواحل البحر الاحمر ، والتي تضم المدينتين المقدستين : مكة والمدينة . وعلى الرغم من انه حصل على معلومات دقيقة عن هاتين المدينتين ، تسمح له أن يرسم صورة لا بأس بها لمسجد مكة ، فهو لا يضيف شيئاً الى المعلومات التي أوردها دي فاوتيا .

أما اواسط شبه الجزيرة العربية العربية فهي المنطقة الخاصة بالبدو الرحل . وهي محرومة من الانهر ، ولا ماء فيها إلا من الآبار ، ولكن نجداً تؤلف فيها بقعة اوفر حظاً من غيرها ، بجبالها ، وقراها ، ومدنها ، حيث يحكم شيوخ من ابناء البلاد . ويذكر نيبور ، في عداد المدن الدرعية الواقعة في وادي حنيفة ، والعُيَيْنة ، وهذه المدينة الاخيرة كانت مكان ولادة محمد بن عبد الوهاب ابن قاضي المدينة في سنة ١٧٠٣ ، الذي أسس المذهب الوهابي . وكان ما يزال حياً لما كان نيبور يزور منطقة الخليج العربي ، لجمع المعلومات عن هذه الحركة الدينية التي كانت مزمعة ان تغدو أساساً لتشكيل الدولة السعودية الحالية .

كانت الدرعية ، في الحقيقة ، البلدة التي كان يحكمها آنئذ محمد ابن سعود ، وقد اعتنق المذهب الاصلاحي الذي كان يبشر به محمد بن عبد الوهاب اللاجىء الى الاراضي الواقعة تحت حكمه ، فحالف المصلح الجديد علناً ، وتعهد بنشر المذهب الوهابي بقوة السلاح والفتح . وهكذا تعهد ابن عبد الوهاب في سنة ١٧٤٥ لابن سعود الذي أقسم له ان يضع جيوشه وما يملكه من نفوذ في خدمة قضيته ، بأن يفتح له الجزيرة العربية .



كارستن نيبور في أعوامه الاخيرة

وحين اجتاز نيبور شبه الجزيرة الى ما بين النهرين ، كان قد انقضى عشرون عاماً على شروع مصلح الدرعية وشيخها ، بالقتال جنباً الى جنب لاخضاع المدن المجاورة والقبائل البدوية للسلطة السعودية الزمنية ، والمذهب الوهابي الاصلاحي .

في هذا الفصل عن نجد يقدر القارىء فطنة نيبور ، وأمانة معلوماته ، فقد أحسن تصوير الحالة المؤسفة التي آلت إليها المدينتان المقدستان ، تلك الحالة التي أثارت سخط محمد بن عبد الوهاب ودفعته الى الإقدام على الاصلاح . وهو يقول ان شريف مكة لم يعد سوى امير ذي سلطة زمنية ، وقد فقد سلطته الروحية في نظر المسلمين . وهو يحصل على إيراد ضخم من الحج . وبما ان المدعين الشرعيين لحكم البلدة ، وهم فرع من سلالة النبي محمد ، المتحدرة من الحسن بن علي صهر النبي ، يبلغ عددهم نحو الثلاثمائة غدت السلطة مثار نزاع لا نهاية له ، يفرض أقواهم نفسه على الآخرين ، ويتدخل السلطان التركي احياناً في النزاع ليجلس على العرش احد الاخصام . ولا يتورع هؤلاء الامراء المتنازعون عن ان يصلوا بمعاركهم الى قلب الاماكن المقدسة ، مخالفين بذلك نصوص القرآن .

ولكن نيبور تمكن ايضاً من استخلاص فكرة صحيحة عن عقيدة المصلحين الذين كان يسمع ما يحكى عنهم ، وهي ولا ريب ، شهادات مغرضة ، فقال إن اعداءهم يحاولون عادة ان يظهروا مذهبهم بمظهر سيء ، وان يعملوا على تبغيضه بتصويره على غير حقيقته وان ينسبوا إليه ما لا يقول به او يدعو إليه .

وعلى الرغم من ان محمد بن سعود كان قد أخضع الكثيرين من الشيوخ لسلطته ، وألحقهم بحركة الاصلاح الوهابية فإن نيبور لا يظهر أي المام خاص بشؤون العاهل السعودي ، ففي رأيه (وربما كانت تلك هي

وجهة النظر الاكثر مطابقة للحقائق ، آنذاك) ان الدول الصغيرة بحكمها شيوخها اسماً وظاهراً ، وان محمد بن عبد الوهاب هو الزعيم الحقيقي للبلاد . فهو يتقاضى من جميع رعاياه بعض الضرائب باسم الزكاة وهي مساعدة لإعالة المساكين ومساندة الدين في وجه الخصوم .

ويذكر شيئاً عن المعارك التي كانت ناشبة آنئذ بين الجيوش الخاضعة للوهابيين والزعمـــاء المجاورين الذين كانوا يقاومون انتشار المذهب الوهابي اقتناعاً منهم بصحة مذهبهم ، وخوفاً سياسياً من هـذه القوة الجديدة . وهو يعطينا فكرة عن رد الفعل التلقائي لدى بعض النـاس إزاء الحركة الاصلاحية ، فيقول ان بعض الذين عارضوا المذهب الجديد قد نزحوا عن مواطنهم الى اماكن اخرى . ففي دسكرة الزُبَيْر ، التي تقع في المكان الذي كانت تقوم عليه مدينـة البصرة القديمة ، لم يكن فيا مضى سوى عدد قليل من البيوت ، ولكنها قد اتسعت وكبرت بصورة محسوسة لكثرة النازحين السعوديين إليها .

وتكمن احدى مآثر نيبور العديدة في انه أدرك الاهميـة التي كانت الحركة الوهابية مزمعة ان تحرزها ، وهي ما تزال آنئذ في مهدها ، وفي انه أعطى أوروبة عنهـا معلومات صحيحة وقـــد امرّها بغربال حكمه الموضوعي الدقيق ، ونزّهها عن كل هوى .

كان مؤلّف نيبور سيغدو مثلًا تقتدي به الجمعية العلمية الفرنسية ، عندما عهد إليها نابوليون ، وهو في طريقه الى مصر ، بتشكيل فرقـة من العلماء تصحبه إليها . ولكن لم يكن الكتاب وحده هو الذي يصلح لأن يتخذ قدوة . فعلى صعيد العلاقات مع العرب ، وعلى صعيد الاستقصاء العلمي ، كان نيبور قد عرف ان يتخذ موقفاً ، ويحدد منهج عمـل ، ما يزالان خليقين حتى الآن بأن يكونا قدوة ومثلًا .

لا ريب في انه بحكم تربيته ، وبفضل دقة البيـانات الجغرافية التي

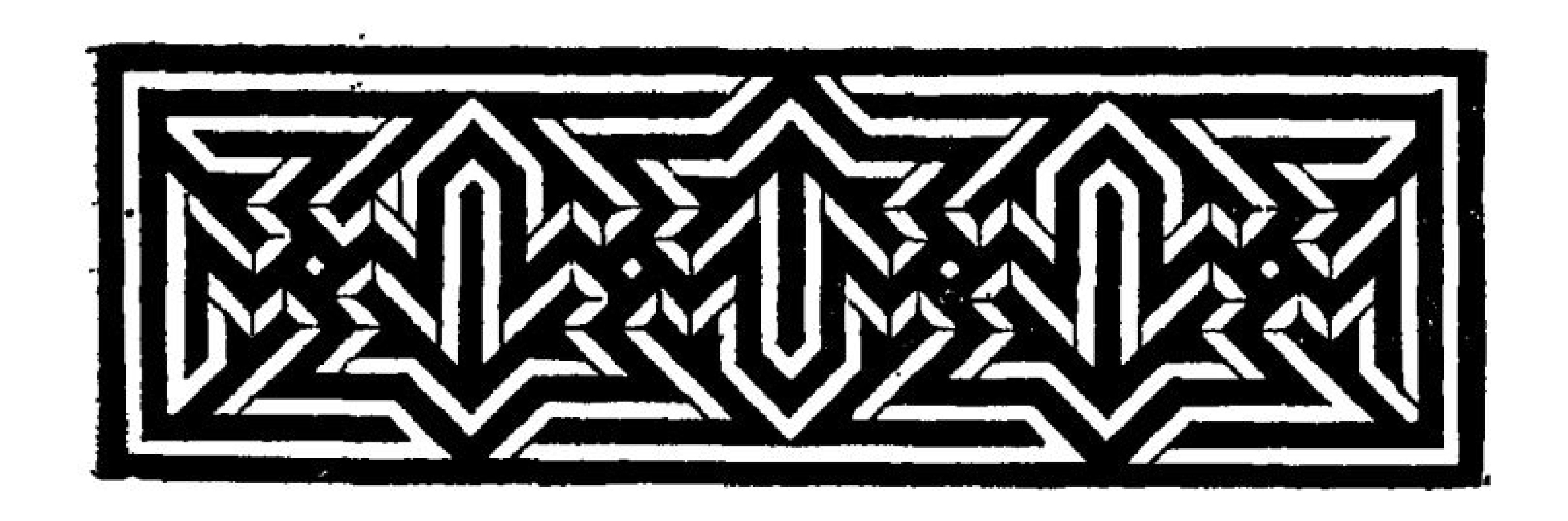
تمكن من وضعها بوساطة الادوات التي كان يحملها ، كان عالماً حقاً ، ولكن هذا العالم وجد نفسه في ظروف من الحياة والاستقصاء العلمي لا تناسب بينها وبين الحياة العادية التي اعتاد ان يحياها نيبل دانمركي مثله ، وبين العمل العادي الذي يقوم به المهندس . وكان التكيف وهذه الظروف صعباً الى درجة ان رفاقه لقوا حتفهم .

ولكن بالرغم من ذلك بقي المؤتمن الوحيد على لائحة الاسئلة التي أعدها له مليكه وجمعيات أوروبة العلمية ، والتي كانت تحتوي على مجموع الرغبات العلمية الحارة في معرفة كل ما يمكن معرفته عن شبه الجزيرة العربية . لقد كان متوجباً عليه ان يعيش ليؤدي مهمته . فعرف ان يتكيف ، وان ينظم نمط معيشته ، وطريقة استقصائه ، وأوجد قدوة ما تزال مثالية .

نيبور ، التاجر التركي الصغير ، المسافر على ظهر حماره ، المتجنب العظماء ، الساعي إلى مصاحبة جميع الآخرين ، الجاهل ، العارف كيف يقدّر الانسان في الفرد العربي مثلما يقدره في كل مخلوق بشري غيره ، المطلع غيره على ما حصل عليه من معرفة بملء اختياره ، الرامي إلى هدف واحد بكل إرادته . نيبور الذي يستفهم ، ويجمع المعلومات ، ويتخيرها ، ويزنها ، ويدقق فيها ، حتى يتأكد من أنه حصل لمواطنيه على معلومات مسلّم بها ، صحيحة ، متينة ، قدر الامكان .. نيبور هذا ، ألم يكن أول وأفضل من جسد المخبر المثالي ؟ الكامل ، وهل ما أراد أن يفعله ، وما حققه ، شيء غير نقل الاخبار وتصوير الوقائع ؟ ولكنه برهن ، بالقدوة التي أصبحها ، ان هذه الدعوة ، تتطلب فضائل النساك ، وكلفاً بالمعرفة الصحيحة ، التي يدرك بوساطتها اية زيادة حاسمة يمكن إضافتها الى المعارف الانسانية .

الجزء الرابع

العربية القفراء والعربية البتراء



علي بك في مكة
والوهابيون الاول

منذ رحلة نيبور أصبح الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية معروفاً، اكثر على كل حال من جزئها الاوسط الذي لم يكن أي أوروبي قد اجتازه بعد . فعلى هذا الجزء كان اهتمام الغربيين مزمعاً ان يتركز خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر على وجه التقريب .

وكانت الاسباب الايجابية لهذه الرغبة الحارة في الاطلاع على شؤون الجزء الاوسط من شبه الجزيرة تكمن في السلطة الناشئة ، سلطة الملوك الوهابيين من سلالة سعود التي لم تنفك تبسط سيطرتها على قلب شبه الجزيرة العربية . فمنذ حملة نابوليون على مصر التي برهنت للغرب عن الأهمية السياسية التي يمكن ان تكون لبلدان الشرق الادنى ، لم تعد الجزيرة العربية بيدقاً عديم الأهمية على رقعة الشطرنج في عالم السياسة . كانت القوة الوهابية على وشك ان تحدث تغييراً في اوضاع نابوليون من جهة ، واوضاع الاتراك من جهة اخرى ، الذين لم يكونوا غير مكترثين لما يجري .

حتى ذلك الحين ، لم تكن سلطة شيوخ نجد والجوف قد عدت كونها

حكم مدينة صغيرة يسكنهـا بعض الحضر ، أو احدى القبـائل ، وبما ان اقتتالهم لم يكن له انقطاع ، فقد كانوا يقيمون فيما بينهم توازناً سياسياً تبطل فيه قواتهم بعضها مفعول بعض . في تلك الظروف ، لم يكن اي خطر يتهدد السلطات المجاورة ، إذ كان الاتراك ما زالوا محتفظين بالسيطرة على طريق الحج من دمشق الى مكة ، وكان حاكم المدينة المقدسة خاضعاً لسلطانهم .

ولكن التحالف ما بين المصلح الوهابي والملك السعودي ، الذي كان له مفعول القنبلة ، أخلّ بهذا التوازن الثابت ، كما كان نيبور قد توقع.

بفضل فيلبي الذي قدم للغرب تاريخ الوهابيين ، كما ورد في تقاليده الخاصة يمكننا ان نتتبع ، سنة فسنة ، تعاقب الحملات التي قام بهـا محمد ابن سعود ، ثم ابنه عبد العزيز ، على مدن نجد الصغيرة ، وقبائل البدو ، واستطاعت الغزوات ، وأعمال الحصار والمذابح ، والحملات التأديبيـة على العصاة ، ان تفرض السلطة على البلاد بكاملها .

ان الصورة المحسوسة لهذه الأحداث من شأنها ، في الحقيقة ، ان تثير دهشة القراء . فقد فرض الملك والداعية الى الاصلاح ، العقيدة الجديدة بقوة السيف . فكل مدينـــة لم تفتح ابوابهـا لاستقبال حاكم ومبشر بالمذهب الوهابي في آن واحد ، إلا بعد ان حوصرت وجوعت ، فأرغمت على التسليم . وإذا ما حاولت احدى المدن جمع شتات قواتهـا ، وثارت على الحاكم الوهابي ، فإن عقابها لشديد .

وقد استمر الصراع سنين طويلة ، وخلال هذا الصراع أتلفت اشجار النخيل والمزروعات في كل جزء من هـذه البلاد ، حيث تعد الواحة كل شيء في حياة السكان .

وحوالي سنة ١٨٠٠ كانت بلاد نجد بكاملها قد اعتنقت المذهب الوهابي ، وخضعت لحكم عبد العزيز الذي كان ابنه سعود يقود الحملات العسكرية .

وكانت هذه الفتوح قد بقيت حتى ذلك قصة محلية ، لا يهتم بها الناس ابداً ، خارج اواسط الجزيرة العربية .

على ان الوهابيين كانوا قد أوغلوا حتى الخليج العربي ، واشتبكوا مع سفينة حربية انكليزية على مقربة من الكويت .

كان ذلك فرصة سانحة للمقيم الانكليزي في البصرة ، ليوجه رسولاً الى الامير السعودي طلباً للمصالحة . وقد خرج الرسول ، وكان يدعى رينو ، سنة ١٧٩٩ من بلدة القطيف ، ومر بالهفوف ، قاصداً الدرعية عاصمة عبد العزيز ، حيث مكث اسبوعاً ، وقد نشر التقرير الوحيد الذي وضعه عن رحلته ، وانطباعاته ، في سنة ١٨٠٥ ، وكان رسالة منه. لقد ذهل لرؤيته المدينة بالغة الصغر ، رغم ان موقعها كان لطيفاً ، كما ذهل لبساطة معيشة الامير الشديدة التناقض وسلطته الواسعة الانتشار .

*

ولكن سعود لفت انظار الاتراك والعالم اجمع ، بإقدامه فجأة على مهاجمة كربلاء والحدود العراقية بين سنتي ١٨٠١ و ١٨٠٢ . في هذه المدينة المقدسة في نظر الشيعة يقوم مسجد رائع ، يحوي كنوز تركية والعجم ، وهو يضم قبر الحسين حفيد النبي محمد ، ولكن عناصر الايمان هذه تعد مرطقة في نظر الوهابيين الذين يعتقدون انه لا يجب تمجيد احد ، حتى محمد نفسه ، بحيث ينزع من الله جزءاً من العبادة الواجبة كلها له وحده .

بعد حصار لم يدم طويلاً ، فتحت المدينة ، وتساقط القتلى من جميع الأعمار في الشوارع والبيوت ، وهدم قبر الحسين ، وسلبت الجواهر التي كانت تزينه ، واقتسمها المحاربون كما اقتسموا كل نفيس في المدينة ، فأثار هذا العمل سخط بلاد العجم وتركيا حيث يغلب المذهب الشيعي ، وسخط العالم اجمع ، وعاد سعود الى عاصمته الدرعية فخوراً بنصره المذهبي ، وغنيمته التي لا تقدر بثمن .

كان سعود مزمعاً أن يثير القلق العالمي من جديد فيما يختص بالبلاد الواقعة على جانبي ممتلكاته . فقد تمكن أحد الزعماء الذي كان قد شق عصا الطاعة على شريف مكة والحاز الى جانب الامير السعودي ، من ان يكسبه اراضي جديدة باتجاه مكة ، بعد ان أخفق شريف مكة في حملته الدفاعية . واعتزم سعود ، في سبيل الاستيلاء على المدينة المقدسة ، ان يمنع قافلة الحجاج القادمة من دمشق بحراسة الجنود الاتراك ، من الوصول إليها ، ونفذ ما اعتزم . فهلع شريف مكة ، ولجأ الى جدة بأسلحته وأمتعته ، ودخل سعود وقواته مكة ، معلناً عفواً عاماً ، موزعاً الصدقات الضرورية ، للقيام بفريضة الحج . وهكذا اصبحت مكة وهابية .

ورأى الخليفة التركي انه قد نيل من سلطته الزمنية والدينية . وخشي الغرب وقوع اضطراب في الشرق الاوسط ، قد يؤثر عليه .

في هذه الاحوال جاء مكة في سنة ١٨٠٧ حاج رفيع الشأن ،تصحبه حاشية كبيرة من الخدم ، اعتادوا ان يبسطوا سجادة سيدهم قرب سجادة الإمام في المسجد . كان هذا الحاج ، علي بك العباسي ، سليل العباسيين ، ولم يدُر في خلد أحد من العرب ان يشك في أمر هذا الحاج المسلم الشريف النسب ، المتضلع من المعارف الغربية ، الذي يتقن التكلم بعدة لغات أوروبية ، منها الفرنسية ، ولا سيما الايطالية والاسبانية . وقدر الحاكم الذي كان على استعداد لجميع انواع الريب ، ان الطريقة التي يتكلم بها العربية لا تدعو الى الشك في امره . وكان ثمة شاب وسيم ، يشغل منصب سيد بئر زمزم ، ويقدم بصفته هذه ، الماء المقدس للحجاج البارزين ، فلم يتلق امراً بالقضاء على هذا الحاج الشريف ، وان كان علي بك قد احتاط للأمر فتزود بعلاج مقيء شديد لاستعماله في حالة التعرض للسم .

كان ذلك العربي الشريف ، في الحقيقة ، الرحالة الاسباني دومنغو باديا اي لبليخ

الذي غادر قادس في سنة ١٨٠٣ بعـــد ان أجرى محادثات مع مختلف الشخصيات البارزة في باريس ولندن . وقد سافر من مراكش باتجـــاه الاسكندرية فوصلها في سنة ١٨٠٦ ، وقابل فيها شاتوبريان .

اعتقد البعض ان علي بك ، كان في الحقيقة جاسوساً اسبانياً لنابوليون، ومن المحتمل ان يكون الامبراطور قد رغب في ان يعلم شيئاً عن موقف مسلمي الشرق الادنى من الحركة الوهابية ، وان يكون قـــد نكر في استخدام هذه الحركة الجديدة لتحقيق مخططاته في الشرق .

وقيل ايضاً انه احد موظفي امارة البحر الفرنسية ، أرسل الى البحر الاحمر لتدوين ملاحظات فلكية . فهـل يمكن معرفة حقيقته ؟ على كل حال ، لقد كان عالماً ولا ريب ، وكان مزوداً بآلات قياس دقيقـــة جداً : كمقياس الرطوبة الجوية ، وآلة السدس ، والمرقب . وقـد زود علم الجغرافية بمعلومات قيمة ، محدداً بوساطة الملاحظات الفلكيـة مواقع الاماكن المختلفة التي زارها على ساحل البحر الاحمر بالنسبة الى متوازيات العرض الاستوائيـــة ، مثل ينبع وجـدة وغيرهما ، ومحدداً بصورة تقريبية مرقع المدينة التي لم يبلغها ، وموقع مكة بصورة صحيحة. ولأول مرة أمكن تحديد الموقع العرضي لأحد الأماكن داخـــل شبه الجزيرة العربية بالنسبة الى خط الاستواء . وقد وصف التكوين الجيولوجي للجبال التي اجتازها بين ينبـع والمدينة ، ورآها متشققة تارة ، وبركانية احياناً ، وجمع النباتات والحشرات . ومن المؤسف انه اضطر فيما بعد الى اتلاف مجموعته كلها كي لا يثير الشكوك في الظروف الخطيرة التي مر بها .

*

قام علي بك بنشر قصة سفراته في باريس سنة ١٨١٤ ، وفي لنـدن عام ١٨١٦ .

وغادر دمشق في سنة ١٨١٨ ليعود ثانيـــة الى مكة ، حين فاجأته

المنية وهو على بعد مائة وعشرين ميلاً عن دمشق . فهل كان الزحار سبباً في وفاته ، أم ان احد العملاء الانكليز قام بتسميمه ظناً منه انه جاسوس فرنسي ؟ هذا ما بقي سراً من الاسرار .

ويحوم حوله سر آخر شديد الغموض . فهل كان مسلماً عن اقتناع ، كما كان يصرح علناً ؟ أم ظل كما قيل محافظاً على نصرانيته وان صليباً وجد عند وفاته مخفياً تحت ثيابه ؟ ولكن كيف السبيل الى التأكد من هذا او ذاك ؟

لقد أظهر علي بك ، في الحقيقة ، في قصة رحلاته انه مسلم ممتاز ، يحترم الفرائض والمعتقدات ، إلا انه أبدى بعض الملاحظات التي أثارت الشك في صحة معتقده ، وحملت على الاعتقاد بتظاهره بالاسلام . فبصفته رجلاً مدققاً وعالماً ، لاحظ ان المستوى القديم للأرض التي تجاور الكعبة لا يتناسب ومستوى الحجرة الداخلية التي يوصل إليها الآن بسلم قابل الطي ، موضوع امام الباب . لا شك في ان ارض الكعبة كانت على استواء واحد فيما مضى « صحيح انه يجب ، في هذه الحالة ، افتراض ان الحجر الاسود كان موضوعاً في مكان غير المكان الذي يُرى فيه الآن ، لأنها أدنى من مستوى الباب بمقدار قدمين . وقد يقول احد الكفار انه لم يكن موجوداً ، او انه كان في باطن الأرض . اما أنا فلا يمكن ان تخطر ببالي فكرة كهذه عن هذا العهد الإلهي القيم . »

ويضيف الى ذلك ، قوله ، بعد ان يعطي أبعاد الحجر الأسود الدقيقة : « نحن نعتقد ان هذا الحجر العجيب ياقوتة شفافة حملها من السماء الملك جبرائيل الى ابرهيم كعهد إلهي ، وانها تحولت الى حجر أسود كثيف اثر لمسها من قبل امرأة جنُب ، انه من وجهة نظر علم التعدين كتلة صخر بركانية ، محاطة برؤوس بلورية صغيرة معينية الشكل ، وبفلدسبات قرميدي اللون ، على أسود قاتم كالمخمل او الفحم ، باستثناء

احد بنتوءاته الذي يبدو احمر اللون بعض الشيء . »

واخيراً قام بفحص آبار مكة المختلفة : « لقد قمت بفحص كل بئر على حدة ، فوجدت انها متساوية في العمق ، وأن لمياهها درجة حرارة ، وطعم ، وشفافية ميـــاه بئر زمزم ، ففي الشوارع المجاورة للكعبة ، اربعة آبار متشابهة تماماً ، ويمكن رؤية آبار مثلها في أقصى انحاء المدينة ، فاقتنعت من فحص أدق أجريته لعمق الآبار ، ونوع مياهها ، ودرجة حرارتها ، وطعمها ، انها تأتي من مختزن جوفي يبعد عمقه خمساً وخمسين قدماً عن سطح الارض تكوّن من ترشح مياه الامطار . وتعود ملوحة هذه الميـاه الى تحلل الطبقة الجبصية واختلاطها بالتربة ، ومن ثم تشابه كل الآبار لكونها من مصدر مياه زمزم نفسها ، إلا انها لا تنيل شاربيهـــا بركة السماء ، كمياه هذه البئر العجيبة . فليكن اسم الله ممجداً . »

ولكنه يعنى هو نفسه باعطائنـا خلاصة عقيدته الاسلامية ، إذ يصف مرحلة الحج في صعود جبل عرفات فيكتب : « يقول الكثيرون من علماء الدين انه في حالة انعدام وجود بيت الله ، سيظل للحج الى جبل عرفات قيمته ، كما لو كان الحاج يطوف سبع مرات حول الكعبة ، وهـذا ما اعتقده انا بدوري . »

« لا يستطيع المرء ان يكوّن فكرة عن المشهد المهيب الذي يمثله حج المسلمين إلا في جبل عرفات . جموع غفيرة من ابناء جميع الأمم ، من جميع الألوان ، تأتي من أقاصي المسكونـــة عبر ألوف الاخطار والمشقات ، ليعبدوا معـاً إلهاً واحداً ، إله الطبيعـة ، يمد القوقازي يد الصداقـــة الى الحبشي او الزنجي الغيني ، ويتآخى الهندي والفارسي ، والبربري والمراكشي ، ينظر الجميع بعضهم الى بعض كأخوة ، وكأفراد أسرة واحدة ، تصل ما بين قلوبهم أواصر الدين ، يتكلم معظمهم او على الاقل يفهمون لغة واحدة ، اللغـة العربية المقدسة . كلا ، ما من

دين آخر يستطيع ان يقـــدم للحواس مشهداً أبسط ، وأشد تأثيراً ، وأعظم من هذا المشهد . فيا فلاسفة الارض اسمحوا لعلي بك ان يدافع عن دينه ، كما تدافعون انتم عن مذهب الروحانية او مذهب المادية ، والفراغ والامتـــلاء ، وضرورة الوجود او الخلق لا وسيط هنا بين المخلوق والخالق مثلما ذكرت في قصة رحلتي الى مراكش ، الجميع متساوون امام الخالق ، والكل مقتنعون بأن اعمـالهم وحدها هي التي تقربهم من الواحد العلي أو تبعـدهم عنه ، دون ان تستطيع يد غريبـة تغيير نظام هذه العدالة التي لا يمكن ان تتبـــدل . يا له من مكبح يحول دون الاجرام ! ويا له من تشجيـع على سلوك سبيل الفضيلة !.. ولكن ، يا له من أسف ، ألا نكون ، وفي حوزتنـا كل هذه الميزات ، افضل من أبناء الاديان الاخرى ! ... »

ان في هذا نوعاً من الفلسفة الدينية المطابقة لأفكار القرن الثامن عشر .

إذا حكمنا على علي بك من شهادته الخاصة ، وجدنا انه ذو عقـل راجح لا تغره التقـــاليد الخرافية ، ولكنه فيلسوف ، ومؤمن صادق بوجود الله .

لقد أثرت فيه الكعبة تأثيراً عميقاً في الزيارة الاولى التي قام بها إليها ، لا سيما وان انطباعه لم يكن قد تخلص بعد من الرومنطقية . فقد قال : « يجب على الحجاج أن يدخلوا مكة حفاة ، ولكنني بقيت معتلياً ظهر جملي بسبب انحراف صحتي ، حتى بلغت المكان الذي حللت فيـه . وما ان دخلته حتى توضأت وضوءاً عاماً ، وسرنا في موكب مع جميع الناس الى الكعبة . وكان الرجـل الذي عهـد إليه بأن يقودنا ، يتلو الصلوات المختلفة بصوت مرتفع وهو سائر ، ونرددها نحن من بعده كلمـة فكلمة بالنغم ذاته . وكان ضعفي ما يزال شديداً الى درجة انني اضطررت الى أن استند الى اذرع اثنين من رجالي .

« هكذا وصلت الى المسجد من الشارع الرئيسي لأجله من باب السلام ، الامر الذي يعتبر فألاً حسناً . وقد دخلت باب السعادة هذا بعد ان خلعت حذائي . واجتزنا الرواق ، وكنا على وشك دخول الفناء الكبير حيث يقع بيت الله ، حين أوقفنا دليلنا ، ورفع اصبعه نحو الكعبة قائلا لي : « شوف ، شوف ، بيت الله الحرام » . ان الحاشية المحيطة بي ، والرواق ذا الاعمدة التي تبدو وكأنها لا نهاية لها ، وفناء المسجد الفسيح ، والكعبة المكسوة بالقماش من أعلاها الى أسفلها ، والمحاطة بدائرة من المصابيح ، والوقت غير العادي ، وصمت الليل ، ودليلنا الذي يتكلم وكأن الوحي قد هبط عليه ، كل ذلك ألّف في تلك اللحظة لوحة مهيبة لن تمحى من ذاكرتي . »

ومهما يكن من أمر شعوره القلبي ، فإن فضل علي بك كامن في انه قدم للغرب أول تقرير دقيق ، مفصل ، عن الحج الى مكة ، رآه وعاشه احد المسلمين . فقد ذكر فيه الاماكن بتفصيل ودقة . ومن يقرأ كتابه ، يجد ان المسجد والكعبة الوسطى كانا على ما هما عليه اليوم ، مع فارق واحد هو ان شمعدانات كهربائية قد حلت محل المصابيح الخضراء التي كانت معلقة بقضبان حديدية تحملها أعمدة دقيقة ما تزال موجودة حتى الآن .

يصف المسجد الكبير فيقول انه مكان محوط ، مستطيل الشكل تقريباً ، مؤلف من أروقة بديعة التنسيق ، ذات ثلاثة صفوف من العقود ، تتوجت العقود المحاذية منها للفناء بقبب صغيرة تقوم كلها على أعمدة ذات توج منقوشة .

تسعة عشر باباً توصل الى هذه الأروقة ، تعلوها سبع مآذن . باحة المسجد من الرمل ، تمد فيها الحصر للجلوس عليها ، ولكن ست ممرات مرتفعة ، مبلطة بالحجارة الصرانية المنحوتة ، تؤدي ، ابتداء من الأروقة

الى الوسط ، نحو باحـــة اولى مستديرة مرصوفة على شاكلة الممرات ، شيدت عليها اربعة ابنية وهي أمكنة لإقامة الصلاة خصصت لاتباع المذاهب السنية الاربعة ، فالبناءان الصغيران مخصصان لأبنـــاء المذهبين المالكي والحنبلي ، والبناءان المؤلف كل منهما من دورين مخصصان للاتراك المنتمين الى المذهب الحنفي . واخيراً يستعمل الشافعيون سطح البنـــاء الاكبر لإقامة الصلاة .

في هذا البناء الكبير تقع بئر زمزم ، وغرفـة صغيرة جمعت فيهـا الأباريق التي يسقى بها الحجاج من مائها . هناك نُرى عدد كبير من الخدم الذين يبذلون الكثير من النشاط تحت إشراف « سيد البئر » الذي سبق لنا ان ذكرنا شيئاً عن بعض مهامه الخاصة عنـــد ذكرنا لعلي بك . وقد جعل على السطح الصغير ساعتان شمسيتان افقيتـــان تعينان اوقات الصلاة .

تقول التقاليد ان بئر زمزم هذه ، هي البئر التي أوجدها الله لانقاذ هاجر وابنها من الموت عطشاً ، بعـد ان طردهما ابرهيم الى الصحراء . والناس يكثرون الشرب من مائها ، ويرتشون بها .

يؤدي باب السلام الذي تعلوه قوس منقوشة ، الى الباحـة الوسطى المبلطة بالرخام . الى يمين هـــذا القوس منبر مرتفع يقف عليه خطيب الجمعـة ، والى يسارها مقـام ابرهيم المغطى بالقماش الذي يرتفع على ستـة أعمدة ، يحيط بالنصف المغطى منه حاجز من قضبان مشبكة ، فيه باب مغلق بقفل من الفضة . ويقول علي بك : « ان هذا الحاجز من القضبان المشبكة يحتوي احدى المقدسات ، مغطاة بقماش اسود فاخر موشى بالذهب والفضة ، ومزين بعقـد كبيرة من الذهب ، وهي الحجر الذي استعمله ابرهيم مَقاماً لبناء الكعبة . ويقال ان هذا المقام كان يزداد ارتفاعاً كلما ازداد البناء علواً تسهيلاً للاعمال ، في حين ان الحجارة كانت تخرج منحرفة ،

مسوّاة من المكان الذي توجد فيه الحجر المقام اليوم ، لتنتقل من يد اسماعيل الى يد ابيه . »

وفي الوسط تقع الكعبة المكسوة حتى الاساس الرخامي بغطاء من النسيج الاسود الموشى بالذهب ، وهو يُبدل كل سنة ، فيقطع الغطاء القديم قطعاً صغيرة توزع كذخائر ، وتكسى الكعبة « بقميص » جديدة تقدمها القاهرة في كل عام وترسلها مع قافلة الحجاج .

ان هذا البناء الذي كان في ايام النبي محمد معبداً للأوثان ، عريق في القدم .وهو مؤلف من غرفة واحدة جعل بابها في علو قامة رجل ، تماماً مثلما رآه دي فارتيما . ويظن علي بك أن لها باباً آخر من الجهة المقابلة، ما تزال آثاره ظاهرة . وقد دمج الحجر الاسود في الزاوية الشرقية من الجدار تحت مستوى الباب ، ورصع القسم الناتىء من الجدار بصفيحة من الفضة .

قبالة المقدمة الشمالية الغربية للكعبة نوع من الحاجز يبلغ ارتفاعه حوالي الخمس قدام ، وسماكته ثلاث اقدام ، يعرف بحجر اسماعيل . ويحوي هـذا الحاجز فسحة معشرة الاضلاع ، على شكل نصف دائرة تقريباً مبلطة برخام رائع يُرى بينه بعض البلاطات الخضراء النفيسة الثمن. ويعتقد ان اسماعيل قد دفن في هذه الفسحة المسوّرة .

لقد كان علي بك الوحيد من زوار مكة الغربيين الذي حاز شرف رؤية داخل الكعبة باسهامه في تنظيف المسجد ، هـذا العمل الذي لا يناط شرف القيام به إلا بشريف مكة نفسه وبعض الشخصيات النادرة التي ينتقيها لهذه المهمة : « كان باب الكعبة قد فتح في التاسع والعشرين من كانون الثاني (يناير) وازدحمت حوله جماهير غفيرة ، الا ان السلم لم يكن قد وضع بعد .

« دخل الشريف الكعبة محمولاً على اكتاف بعض الناس ، ورؤوس

البعض الآخر ، يصحبه كبار شيوخ القبائل ، وقد أراد الآخرون ان يدخلوا ، ولكن الحراس الزنوج كانوا يمنعون الناس من الدخول بضربات العصي والقصب . وكنت واقفاً بعيداً عن الباب تجنباً للازدحام حين أشار إليّ « سيد زمزم » بالتقدم : تنفيذاً لأمر الشريف ، ولكن كيف كان بمكنني شق طريق لي بين جماعة ينيف عدد افرادها على الألف ؟

« كان حملة الماء في مكة جميعاً يتقدمون حاملين قربهم الملأى ، يدفعون بها من يد الى يد حتى أيدي حراس الباب الزنوج ، ويحملون عدداً كبيراً من المكانس الصغيرة المصنوعة من سعف النخيل .

واخذ الزنوج يصبون الماء على ارض القاعة المبلطة بالرخام ، يتبعونه بصب ماء الورد . وكان المؤمنون يتهافتون لجمع هذا الماء الذي كان يسيل من ثقب تحت عتبة الباب ، ولكن بما ان هذا الماء كان أقل من ان يشبع نهم الجموع ، وبالنظر الى ان اصوات البعيدين عن الباب تعالت مطالبة بهذا الماء للشرب والاستحمام ، اخذ الحراس الزنوج ينضحون الجموع بالطاسات والايدي نضحاً سخياً . وقد عنوا بإيصال جرة صغيرة إليّ فشربت منها ما امكنني ، وصببت ما تبقى فيها على نفسي ، لأن هذا الماء ، رغم كل شيء يحمل بركة الله ، ثم انه معطر بماء الورد .

« ثم بذلت جهداً للتقدم ، فرفعني أناس كثيرون فوق الجميع ، فسرت على الرؤوس حتى بلغت الباب اخيراً ، حيث ساعدني الحراس على الدخول .

« كنت مستعداً لهذا العمل ، اذ لم اكن مرتدياً الا قميصاً من الصوف الابيض ، بلا كمين ، ومعتماً بعمامة ، وملتفاً بحيك .

« كان شريف مكة يكنس ارض القاعة بنفسه ، وما كدت ادخل حتى انتزع الحراس حيكي ، وقدموا لي عدداً من المكانس الصغيرة أمسكت بعضها بكلتا اليدين . وفي تلك اللحظة صبوا كثيراً من الماء

على البلاط ، فأخذت اكنس بكلتا يدي بإيمان حار رغم ان الارض كانت قد اصبحت نظيفة ، ملساء كالزجاج . وبينا كنا نقوم بهذا العمل ، كان الشريف قد فرغ من كنس القاعة وتعطيرها ، واخذ يصلي .

« ثم قدمت إليّ طاسة من الفضة ملئت عجيناً مصنوعاً من نشارة خشب الصندل العطري ومن ماء الورد . فمددت هذا العجين على اسفل الجدار المرصع بالرخام ، تحت السجادة التي تكسو أعلاه والسقف .

« عندئذ منحني السلطان الشريف لقب « خادم بيت الله الحرام » وقام الحضور بتقديم التهاني إليّ .

« ثم أديت الصلاة في أركان القاعة الثلاثة كما فعلت في المرة الاولى ، وبهذا فرغت من القيام بالتزاماتي . وفيما كنت منصرفاً الى اداء الصلاة كان الشريف قد انسحب .

« كان عدد من النساء قد وقفن مجتمعات في الفناء بعيداً عن باب الكعبة يهللن من وقت لآخر .

« قدم إليّ شيء من عجين الصندل ومكنستان احتفظت بها كذخائر نفيسة جداً . وأنزلني الحراس على رؤوس الشعب الذي أنزلني بدوره ارضاً وهم يقدمون إليّ التهاني . فتوجهت من هناك الى مقام ابرهيم لتأدية الصلاة فيه ، ثم ألبست حبكي من جديد ، وعدت الى مسكني مبتلاً كلياً . »

كان دي فارتيما قد لحظ تقليد الطواف سبع مرات حول الكعبة يقوم به الحجاج وهم يتلون الصلاة عند كل ركن ، ويقبلون الحجر الاسود ، بسرعة تدرجية . ولكن التقليد الذي فاته ملاحظته هو قطع المسافة الفاصلة ما بين أكمتي الصفا والمروة المقدستين سبع مرات ، فور الفراغ من التطويف حول الكعبة ؛ ان هذين المكانين اللذين كانا واقعين خارج

المدينة في ايام النبي ، قد اصبحا ضمن حدودها ، نتيجة لاتساع رقعتها تدريجياً ، وتشكل الأكمتان اللتان تكسوهما الآن المنازل ، شوارع واقعة داخل البلدة .

يقصد الحجاج اولاً الرواق الذي يتوج قمة الصفا ، وسطيحة المروة ، لتلاوة الصلاة المفروضة . وبما ان شارع مكة الرئيسي هو بالضبط الطريق المؤدية من الصفا الى المروة ، وهو الشارع الذي تقع فيه السوق العامة ، فإن الجموع التي تزدحم فيها تزعج الحجاج في سعيهم بين الأكمتين ، الصفا والمروة » .

وتقع في هذا الشارع حوانيت الحلاقين ، اذ ان التقليد يقتضي ان يحلق الحجاج رؤوسهم .

ثم يتضمن الحج صعود جبل عرفات . وقد وصف علي بك الطريق التي بدأ سلوكها بعد الظهر ، فقال : « انها واد صغير بين جبال جرداء ذات حجارة صوانية ، ويمر الحجاج في قرية منى ذات الشارع الوحيد الضيق . وأول ما يرى عند دخول القرية عين ماء يقوم قبالتها بناء قديم يقال ان الشيطان قد شاده .

عندما يبلغ الحجاج المسجد القائم في سهل صغير ، يجدون انفسهم مجبرين على الاستراحة فيه لان التقاليد تروي ان النبي الكريم كان يستريح فيه كلما ذهب الى عرفات ، وتزدحم الجماهير كلها في هذا الوادي الصغير ، وفي الصباح الباكر تستأنف السير . وبعد مسيرة ثلاث ساعات في مضيق محصور ، يبلغ الحجاج أسفل الجبل . وقد كان الوهابيون يقومون بهدم المعبد الصغير القائم في اعلاه . وكان اربعة عشر حوضاً قد رممت بأمر سعود ، تستعمل مياهها للشرب والوضوء .

على قمة عرفات ، عرف آدم ابو البشر امنا حواء بعد فراق طويل ، لذا سمي عرفات . ويعتقد ان آدم نفسه هو الذي شاد

المعبد الصغير الذي هدمه الوهابيون .

بعد صلاة العصر التي يؤديها الحجاج في خيامهم ، وبعد ان يكون قد هيىء كل شيء للرحيل : تقضي التقاليد بأن يتجه الحجاج نحو أسفل الجبل سيراً على الاقدام ، ليبلغوه قبل غروب الشمس . « وعندما يوشك موعد الغروب ان يحين ... يا له من اعصار ! ليتصور المرء ثمانين ألف رجل ، وألفي امرأة ، وألف ولد صغير ، مع ستين او سبعين ألف جمل ، وعدد من الحمير والخيل ، يريدون قبل هبوط الظلام ان يستحثوا خطاهم حسب التقاليد ، في واد ضيق ، يزحم بعضهم بعضاً ، في سحاب من الغبار ، وغابة من الرماح ، والبنادق ، والسيوف . »

وسبب هذا الاسراع الذي تأمر به التقاليد انه يجب ألا تؤدى صلاة المغرب في عرفات ولكن في المزدلفـــة حيث يجب أداء صلاة المغرب ، وصلاة العشاء ايضاً بعد انقضاء ساعة ونصف على غياب الشمس . وفي المزدلفة مخيم الحجاج .

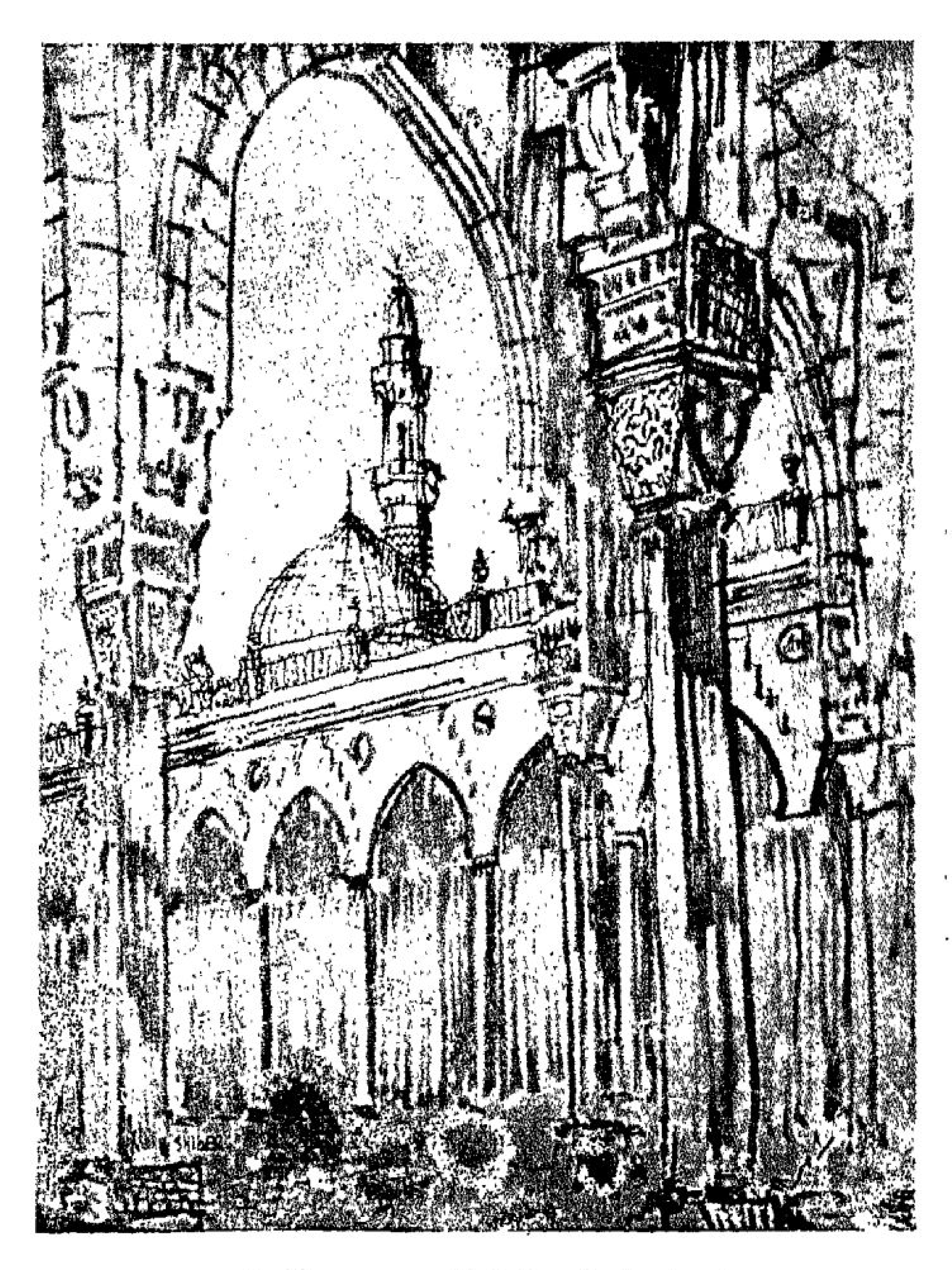
يستأنف الحجاج السير في الصباح الباكر من اليوم التالي للتخيم في منى هناك ، مثلما روى لنا دي فارتيا ، ويتوجه الحجاج نحو بيت الشيطان ، ويرجمونه بسبع احجار قائلين : « باسم الله . الله اكبر ! » ويضيف علي بك الى ذلك قوله : « وبما ان دهاء الشيطان قد دفعه الى إقامة بيته في مكان ضيق جداً لا يتجاوز عرضه اربعاً وثلاثين قدماً ، وتقوم في الطريق المؤدية إليه صخور ضخمة يجب اجتيازها لتأمين رشق الحجارة ، وبما ان جميع الحجاج يريدون اتمام هـذا العمل المقدس حال عودتهم الى منى ، فإن المكان تسوده بلبلة غريبة . ولكنني اخيراً ، بمساعدة رجالي ، تمكنت رغم الازدحام والضوضاء ، من اتمام هذا الواجب المقدس ، ولم يكلفني ذلك إلا جرحين في ساقي اليسرى . ثم انسحبت الى خيمتي لآخذ قسطاً من الراحة بعد العناء الذي تكبدت .

في ذلك النهار يجب تقديم الذبائح . وفي اليوم التـــالي ، والحجاج ما يزالون في منى ، ذهب الجميع ، بعد صلاة الظهر ، لرجم عمود صغير بني من الحجارة والوحل يبلغ ارتفاعه ست اقدام ، ومساحـــة قاعدته قدمان مربعتان واقع في وسط شارع منى ، يقال ان الشيطان قد أقامه ، وهم يرجمونه بسبعة احجار مغسولة بالماء ، وقد قمت برشق عمود آخر أقامه الشيطان على بعد اربعين خطوة من الاول بسبع احجار اخرى ، ورميت اخيراً البيت الحقير الآنف الذكر بسبع احجار مرة اخرى . »

في اليوم الثالث من عيد الفطر ، بعد اجراء هذه الشعيرة تكراراً ، عاد علي بك الى مكة وهو يقول : « عند دخولي المدينة ، توجهت الى المعبد حيث طوّفت سبع مرات ثانيـة حول بيت الله ، ثم خرجت من باب الصفا بعـد ان صليت وشربت من ماء زمزم ، لأكمـــل الحج بالرحلات السبع بين الصفا والمروة كما فعلت ليلة وصولي . . »

كان هذا العمل الاحتفالي مصحوباً بزيارة عدة مزارات واعمـال تقوية كثيرة اضافهـــا الى المناسك مختلف الفقهاء او الاولياء ، لكن الوهابيين حذفوا كل هذه البدع باعتبارها مظاهر خرافية ، ولم يبق الآن سوى المنسك الذي اسجله في كل مداه .

توجه جميع الحجاج على وجه التقريب يوم الاحد المصادف الثـــاني والعشرين من شهر شباط (فبراير) الى مكان يقع في الجهـة الغربيـــة الشمالية الغربيـــة من مكة حيث مسجد متداع يدعى العمرة . فأديت الصلاة في بادىء الأمر ، ثم وضع كل حاج ثلاث احجار الواحدة فوق الاخرى غير بعيد عن المسجد بورع كلي ، ثم توجه الجميع الى المكان الذي كان يسكن فيه ابو جهل الشرير عدو نبينا اللدود ، وهنـاك قام كل حاج ، وقـــد اخذ منه الغيظ كل مأخـذ ، يلعنه ويرشقه بسبع احجار . وعدنا الى المدينة فطوفنا سبع مرات حول بيت الله ، وقمنـا



جامع في المدينة بريشة الدكتور جورج صابا شبر

بسبع رحلات ما بين الصفا والمروة ، فلم يبق عندئـذ اي شيء نضيفه الى مناسك الحج من اجل تطهرنا . »

*

هكذا كشف علي بك مناسك الحج كاملة وحياة الحاج نفسها ، وتتفوق قصته على قصص جميع الذين سبقوه من حيث الدقة . ولكن من حيث وصف العقلية الدينية لدى الحاج البسيط المؤمن ايماناً صادقاً تظـل رواية جوزف بيتس اشد اخلاصاً واكثر تثقيفاً .

ان علي بك لم ير سوى المناسك ، وقد شرح قيمتها الدينية من خلال عقلية التدين الفلسفي .

ولكن لقصته فائدة اخرى كبرى . فعلي بك هو الوحيد الذي رأى كيف يعيش الوهابيون الأول . كان قـد انقضى ، في الحقيقة ، عدة ايام على وصول رحالتنـــا ، عندما دخل مكة قسم من الجيش الوهابي للقيام بفريضة الحج ، ولاحتلال هذه المدينة المقدسة .

إذا ما راجعنا فيلبي ، وتاريخ الوهابيين الذي يتابعه ، والذي يتلاقى تماماً مع معطيات علي بك ، وجدنا ان الأمور قد ساءت مرة اخرى مع الشريف غالب منذ الدخول الى مكة في سنة ١٨٠٣ . كان سعود قـد عهـد الى حاكم امارة عـسير الجبلية المدعو بأبي نقطة ان يدعو الشريف ثانية الى خضوع اقل تردداً ، وبمهاجمة جدة ميناء مكة قبل اي شيء ، ولكن الشريف كان قـــد استبق الهجوم ، وقابل أبا نقطة في الطريق ، فدُحر وعاد الى مكة . وفي خريف سنة ١٨٠٥ أصدر سعود امراً الى أبي نقطة بالاستيلاء على مكة ، وبمنع قافلة الحجاج من الدخول إليهـــا مسلحة ، وكان ثمة مجـــاعة شديدة منتشرة منذ سنتي ١٨٠٤ — ١٨٠٥ عانت منها شبه جزيرة العرب الأمرّين طوال ست سنوات . وهـذا ما

يفسر ما لاحظه علي بك على سكان مكة من هزال : « هيا كل حقيقية متجولة مكسوة برقوق لاصقة بالعظام » .

اضطر قطع الارزاق عن المدينة ، واستحالة مقاومة مثل ذلك الجيش اللجب ، الشريف الى الاستسلام . فوصلت الارزاق حينئذ ، ودخلت قافلة الحجاج .

على ان الشريف غالب كان يسعى الى استعـادة مكة ، كما اتضح بعدئذ . في تلك الاثناء كانت « المدينة » قد سقطت في ايدي الوهابيين . فقد وجه سعود جيشاً قوياً الى المدينة في سنة ١٨٠٦ لإيقـاف قافلة الحجـاج ، لأنه خشي ان يجد الشريف الذي يدعو موقفه الى الشك ، امداداً في القـافلة . ويشهد علي بك بالفعل ان الحجاج لم يصلوا وانهم اضطروا الى النكوص على اعقابهم .

وهكذا ، بعد ان برهن سعود للشريف عن سيطرته على المدينتين المقدستين ، سار على رأس جيشه الى مكة ليدخلها ثانية بقصد الحج . وهذا الدخول هو الذي شهده علي بك .

« كنت في الشارع الرئيسي في الساعة التاسعة صباحاً عندما رأيت جماعة من الناس قادمين ... ليتصور المرء جمهوراً من الناس مزدحمين ، ليس لهم من اللباس سوى خرقة حول الحقوين ، وفوطة وضعها بعضهم على كتفه اليسرى وأمرّها تحت ابطه اليمنى ، مسلحين ببنـادق ذات فتائل وخناجر معقوفة في احزمتهم .

وعندما رأى الناس هـذا السيل من الرجال العراة المسلحين ، هربوا مخلين الشارع الذي كانوا يشغلونه كلياً . ولكنني أصررت على البقاء في مكاني ، واعتليت تلة من الانقـاض لتتسنى لي رؤية أفضل . ورأيت ما يقرب من خمسة او ستة آلاف رجل يسيرون على عرض الشارع متتابعين مزدحمين الى درجة أنه لم يكن في وسعهم ان يحركوا ايديهم . وكان

يتبع هذا الجحفل الذي يتقدمه اربعة من الخيالة حاملين رماحاً لا يتجاوز طولها القدمين ، كان يتبعه خمسة عشر وعشرون جحفلا اخر من الخيالة والمجانة ، يحملون في أيديهم رماحاً ، لكنهم لم يكونوا يرفعون بيارق ، ولا يحملون طبولاً ، ولا أية أداة اخرى ، ولا شعارات عسكرية . وفيما كانوا يسيرون كانت تند من بعضهم صرخات قدسية البهجة ، وتسمع اصوات الآخرين رافعة الصلوات ، كل صوت على هوى صاحبه .

« وقد صعدوا في هذا النظام الى الجزء الأعلى من المدينة حيث اخذوا ينتظمون في كوكبات لدخول المسجد من باب السلام .

« وأقبل للقائهم عدد كبير من صبية المدينة الذين يعملون عادة كأدلاء للغرباء ، وقدموا لهم انفسهم ليقودوهم في الطقوس الدينية ، ولاحظت انه لم يكن بين هؤلاء الأدلاء اي رجل . كانت الكوكبات الاولى قد أخذت تطوف حول الكعبة وتقبل الحجر الاسود حين تقدمت كوكبات اخرى صاخبة وقد نفد صبرها ، واختلطت بالكوكبات الاولى ، فبلغت البلبلة أشدها فلم يعودوا يسمعون اصوات ادلائهم الاحداث . وعقبت البلبلة ضجة شديدة ، الجميع يريدون تقبيل الحجر الاسود ، ويزدحمون ، ويشق العديدون منهم طريقاً لهم بعصي يحملونها في ايديهم ، ولم يجد أية جدوى ، اعتلاء احد زعمائهم قاعدة قريبة من الحجر لاعادة النظام ، وذهبت صرخاته واشاراته ادراج الرياح لأن روعة بيت الله المقدسة التي كانت تلتهمهم لم تسمح بسماع صوت المنطق ، ولا صوت زعيمهم . ازدادت الحركة الدائرية بالدفع المتبادل ، وغدوا اشبه ما يكونون بجماعة النحل المحوّمة حول الخلية في بابلة ، يطوفون في غير ما نظام حول الكعبة .

« بعد اجراء مختلف المناسك حول المعبد ، كان على كل واحد ان يشرب من الماء العجيب ويرتش به ، ولكن بالنظر الى كثرة عدد

المتوجهين نحو البئر ، وإفراطهم في التسرع لم تلبث الحبال ، والسطول ، والبكرات ، ان اصبحت قطعاً قطعاً ، وبقي الوهابيون وحدهم سادة البئر ، فشكلوا حولها حلقة ، ممسكين بعضهم بأيدي بعض ، ونزلوا الى قعرها يجمعون الماء قدر استطاعتهم .

« ان البئر لتطلب صدقات ، وبيت الله اضاحي ، والادلاء اجورهم ، ولكن معظم الوهابيين لم يكونوا يحملون مالاً ، فوفوا ما عليهم باعطاء عشرين او ثلاثين حبة كبيرة من البارود ، وقطع صغيرة من الرصاص ، او بعض حبوب البن » .

« عندما عدت الى مسكني علمت ان فصائل اخرى من الجيش الوهابي كانت ما تزال تتدفق على مكة لتأدية فريضة الحج . ماذا كان يعمل شريف مكة في هذه الاثناء ؟ كان عجزه عن مقاومة هذه القوة القاهرة ، وخوفه من ان يهاجم ، قد اضطراه الى الاحتباس او الاختباء ، وكانت الحصون مزودة بالذخائر ، مستعـــدة للدفاع ، وكان الجنود العرب ، والاتراك ، والمغاربة ، والزنوج ، يلزمون مراكزهم ، وقد رأيت الحرس في القلاع ، ورأيت أبواباً كثيرة تسد بالحجارة ، وكان كل شيء قد هيء استعداداً للهجوم . ولكن اعتدال الوهابيين ، ومفاوضات الشريف ، جعلت هذه الاستعدادات غير ذات فائدة . »

لقد تمكن علي بك من مشاهدة الجيش بكامله عند النزول من جبــل عرفات لان « الوهابيين الذين كانوا قــد خيموا بعيداً جداً ، اخــذوا يقتربون ، وعلى رأسهم الملك سعود والقــائد ابو نقطة . ورأيت بعــد قليل من الوقت جيشاً مؤلفاً من خمسة وأربعين ألف وهابي يسير ، اكثر افراده يركبون جمالاً ، يرافقهم ألف جمل تحمل الماء ، والخيام والحطب للوقود والاعشاب الجافة لجمال القادة . وكانت فصيلة من مائتي خيــالة ترفع بيارق من ألوان مختلفة على رؤوس الرماح ، وقد قيل لي ان فصيلة

الخيالة هذه تخص القائد أبا نقطة . وقد لحظت سبعة او ثمانية بيارق بين راكبي الجمال ، لكن بدون طبول ، ولا ابواق ، ولا أية أداة عسكرية اخرى . وبما ان هؤلاء الرجال جميعهم كانوا في ثياب الاحرام ، وكذلك قادتهم ، تعذر عليّ تبين سعود وأبي نقطة . إلا أن شيخاً جليلاً ذا لحية بيضاء طويلة يتقدمه العلم الملكي بدا لي انه السلطان . وكان هذا العلم الاخضر يحمل الشهادة « لا إله إلا الله » منقوشة عليه بأحرف بيضاء ضخمة .

« وتبينت احد ابناء سعود من شعره الطويل المنسدل ، وكان ولداً في السابعة او الثامنة من عمره ، اسمر اللون ، يرتدي قميصاً طويلة بيضاء ، محاطاً بحرس خاص ، ممتطياً جواداً أبيض رائعاً عليه لبادة بدون ركابين ، حسب عادة الوهابيين الذين لم يكونوا يستعملون سرجاً سواها ، وكانت هذه اللبادة مغطاة بقطعة من القماش الاحمر الموشى الذي انتثرت عليه نجوم ذهبية .

« لم يلبث الجبل حتى اكتسى وما حوله من الارض بجموع الوهابيين وكان مشهدهم يملأ النفوس ذعراً . ولكن اذا ما تغلب الانسان على هذا الانطباع الاول ، وجد لديهم خصالاً حميدة : فهم لا يسرقون قط ، لا عن طريق القوة ، ولا عن طريق الحيلة ، الا اذا اعتقدوا ان المتاع يخص عدواً او كافراً ، وهم يؤدون اثمان كل ما يشترونه ، وأجور كل الخدمات التي تقدم إليهم ، بالعملة التي لديهم ، يطيعون زعماءهم طاعة عمياء ، ويتحملون صامتين كل انواع المشاق ، وهم على استعداد لأن يتبعوا قادتهم الى أقصى انحاء المعمورة .

« ان الحقيقة تفرض عليّ ان اعترف انني وجدت جميع الوهابيين الذين تحدثت إليهم على جانب من التعقل والاعتدال . وقد استقيت منهم كل المعلومات التي أوردُها عن مذهبهم . ولكن على الرغم من اعتدالهم ،

لا يستطيع السكان والحجاج سماع مجرد اسمهم دون ان تتملك الرجفة قلوبهم ، ولا يتلفظون به إلا همساً . لذا فان الناس يهربون منهم ، ويتجنبون التحدث إليهم قدر الامكان ، وكلما أردت التحدث إليهم كان عليّ ان اتغلب على كثير من الصعوبات التي يخلقها لي من يحيطون بي ».

والسبب الاول في هذه العداوة ان الناس لم يفهموا للوهلة الاولى المعنى الاصلاحي لهدم المزارات وتقويض أضرحة الاولياء التي كان المؤمنون يؤدون لها واجب الإجلال ، وقد كاد هذا الإجلال يتحول الى نوع من العبادة التي لا تجب إلا لله وحده .

★

وألغيت بعض العادات التي كان يتبعها الحجاج ، كالابقاء على خصلة من الشعر عند حلاقة الرأس وفقاً للتقاليد ، وحظرت زيارة بعض الاماكن المقدسة التي دخلت من قبل في تقاليد الحج . وهكذا هدم مزار جبل النور الذي تقول التقاليد ان الملاك جبرائيل أملى فيه على النبي اول سورة من القرآن ، وأقيم حاجز كبير في أسفل الجبل للحيلولة دون صعود الحجاج إليه لاداء الصلاة فيه . وكذلك هدم مزار جبل عرفات نفسه .

وقد طبق الوهابيون ، على عكس ذلك ، نصوص الشريعة كما وردت في القرآن الكريم ، تطبيقاً مشدداً بحماسة كلية ، حتى ان احداً من الحجاج لم يجرؤ على التدخين . وأرسل سعود قاضياً وهابياً ليحل محل الحاكم الزنجي الذي كان قد عينه الشريف في مكة . ومنذ ذلك الحين ساد المدينة نظام جديد . فقد عهد الى الشرطة الخاصة بالمحافظة على مواعيد الصلاة ان تجوب المدينة لحمل الناس على حضور الصلاة العامة خمس مرات في اليوم . وكان الصناعيون والتجار يجدون انفسهم مضطرين الى ترك مشاغلهم وحوانيتهم لاداء تلك الفريضة .

ولما عاد علي بك الى القاهرة خرج للقائه عظماء المدينـة ، واستقبلوه استقبالاً حافلاً جديراً بمقامه الرفيع .

لقد عاد حاملاً لأوروبة معلومات جغرافيـة ثمينة ، وكشفاً دقيقـاً واعياً لسر الحج الى مكة ، واخيراً الشهادة التي كان في وسع احد ابناء أوروبة ان يأتي بها عن وهابيي تلك الحقبة ، حقبة بلوغهم أوج العز .

ولكن الايام لم تلبث ان قلبت للوهابيين ظهر المجن ، فعـانوا الاندحار ، وكان خلفاء علي بك الذين سيؤمون شمالي الجزيرة العربيـة ، سيلقونها خاضعة لسلطة مصر .





سيتزن وبوركهارت
البدو والمدن المنقرضة في العربية البتراء

اخذت منطقة جديدة من شبه الجزيرة العربية تفرض على الأوروبين الالتفات اليها في اوائل القرن التاسع عشر ، لا على رجال السياسة منهم بل على اعضاء الجمعيات العلمية والادبية .

فقد هام فولني الاديب الشاب الذي كان يتوسم له بمستقبل باهر ، برحلة الى مصر وسورية بين سنتي ١٧٨٢ و ١٧٨٦ ، واعتبرت القصة التي كتبها عنها أبرز ما كتبه . وكان قــد فكر مثل غيره من المسافرين بالتوغل في المنطقة السورية الفلسطينية المتاخمة لشبه جزيرة العرب ، التي لم يكن احد ليجرؤ على المغامرة بدخولها خوفاً من البدو ، وهي العربية البتراء التي كانت تمتـد ما وراء الخط الروماني المحصن الذي عفـا اثره . ولكن الناس كانوا يعلمون ، رغم ذلك ، ان لا بد ان تكون فيهـا اطلال مدن قديمـة ، نشأت فيا مضى من حركة القوافـل التجارية بين جنوبي الجزيرة العربية والهلال الخصيب . وكان الناس يعرفون من المصادر اليونانية واللاتينية اسماء هذه المدن التي ازدهرت في مطلع القرن الاول

للبلاد كبراءة ، ولا سيما تدمر التي تمكنت ملكتها زنوبيا من تحدي السلطة الرومانية ، ومدت سلطانها من الفرات الى شواطىء البحر الابيض المتوسط ، ومن الصحارى العربية الى قلب آسيا الوسطى . ولكن فولني ، بالاضافة الى ذلك ، سمع العرب يقولون ان على مسيرة ثلاثـة ايام من البحر الميت ، في تلك المنطقة التي تحمل على الخارطة اسم العربية البتراء ، ثلاثين مدينة خربة مقفرة كلياً من السكان . وقد قيل له ان بعض هذه الابنية ذات أعمدة ما تزال قائمة ، وان البدو يأخذون إليها مواشيهم في بعض الاحيان ، ولكنهم يتجنبونها لكثرة العقارب الضخمة فيها . فاستنتج فولني ان تلك الخرائب لا بـد ان تكون اطلال مدن المنطقـة التي اشتهرت في التوراة ، باسم آدوم ، وعرفها المؤلفون الاغريق باسم ايدومة .

فآدوم في العهـد القديم موطن سلالة عيسو . وكان ايوب يقيم غير بعيد من هنالك ، بقطعـان مواشيه العديدة المزدهرة ، فنكبته غزوات السبئيين بالافلاس .

كانت ايدومة قد بلغت ذروة مجدها في العهد الروماني ، فقـد تغنى فيرجيل ولوكان بنخيلها . ولكن ايدومة هذه ، او آدوم ، ليست سوى العربية البتراء كما اسماها الجغرافيـان الاغريقيـان سترابون وبطليموس . وقد خيل للبعض انهـا سميت بهذا الاسم لان لفظة « بترا » في اللاتينية معناها الحجارة ، ولكنها في الحقيقة دعيت بهذا الاسم لأنهـا كانت محاطة بجبال صخرية كبيرة .

نجد الوصف التالي لها لدى المؤرخين ديوروس ، وبلين ، وسترابون : انها مدينة محاطة بأراض صحراوية لا يجتازها إلا السكان المحليون دون التعرض للخطر ، لمعرفتهم بمخابيء الآبار ، وهي محصنة تحصيناً طبيعيـاً بحاجز من الصخور ، وهوات سحيقة ، غنية بينابيع ممتازة للشرب وري البساتين معاً .

في الكتاب الذي أصدره الدكتور و . فنسان سنة ١٨٠٧ عن تجارة الاقدمين في المحيط الهندي ، استنتج ان قوافل المعينيين في داخل الجزيرة العربية ، وجرّة الواقعة على الخليج العربي ، وحضرموت الواقعة على المحيط الهندي ، وسبئيي اليمن ، كانت تتجه طوال اجيال عديدة نحو بترا كمركز مشترك لهم ، وان التجارة كانت تتفرع منها نحو مصر ،وفلسطين وسوريا ، وعن طريق ارسينوه (الفيوم) وغزة ، وصور ، ومقدس ، ودمشق باتجاه البحر الابيض المتوسط .

وقد حاصرها القائدان بومبيوس وتراجان دون ما طائل لكونها مدينة حصينة . ثم غدت مدينة ميتة ، اتخذت تحت احجارها العقارب الضخمة مخابىء لها . ألا ما اكمل ما تحققت لعنات الانبياء التي صبوها على ايدوم المتكبرة :

هكذا تكلم الرب يهوه
حين ترتقش الارض كلها ،
سأجعلك يبابا
ستكتسح يا جبل سعير
وكذلك ايدومي كلها .

(حزقيال ١٥ - ٣٥)

لأنني ها قد جعلتك صغيرة بين الامم
مقيتة بين الناس
لقد أضلك الذعر الذي كنت توحين به
وكبرياء قلبك ،
انت التي تقطنين تجاويف الصخور
وتشغلين أعلى التلة
ولكن عندما تجعلين مقرك عالياً كعش النسر

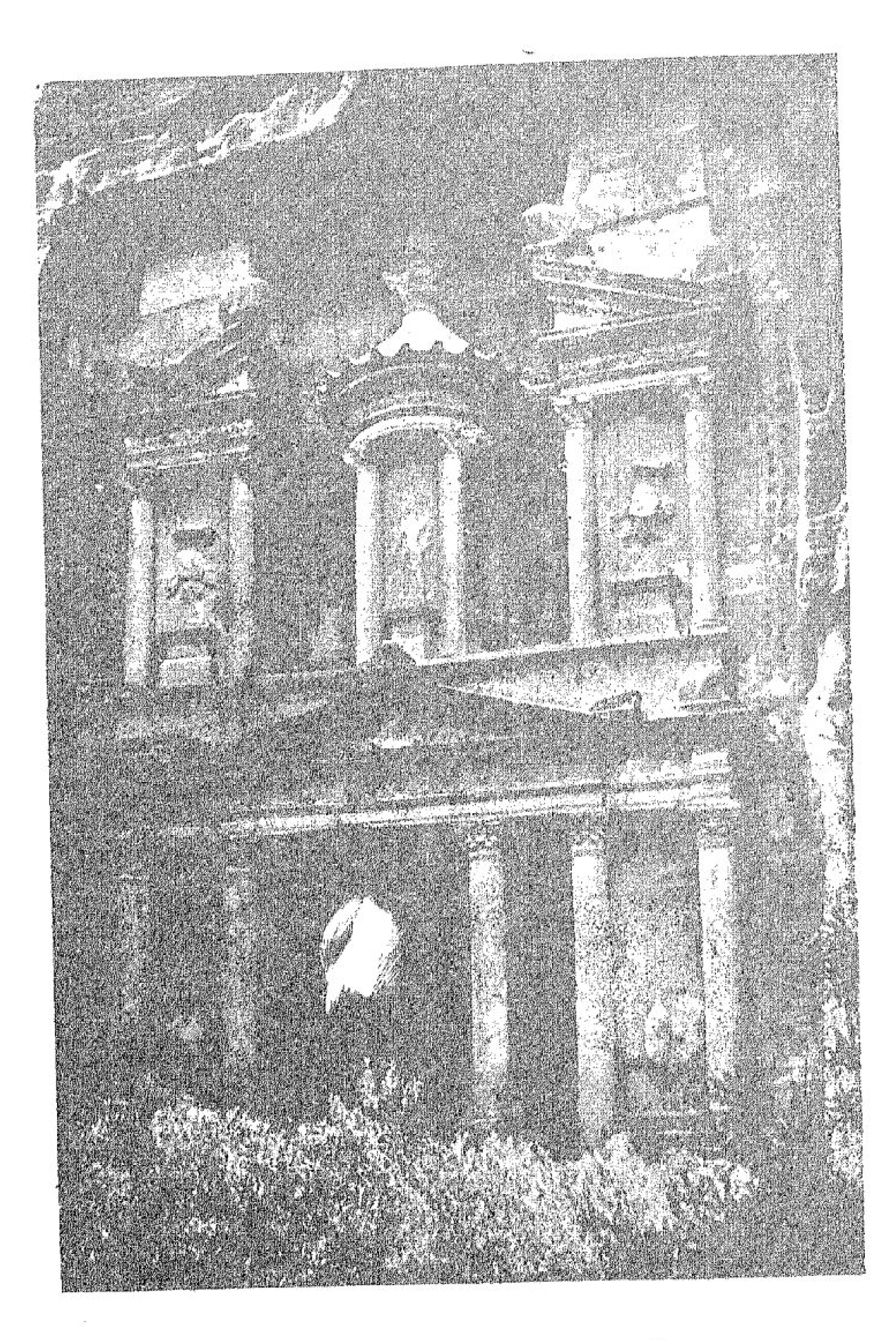
سأتيك من هناك – هاتف من يهوه :
ستستحيل آدوم موضع ذهول ،
وسيصفر العابر المدهوش امام أطلالها ..
لن يسكنها أحد
لن يبيت فيها اي ابن بشر .

(ارميا ص ٦٩ ، ١٥ – ١٨)

من جيل الى جيل ستظل حزينة :
ولن يمر فيها أحد البتة .
ستصبح مقراً للبوم ومالك الحزين ،
وسيسكنها الصدى والغراب .
سينشر عليها يهوه ،
حبل الخواء وميزان الفراغ
لن يكون فيها عظماء ينصب منهم ملك
وستقطع شأفة الامراء جميعهم
ستنبت الاشواك في قصورها
والعوسج وشوك الجمال في قلاعها ...
سيلتقي فيها الكلاب والمردة المتوحشة ،
وسيتنادى إليها متوحشو الغابات
هناك ستعشش الأفاعي وتبيض
وستفرخ وتجمع صغارها في ظلها .

(إشعيا ص ٣٤ ، ٩ – ١٥)

ولن يبقى احد حياً من بيت عيسو
لأن يهوه قد تكلم . (عبدياس ١٨)



مشهد من آثار بترا تصوير البعثة الأثرية الفرنسية سنة ١٩١٤

ما زلنا نجهل كيف أصاب الخراب بتراء الآدوميين بعد ايام الانبياء بزمن قصير . ولكن من المعروف ان الانباط استقروا فيها في القرن الخامس قبل الميلاد . وها هي ذي اللعنات تغدو حقيقة من جديد وإلى ما شاء الله . ولم تكن هناك مدينة البتراء العاصمة وحدها ، بل كانت مدينة ديدان في الجنوب على طريق القوافل الصاعدة الى العربية السعيدة ، فالخرائب التي ظنها دي فارتيما اطلال سدوم وعمورة ، كانت خرائب مدن القوم الذين « عاقبهم الله بأعجوبة منه » .

كانت هذه العربية البتراء مزمعة ان تجتذب منذئذ رغبة العلماء الحارة في المعرفة . وقد جاء الى شواطىء سورية بالتتابع سنة ١٨٠٢ وسنة ١٨١٠ بقصد الدخول الى هذه المنطقة ، الرائدان ستيزن وبوركهارت . والتطابق بين مصيريهما مدهش حقاً . لقد أنهى كل منهما دراسته في جامعة غوتنجن ، وتثقف كل منهما خصيصاً كي يغدو رائداً ، ولم تكن الرحلة بالنسبة الى كل منهما إلا مقدمة الى اعمال اوتياد اوسع نطاقاً ، وقد سعى كلاهما الى رؤية الاشياء ذاتها ، وقاما بإتمام منهج رحلات واحد . على ان الموت الذي ترك لاحدهما بعض الوقت فقط ، لتدوين قصته ، لم يحرمنا مما كان يتوقع الآخر من مستقبل لامع ، ومن كل الملاحظات التي خطها عن رحلاته ، متيحاً بذلك لاحدهما ان يحرز الشهرة التي يحتمل ان الآخر كان أجدر بها منه .

كان اولريخ ياسبار ستيزن اول من قام منهما برحلته . لقد رأى النور في فريز الشرقية ، واصبح بعد انجاز دراسته ، مستشاراً مستمعاً في احدى الامارات الالمانية الصغيرة التابعة آنئذ لقيصر الروسيا . ولكن بما أنه كان يحلم بأن يغدو رائداً ، فقد جدّ في ان يحصل على الثقافة اللازمة لذلك . وتمكن من ان يحصل على حماية فون زاخ القائد الأعلى في بلاط ساكس غوتا ومحرر المجلة العلمية المعروفة بـ « الرسالة الجغرافية والفلكية » لكونه عالماً نباتياً شهيراً ، ومدققاً ممتازاً ، ومتضلعاً من اللغة العربية .

ولقي في الوقت ذاته تشجيعاً من الحكومة الروسية التي كانت خطته في زيارة آسية الوسطى ملائمة لمصالحها ، فغادر المانية قاصداً سورية في سنة ١٨٠٢ .

لقد أراد بادىء ذي بدء ان يبلغ خرائب مدينة جزاره القديمة التي كانت تمر فيها القوافل . ولكن البدو ضللوه بدافع الحذر ، قبل ان يبلغ هدفه . الا انه شاهد واجتاز تلك المناطق التي كانت تخبىء لعلماء الآثار الكثير من بقايا ذلك الازدهار العريق في القدم ، وتجارة القوافل التي كانت في عهد الرومان تملأ تلك المناطق الموحشة حياة ، مناطق اللجا ، وحوران ، حيث يلاحظ « ان كل قرية تحوي إما كتابات اثرية يونانية ، او اعمدة او بقايا اخرى من العصور المتقادمة العهد . » بلاد غريبة لا يظهر للعين فيها « الا الحجارة الصوانية المسامية في اغلب الاحيان ، التي تشكل في اماكن كثيرة صحارى شاسعة من الحجارة والقرى المتهدمة واقعة ، على الغالب ، على سفوح صخرية ، ولون الحجــارة الصوانية الاسود ، والمنازل ، والكنائس ، والأبراج المتهدمة ، وانعدام الاشجار والخضار الكلي ، يضفي على هــذه المناطق مشهداً قاتماً كئيباً يبعث في النفس الذعر » .

في السنة التالية (١٨٠٦) وجد ستيزن دليلا من اتبــاع المذهب الارثوذكسي كان قد عاش ابتداء من الخامسة عشرة من عمره ، ثلاثين عاماً بين افراد عشيرة عنزة ، يرافق احد تجار دمشق في بادىء الأمر ، ثم يتعاطى التجارة لحسابه الخاص .

خلال الجولات التي قام بها برفقة هذا الرفيق البارع ، سأله ستيزن عن قبائل البدو في المنطقة كلها ، وكانت هذه المحادثات مثمرة الى درجة انه ما كاد يصل الى القاهرة حتى أفاد من اوقات فراغه فدوّن لنا كتاب « بحث يصلح للتعرف الى قبائل البدو العربية في سورية ، والعربية القفراء ، والعربية البتراء » وهو المؤلّف الوحيــد الذي خلفه لنا بنتيجة رحلته الارتيادية .

لقد جال بصحبة دليله ، المنطقة الواقعة ما وراء البحر الميت ، وبلغ حدود شبه الجزيرة العربية حيث كان يريد اكتشاف موقع مدينة البتراء القديمة .

وتجول في المنطقة كلها غير وجل ، ولكنه ، على الرغم من قربه الكلي من البتراء لم يتمكن من الاهتداء إليها .

ولكي يفهم القارىء درجة الصعوبة التي تبلغها العقبات التي تعترض مثل هذه الرحالة ، يجب ألا يتذكر وحسب طبيعة منطقة آدوم الصحراوية في الوقت الحاضر التي لا يستطيع المسافر ان يتعرض للمغامرة فيها من غير دليل ، بل يجب ان يدخل في حسابه ايضاً الافكار المسبقة التكوين لدى البدو الذين ينتقي من بينهم الدليل .

وقد وجد بوركهارت دليلاً كهذا بعد مرور بضع سنوات على ذلك وكتب يقول : « من المؤسف ان فكرة الكنوز الدفينة في الابنية القديمة ، راسخة عميقاً في اذهان العرب والاتراك . فهم لا يكتفون بمراقبة كل خطوة يقوم بها المسافر ، بل يعتقدون انه يكفي الساحر الحقيقي ، ان يرى ويتفحص الاماكن التي أخفيت فيها الكنوز — التي يعتقدون ان له علماً مسبقاً بها من مطالعته للكتب القديمة التي وضعها الكفار الذين كانوا يقيمون في هذه الاماكن — كي يصبح قادراً على ان يصدر متى شاء امراً الى الجني حارس الكنز ، بإحضاره الى ما بين يديه ، وإذا قاس المسافر أبعاد احد الأعمدة ، اعتقدوا ان ذلك العمل طريقة من الطرائق السحرية » واذا ما أضيف الى ذلك شعور الحذر الذي يشعر به البدو تجاه اماكن الكفار الملعونين ، التي تختبىء فيها العقارب ، أدرك القارىء الصعوبة الكبرى التي لقيها ستيزن في العثور على من يدله عليها .

وقد اضطر ستيزن الى الاكتفاء بالوصول الى جبل سيناء من طريق لم يسلكها احد من قبله . ثم عاد الى القاهرة عن طريق السويس .

وهناك ، لكي لا تسد طريق المدن الاسلامية في وجهه ادعى علناً انه مهتد حديثاً الى الاسلام ، وانه راغب في اتمام تنشئته الدينية . فأدى في الثالث من شهر تموز (يوليو) من سنة ١٨٠٩ شهادة اعتناقه الاسلام علناً . واستطاع آنئذ ان يرافق قافلة الحجاج الذاهبة من القاهرة الى مكة ، فوصلها في العاشر من تشرين الاول (اكتوبر) . وكل ما نعرفه عن رحلته ما ورد في الرسائل التي كان يوجهها الى فون زاخ الذي كان قد شمله بحمايته .

وبينما كان يسلك الطريق الى ميناء ينبع حاول ان يبحث عن خرائب ادومية اخرى ، كمدائن صالح التي عرف من العرب ان فيها آثاراً هامة ، ولكن دليله حمله على التخلي عن تلك الفكرة لما فيها من الاخطار .

وقد قام في احدى رسائله بوصف مكة وجماهير الحجاج وصفاً رائعاً ، وكان أسعد حظاً من علي بك إذ تمكن من بلوغ المدينة التي كان يؤمها الحجاج سراً لأن الوهابيين الذين كانوا ما يزالون يحكمونها قد حظروا يومذاك زيارة اي مكان آخر غير مزارات الحج في مكة . فرسم مخطط البلدة بعض الرسوم .

وأبحر في السادس والعشرين من شهر اذار (مارس) من سنة ١٨١٠ الى جدة للوصول الى اليمن . وقد نزل الى اليابسة في ميناء الحديدة في ٨ نيسان (ابريل) حين كانت المرافىء كلها خاضعة لسلطة شريف ابي عريش لا لسلطة إمام اليمن . وقد لاحظ أن بيت الفقيه قد حل بمعظمها الخراب . فاجتازها الى زبيد الشهيرة بعلمائها والتي كانت قد فقدت الكثير من لألائها . وتوجه إلى دوران بطريق حَجَّة ، وقسمة ، وسلفيجي ، ومكث فيها شهراً واحداً ملازماً الفراش بسبب مرضه . واخيراً وصل الى صنعاء في الثاني من شهر حزيران (يونيه) .

هناك وطد العزم على البحث عن الكتابات الأثرية التي ذكر خبرها

نيبور ، فأخذ يسعى للعثور على ضرف هدافة الذي اتى نيبور على ذكره . ولكن ، ما من احـــد كان يعرف عنه شيئاً . فسعى هو بنفسه حتى وصل الى ظفار التي بدا له انها المكان الذي اساء نيبور فهم اسمه ، وكانت عاصمة الملوك الحميريين القديمـــة ، وفقاً لما كتبه المؤلفون الاغريق . ولم يتمكن من ان يجد فيها خرائب ، لكنه عثر على قليل من الكتابات الأثرية ، اثنتان منها على حجارة استعملت للمرة الثانية في بناء بعض الجدران، واشترى الثالثة في مكان أبعد ، ولحظ خمس احجار اخرى في منكث مستعملة في احد جدران المسجد .

بعد ان وصل الى المخا كتب الى احد من بسطوا عليه حمايتهم ليهدي إليه باكورة هذه التحفة العظيمة . فقد أرسل إليه نسخاً ، تصعب قراءتها في الحقيقة ، عن أربع كتـــابات أثرية قام بنسخها من غير ان يلحظه احد ، ورسماً متقناً وامیناً جداً للحَجَرة التي كان قـد اشتراها . بفضل هذه الرسالة ، عرفت أوروبة للمرة الأولى ما هي الكتابة الأثرية الحميرية . وبقي ستيزن لا أول من رأى بأم العين كتابات معبد مأرب الأثرية لأن الأب باثر كان قد شاهدها من قبله ، بل أول من استفاد من رؤيتها .

وكتب أيضاً من المخا ، آخر رسائله الى فون زاخ .

من هناك ، أراد ان يتجه براً الى العربية الوسطى والخليج العربي . فـسلك طريق اليمن الداخلية ، ثم عاد من الطريق التي سلكهـــا مثيراً الشبهـات ، مرتكباً خطأ فادحاً . فاكتشفت مجموعته الخاصة بالتاريخ الطبيعي وصودرت ، بحجـــة انه يستخدم هـذه الحيوانات الميتة لاجراء عمليـات سحرية تنضب الينابيع . فأراد أن يسرع بالذهاب الى صنعـاء ليقدم شكوى الى الإمام . ولكنه توفي مسموماً في تعز ، في كانون الاول (ديسمبر) من سنـة ١٨١١ ، وظُن ان الامير هو الذي أمر بذلك . وعُرف من رسائل كونستان التي يرجع تاريخها الى اواخر سنة



اولريخ جاسبار ستيزن

١٨١٥ ان الإمام احتبسه ظناً منه انه سيجد كنوزاً بين أمتعته وأنه دهش كل الدهشة لعدم عثوره إلا على بعض الأدوات الفلكية ، والاعشاب المجففة ، والكتب ، ومبلغاً زهيدا بلغ ستمائة قرش .

★

لقد فقدت المجموعات والملاحظات والدفاتر وكل شيء ، وكان الاخفاق خاتمة لرحلة ستيزن التي كانت مهيأة ليفيد منها العالم أعظم إفادة .

على ان رحالة آخر كان مزمعاً ان يسير على آثار ستيزن ، وان ينجح في كل مكان فشل سلفه فيه . فبعد انقضاء سبع سنوات على ذلك ، تأثر خطاه ، يتبعه اتباع الظل لصاحبه ، فنجح التابع الحي ، في حين ان المتبوع كان قد دخل عالم الأرواح .

وُلد جوهان لودفيغ بوركهاوت سنة ١٧٨٤ في لوزان ، وبعد أن أنهى دراساته في لايبزيغ ، ثم في جامعة غوتنجن التي درس فيها ستيزن ، توجه الى بلاد الانكليز ، ودفعته رغبته في تكريس نفسه للارتياد الى عرض خدماته على الجمعية البريطانية الافريقية فقبلتها .

أخذ عندئذ يدرس العربية ، والكيمياء ، والطب ، ويتمرن في الوقت ذاته على قطع مسافات طويلة سيراً على القدمين ، في الشمس ، مكشوف الرأس ، يفترش الارض ، لا يأكل إلا الخضار ولا يشرب إلا الماء .

في شهر اذار (مارس) من سنة ١٨٠٩ ، فيما كان ستيزن يكتب في القاهرة مذكراته عن البدو منتظراً سفر القافلة الى مكة ، غادر بوركهارت بلاد الانكليز متوجهاً الى سورية ليقوم بزيارة المناطق المتاخمة لشبه الجزيرة العربية ويجمع المعلومات عن البدو ، وليذهب بدوره لاكتشاف البتراء ، بعد ان أضاف الى جهوده في التمرس الجسدي ، على حياة العرب الحقيقية ، جهوداً ذهنيـــة مضاعفة للاطلاع اطلاعاً وافياً على القرآن وشروحه التي كتبها كبار علماء الدين المسلمين ، الى درجـــة انه لم يتمكن فقط من

الظهور بين الناس باسم الشيخ ابرهيم المسلم ، بل من ان يشتهر بكونه عالماً عظيماً في شؤون الاسلام .

قضى سنتين يتنقل خلالها على التخوم السورية العربيـة يجمع المعلومات عن البدو . وبعد ان اختتم زيارته لشبه جزيرة العرب ، وعاد الى القاهرة، اضطر الى اللجوء الى سيناء هرباً من وباء الطاعون الذي كان منتشراً في مصر ، وهناك أتمَّ تمرسه بعادات البدو بعيشه بين ظهرانيهم .

وعلى غرار ستيزن ، أصدر ملاحظاته في كتـــاب اكثر تفصيلاً من كتاب سلفه اسماه بكل تواضع « ملاحظـات عن البدو والوهابيين » . والمطابقة بين « بحث » ستيزن و « ملاحظات » بوركهارت شديدة واضحة الى درجة انه لا يمكن التصديق ألا يكون بوركهارت قـد اطلع على كتاب ستيزن الذي طبع منذ سنة ١٨١٠ ، فحذا حذوه ، بحيث أدى الكتابان الى نتيجة مشتركة واحـدة ، فملاحظات احدهما الغنية الدسمة ، ليست سوى توسيع لبحث الآخر .

على انه من الواجب الاعتراف بأن بوركهارت قد أوغـل في البحث أبعد مما فعله ستيزن بكثير . فقد تمكن دفعة واحدة ، من ان يقدم لوحة عن المجموعات القبلية ، والميزات السياسية الخاصة بكل منهـــا ، وعن حالتها الاقتصادية ، وتنظيمها الاجتماعي ، ومبادئها الاخلاقية ، وعاداتها . ان ما وضع ستيزن له إطاراً ، قام بوركهارت بالتنقيب العميق عنه بعناية ودقة واعية الى درجة ان في الامكان ان يعزى له الشرف في اكتشاف المجتمع البدوي اكثر من اكتشافه ابتدا . فهو لم ينظر الى هذه الاخيرة الا سطحياً في حين انه أثار الاولى إثارة نهائية .

لا شك في ان دارفيو رأى كل ما هو اساسي وذكر عنه ، ولكن لكي يدرك المرء كل ما كان قد تبقى للملاحظة والفهم ، يجب ان يقرأ ملاحظات الرحالة السويسري ، الذي رأى البدو الاقحاح ، غير الخاضعين

لأي نفوذ تركي .

وهؤلاء البدو يمتـازون عن بدو اواسط شبه الجزيرة العربية بأنهم يقيمون في المناطق المتاخمة لسورية وفلسطين ، وان القافلة التي تتجه في كل سنة من دمشق الى مكة تمر في اراضيهم ، مدرة عليهم نوعاً من الوارد خاصاً بهم ، سبق لستيزن ان لاحظه .

والبدوي ، بحكم كونه مرهوب الجانب ، يتقاضى نوعاً من الخوة من القرى المجاورة لحدوده التي تشتري أمنها بضريبة تؤديها سنوياً ، كما يتقاضاها من قافلة الحجاج او من عابري السبيل العادين . ان خازن والي دمشق يرافق القافلة ، ولا يكاد يبلغ مذيريب حتى يجد فيها شيوخ القبائل المذكورة اسماؤهم في قائمـة اصحاب الحق في صرة السلطان مجتمعين ، فيوزع عليهم هـذا الاستحقاق السنوي الثابت الذي يدفعه لهم سيـد القسطنطينية الأعظم . اما القبائل التي لا ينال شيوخها الصرة ، فانهـا تتلقى منحاً من الحبوب والدراهم والثياب ، تعويضاً لهم عن مرور القافلة في اراضيهم .

ويجب على عابر السبيل العادي ان يؤدي رسم مرور ، وإذا ما طلب مرافقـاً فينبغي ان يدفع لمرافقه مبلغـاً يتفق عليه فيما بينهما . وإذا ما أراد بعض التجـار الدخول الى اراضي قبيلة ما ، وجب عليهم ان يجدوا « اخوة » في القبيلة يقدمون لهم منحة سنوية ويدفعون لهم نقداً ثلاثـة قروش عن كل حمل جمل يدخل الى اراضي القبيلة .

ولكن قيمة البدوي الحربيـة تجعل منه حاميـاً كفؤاً . لذا فان القبائل تتعهد مقابل هذه الرسوم ، ان تحمي دافعيهـا من كل الاخطار ضمن حدود اراضيها ، ان السلامة تشترى منهم شراء ، ولكنها سلامـة مضمونة .

وتتكشف لبوركهارت بدوره الحالة القائمـة التي سبق لدارفيو ان

لاحظها ، فعشيرة الفحيلي ، مثلاً ، تؤدي ضريبـــة سنوية لباشا دمشق عوضاً من ان تتسلم منه الصرة ، ولكنها لا تفعل ذلك إلا لكي يسمح لها الوالي باستيفاء ضريبة من عرب اللجا ، ويقدم لها بعض الجنود لمؤازرتهـا في هذا العمل ، فهذه المنطقة تحتوي على مخابىء حصينة ، ولا يلتئم شمل القبيلة إلا في فصل الصيف حين يضطرها نقصان الماء الى ذلك ، ويتيسر عندئذ استيفاء الضريبة منها .

وتختلف احوال القبائل بعضها عن بعض . فالقوية منهـا تتقاضى صرة عظيمة توزع قسماً منها على قبائـــل اخرى ، فقبيلة الحويطات مثلاً ، تستهلك كميات كبيرة من الأنسجة والمواد الغذائية ، الى درجة انهـــا افتتحت خاناً خاصاً بها في القاهرة ، يحل فيه افرادها حين يجيئونهـا في قافلة جمال سنوياً ، قاطعين صحراء سيناء لشراء حاجياتهم .

وبعض القبـــائل تعتبر نصف تجارية . فقبيلة النعيم مثلاً تنقل فحم الحطب الى دمشق وتدفع الجزية للوالي ، وقد اشتهرت بحسن اخلاقها .

على ان بينها قبائل محرومة من الارث ، ففي سهل الحامض على ما يذكر ستيزن « قبائل صليب العربية التي تعيش حياة همجية مطلقة ... فكل أسرة فيها تنفرد عن الاخرى وتشغل بقعة قطر دائرتها بين اربعة وخمسة فراسخ . يكتسي رجالهـــا ونساؤهـا بجلود الغزلان وغيرها من الحيوانات ، ولا يعيشون في خيـام ، بل في مغـــاور او حفر كبيرة يحفرونهـا في الارض ، ولا يربون لا خيلاً ، ولا إبلاً ، ولا غنماً . على ان لكل أسرة حماراً واحداً يحمل عليه محصول القنص الذي يجنيه الرجل المسلح ببندقية ، والمسؤول عن إعالة الأسرة بكاملهـا . ولا يعرف معظم هؤلاء الاعراب طعاماً غير لحوم الطرائد ، وإذا زاد شيء منها عن حاجتهم جففوه واحتفظوا به . على انهم يجمعون ريش النعام الذي يبادلونه في اقرب مكان معمور ، ولا سيا في منطقة حوران ، بالبارود والرصاص ،

وحجارة البنادق والكبريت ، والقمح » .

يذكر بوركهارت ، بعد ستيزن ، بعناية فائقة ، اسماء القبـائل الكبيرة ، وأفخاذ العشائر في كل منطقة ، ومنزلة كل منهـا الخاصة ، حسب عدد رجالها القادرين على حمل السلاح ، وعدد الخيام فيها ، والبنادق في كل خيمة ، والخيل والإبل . ويـذكر ان بعض القبائل خاضعـة لسلطة الوهابيين وبعضها حرة ، وأن القبائل الاولى تؤدي للعاهل السعودي جزية سنوية تسمى « الزكاة » الغاية منها نشر الدعوة الدينية .

وهو يسجل الكثير من المعلومات عن طرائق القنص لديهم – بالبزاة او بنوع من الهررة البرية المروّضة ، وعن اسلحتهم ، وملبسهم ، واثاثهم ، ومآكلهم ، والامراض المنتشرة بينهم ، وعاداتهم ، والقضاء عندهم .

وتتضمن روايته تفاصيل دقيقة الى درجة تصبح فيهـا خيمة البدوي في نظر القارىء عالماً مألوفاً ، فيعرف كلاً من اعمدتهـا التسعة باسمه ، والقطع المضافة إليها لتقويتها ، وقطع القماش المتدلية من أركانها ، وسوية الحبال ، ويطلع على تنظيم المسكن الدقيق ونظـامه ، فالخيمة تقسم الى قسمين ببساط طويـل من الصوف الابيض المنقوش ، قسم للرجال في الجهة اليسرى ، وآخر للنساء في الجهة اليمنى . وقسم الرجال مكسوة أرضه بسجادة عجمية او بغدادية . وقد كومت اكياس القمح والامتعة التي تشكل احمـال جمال حول العمود الاوسط بشكل هرم . وجلال الجمال التي يستند إليها الجالسون توضع بين هذا الهرم وحاجز المؤخرة ، لأن وضعها قرب مدخل الخيمة يعد اخلالاً بواجب الاحترام واللياقة .

اما قسم النساء فمستودع لأدوات الطبخ والزبدة وقِرَب الماء ، وسائر الاشياء الحقيرة ، الموضوعة كلهـا قرب العمود المعروف بالخاضرة حيث يجلس العبد وينام الكلب اثناء النهـار . ويتقدم طرف غطاء الخيمة دائماً من جهة قسم النساء ، ويظل متدلياً خافقاً في الريح ، ويعرف

هذا الركن بالرواق . ولا يسمح اي رجل يضن بسمعته ، لنفسه بالجلوس تحت هذا الركن ، ومن ثم الاهانة المعروفة : « مكانك تحت الرواق » التي تدل على انحطاط اخلاق من توجه إليه .

لا تنصب الخيام لاكثر من ثلاثة او اربعة ايام على الاكثر ، ويتألف المخيم من ثماني خيام الى ثمانمائة خيمة حسب الظروف . ففي فصل الشتاء حين يكثر الماء والمرعى ينتشر افراد العشيرة في السهل جماعات جماعات تتألف كل منها من ثلاث او اربع خيام ، يفصل بين الجماعة والاخرى مسيرة ساعة ونصف الساعة .

والمخيم الكبير على نوعين : الدوار إذا كانت الخيام قد نصبت بشكل دائرة ، والنزل إذا كانت منصوبة في خطوط . وتنصب الخيمة دائماً من جهة الغرب ، وهي الجهة التي يتوقع قدوم الأعداء والضيوف منها . ومقاومة الاعداء واستقبال الضيوف ، من مهام الشيخ الرئيسية ، وبما ان العوائد تقضي بأن يتوقف الضيف لدى اول خيمة في المخيم ، يجب ان تنصب خيمة الشيخ في الجهة التي يأتي منها اكبر عدد ممكن من الغرباء ، حتى انه من العار على رجل غني ان ينصب خيمته في جهة الشرق .

إن ميزة الشيخ الحقيقية ، بالفعل ، ليست الميزة التي يُعرف بها الزعيم الغربي . وليست قوته وامتيازاته شبيهة بما نستطيع تصوره نحن . يقول بوركهارت : « لا سلطة حقيقية للشيخ على افراد قبيلته ، على الرغم من ان المناقب الشخصية التي يتحلى بها تمكنه من فرض سلطة هائلة ، فعدم إطاعة اوامره شيء ممكن ، إلا أن آراءه محترمة كل الاحترام ، فيما اذا كان يُنظر إليه كرجل بارع في الشؤون العامة والخاصة . »

يحاول الشيخ ، في حالة وقوع نزاع ان يحله ، ولكنه لا يستطيع

ان يفرض شيئاً بصدده . « لا يمكن إقناع العربي الا عن طريق اهله ، وإذا ما أخفق اهله ، نشبت الحرب بين الأسرتين واقرباء كل منهما ، ومن ثم يعلن البدوي صادقاً انه لا يعرف سيداً إلا سيد الكون الاعظم . فشيخ عنزة ، في الحقيقة ، عاجز عن فرض أخف عقوبة على فرد من افراد عشيرته ، من غير ان يعرض نفسه لثأره وثأر اقربائه ثأراً دموياً . لذلك لا يجب اعتبار الشيخ او الامراء - كما يسمي البعض انفسهم - كأمراء حقيقيين في الصحراء ، فإن الميزات التي يتمتعون بها تنحصر في قيادة العشيرة في محـاربة العدو ، والقيام بمفاوضات الصلح والحرب ، وتحديد مواقع النجوم ، وإطعام كبار الغرباء ، وهـذه الميزات بدورها محدودة جداً . فلا يستطيع الشيخ ان يعلن الحرب ، وان يتعاقد على الصلح ، من غير استشارة أكابر القبيلة ، كما ان عليه قبل ان يأمر بانتقال المخيم من مكان الى آخر ، استشارة القبيلة عن سلامة الطرق ، وكمية المرعى ، والماء في المناطق التي يريد الانتقال إليها . ان اوامره لا تطاع ابداً ، ولكن الناس يقتدون به عادة !

« وليس للشيخ أي دخل سنوي من القبيلة او المخيم . لكنه مجبر ، على العكس ، حفاظاً على كرامته ، على تكبد نفقات طائلة ، وعلى اكتساب الثقة بأعمال الجود ، وتحقيق ما يتوقعه منه افراد القبيلة عموماً، عليه أن يقدم الطعام للغرباء بصورة افخر مـا يستطيع اي فرد من افراد العشيرة ان يفعله ، وإعالة المحتـاجين ، واقتسام الهدايا التي تقدم إليه مع اصدقائه ، اما الوسائل التي تمكنه من تحمل هذه النفقـات فهي استيفاء الجزية من بعض القرى السورية ، ومداخيله من قوافل الحجاج الى مكة .

« واذا مات احد الشيوخ ، خلفه احد ابنائه ، او اخوه ، او احد اقربائه المشهورين بالشجاعة والكرم . ولكن من الممكن ان ينتخب

للمشيخة اي فرد من افراد القبيلة متفوق بالشجاعة والجود .

ويُخلع الشيخ احياناً وهو ما يزال في قيد الحياة ، وينتخب محله من هو أجود منه » .

ألا تكشف لنا هذه الصفحة على بساطتها عن خلق العاهل العربي ؟ ان الزعيم العربي ، حتى اذا أصبح ملكاً ، يظل محتفظاً بما للشيخ العربي من مثل أعلى ، ومن تمسك بالفضيلة والشرف . ومن ثم ذلك الكرم المفرط ، والبذخ ، اللذان لا فائدة منهما للشؤون العامة ، اذ ليس هنالك شؤون عامة ، بل رفاق حياة وقتال ، وهم يتبعون المثل الأجدر لمثلهم الاعلى في الفروسية .

إن هذا لا يمنع ان يكون الغزو في عداد نشاطات الفروسية لدى البدو . « ويمكن التأكيد نوعاً ما ان البدو مضطرون الى الغزو » . فهم لا يستطيعون العيش على المورد الذي يأتيهم من الماشية ، « ويعلمون حق العلم أنهم إذا ظلوا طويلاً في حالة سلام ، نقصت ثرواتهم ، لذا فإن الحرب والغزو يصبحان ضروريين » .

ولكن هذه الحرب مرتبطة بقانون شرف ، وهذا القانون لا يسمح بالقتل في سبيل النهب الا اذا كان هنالك ثأر . ويكمن الخطر في ان يكون المهاجم اقوى ممن يغير عليه ، وان تتوافر له احتمالات النجاح ، فهم يغيرون على المخيم ، ويهدون الخيام على رؤوس سكانها ، ويهربون بالغنيمة ، ويكتفي المغار عليه الشاعر بضعفه ، بمطاردة المغير ، واسترجاع ما أمكن من الأسلاب . وهذا النوع من السلب لا يعد في نظر الاعرابي جريمة ، على رأي دارفيو ، كما ان القنص في نظر الاوروبيين لا يعد كذلك ، ونحن نقول الآن مع بوركهارت انه نوع من الرياضة ، واذا ما أريق في هذه الرياضة دم ، حق عندئذ الثأر بكل قانونه المعقد ، هذا الثأر الذي قد يؤدي الى الحرب .

والغزو رياضة متميزة ، وكثيراً ما يتجلى في توجه ثلاثة رجال مشياً على الاقدام نحو مخيم يجب بلوغه ليلاً بقصد سرقة بعض الماشية من غير إلفات الانظار والتعرض للمطاردة ، والسارق الذي ينجح يعد لاعباً ماهراً ، ولقب « حرامي » هو من الالقاب التي تدل على البراعة والمهارة، ولكن ، إذا ما استيقظ صاحب الخيمة التي سرقت منها الماشية ، وتمكن من إلقاء القبض على السارق ، فان هنالك قانوناً ينظم تصفية حق المسروق منه على السارق ، وهو احتجازه في الخيمة شبه مدفون تحتها دون المخاطرة بقتله ، حتى يأتي افراد عشيرته ليفتدوه . وللسارق الحق في الهرب ، ولكنه يحاول قبل كل شيء اللجوء الى وسيلة شريفة في نظر العرب ، وهي وسيلة « الدخيل » وهي ان كل انسان ، كائناً من كان ، يطلب حماية إنسان آخر ، فيجب على من تطلب منه الحماية ان يمنحه إياها على الفور ، وعليه ان يقوم بكفالته او ان يدافع عنه حسب نوع القضية . وهكذا اذا ما استطاع السارق ان يلمس شخصاً ثالثاً طالباً الدخالة عليه ، توجب على هذا الاخير ، ولو كان جاراً للمسروق منه ، ان يحرره بكفالة الفدية التي يتعهد السارق بدفعها . والسارق ، من جهته ، يقتضيه الشرف ان يفي بتعهده ، وألا يخيب ظن كفيله ، واذا أخل بتعهده ، اعتبر بائقاً ، وخائناً ، وعاراً على عشيرته ، وجاز لمن يلقاه ان يسلبه ويقتله .

ان تحمل المصاعب ، والشجاعة ، والابلاء البلاء الحسن في المعارك ، موضوعات لأغانٍ تنشدها النساء على قرع الطبول ، في ايام الاعياد ، وهن منتظمات في جماعات عديدة وراء الخيام .

واذا كان للرجال بالبدو أغان حربية ، واخرى للاشادة بالزعيم ، فلهم ايضاً أغان للحب ، فالعاشق المسهد ، يذهب في الليل الى قسم الرجال من الخيمة التي تقيم فيها حبيبته ، او الى خيمة مجاورة لها ،

ويأخذ واصحابه في إنشاد « المجيني » نشيد الحب حتى مطلع الفجر .

★

هكذا يصور لنا بوركهارت الحياة البدوية ، والروح التي تبعث فيها الحياة : « ويمكن التأكيد ، ان الثراء وحده لا يستطيع ان يعطي الرجل أهمية بين اهله في حياة البداوة ، فالرجل الفقير المضياف ، الكريم حسب امكاناته ، اي الذي يذبح دوماً ذبائح للغرباء الذين يحلون ضيوفاً عليه ، والذي يدير القهوة على زائريه ، والذي يفتح كيس تبغه دائماً لملء غلايين أصحابه ، والذي يشرك أقرباءه الفقراء بغنائمه ، والذي يضحي بآخر فلس يملكه في اكرام ضيوفه والتفريج من كربة المكروبين ، يكتسب في نظر عارفيه احتراماً وقدراً اكثر من الغني البخيل الذي يتلقى الضيف ببرودة ، ويدع أصحابه المعوزين يهلكون جوعاً .

و بما ان الغنى في هؤلاء القوم من الغزاة لا يكسب صاحبه أي اعتبار ، او نفوذ ، لا يحصل الغني من وراء ثرائه على أي ملذة يحرم منها الفقير بسبب فقره ، فأغنى الشيوخ يعيش كأفقر أفراد العشيرة ، كلاهما يأكلان النوع ذاته ، والمقدار ذاته من الطعام ، إلا إذا جاءه ضيف ، وفتحت خيمة مستقبله لجميع اصحابه ، لكل منهما ذات الثياب المتواضعة ، وذات المشلح . وأغلى أمنية يستطيع الزعيم ان يحققها اقتناء فرس للسباق ، والتمكن من رؤية زوجه وبناته اكثر زينة من سائر نساء المخيم .

و لا يعرف البدو للافلاس معنى ... فالبدوي يفقد ما عنده إذا سُرق منه او نُهب ، او أنفقه على ضيوفه . وفي هذه الحالة يثني عليه أفراد العشيرة جميعاً ، والعربي الكريم الذي يتحلى عادة بفضائل غير الفضائل المعروفة لدى الحضر ، لا تنقصه الفرص السعيدة للتعويض عما فقده بتلك الطريقة الشريفة » .

وقد شرح بور كهارت اخيراً رأياً مناقضاً للرأي العام الغربي فيما يختص بهؤلاء الغزاة ، الذين لا مثيل لهم في كرم الضيافة ، وحماية من يأتمنونهم على انفسهم . وقد اكتشف لنا فيهم ، من خلال اسلوبه المعتدل الدقيق ، رجالاً استطاعوا في فقرهم ، وبوساطته ، ان يحرزوا عظمة انسانية حقيقية من خلال الكرم والحرية اللذين يهيمون بحبهما .

ولكن ، اذا كان بور كهارت قد اهتم كل الاهتمام بملاحظة حياة البداوة ، لم ينس بسبب ذلك ، المدن المنقرضة ، وخباياها الجذابة . وإذ أدرك طبيعة الصعوبات التي كانت تحول دون الوصول الى خرائب بترا ، استفاد من القصص المحلية المتداولة عن هذه الامكنة وعلاقتها بقصص التوراة الواردة في سفر خروج العبرانيين من ارض مصر ، واجتيازهم سيناء ، وصحراء العربية البتراء ، قبل بلوغ ارض الميعاد في فلسطين . كان وادي البتراء يدعى وادي موسى ، ويقول العرب ان قبر هارون أخي موسى واقع على جبل الطور المشرف على المدينة . فتظاهر بور كهارت بأنه يريد ان يضحي بعنزة على قبر هارون الواقع على قمة جبل الطور . ووجد الشيخ ابرهيم الورع دليلاً يعينه على إيفاء نذره .

كشف المضيقُ الواقع بين الجبال القرمزية لعيني بور كهارت الاوروبي الثابت الجنان سرّه المكنون المدهش ، فقد بدت بين جوانب المضيق الصخرية الموحشة ، واجهة فخمة مشيدة على الطراز الروماني المزخرف اللطيف ، واجهة قصر رائع النقوش ، يقع بابه تحت مثلث قائم على اربعة اعمدة ، ومتوج بثلاثة صروح ذات اعمدة ، يبعث الحياة فيها عدد من التماثيل ، يخالها المرء حديثة البناء لقلة ما لحق به من الخراب . وعندما يدنو منها الانسان يرى انها واجهة بناء منقورة في سفح الجبل ، وان بابها باب قبر . هكذا كان مقدّراً لبور كهارت ان يكتشف وادي قبور شديد الغرابة .

وكلما ازداد المضيق اتساعاً استطاع المرء ان يرى في السفح الصخري مسرحاً في شكل مدرجات . ولا تفتأ الصخور ان تتباعد لتخلي السبيل الى مجرى عجيب تجري فيه عين ماء . ويقوم في وسط الخرائب قصر « ابنة الفرعون » المزعوم .

ولكن ، على الرغم من تظاهر بوركهارت بعدم الاكتراث ، صرخ الدليل قائلا حين رآه يتجه نحو القصر : « لقد ادركت الآن بوضوح انك كافر يهدف الى عمل يريد ان يقوم به في خرائب المدينة التي تخص أجدادنا ، لكننا لن نسمح لك بأن تأخذ فلساً واحداً من الكنوز الدفينة هنا ، لأنها مدفونة في أراضينا وهي تخصنا وحدنا » . فاضطر بوركهارت الى ايراد البرهان على عدم اكتراثه الكلي ، بالاسراع الى مكان تقديم الذبيحة ليخفف من غيظ البدوي . ولم يعد يهتم بتدوين اية ملاحظات ، وأخذ أية قياسات . ولكن بتراء كانت قد اكتشفت من جديد ، وكانت اوروبة ذات المزاج الرومانطيقي مزمعة ان تهتز حماسة لهذا الاكتشاف .

وكان غيره من الرحالة مزمعين فيما بعد ، ان يصلوا إليها دون ما جدوى ، كجوليف والسر هنيكر ، بينما أفلح آخرون غيرهم في بلوغها ، مثل بانك ولغ ، والقبطانين اربي ، ومانغلز . واخيراً زارها ليون لابورد ، الرحالة الفنان وعالم العاديات ، وكتب في سنة ١٨٣٠ قصة رحلته الى العربية البتراء ، مشتملة على أوصاف ، ولا سيما ، على سبعين صورة منقوشة تضع امام أعين القراء منظراً شديد الغرابة لهذا الموقع الموحش العظيم ، الحافل بالفنون المعمارية الفخمة ، الذي اكتشف في الوقت الملائم لادهاش عصر كلف بالخرائب الحالمة ، ووحشية الطبيعة المجتمعة في البتراء .

لقد أعطى اكتشاف هذا الموقع بوركهارت ، أول لقب من ألقاب المجد .

*

توجه بوركهارت من هناك الى مصر مثلما فعل ستيزن . ولكن غايته القصوى كانت القيام بزيارة قلب إفريقية لتأدية المهمة الارتيادية التي كانت قد عَهدت إليه بها الجمعية البريطانية الإفريقية . وقد أفلح بالقيام برحلة الى النوبة ، ولكن لما رأى أنه لا يستطيع أن يوغل باتجاه الغرب اكثر من ذلك ، عاد بطريق البحر الاحمر منطلقاً من ميناء سواكن إلى جدة التي بلغها في الرابع عشر من شهر تموز (يوليو) من سنة ١٨١٤ .

ولكن الاحوال كانت قد تغيرت كلياً هناك منذ أن وصلها ستيزن قبل خمسة أعوام من ذلك ، وكل ذلك التغيير كان قد حصل لمصلحة الارتياد . إذ كان الوهابيون قد تراجعوا تاركين الحجاز والمدن المقدسة للاتراك والمصريين . وقد أفاد بوركهارت من ذلك فزار مكة والمدينة بوصفه العالم المسلم الشيخ ابرهيم . وبالاضافة الى ذلك ، فقد سمح له وجود طوسن باشا في بلدة الطائف ، واضطراره الى القيام بزيارته ان يبلغ هذه البلدة المشهورة بكونها اجمل مدينة في شبه الجزيرة العربية ، لكثرة ما فيها من رياض وبساتين .

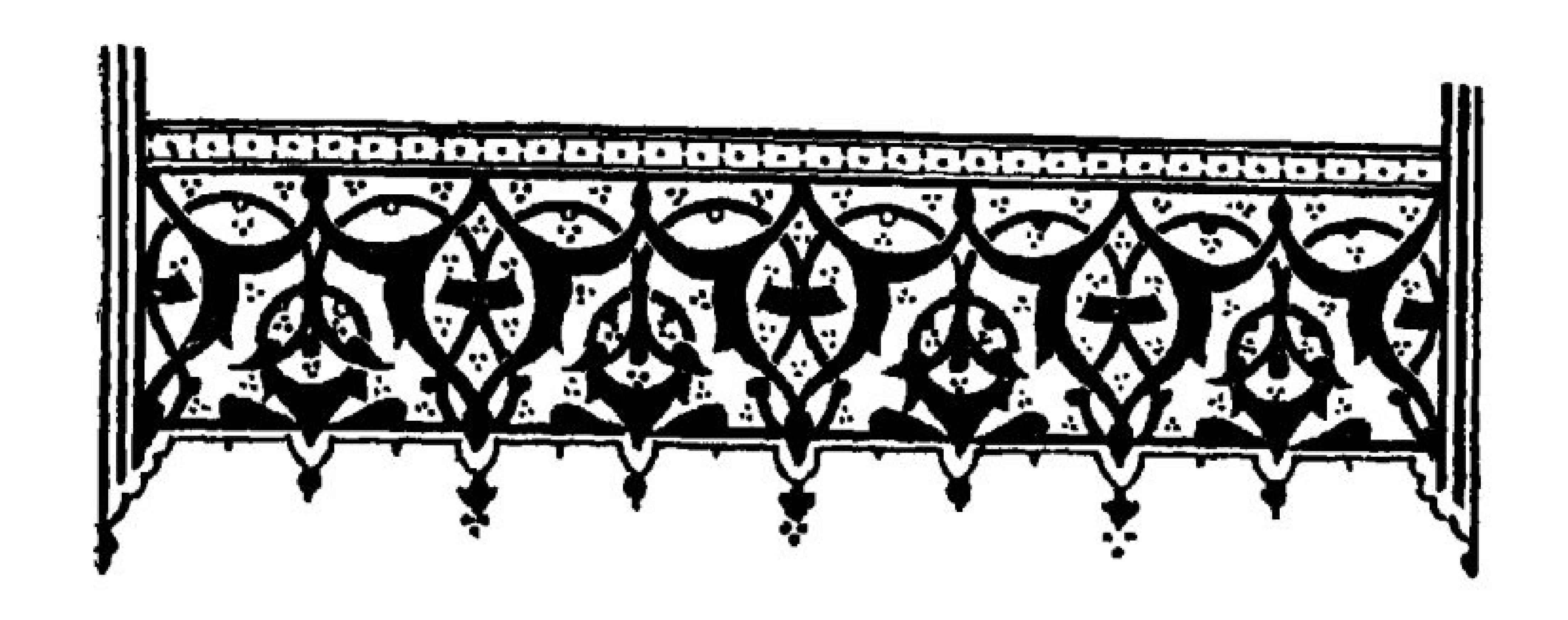
ولكن بوركهارت ، في هذا القسم من رحلته ، لم يعد متمماً لما قام به ستيزن ، وتابعـاً له ، بل غدا اول الرحالين الذين توغلوا في الحجاز في اثر الجيوش التركية المصرية ، المنتصرة على الوهابيين .

الا انه لم يتقدم اكثر من ذلك ، بل عاد الى القاهرة في شهر حزيران (يونيه) من عام ١٨١٥ . وبما ان وباء الطاعون كان قد ظهر فيها ، لجأ كما سبق لنا ان ذكرنا الى قبائل البدو القاطنة في صحراء سينا ، ثم عاد الى القاهرة ، وكتب قصة رحلته .

وهكذا تمكن بور كهارت من ان يخلف للاجيال المقبلة ثمرة مغامرته ، رغم ان الموت عاجله على اثر زحار حاد اصيب به ، فيا كان يتأهب لتحقيق العمل الاعظم الذي كان عازماً عليه وهو ارتياد قلب القـــارة الافريقية .

لقد قام برحلته بعـد انقضاء سبعة اعوام على رحلة ستيزن ، وتوفي بعد ست سنوات على وفاته ، وذلك في الخامس عشر من شهر تشرين الاول (اكتوبر) من عام ١٨١٧ وعلى الرغم من ان القدر لم يعطه مهلة أطول فلقد سمح له ان يختزن غلاله بصورة أكمل .





في اواسط شبه الجزيرة العربية
خلف الجيوش التركية - المصرية

عندما أقام ستيزن في مكة ، كانت ما تزال خاضعة لحكم الوهابيين ، وكان سعود يأتيها في كل سنة من السنوات الواقعة بين ١٨٠٨ و ١٨١٣ لتأدية فريضة الحج . وكان قد ثبت سلطان جماعة « الامر بالمعروف والنهي عن المنكر » ، فقاموا بالمهام التي وكلت إليهم خير قيام ، حتى لم يعد يجرؤ احد على التدخين علناً ، او يجسر على التغيب عن الصلاة . على ان قافلتي الحجاج من دمشق والقاهرة لم تعودا تأتيان مكة ، التي بقيت للوهابيين وحدهم . وكان الأتراك يعدون العدة في الخفاء لأخذ الثأر .

وكان سعود ما يزال مشتبكاً في مناوشات الحفاظ على سلطته . فلم يقم بأي حج إلا وثار عليه عصيان . فقد ثارت عُمان في سنة ١٨٠٨ ، وثارت تهامة عسير على ابي نقطة في سنة ١٨٠٩ ، وفي عام ١٨١٠ ثارت عمان وعسير مرة اخرى ، وتحركت منطقة الحسا الواقعة على الخليج العربي في سنة ١٨١١ ، وفي سنة ١٨١٢ ثارت عمان والبحرين معاً .

ولم يكتف سعود بقمع هذه الثورات ، بل تمكن من توجيه حملة عسكرية في سنة ١٨١٠ كادت تبلغ ابواب دمشق . فعيل صبر السلطان التركي ، واعتبر ان هذا العمل انما هو تحرش به في احدى الولايات التابعة لسلطته. لذا استعد في هذه المرة للقيام بهجوم معاكس .

وقد أرسلت امدادات تركيــة الى مصر في سنة ١٨١١ ، وتلقى محمد علي امراً من سيد القسطنطينية بمهاجمة الوهابيين . فوضع تحت إمرة ابنه طوسن باشا اربعة عشر ألف مسلح نزلوا في ينبع ميناء المدينة . وكان ذلك بدءاً لتقلص السيطرة الوهابيــة وانهيارها التدريجيين لفترة من الزمن ، وفي الوقت ذاته بـدءاً لتدفق جيش جرار مؤلف من مختلف الأجناس إلى شبه جزيرة العرب ، اكثرهم من الأتراك الذين أبغضهم العرب منذ زمن بعيد بالرغم من انهم مسلمون . والملاحظة التالية التي دوّنها دارفيو تعطي فكرة عن ذلك : « ان البدو يهتمون بتمييز الأموال الواردة من مصادر تركية ، ويضعونها في اكياس خاصة لأن الأموال التركيةَ المصدر تجمع في نظرهم « من الكسب الحرام » وسرقة اموال الدولة ، والظلم ، والربا ، وامتصاص دماء الفقراء » على ان ذلك لا يحول دون قبولهم هـذا المال لأن لديهم وسائل كثيرة لتقويم كل الأمور .

شكل الأتراك والمصريون المختلطون جيشاً اوروبي التنظيم بتسليحه ، وفنونه ، وثيابه العسكرية الحمراء التي جعلت العرب يطلقون عليهم لقب « الحمر » احتقاراً وكرهاً . وبالاضافة الى ذلك ، كان يرافق الجيش عدد من الاوروبيين « الكفار » كمهندسين ، وصناع نيران اصطناعية ، وأطباء ، وصيادلة .

وكان قد انخرط في سلك هـذا الجيش عدد من الأوروبيين لاسباب غير معلومة ، وهكذا كان طوماس كيث من فرقة « الهايلندرز » الثانية

والسبعين ، قد اصبح آغا المماليك ، وشغل بعض الوقت في سنة ١٨١٥ ، أغرب منصب يمكن أن يشغله رجل ايقوسي ، وهو منصب حاكم المدينة احدى البلدتين الاسلاميتين المقدستين . واكتشف تاميزيه في سنة ١٨٣٤ ، انكليزياً يدعى اتكنيز كان مسؤولاً عن المدفعية !

ولكن هؤلاء الرجال الذين قاموا بمغامرات شخصية خارقة للعادة لم يرووا شيئاً ولم يكتبوا شيئاً . إلا أن واحداً منهم ، أملى قصة مغامراته فيما بعد ، على رجل انكليزي يدعى و. ج بانكز نشرها في سنة ١٨٣٠ ، هذا الرجل هو جيوفاني فيناتي الايطالي الذي كان قد فرّ من الجيش الفرنسي في دالماسيا ، وانضم الى الأتراك ، واعتنق الاسلام ، وانخرط في الجيش المصري ، واشترك في الحملات على شبه الجزيرة العربية . ولكن المتعة في قصته تكمن في الدرجة الأولى ، في وصف الحياة في الجيش المصري .

على أن تدفق هذه الجيوش الى شمالي شبه الجزيرة العربية قد آتى ثماره بالنسبة الى معرفة هذه البلاد جغرافياً وإنسانياً . وكان كافياً أن يقوم بعض المنخرطين في سلك هذه الجيوش على المشاهدة والكتابة حتى تتجمع معلومات جديدة كانت مزمعة أن تمكن العلماء من وضع خارطة لهذه المناطق .

وضع سعود جيوشه البالغ عددها ثمانية عشر ألف رجل تحت إمرة ابنه عبد الله لمواجهة الجيش الذي نزل في ميناء ينبع . وأسفرت المعركة الاولى التي نشبت في الخيف الواقعة على طريق المدينة ، عن تفوق الوهابيين ، وتراجع الأتراك الى ينبع ، في حين قام سعود وابنه بتأدية فريضة الحج .

ولكن الجيش المصري التركي بعد ان تلقى بعض الامدادات ، واستمال الى جانبه قبيلتين عربيتين ، فتمكن من الاستيلاء على المدينة في سنة ١٨١٢ .

وما كاد سعود يفرغ من تأدية فريضة حجه الأخير في مطلع عام ١٨١٣، ويغادر البلدة ، حتى سار الجيش الفاتح باتجاه مكة التي لم يلبث اميرها ، وهو الأمير الذي استقبل علي بك ، ان أنضم إليه ، عنـــدئذ أخذت المواقع الوهابية في الحجاز تنهار بسرعة . فغادر عبد الله ورجاله مكة ، والطائف من بعدها ، وانحازت القبائل الى جانب الأتراك . وفيما كان عبدالله ما يزال محتفظاً بمدينة ترَبَة معقله ، قام سعود بحملة لاستعـــادة ولاء قبائل الحجاز ، ولكنه توفي بعد ذلك بسنة في عام ١٨١٤ . وبينما كان عبد الله وطوسن يتنـازعان بعض المواقع استولى محمد علي نفسه على مدينة ترَبَة ، ثم على بيشة ، وتبـــالة ، ورَنْيَة ، وخميس مشيط ، واخيراً القَنْفُذَة .

اتخـذ محمد علي الطائف مكانـاً لاقامته ، وكانت الاقـــدار ستتيح لبوركهارت ان يقوم بزيارته فيهـــا ، فيرى تلك المدينة التي اشتهرت بكونها أجمل مدينـة في شبه الجزيرة العربية ، بجنائنهـا ، وورودها ، وفواكهها التي كانت تباع في اسواق مكة .

حين وصل بوركهارت الى جدة ، نفد ما لديه من المال ، ولم يقبل احد منه تحويلا مالياً على القاهرة . واضطر وقد أصابه المرض والاملاق الى بيع عبده الشاب ، ولم يجد بعد ذلك حلاً لمشكلته سوى الكتابة الى محمد علي الذي كان قـد تعرف إليه في القاهرة . في هذه الاثنـاء وافق أحدهم بعد ان تفهم قضيته ، على قبول تحويل منه على القاهرة ، وأعطاه ما يحتاجه من المال فأنقذه من الضائقة المالية .

ولكن الباشا أرسل في طلبه الى الطائف ، لمسألة لا علاقة لها بالمال ، إذ كان محمد علي قد اقتنع بأن هذا الرجل السويسري ليس سوى جاسوس انكليزي سيذهب الى الهند ليقدم تقريراً عما جمعه من المعلومات عن شبه الجزيرة العربية . فكتاب علي بك كان قد انتشر في القاهرة ، وكان

المسؤولون مهتمين كل الاهتمام بألا يجوز عليهم مكر مثل اولئك الرجال . لذا صرح الباشا علناً في القاهرة ، فيما بعد ، انه لم ينفك يعتقد في ان بوركهارت جاسوس انكليزي . وعنـــدما وصل بوركهارت الطائف ، ومثل بين يدي محمد علي باشا ، اكتفى بالتأكيد انه مسلم حقيقي مثلما رآه الجميع وعرفوه ، وان تلك الشبهات لا مبرر لها . وبعد ان قضى عشرة ايام تحت المراقبـــة في الطائف ، تمكن اخيراً من الحصول على إذن بالشخوص الى مكة فوصلهـا في شهر كانون الاول (ديسمبر) من سنة ١٨١٤ ، وبذل قصارى جهده للعيش فيها منزوياً متظاهراً بكونه حاجاً او رجلاً عادياً قادماً من مصر .

بعد ان مكث شهراً في مكة ، توجه الى المدينة حيث بقي طريح الفراش حتى اوائل نيسان (ابريل) . وتخلى ، كما فعل ستيزن قبله ، عن زيارة الحِجْر ، وقصد ينبـع ، وركب منها سفينة ، ونجا لحسن حظه ، من وباء الطاعون الذي كان متفشياً في الميناء وعلى ظهر السفينة التي اوصلته رغم كل شيء ، الى الشرم . ومن هناك ، توجه الى السويس سيراً ، فوصلها في السادس والعشرين من حزيران (يونيه) .

ولم ينج هناك من المرض ، الا ليقع فيه بعد سنتين من ذلك التاريخ ، مثلما سبق لنا ان رأينا ، ويقضي نحبه . ولكنه في هذه الاثناء وضع كتابيه : « رحلة الى بلاد العرب » و « ملاحظات عن البدو » اللذين طبعا بعـد موته بزمن قصير .

وهنا ايضاً تظهر مقدرة بوركهارت الخارقة في تفهم ما يراه . فقصته أبعد ما تكون عن الاحدوثة السطحية التي يستطيع اي عابر سبيـل ان يكتبها . فقد كتب ، على سبيل المثال ، اربعين صفحة في وصف جدة ، هذا الميناء الذي كان يرتاده كل من ينزل في شمـالي شبه الجزيرة العربيـة لسبب ما ، واصفاً احياءها المختلفة وشوارعها وأبنيتها وسكانها ، ومقرّباً الى

الفهم طبيعتها الخاصة ، وليس في وصفه هذا كلمة واحدة لا تحتوي على معطى ذا معنى وإيضاحاً منوراً . فقد كتب فيما يختص بسكان جدة يقول :

« ان سكان جدة ، على غرار سكان مكة والمدينة يكادون يكونون من الغرباء . فأبناء العرب القدماء الذين كانوا يقطنونها قتلهم الحكام ، او نزحوا الى اماكن اخرى . والسكان الذين يمكن ان يطلق عليهم اسم « ابناء البلاد الاصلاء » هم ابناء أسر الأشراف وجميعهم من العلماء ومن المرتبطين بالمساجد والمحاكم . اما ما تبقى من سكان جدة فهم إما غرباء او من اصل غريب ، ومعظم هؤلاء السكان أصلهم من حضرموت واليمن ، وقد استقرت جاليات في كل مدينة ، ومن كل إمارة في جدة ، وهم يقومون بتجارة نشيطة مع الاماكن التي جاءوا منها . وقد استقر فيها ايضاً ما يقارب المائة أسرة هندية معظمها من سَوْرَتْ وبعضها من بومباي ، تضاف اليها بعض الأسر من ماليزيا ومسقط .

« وما يزال في إمكان النازحين إليها من مصر ، وسورية ، وبلاد البربر ، وتركية الاوروبية ، وبلاد الاناضول ، ان يتعرف كل منهم الى أبناء قومه من سيماهم . وقد اختلطوا جميعاً في كتلة حية ، يعيشون ويلبسون كما يفعل العرب . والهنود وحدهم هم الذين ما يزالون يشكلون طبقة متميزة بعاداتها وزيها واعمالها ، وليس من مسيحي مستقر في جدة ، ولكن بعض سكان جزر الارخبيل يأتون اليها بالبضائع التجارية من مصر في بعض الاحيان .. وكان اليهود في الزمان القديم سماسرة هذه المدينة .. لكن سرور طردهم منها منذ اربعين سنة خلت بسبب سوء تصرف بعضهم ، فلجأوا الى اليمن .

« خلال المدة التي تهب فيها الرياح الموسمية ، يزورها بعض البانيانيين على سفن هندية ، ولكنهم يعودون على السفن التي اتت بهم ، ولم يستقر احد منهم فيها .

« أن اختلاط الاجناس البشرية في جدة ناتج عن الحج ، الذي يصل في موسمه الى الحجاز عدد من اغنياء التجار ومعهم كميات كبيرة من السلع التجارية ، ويضطر بعضهم في حال عدم تمكنهم من تصفية حساباتهم ، الى الانتظار سنة اخرى . خلال هذه المدة يساكنون حسب عادة البلاد ، جواري من بلاد الحبشة لا يلبثون ان يتزوجوهن . وينتهي بهم الامر الى ان يجدوا انفسهم في عائلة قد تألفت فيغريهم ذلك على الاستقرار . وهكذا يضيف كل موسم حج عدداً من الناس ليس الى سكان جدة فحسب ، بل الى سكان مكة ايضاً ، الأمر الذي تدعو إليه حاجة ماسة ، لتفوق نسبة الوفيات فيها على نسبة الولادات . »

ويعطي بوركهارت معلومات لا نهاية لها عن التجارة ، من الملاحظات العامة الى تفحص اصغر الحوانيت ، وعددها ، والسلع التي تباع فيها ، وجنسية تاجر كل صنف ، ويذكر الاسعار وتقلبها ، ورأسمال الاعمال التجارية الكبرى ، وحركة ارتفاع الاسعار وهبوطها .

ويبعث الحياة في هذه اللوحة مجرد ذكر المعلومات الدقيقة والمفيدة . فان وصف الحوانيت ، بحد ذاته ، وثيقة عن معيشة السكان أدق واكثر موضوعية من اي شيء آخر ، فيرى القارىء مدينة فيها خمسة وعشرون مقهى ، يتناول فيها المرتاد إليها من ثلاثة فناجين الى ثلاثين فنجاناً من القهوة يومياً .

وسكان هذه المدينة يدخنون كثيراً ، ففيها واحد وثلاثون تاجراً لا يتعاطون الا تجارة التبغ ، اذ ان الوهابيين قد جلوا عنها .. ويلعب الزبائن بالمنقل ، او بالداما ، لأن معظمهم من تجار الصنف الثالث ، ومن البحارة ، اما الاشراف فلا يلعبون الا بالشطرنج وفي منازلهم .

ويذكر ان فيها واحداً وعشرين شخصاً من باعة اللبن الرائب ، وإذا كانت هذه التجارة ناشطة فما ذلك الا لأن السكان قد درجوا على عادة

شرب فنجان من اللبن الرائب في كل صبـــاح يتبعونه بالقهوة الممتازة ، وهنـاك ثماني عشرة حانوتاً لبيع الخضر والفواكه الواردة من الطائف ، وحوانيت عسل الحجاز ، والتمور . ثم تجار الحلويات الخمسة ، وتجـــار السكاكر والفول ، واثنا عشر بائعاً للخبز ، واثنان للبن الخاثر ، واثنان لبيع الحساء ولكن فيها ثمانية عشر تاجراً هندياً يبيعون اصنافاً مختلفة كالورق ، والشمع ، والسكر ، والعطور ، والبخور ، والقرنفل ، والبهار ، وورود الطائف . وأحد عشر حانوتاً لبيع السلع الهندية المختلفة : كالغلايين ، والملاعق الخشبية ، والمسابح ، والمرايا ، وورق اللعب ، فضلاً عن الخزف الصيني ، والآنية الزجاجية الواردة من البندقية . وفيها ايضاً ستة تجـــار للأقمشة الفرنسية ، والانسجة القطنية والحريرية الموشاة المصنوعة في الهند ، وباعة الآنية النحاسية مصريون ، كـذلك مرقعو قرب الماء ، وصانعو الصنادل ، واللحامون . اما الساعاتي الوحيد فيها فهو تركي ، وهو يبيع ساعات انكليزية .

اما الطائف فكان بوركهارت اول اوروبي رآها ، ولكنه لم يرَ حدائقها . وقد جاء خلفه تاميزيه من بعده ، واهتم بوصفها في كامل عظمتها . وقد رأى فيها بنوع خاص الخرائب الكئيبة التي خلفتها الحرب مع الوهابيين في سنة ١٨٠٢ ، وقبراً مقدساً قام المترمتون بهـــدمه ، ولم يشهد الا الفقر المدقع في تلك المدينة التي اشتهرت فيما مضى بأسواقها الناشطة .

وحين اوغل بوركهارت في داخل الحجاز باتجاه الطائف ، رأى نوعاً من المشاهد الطبيعية التي لم تخطر ببال احد انها موجودة في شبه الجزيرة العربية . فقد وجد في اعلى قمة من سلسلة الجبال التي اجتازها ، قبل ان يشرف على سهل الطائف ، مكاناً خلب لبه : لوحة طبيعية رائعة كوّنها الخضار الكثيف ، والأشجار المثمرة ، والكروم ، وحقول الحنطـــة ، والشعير ، والبصل . وكان الهواء مشحوناً بالاريج ، والندى يتلألأ فوق

الخضار ، والعشب قد نما على ضفتي جدول ماء عذب . وكان ذلك مشهداً نادراً حقاً ، غير متوقع وجوده في شبه الجزيرة العربية .

وتبدو مهارة بوركهارت وفضله في وصف مكة ايضا ، بتفهمه كل شيء ، فقد عرف كيف يقرأ الكتب العربية المتعلقة بالمدينة المقدسة وتاريخها : ويستخدمها ، وبذلك استطاع ان يعرف اكثر ، ويرى احسن من غيره ، وعرف ما كانته الكعبة قبل الاسلام :

« قبل ظهور النبي محمد ، لما كانت شبه الجزيرة العربية تعبد الاصنام ، كانت الكعبة موضع إجلال ، وكان اجداد المسلمين يؤمونها للطواف فيها سبع مرات ، كما يفعل خلفهم اليوم . وكان البناء يحتوي آنئذ على مائة وستين صنما . على ان بين طقوس الحج القديمة والمناسك الحالية فرقاً بيّنا ، لأن النساء والرجال آنذاك كانوا يدخلون المعبد عراة خالعين عنهم آثامهم وثيابهم معاً » .

ولم يعطنا علي بك اي تفسير للرحلات السبع التي يقام بها بين اكمتي الصفا والمروة . ولكن بوركهارت قد توصل الى ذلك فقال :

« وكان العرب القدماء يعتبرون الصفا والمروة كذلك من الاماكن المقدسة لاحتوائها على صورتي الإلهين « موتان » و « نهيك »[1] ، وكان عباد الاوثان يذهبون من احداهما الى الاخرى لدى عودتهم من عرفات . وتقول الروايات الدينية في الاسلام ، إن هاجر أم اسماعيل بعد ان طُردت من منزل ابرهيم ، هامت على وجهها في القفر لئلا تشهد ابنها يقضي عطشاً فظهر لها الملاك جبرائيل بغتة ، وضرب الارض بقدمه فتفجرت منها مياه زمزم ويقال ان الرحلات السبع بين الصفا والمروة ليست الا اذكاراً للرحلات السبع اليائسة التي قامت بها هاجر .

وعرف بوركهارت ان الكعبة قد أعيد تشييدها كلياً في سنة ١٦٢٧، وان القناة التي توصل الماء الى المدينة من جبل عرفات قد أنشأها الخليفة

---

١) المعروف انه كان على الصفا والمروة صنما أساف ونائلة .

هرون الرشيد ، المشهور في قصة « ألف ليلة وليلة » .

ثم ان بوركهارت شاهد مكة بعد الحج لأنه أقام فيها في الاوقات العادية ، فاكتشف لنا ناحية جديدة من المسجد : « فألوف المصابيح المضاءة خلال شهر رمضان في المسجد الكبير تجعل منه ملتقى الغرباء ، يأتون إليه للنزهة والسمر حتى منتصف الليل ، وهو يستخدم كمدرسة إذ ان جماعات من التلاميذ يجلسون في أروقته يرددون القرآن وهم يترجحون. وهناك يرى الكاتب العام ، او باعة الطلاسم المكتوبة على قطع من الرق . ثم ان بيت الله هذا يؤوي تحت ظلال أروقته - بعد رحيل جماهير الحجاج - المرضى الذين يحول مرضهم دون سفرهم ، والفقراء الذين لا مأوى لهم ، ينتظرون فيه الموت . واذا ما أدرك احدهم الأجل غطى احد السابلة وجهه ريثما يقوم خدم المسجد بدفنه .

كان علي بك قد أوقف قبل بلوغ المدينة ، ولكن بوركهارت تمكن من زيارتها بعد جلاء الوهابيين عنها ، وترك لنا وصفاً لقبر النبي المقام في مطلع القرن السادس عشر فقال : « انه يقع تحت قبة عالية ، يحيط به عدد من المصابيح الزجاجية ، وسور من القضبان الحديدية المتشابكة التي يتخللها بعض الكوى . من هذه الكوى يرى ستار مسدل يغطي بناء مربعاً يدعى الحجرة ، يقوم على عمودين ، يحتوي رفات النبي والخليفتين ابي بكر وعمر . والستار موشى بأزهار ونقوش من الفضة ، وبكتابات بأحرف ذهبية ، وعندما يعتق يبدل به ستار يرسل من القسطنطينية ، ويكسى بالقديم قبر احد السلاطين او الامراء .

« وتقول الروايات الدينية الاسلامية إنه عندما ينفخ في الصور ، في اليوم الاخير ، سينزل عيسى من السماء الى الارض ليعلن لسكانها حلول يوم الدين ، ثم يموت ويدفن في الحجرة الى جانب محمد ، ثم يقومان معاً عندما يبعث الموتى من قبورهم ، ويصعدان الى السماء معاً » وفي

ذلك اليوم يعهد الله الى عيسى بأن يفرق المؤمنين من الكفار[1] . ووفقاً لهذه الرواية الدينية ، يشير الناس من خلال الستار المسدل على الحجرة الى المكان الذي سيكون قبراً لعيسى .

ويرى في مكان آخر قبر فاطمة بنت النبي وزوجة علي . ويقول بوركهارت ان في المدينة مكانين مقدسين آخرين يزورهما الناس : احدهما في قرية قُبا التي توقف النبي بالقرب منها لما غادر مسقط رأسه مكة نهائياً لعدم ايمانها برسالته ، بادئا بذلك عمله النبوي . وقد اقيم فيها بين بضعة اشجار مسجد كثير الزوار محاط بثلاثين او اربعين بيتا . « والمكان المقدس الآخر هو المكان الذي قرر فيه النبي ألا يتجه المسلمون في صلاتهم نحو القدس ، بل نحو مكة . اتخذ هذا القرار ذا المغزى العظيم ، في مكان يدعى مسجد القبلتين يقع على مسيرة ساعة ونصف الساعة الى شمالي غربي المدينة ، يحج إليه الناس خُشعاً ، ويرى فيه عمودان غير صقيلين يرمزان الى الاتجاهين » .

هكذا تعمق بوركهارت في فهم الاماكن المقدسة ، وأضاف الشيء الكثير الى المعلومات التي كانت متوافرة عنها . وعلى الرغم من السفرة التي قام بها الى الطائف لم ير شيئاً مما لم يسبق لغيره من الاوروبيين ان رآه ، الا ووصفه وعلق عليه بشروحه .

ولما عاد الشيخ ابرهيم المزعوم الى مصر ، كانت اخبار الاضطرابات الناشبة في العاصمة المصرية قد اضطرت محمد علي الى العودة إليها هو ايضاً.

واستمرت الحرب غير النظاميـــة بين طوسن باشا والامير عبد الله . ولكن محمد علي أرسل إلى ابنه امراً بعقد الصلح ، والعودة إلى مصر ، وذلك في اواسط عام ١٨١٥ . فهل كان خوفاً من الوضع الدولي الذي

---

١ – الروايات الاسلامية تقرر ان نزول عيسى قبلَ نفخ الصور .

نشأ عن عودة نابوليون من جزيرة ألب ؟ ام لتدهور صحة احمد طوسن الذي كان مزمعاً ان يموت بعد انقضاء سنتين على ذلك ، وهو على ما يقال في حالة الجنون ؟

على كل حال ، لقد جرى التوقيع على معاهدة الصلح !

ولكن الأخصام لم يكن في وسعهم ان يقفوا عند ذلك الحد . فقد اصبحت الاماكن المقدسة معرضة لهجوم وهابي ، وتوجب على محمد علي ان يهاجمهم في عقر دارهم ، لئلا تذهب جهوده السابقة ادراج الرياح .

واخذ عبد الله ، من جهته ، يعاقب القبائل غير المخلصة له ، فأرسلت امارة القصيم المهددة تستنجد بمحمد علي الذي تأهب لاعلان الحرب في ربيع عام ١٨١٦ .

وقد عهد بقيادة جيشه هذه المرة الى ابنه الاصغر ابراهيم المسلم المفطور على التسامح الديني ، الذي كان يَفْضل اخاه في الفنون العسكرية ، ويفوقه في العناد الصارم . وقد اصطحب ابراهيم معه مهندساً فرنسياً اسمه فايسيير كمعاون لرئيس الاركان والاطباء الايطاليين الاربعة : سكوتو ، وجنتيلي ، وتودستيني ، وسوشيو ، ولكنهم لم يخلفوا لنا اية قصة او اي تقرير عن هذه الرحلة .

وتنسب لابراهيم الفكاهة التالية التي انتشرت انتشاراً واسعاً في ذلك الحين : بما ان الدرعية عاصمة الوهابيين اشبه بتفاحة موضوعة في وسط سجادة ، فما علينا الا ان ندحرج السجادة شيئاً فشيئاً حتى تصبح التفاحة في أيدينا ، وذلك بأن نحصل على محالفة القبائل ، وعدم التقدم الا بعد التأكد من امتلاك البلاد !

وقد حقق مخططاته ، فتحالف مع عشيرتي حرب ومطير الكبيرتين ، وتوغل في منطقة القصيم . وهاجم مدينة الرس . وكان عناده اكبر من دهائه العسكري ، ولكن على الرغم من أنه أضاع اربعة اشهر ، وبضع

مئات من رجاله حول الاسوار الترابية ، استسلمت المدن الاخرى وهي : عنيزة ، وبريـدة ، والمذْنَب ، واشيقر ، والقَرْعَة . وانضمت إليه قبيلتا عُتَيْبَة وبني خالد من جنوبي نجد . وفي شهر كانون الثاني (يناير) من عام ١٨١٨ هاجم ابراهيم مدينة شقراء فلاقى مقاومة ضارية ولكن غير مجدية ، وتبع استـلام شقراء استسلام الامارة بكاملها . وقد انسحب عبد الله الى ضرما ، ولكن ابراهيم لم يلبث ان استولى عليها بعد ان كلف ذلك المهاجمين ستمائة قتيل والمدافعين ثمانمائة .

وكان عبد الله قد أرسل الاطفال والنساء الى العاصمة الدرعيـة . ولم يبق اي مكان يستطيع المقاومة الا العاصمة ، واخذ الجانبان يتأهبان للمعركة الحاسمة .

اعتزم الوهابيون المقاومة حتى الرمق الاخير باستماتة اليـائس ، وعزم ابراهيم بدوره ان يهاجم بالعناد الذي عرف به . فبدأت معركة الدرعية في الحادي عشر من شهر آذار (مارس) من عام ١٨١٨ ، ولم تنته الا بسقوطها في الخامس من تشرين الاول (اكتوبر) بعـد حصار دام ستة اشهر ، وقد سقط من الوهابيين ألف وثلاثمائة قتيل من بينهم ثلاثة من اخوة الامير وثمانية عشر من افراد الأسرة المالكة ، وقـــدر عدد قتلى الاتراك بعشرة آلاف نسمة .

حكم ابراهيم الدرعية حكماً ارهابياً تعسفياً استمر تسعـة اشهر . وعلى الرغم من ان افراد الأسرة السعودية عوملوا معـاملة احترام ، فقـــد استهدف رجـــال الدين لاضطهاد شديد ، وأعدم بعضهم رميـــاً بالرصاص ، وربط آخرون الى افواه المدافع فمزقوا إرباً إرباً ، وضُرب قاضي المدينة وعذب . وأخيراً أرسل محمد علي نفسه يأمر ابنه بأن يدمر العاصمة الوهابية ، فنفـــذ ذلك في شهر حزيران (يونيه) من سنة ١٨١٩ ، وأن يدك قلاع المدن الواقعة في الاراضي المجاورة لها وتحصيناتها ،

وان ينسحب من العربية الوسطى بعد ان يسحق السلطة الوهابية ويقضي عليها القضاء الاخير .

*

تتبعت انكلترا تلك الاحداث باهتمام كلي . فقد كانت شديدة الرغبة في ان ترى السلام يستتب في الخليج العربي . وكانت ترى في ابراهيم الرجل الجدير بأن تطلق يده في المنطقة ، اذا كان حسب اعتقادها راغباً في ضم العربية الوسطى الى ممتلكاته ، وكان قد سبق لها ان تدخلت في الخليج العربي لمحاربة القراصنة ، ضماناً لحرية التجارة ، وسلامة العاملين في الغوص على اللؤلؤ ، وكانت قد تحالفت مع إمام مسقط لهذه الغاية ، وكانت تعتقد ان ابراهيم سيصبح لها سنداً آخر . لذا أرسل القبطان جورج فورستر سادليير كمبعوث ديبلوماسي من بومباي ، على بارجة حربية دخلت الخليج العربي في صيف ١٨١٩ .

ولكن جهود سادليير كانت ستمنى بالخيبة مراراً . كان قد أمر باستطلاع رأي إمام مسقط في مشروع مساعدة يقدمها هو وانكلترا لابراهيم . ولكن سادليير لم يجد الإمام على استعداد لتقبل تلك الخطة ، بالنظر الى ان الإطاحة بحكمه كان في عداد الاعمال التي صدر الأمر الى ابراهيم بالقيام بها ... يضاف الى ذلك ان سادليير حين بلغ الساحل الذي كان يأمل ان يرى فيه السلطة التركية ـ المصرية الجديدة مستتبة ، وجد ممثلاً لابراهيم باشا لا سلطة فعلية له ، متأهباً للانسحاب مع فصيلة الجند التابعة له . ثم علم الموفد ان ابراهيم لا بد ان يكون في مكان ما من نجد ، ولكنه لم يتمكن من حمل احد على ان يذكر له اسم المكان الذي يستطيع ان يجده فيه ، لأنه عوضاً عن الاحتفاظ بالاماكن التي افتتحها كما كانت تأمل انكلترا ، كان قد غادر الدرعية ، وكان الجلاء العام قد بدأ .

وتساءل سادلير عما يجب عليه أن يفعل ، فان الغـــاية الرئيسية من انتدابه لتلك المهمة كان مقضيـــاً عليها بالاخفاق فيما لو غادر ابراهيم بلاد نجد ، على أنه كان قد تبقى عليه بعض النقاط الصغيرة من مهمته ، وهي تسليم الباشا الظافر سيف الشرف ، والتحدث اليه من غير إظهار اي اهتمام خاص . وللقيام بهذا الواجب ، مهما بدا له ذلك مؤلماً ، قرر ان يقابل ابراهيم باشا .

كان سادلير مزمعاً ان يقوم برحلة لم تسترع أي شيء من اهتمامه ، في حين ان غيره ممن يفوقونه ثقافة ، كانوا يجدون في مثلها فرصة نادرة ، عظيمة القيمة للعمل على تقدم المعرفة ، ولكنه كان بمزيد الأسف ، يجهل واقع شبه الجزيرة العربية ، وتاريخه ، وما يتعلق به ، جهله اللغة العربية وسكان البادية . ويقول هاغارت : ان جميع ابنـاء هذه البلاد كانوا في نظره ونظر معظم الجنود البريطانيين لا أهمية لهم ، ويحملون على الاشمئزاز. ولكن ابنـــاء البلاد كانوا من رهافة الشعور بحيث ادركوا انه لا يمر ببلاد العرب الا مرور « طرد من السلع أنزل على شاطىء وشحن الى شاطىء آخر » .

بدأ سادلير رحلته في الثامن والعشرين من شهر حزيران (يونيه) ، فاجتاز مخيم شيخ بني خالد ، وبلغ الهفوف في واحة الحسا ، بعد خمسة عشر يوماً مضنية بين هؤلاء « الهمج المزعجين » — كما كان يسميهم — الذين كانوا يخفرونه ويدلونه على الطريق . لقد كان الاوروبي الثاني الذي زار الهفوف ، بعد زيارة رينو دي شاليون إياها ، ولكن المعلومات التي يعطيها عنها تقتصر على علو اسوارها المصنوعـــة من اللبن ، وعلى قصص المحاربين . ويخبرنا ان الحسا بحيرات وينابيع ، وأن لا أنهر فيها .

كانت الحامية المصرية مستعدة للالتحاق بالمجموعة الكبرى للجيش في حدير ، فانضم اليها سادلير . وقد تحركت الحامية في الحادي والعشرين

من شهر تموز (يوليو) ومعها ستمائة جمل ، وبلغت بئر رماح . ويذكر سادلير ان من السهل سد السبيل الى نجد من الشرق بردم الآبار التي لا يمكن بدونها ان يأمن من يجتاز نفود الدهناء على سلامته . ولم ينقصهم الماء لأن امطاراً كثيرة كانت قد هطلت في ذلك الصيف .

مروا في طريقهم الى العاصمة المهدمة ، بمَنْفُوحَةَ التي قايض سكانها الجنود المصريين ثلاث بيضات بقرش واحد ، وخروفاً واحداً بأربعة دولارات . وقد رأى سادلير حقولاً مزروعة قطناً وذرة وقمحاً وشعيراً . وبيوتاً من الحجارة ، ومساحات مغروسة نخلًا تروى من آبار عميقة .. ومروا الى جنوبي الرياض ، التي كانت مزمعة ان تصبح العاصمة الجديدة لنجد ، واجتازوا خرائب الدرعية وبساتينها التي حل بها الدمار .

رأى في كل مكان الدمار الذي خلفته الحرب ، وموقف السكان العدائي من الحملة المصرية التركية ، ورأى البدو الذين كانوا قد تحالفوا وابراهيم باشا قد فسخوا الحلف وثاروا عليه .

أوصلهم السير خلال اربعة ايام طوال الى وادي حنيفة ، وعبر قفرٍ من الرمال ، والحصى ، الى شقراء . ومن المؤسف ألا يذكر سادلير شيئاً عن المكان الذي لم يسبق لأي اوروبي ان رآه من قبل . وبعد اجتياز جزء آخر من النفود ، وصلوا الى عنيزة ، حيث قيل لسادلير ان ابراهيم باشا قد توقف في الرس على بعد مسيرة يومين من هناك ، فأسرع ، ولكنه عندما بلغها لم يجد سوى الجيش ، إذ ان ابراهيم باشا كان قد توجه الى المدينة .

أنهك سادلير التعب ، وبدا له ان ابراهيم باشا لا يرغب في ان تجري المقابلة بينهما . فأصر على ان يعاد به أدراجه حتى بصرى حيث اتخذت الترتيبات لعودته . ولكن ممثل الباشا ابى ان يتحمل مسؤولية ارسال رجل انكليزي عبر القبائل غير الموالية . فلم يبق امامه سوى الشخوص الى المدينة رغماً عن ارادته .

بلغ سادلير الحناكية مع فصيلة من الجيش في سبعة ايام ، وأصبح بعد ذلك بيومين في ضواحي المدينة ، ولكن لم يسمح له بدخولها ، بل اقتيد إلى بير علي حيث التقى بسكوتو احد الاطباء الايطاليين الذين رافقوا الحملة .

واخيراً سمح له بمقابلة الباشا في الثامن من شهر ايلول (سبتمبر) ، ولكن المقابلة لم تسفر عن نتيجة مرضية . فقد اكد له ابراهيم باشا انه ليس سوى أداة في يدي والده ، وان والده بدوره ليس سوى أداة في يدي السلطان التركي في استانبول ، وانه لا يعرف شيئاً ، ولا يستطيع ان يقرر اي شيء . فاضطر سادلير الى الذهاب الى ينبع مع حريم ابراهيم باشا ، وبذلك أتم تجواله في البلاد العربية من الشرق الى الغرب في العشرين من ايلول (سبتمبر) .

سافر الى جدة في المركب ، حيث قابل ابراهيم باشا للمرة الثانية ، فسلمه بصورة لا تخلو من السخرية بعض الخيول المرسلة الى حاكم الهند العام . ويبدو ان الباشا لم يكن يهتم اي اهتمام بالخليج العربي ومشاكله ، فكانت مهمة سادلير مخفقة كل الاخفاق ، واحتبس اربعة اشهر اخرى في جدة ، ولم يتمكن من مغادرة شبه الجزيرة العربية الا في شهر كانون الثاني (يناير) من عام ١٨٢٠ .

★

في شهر نيسان (ابريل) من عام ١٨٢١ قرىء اول تقرير كتبه سادلير عما قام به في رحلته ، في الجمعية الادبية في بومباي ، ولكن قصة رحلته لم تنشر الا بعد ذلك بنصف قرن ، بعد ان أثارت رحلة بلغريف في أوروبة الاهتمام ببلاد نجد . ولكن العالم لم يخسر شيئاً بذلك ، لأن سادلير مثال حي لاولئك الذين لا يستطيعون ان يصبحوا رواداً ، والرجال الذين رغم قيامهم بالرحلات الأشد اثارة ، لا يفيدون منها

لانعدام المعرفة الاساسية لديهم ، والتفهم الدقيق لبلاد ليست وطناً لهم . ولكنه كان دقيقاً فيما كتب ، وفي ذلك يكمن فضله .

كان يحمل معه بركاراً جيداً ، وقد عني بتدوين انصاب الطرق ، واسماء القرى ، ومدة السير بين مختلف النقاط . وهكذا تمكن من وضع خارطة للطريق التي سلكها ، وهي مجرد خط رسم على خارطة رقعة العربية الوسطى المترامية الاطراف . وقد يعثر القارىء في تقريره على بعض المعلومات الموضوعية عن نسبة السكان الحضر والبدو في جنوبي نجد ، ومميزات المجتمعات البشرية ، واحوال الزراعة والتجارة ، ووضع الناس في عهد الاحتلال المصري .

على أن المعلومات الجغرافية التي جمعها ضباط الجيش المحارب ، ومعلومات رائد اضطراري كسادلير ، يمكن ان تصبح رفيعة القيمة ، اذا ما قام احد العلماء بجمعها ، وتنظيمها ، واقامها قدر الامكان ، ووضع خارطة جغرافية بالاستناد إليها ، او كما فعل دي لاروك وهو من غير الرواد ، الذي جمع كتابي لافرولوديير وباربيه ، بتفحص النتائج التي حصل عليها الرحالان ، واستخلاص معرفة علمية مما كان في الامكان ان يظل مجموعة من الملاحظات غير المفيدة او غير القابلة للاستعمال .

*

لما فكر نابوليون في حملته على مصر ، لم يفكر في الحرب فحسب ، بل راودت مخيلته ذكرى الاسكندر ، وظهر ذكاؤه في التفكير باللقاء الثقافي بين جيوشه وبين سكان اراضي جديدة مجهولة ، وفي تبين ما سينجم عن هذا اللقاء من زيادة محسوسة في المعارف التي ستنشأ لمصلحة اوروبة . وهكذا تكلم تحت قبة الجمعية العلمية والادبية الفرنسية في عام ١٧٩٨ ، ممسكاً بيديه مجلدي كتاب نيبور المعروف بـ « رحلة الى العربية » وأعرب لاعضائها عن رغبته في ان ينتخبوا عدداً من العلماء لمرافقته الى مصر . فحمل

الاسطول الفرنسي في التاسع عشر من شهر أيار (مايو) عدا الألفي مدفع ، مائة وخمسة وسبعين من رجال العلم ، ومكتبة ضمت معظم الكتب التي نشرت في فرنسا عن مصر ، وعشرات الصناديق المليئة بالأجهزة العلمية والأدوات الدقيقة .

هكذا بدأت حملة نابوليون التي كان مقدراً لها ان تخفق في السيطرة على البلاد ، ولكن ان تنجح في فتح ابواب مصر القديمة امام علماء الآثار . وكان العلماء الذين رافقوا هذه الحملة مزمعين ان يكتشفوا بأنفسهم وقد تملكتهم الدهشة ، آثار مصر ، وتعريف العالم عليها ، وتدشين دراستها .

ولكن هذا الفريق لم يكن يقتصر على عدد من المستشرقين ، وعلى دومينيك فيفان دينون الخصب الخيال الذي كان مزمعاً ان يغدو رائد الآثار المصرية ، بل كان يضم فلكيين ، وعلماء في الهندسة ، والكيمياء ، ورسامين ، وشعراء ، والجغرافي الشاب الشهير ادمه فرنسوا جومار ، الذي انصرف بكليته الى مهمته ، وتعلق بمصر الى درجة انه عندما عاد الى فرنسا ، وهو عضو في الجمعية العلمية ينتظر منه القيام بأعمال اخرى الى جانب نشر الوثائق التي جيء بها من مصر ، لم ينفك يبدي اهتمامه بهذه البلاد ، وظل على علاقات ممتازة مع محمد علي وقد أقنعه ان يهتم بتنشئة شبان يتمكنون من مساعدة بلادهم على التطور العصري . وقد انتخب محمد علي ، بناء على اقتراحه ، فريقاً من الشبان أوفدهم الى باريس . وكان جومار قد انشأ لهم مؤسسة ، فقام هو نفسه بتدريبهم على الفنون ، والآداب ، والعلوم . وهكذا اصبح اول رائد للعون الذي انقضى الآن عصر كامل على تقديم فرنسا اياه لمصر لرفع مستواها الثقافي ، وتربية شبابها .

لقد تمكنت مصر من صد نابوليون ، ولكنها عرفت كيف تحتفظ بإخلاص جومار ، وتفانيه ، واجهزته ، وكيف تفيد من استخدامها .

بعد حملة ابراهيم باشا في شبه جزيرة العرب ، قـام جوماد الذي ضن بأي مصدر من مصادر المعرفة ان يفقد، بجمع ملاحظات الجيوش ، واهتدى في القاهرة الى شيخ نجدي من اقرباء مؤسس الوهابية ، واستقى منـه عن بلاده ، معلومات مكنتـه من وضع الاطار الجغرافي العام لأواسط شبـه الجزيرة العربية .

يضاف الى ذلك ظهور كتاب جغرافي باسم « جيهـان نامه » طبـع في استانبول سنة ١٧٥٠ وألفه رحالة تركي مثقف يبدو انه عرف اواسط شبه الجزيرة العربية معرفة شخصية .

واستناداً الى هـذه المعلومات كلهـا وضع جومار وصفـاً دقيقاً لأواسط شبه الجزيرة العربية فقال انها مؤلفة من اربع منـاطق طبيعيـة من الجنوب الى الشمال : ١ – نجد اليمن وهو منطقـة صحراوية مترامية الأطراف محاطة بواحات خصبة (نجران والدّوّاسر ويبرين) . ٢ – نجد العارض وفيه عدة أودية . ٣ – منطقة القصيم المنخفضة . ٤ – جبال شمر وفيها صفوف من التلال المرتفعة . ووصفه لها موجز ، يشتمـل على اسماء المدن وانواع الزراعات .

وتفوق المعلومات التي يشتمل عليها هـذا الوصف ، فيما يختص بالدقـة الجغرافية المعلومات التي جمعها نيبور عن العربية الوسطى . اما بوركهارت فكان قد اطلع على كتاب نيبور الذي اعطـاه فكرة مختصرة ولكن صحيحة عن هذا القسم الذي لم يتمكن من مشاهدته بنفسه .

وقد توصل جومار ، بالاستعانة بالمعلومـات التي اعطـاه اياها كتـاب « جيهان نامه » والمعلومات التي اعطاه اياها مباشرة صاحبه الشيخ الوهابي ، والملاحظات التي كان قد دونها ضباط هيئة اركان الجيش ، الى وضع كتاب أسماه « نبذة جغرافية عن بلاد نجد » .

وقد وضع احصائيات عن السكان الحضر والبدو استنـاداً الى اللوائح التي كان بعض الناس قدموها الجيش المصري ، وعن منتوجات البلاد الزراعية والصناعية ، وعن الحركة التجارية فيها . وتكلم عن المنـاخ ، والحيوانات

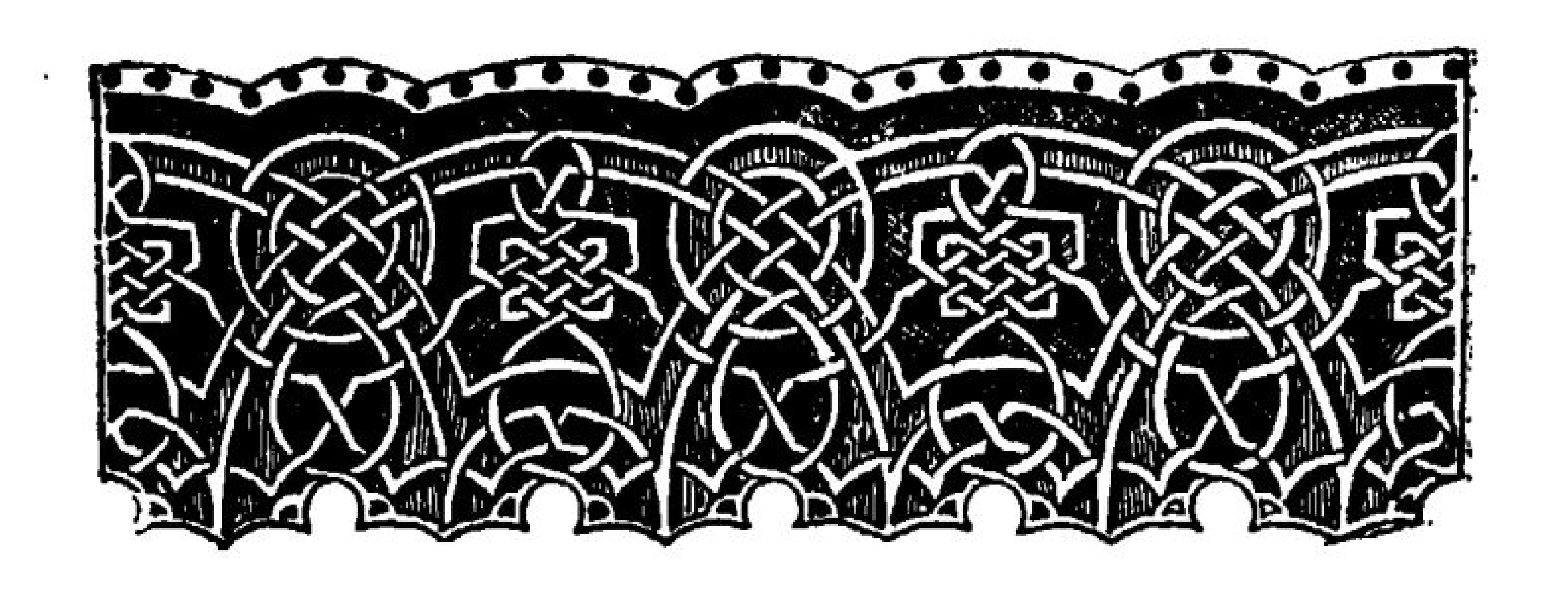
والأنظمة والعادات ، كل ذلك طبعاً استناداً الى ما ادلى به مخبره النجدي .

وارفق هذا البحث بخارطة ، ومكنته الطريق التي كان سادلير قد سلكها من ان يرسم عليها المزيد من الاشارات .

وقد ظلت مواقع بعض المناطق تفتقر ولا شك الى الدقة في التحديد ، لأن تقديرات مدة السير التي قام بها الجيش وسادلير ، اذا كان في امكانها تعيين المواقع الطولية بصورة تقريبية لم تكن كذلك بالنسبة الى المواقع العرضية التي يجب تحديدها بوساطة الملاحظات الفلكية ، او على الأقل ، بوساطة طريق تتجه من الشمال الى الجنوب .

لم تسر الجيوش التركية المصرية ، ولا سادلير الا غرباً شرقاً ، او شرقاً غرباً . ومن الواضح الا يكون جومار اكثر اطلاعاً من نيبور ، وبوركهارت ، وكتاب « جيهان نامه » على المناطق الممتدة شمالي او جنوبي الطرق التي سلكها من استقى معلوماته منهم .

ولكن اوروبة ، اصبحت رغم كل ذلك ، تمتلك خارطة لبلاد نجد ، ولم تعد العربية الوسطى رقعة بيضاء في أطلس العالم .



اكتشاف عسير

لم يكن محمد علي قد فرغ من حملته على اواسط شبه الجزيرة العربية ، حتى خلف مدنها متداعية ، وعاصمتها مهدمة ، وشجع الفوضى والحروب العشائرية التي كانت قد تجددت فور سقوط السلطة الوهابية الموحدة. وكانت الحاميات التركية التي حلت مكانها تنشر فيما حولها نظاماً انتقامياً لاوهابياً . على أن احد افراد الاسرة السعودية المدعو تركي ، قد توصل في سنة ١٨٢٤ الى استعادة الرياض ، وطردِ الحامية التركية منهـا ، والى الاستيلاء على بلاد نجد كلها بين سنتي ١٨٢٤ و ١٨٣٤ ولكن الحجاز واليمن امتنعتا على السعوديين ، فاكتفوا بالحكم في امارتهم الأصلية حتى عـام ١٩١٨ ، حين استولى عبد العزيز بن سعود ، المعروف بالكبير ، على مكة .

وظلت المناطق المتاخمة للحجاز مستقلة عن الحكم الوهابي ، ولكن احدى هذه المناطق التي كان يحكمها ابو نقطة ، المتمتع بقدر من الاجلال لا يقل عما يتمتع به السعوديون ، ما برحت مصدر قلاقل وازعاج لمحمد علي . وابو نقطة هذا هو الذي ذكر علي بك انه رآه يوم زار مكة .

كان علي بك يجهل امارة ابي نقطة ، وكان بوركهارت الذي يعرف ان اسمها عسير يظن انها مدينة . اما نيبور فقد جهل حتى اسمها . ولكن الجغرافيين العرب لم يكونوا احسن اطلاعاً من هؤلاء ، ويلاحظ جومار أن لا مؤلف « جيهان نامه » ولا ابا الفداء ، ولا غيرهما من المؤلفين الذين كانوا قد عرفوا حتى ذلك الحين ، مثل عبد اللطيف وابن بطوطة ، والمسعودي ، ذكر شيئاً عنها ، ولم يأت على ذكرها إلا الإدريسي . وقد ترك موقع عسير ابيض على الخارطة الآسيوية التي وضعها الجغرافي الألماني هنري برغوس في سنة ١٨٣٥ .

على ان قنصل فرنسا في جدة ، فولجانس فريسنل الذي كان من المقدر له ان يمثل دوراً عظيماً في تنمية المعارف عن جنوبي الجزيرة العربية ، علم ان هذه البلاد عامرة ، في الحقيقة ، بالقرى والمناطق المأهولة ، غنية بالمزروعات . وقد أثار الدهش ، من جهة اخرى ، تمكّن احد انصار الأتراك من تجنيد عشرة آلاف رجل من هذه المنطقة التي كانت تعتبر ثائرة عليهم . فأي احتياطي كبير من الرجال كان فيها ؟

كانت هذه الامارة الدائمة الاضطراب تشكل خطراً على محمد علي ، ولكي يحمي الحجاز من التسللات المحتملة كان قد جعل من الطائف مدينة محصنة ، يوجه منها الغارات ، من حين الى آخر ، الى المناطق المتاخمة لجبال عسير . ولكن لم يسهم أي اوروبي في هذه الغزوات ليجمع بعض المعلومات عن المنطقة التي يجتازها المغيرون .

في سنة ١٨٣٢ اعلن علي ، احد قادة الجيوش التركية الملقب : « بتوركجه بيلمز » العصيان وانضم الى زعيم عسير . فاستولى احدهما على المخا ، والآخر على ابي عريش عاصمة المنطقة الساحلية في عسير . ولكن سرعان ما اختلفا ، فانتزع ابو نقطة المخا من يدي « توركجه بيلمز » وطارده ، الا ان المرض سبب وفاته فحل محله المدعو عايض .

قرر محمد علي ان يتدخل ، فانزل جيوشاً في جيزان لينقذ حليفه في

« ابو عريش » من الحصار الذي يهدده به عايض ، فاضطر هذا الأخير الى الانسحاب الى الجبال ، وامر محمد علي حاكم « ابو عريش » بمهاجمته من الغرب ، في حين يقوم هو بمهاجمته من الطائف في الشمال . ولذا وضع تحت امرة احمد باشا جيشاً قوامه ثمانية عشر ألف رجل انزلهم في جدة .

ورافق الجيش فريق للخدمة الصحية يضم عدداً من الأطباء والصيادلة الفرنسيين والايطاليين . وبفضل اربعة من الفرنسيين ، اضيفت بلاد عسير الى قائمة البلاد المكتشفة التي امكن ادراجها على الخرائط الجغرافية .

*

كان رئيس الأطباء رجلا يدعى شيدفو ، وقد اتخذ اميناً لسره موريس تاميزيه ، الذي غادر فرنسا ، وارتضى هذه الوظيفة فرحاً لرغبته في زيارة الشرق ، وقد وضع تاميزيه هذا فيما بعد ، قصة الحملة في كتاب من جزأين جدير بالثناء .

ضمن تاميزيه كتابه وصفاً مثالياً للجماعة المختلطة من الأوروبيين العشرين ، من فرنسيين وانكليز وايطاليين ومالطيين وكورسيكيين واغريق وبيامونتيين ، وكانت هذه الجماعة تدعو الباشا وحاشيته الى العشاء في خيامها ، ترتب الموائد والكراسي ، وتضع الصحاف على الموائد ، مثيرة دهشة العرب ، ولا تنقصها الوسائل الترفيه عن الباشا وجماعته . فقد كان صيدلي ايطالي يحيرهم بألعاب الشعوذة التي يقوم بها ، ورجل بيامونتي يعزف لهم مقطوعات موسيقية شهيرة على بيان مستورد من الهند اشتراه الأطباء الفرنسيون ، وكان مسك الختام الذي يزيد الفرحة العامة اكتمالاً الرقص والعزف على الماندولين . ولكن ، من البدهي ، ان ابناء البلاد لم يكونوا ليشاطروهم تلك الافراح ، وان حضور قادتهم وزعمائهم مآدب « الكفار » كان يسوؤهم جداً . وكيف كان يستطيع اولئك البدو ان يفهموا « تقدمية » الأتراك والمصريين حيال التشدد الوهابي الذي كان يحرم الموسيقى ؟

ومن جهة اخرى ، ظهر فضل الأطباء في انقاذ الجنود المحتضرين الذين كانوا يتركون على جانبي الطريق يموتون عطشاً ، او في قعر الوديان القاحلة التي كان الجيش يجتازها ، وانقاذ المرضى الذين كانوا يبدون عدم اكتراث غريب بامراضهم الجسدية التي كانت تفضي بهم الى الموت .

لقد بدت الصورة التي رسمها تاميزيه في كتابه « الجيش التركي » كالصورة التي رسمها له لورانس في سنة ١٩١٨ : شبان ، بل احداث ، يعاملهم قادتهم الألبانيون المهتمون براحتهم ورفاهتهم الخاصتين معاملة غير انسانية . ولكن شعور العطف الذي يوحيه الجيش في سيره ينقلب الى شعور فظيع ، عندما يرى المرء هذا الجيش ينصرف بحماسة بعد المعركة ، الى ضروب الوحشية الفظيعة التي لا طائل تحتها . وقد عبّر تاميزيه عن استنكاره الشديد المطلق لتلك المشاهد ، واشمئزازه منها .

ورسم السكرتير الشاب صورة لقادة الحملة : احمد باشا ابن بائع بهار وجبن ، ونسيب محمد علي عن طريق امه (ابن بائع تبغ في القاهرة) وهو بادي السقام ، خلق للتمتع بمفاتن الحياة البيتية ، لا ينقصه كقائد ، المهارة والفطنة ، ولكنه يفتقر الى الارادة والقوة ، اما معاونه في رئاسة الاركان ، امين بك ، فمثقف ثقافة اوروبية ، ابي النفس ، لطيف ، تقي ، واما الفريق مصطفى بك فجاهل متكبر يضمر الاحتقار لغير المسلمين ، مفرط الكسل ، وكان الشيبي افندي « حارس مفتاح الكعبة » قد رافق أيضاً هذا الجيش ، وهو من افراد حاشية احمد باشا المتوقدين غيرة ، ويقول تاميزيه « أهدى إليه هذا القائد مؤخراً عربة رائعة جيء بها من باريس الى القاهرة لاستعماله الخاص » .

هكذا كان الجيش وقادته ، وفريقه الصحي . اما بالنسبة الى تاميزيه فان ذلك كان مزمعاً الا يكون سوى اطار هيأته العناية الربانية لرحلة ارتياده .

وما كاد يبلغ جدة حتى تزيا بزي شرقي خشية ان يمس شعور العرب ، وأرخى لحيته . وهو يقول : « كنت احاول جهدي الا امس شعور احد في آرائه . وكنت احترم عادات السكان ولا سيما دينهم ، وبفضل هـذا السلوك الذي ليس في تطبيقه العملي أية صعوبة ، جعلت نفسي في منجى من النفور والكره اللذين يكنهما سكان الأراضي المقدسة لكل من لا يدين بالاسلام » . .ولم يلبث الناس ان اطلقوا عليه لقب « الشيخ فرنجي »

ولم يضع وقته في جدة حيث قضى الجيش بعض الوقت ، بل وجد بعد بور كهاردت ، اشياء جديدة للملاحظة . فقد رأى بادىء ذي بدء قبر حواء الذي أعيد بناؤه بعد ان هدمه الوهابيون ، وهو بنـاء عادي ، يقوم بحراسته ناسك قديس ، حالم لطيف ، اكتفى ، بعد ان عرف ان تاميزيه قد لا يكون مسلماً ، بـأن يقول : « أليست حواء ام جميع البشر ؟ » وذكر له ان هـذا القبر قد جعل عند وسط سُرّة حواء تماماً ، وان جسمها لطويل الى درجة ان رأسها في المدينة وقدميها في افريقية .

واطلع تاميزيه على اسطورة شائعة حول نشوء جدة ، تزعم ان محمداً نفسه قد اسس هذه البلدة عرفاناً منه بجميل صيادين ألقياه وجده في احدى الجزر فهرعا لنجدته ، وتقول القصة انه كان متردداً في مغادرة شبه الجزيرة العربية التي كان عدم ايمان اهلها يبعث في نفسه اليأس ، ولكنه اتجه بعد ذلك الى المدينة .

وقد لفت نظر امين السر الشاب حي الطقروسين في ضواحي منطقـة جدة . فأكواخهم ، حين يكون لهم اكواخ ، لا ترتضي كلاب اوروبة ان تسكنها لفظاعتها ، فمن هؤلاء « السود » الذين اصبـح اسمهم يرادف احط ما في الوجود ؟ » لقـد بـذل جهـوداً لمعرفة ذلـك ، الأمر الذي ألقى نوراً على احدى الطرق التي يأتي بها العبيد السود الى شبـه الجزيرة العربية .

ان اصل هؤلاء التكرونيين من بلاد تكرور او بورنو الواقعة ما وراء دارفور في قلب افريقية . « وبما ان اراضي بلادهم غير خصبة ، ولا تكفي محاصيلها لسد احتياجات سكانها ، ترسل الحكومة في كل سنة ، بذريعة الحج ، بضعة آلاف منهم ، تصحبهم النساء في اغلب الاحيان » . فيجتازون بلاد دارفور ، وكردفان سيراً على الاقدام ، عبر الصحاري ، يبيعون بعض العقاقير ، وجذور النبات التي اتوا بها من بلادهم ، وبعض التعاويذ ، وسوائل الحب ، ويمرون بالخرطوم ، ودنقلة ، ثم الحبشة حتى مصوع او سواكن .

ويعود بعض هؤلاء الحجاج ادراجهم ، ولكن السواد الأعظم منهم لا يجد في نفسه الشجاعة ، حين يتذكر المشاق والمخاطر التي تعرض لها في المجيء ، للقيام برحلة العودة ، فيقرر الاقامة في مدن الحجاز الرئيسية . وهناك يتعاطى هؤلاء السود احط الاعمال التي لا يمكن ان يقوم بها افقر العرب ، وينتهي بهم الامر الى ان يغدوا كالبهائم ، لا يحتفظون من انسانيتهم الا بشكلها . « واذا وجد بينهم عدد من المتفوقين على ابناء جنسهم في الذكاء ، فليسوا سوى اولئك الذين يسعفهم الحظ بأن يقع عليهم اختيار بعض الاثرياء الذين يستخدمونهم قبل ان يهوي بهم الفقر والشقاء والحنين الى الوطن ، الى درجة البهائم » .

« تقوم نساء من يحتفظون باستقلالهم من التكرونيين بصنع الخزف وبيعه في الاسواق . ويصنع ازواجهن الحروز ، والسوائل ، او يعملون كتقائين . وليس لعدد كبير منهم منازل ، فينامون في العراء . اما الذين يعودون ادراجهم الى بلادهم التي جاؤوا منها ، فلا يبلغها منهم الا عدد ضئيل . وتبتلع الزوابع الرملية احياناً قوافلهم ، او يهلكهم العطش ، وهكذا تصيب حكومتهم الهدف ، الذي رمت اليه » .

ولاحظ تاميزيه بفضول ، تجار رقيق سواكن ، الميناء الحبشي التابع

لشريف مكة اولئك السود ذوي الوجوه الشبيهة بالصين شكلاً والمظهر النبيل ، والانوف القنياء والذقون الدقيقة ، ووصفهم بقوله : « عيونهم أشبه بعيون النسور ، وهم يعدلون العرب اباءً ولكن يفوقونهم في اللطف ، والحيا المبر ، وما هم عليه من مزيج غامض من الطيب ، واللامبالاة ، والكبرياء ، يجعلون شعورهم الكثة الطويلة الفاحمة السواد ، المدهونة بالسمن ، حزمة ضخمة فوق جباههم ، ويتركون عدداً من الضفائر المتوازية مسترسلة على اعناقهم ، وقد غرسوا في هذه الرزمة من الشعر قضيباً صغيراً طوله ست أصابع لرقق الحصر التي تتمزق ، يكسون اكتافهم في اناقة بقطعة من النسيج الأبيض ، وثيابهم البسيطة ، لكن الأنيقة ، ذات مظهر نظيف يدل على رفاهة عيشهم وتفوقهم » .

*

وأخيراً سار الجيش نحو الطائف في السابع عشر من شهر أيار (مايو) من سنة ١٨٣٤ وراء عدد من الادلاء القريشيين الذين حيّر جومار فقرهم البادي . وقد قيل له ان هذه العشيرة التي ينتمي إليها محمد بن عبد الله ، لم يبق منها سوى ثلاثمائة رجل . وهناك من ينسب ذلك الى اللعنة التي صبها النبي على ابناء عشيرته الذين لم يؤمنوا برسالته ولكن تاميزيه أعجب بما لمس فيهم من الفخار والميل الشديد الى الاستقلال

لم يكن الطريق الذي سلكوه الى الطائف هو الطريق الذي سلكه بوركهاردت بل كان يمر الى الشمال ببَحْرَة ، وحداء ، ووادي فاطمة ، ووادي الليمون .

قبل ان يبلغوا الزَّيْمَة توقفوا عند بئر البَرُود ، وقد تأمل تاميزيه بدهشة وفضول حقلاً من الخرائب القديمة ما يزال سرها غير مجلى حتى اليوم ، رغم ان فيلبي مر من هناك في ايامنا هذه . وقد قال تاميزيه عنها : « انها اطلال هامة وعديدة تبرهن بوضوح ، رغم كونها على مستوى

الأرض ، ان مدينة كانت تقع هناك فيا مضى . جدران من الحجارة الصوانية ، ودرج من الحجارة الضخمة ، وأنواع من الأسطحة المستوية المتقاطعة في زوايا قائمة يحيط بهذه الأطلال خرائب اخرى اقل منها شأناً ، ولكنها تعطي فكرة عن عظمة اولئك الذين أنشأوا تلك الأبنية . ولكن من هو الشعب الذي شادها ؟ والى أي عصر يرجع تاريخها ؟ وما هي النكبات التي جعلتها تؤول الى هذا المصير الذي نراه اليوم ؟ كل هذه اسئلة غامضة ، ان لم نقل تتعذر الاجابة عليها .

« اذا أنعم المرء فيها النظر اكتشف احجاراً منتثرة على الأرض ، ولكن لا تحمل اية كتابات اثرية ان ما يبدو لي اكيداً هو ان الحجارة قد استخرجت من الجبال المجاورة ، وان هذه الابنية تسبق عهد النبي محمد بكثير . »

وقد سأل تاميزيه عنها البدو دون ما طائل ، وكان الجواب الوحيد على سؤاله : « لقد علم أجدادنا من آبائهم ، واخبرونا بدورهم ان هذه الخرائب اقدم من العالم . »

وحين بلغ منطقة السيل ، ألفى نفسه في أراضي عشيرة عتيبة ، ولاحظ حياة البداوة ، فكتب يقول : « انها عشيرة مؤلفة من سبعمائة بيت ، وهي غنية تملك الخيل . مراعيها جيدة ، اما اذا انحبست الامطار ، فهناك الخراب . ينجد الناس بعضهم بعضاً ، ولكن الضيافة لا يمكن ان تتجاوز الثلاثة ايام . ولا يمكن النزوح الى مكان آخر ، لان لكل عشيرة أراضيها التي تعرف الحدود المتفق عليها ، هذه الحدود التي تتكون اما من واد او من خط من الحصى ، او من صف من أشجار السنط (الميموزا) ولها الحق في ان تقتل او تضع اليد على الماشية التي تدخل أراضيها . »

ورأى تاميزيه عدداً من أولاد العرب من امهاتهم الزنجيات ـ والعكس لا وجود له ـ وذكر ان ولد العبد والامة عبد ، وان ولد العربي من

الامة حر ، يتمتع بحقوق العربي النقي العرق ويتحمل ما عليه من واجبات ، اذ ان دم الاب يحرره من العبودية تحريراً مطلقاً .

واتضح لتاميزيه ان شبه جزيرة العرب من بلدان العالم التي تقوم فيها بين الانسان والحيوان علاقات الالفة : « فالجمل هناك يلقى معاملة الصديق الحقيقي يتحدث اليه البدوي في الطريق عن اجداده ، ويقطع له عهوداً ، وينشد له اناشيد الحب والقتال . والجمل يصغي إليه بانتباه كلي ، والتعبير عن اللذة التي يشعر بها ، يضغط على شدقيه ، ويصر اسنانه ، ويدير رأسه نحو الحادي ليعيره انتباهاً اكثر ، ثم يبدو ، وقد أخذ بهذه الالحان البدوية ، انه قد نسي حمله ، فيجتاز مسافات لا يكاد يصدقها العقل ، ينقل اخبارها السلف للخلف . » لكنه اذا هَدَرَ غاضباً قذف بالشتائم وذكّر بالمعروف الذي أسدي إليه تخجيلاً له على نكرانه الجميل ، ولكي يحمى من العين وكل سوء ، يعلق له حرز في عنقه .

★

وأخيراً وصل الجيش الى الطائف ، والصورة التي يرسمها تاميزيه عن البلدة تبدو له محزنة كما بدت لبوركهاردت . فقد تهدمت جميع الأبنية الأثرية القديمة ، وفتك الطاعون الذي تفشى ما بين عام ١٨٣١ وعام ١٨٣٢ بعدد من السكان الذين كانوا قد نجوا من المذابح في سنة ١٨٠٢ ، فهبط عددهم من عشرة آلاف نسمة الى ألفين وخمسمائة . ولعل هذا ما كسا وجوه بدو الحجاز بتلك السمة من الكآبة التي اثارت اهتمام تاميزيه ؟

ولكن اذا كانت المدينة على هذه الحال ، فلم تكن الطائف كلها في الحقيقة كذلك ، فان ما يجب رؤيته فيها اطارها الثمين من الجنائن التي تشكل في سفح الجبال الجرداء القاحلة المحيطة بالسهل المجدب . حيث تقوم المدينة ، حلقة من الحلوات البديعة . فما وراء الاسوار الترابية التي تصد الانظار الفضولية ، يُظل فيض من الاشجار والخضار ، تجري من تحتها

مياه الري ، مرادقات وعرشاً يأتيها صاحب البستان وزوجاته منذ شهر حزيران (يونيه) ، للتمتع بما في هذه الامكنة الممتازة من برودة ، وتكمل مزارع الفلاحين كل ملكية من هذه الملكيات الزراعية التي تخص عادة احد الاشراف او أحد أئمة الكعبة ، أو موظفيها ، أو أحد التجار الأثرياء .

وفي احدى هذه الجنان التي تنبت فيها ورود الطائف الشهيرة ، والتي أثارت اعجاب تاميزيه ، شعر بأن بما يخل بسحر هذا الجمال صرير ناعورة يديرها عدد من العبيد دون ما توقف لاسالة ماء البئر في أقنية الري . ولكن الملاك الفطن يشرح مستفهماً : « ترى ماذا يحدث اذا كفت الناعورة عن الصرير ، الا يتوقف العمل في هذه الحال ، من غير ان نشعر به ؟ في حين ان المراقبة مستمرة ما دام الصرير مسموعاً ؟ »

واشجار هذه الجنائن على الأغلب أشجار تين وتوت وجميز ودراقن ولوز وخوخ وتفاح واجاص ومشمش ، تضاف إليها أشجار البلاد الحارة كأشجار الليمون والموز والرمان والقليل من أشجار النخيل .

وتتدلى عناقيد العنب الأبيض والأسود من الدوالي المعرشة ، وفي بساتين الخضار ينبت القرع والبطيخ الأحمر ، والشمام ، والخيار ، والباذنجان ، والفليفلة ، والبصل ، والبقلة ، والبندورة ، والملوخية ، والباميا . والنحل والفراش يتنقل من نوع الى نوع آخر .

يخرج المصطافون السعداء من الظلال في مواعيد الصلاة للذهاب إلى المسجد . عندئذ يبدو السهل القاحل وقد شكلت فيه المراكب الميممة شطر المدينة اخاديد . « يركب السيد بغلة جميلة ، مسرجة بسرج جميل موشى بالنقوش والزين ، يرافقه عدد من العبيد يعدون له سجادة الصلاة في فناء المسجد » .

في هذا المجتمع الغني ، يجمع ذوو المقام الرفيع في منازلهم عدداً كبيراً من الأصحاب ، يتحدثون في السياسة جادين ، ويندر ان يتطرقوا

في أحاديثهم الى موضوع الدين . تـدار القهوة ويقدم الشاي باستمرار ، ويلهو الحضور بالعب بطاولة النرد والشطرنج ، دون ان يقامروا بالمال .

ان مناخ الطائف المعتدل هو الذي يجعل منه مكاناً لا منافس له . يسقط فيه الثلج مرة كل خمس سنوات على وجه التقريب ، ويرى فيـه الصقيع يكسو الأرض مرة في السنة على الاقل . والسماء في الليل مفرطة اللألاء .

يبذر القمح في شهر تشرين الاول (اكتوبر) وينضج في شهر أيار (مايو) ، وتجمع ثلاث غلال من البرسيم .

ولهذا المكان في الاسلام تاريخه وأسطورته . لقد كان أهـل الطائف يعادون رسالة محمد بن عبدالله شديد العداء ، ولكنهم اضطروا الى التسليم في نهاية الامر . وكان شرط الصلح ان يوافقوا فوراً على تحطيم صنمهـم « اللات » . وقد طلبوا مهلة ... ولكن محمداً لم يلن ، وأصر على ذلك . وهكذا انتصر الإله الواحد ، في هذه المدينة المغلوبة على امرها ، على الصنم المعبود الذي ثبت عجزه وبطلانه ، وما لبث الورع الاسلامي أن تأصل في القلوب .

وعندما يدخل المرء المدينة من الجنوب بين جبال أشبه ما تكون بقوالب السكر شكلاً يصل الى حجرة منصوبة كتب عليها بالعربية قصة اعطت المكان الاسم الـذي عرف به « مَضْمن الغزالة » . وترى بعض التجاويف على صف طبيعي من الحجارة يقال انها آثار أقـدام الغزالة . يقال بالفعل ان محمداً رأى ذات يوم ان جاراً له يهودياً قـد اشترى غزالة منتفخة الضرع ، فرجـاه أن يطلقها بكفالته كي تذهب فترضع صغارها ثم تعود . وعـادت الغزالة في منتصف الليل ، ولكن اليهودي ذبحها وأكلها طمعاً في لحمها وفي كفالتها . وعـلم محمد بذلك في الغـد ، فثارت ثائرته على اليهودي ، وأعاد الحياة الى الغزالة ، وأطلقها فعادت إلى

صغارها تاركة آثار أقدامها على تلك الاحجار المسطحة ، ويبدو على صخرة تقع في مكان أعلى من موقع تلك الاحجار أثر كوفية النبي واضحاً كشعب مطروق ، ويظهر باتجاه القمة أثر عديم الشكل يقال انه أثر قدم النبي التي زلت في ذلك المكان . أما كوم الحصى التي لا يكاد يحصرها عد ، والتي تكسو الارض والصخور المسطحة ، فهي التي يضعها الحجاج تذكاراً لزيارتهم الخشوعية .

*

ولكن بعد أن انجزت الاستعدادات أخيراً ، عزم أحمد باشا على التحرك مع القسم الأعظم من الجيش في السادس والعشرين من شهر حزيران (يونيه) باتجاه بيشه ، حيث كان عليه قبل كل شيء أن يستميل اليه العشائر ، والطريق من الطائف حتى منخفض سهل بيشه وواحاتها ، تقع على ارتفاع ١٦٣٠ متراً ، إلا في بعض الأودية التي اضطر الجيش إلى البحث فيها عن الماء عند توقفه .

الجبل أجرد ، محزن . ولكن تاميزيه رأى في أسفل الوديان شعيراً وقمحاً ، حتى شجيرات غار ، وورودا واشجار الاثل ، والأرم ، والنخيل ، وبعض الخضار . ويذكر ان احدى المحطات كانت كالملعب المقفر ، نبتت حول بئرها أشجار الجميز .

يمتد في وادي درة سهل رملي تكسوه أشواك ذات أوراق ناعمة يجمعها العرب بالمالم المريضة او الأنضاء ، على حصر مستديرة يبسطونها تحت الأغصان التي يخبطونها بعصي طويلة .

انها بلاد متناقضات ، فلم يكد تاميزيه يخرج من وادي تربة حيث كان يجرى جدول كثير الأسماك بين البرسيم ولسان الحمل والنعنع والخيزران وقصب الغزار ، حتى ألفى نفسه — وكان ممتطياً جواده في المقدمة يجري به خبباً — « في وادي سيل ناضب مثل فوهة البركان . » وغدا الجيش كله في

شديد الخطر ليلة كاملة ، ولكن مرحلة الليل أدت به بعد مضي ثلاث ساعات إلى عين ماء لولاها لقضي عليهم عطشاً . بيد ان الدليل تردد ولم يعد يتبين الطريق . ويذكر تاميزيه ان من السهولة أن يُهلك الدليل جيشاً بكامله في بلاد مثل هذه البلاد . ولكنه وجد لحسن الحظ ، المضيق العميق الذي يشق الجدار الصخري ، ذلك الجدار الذي بدا في الليل متعذر الاجتياز .

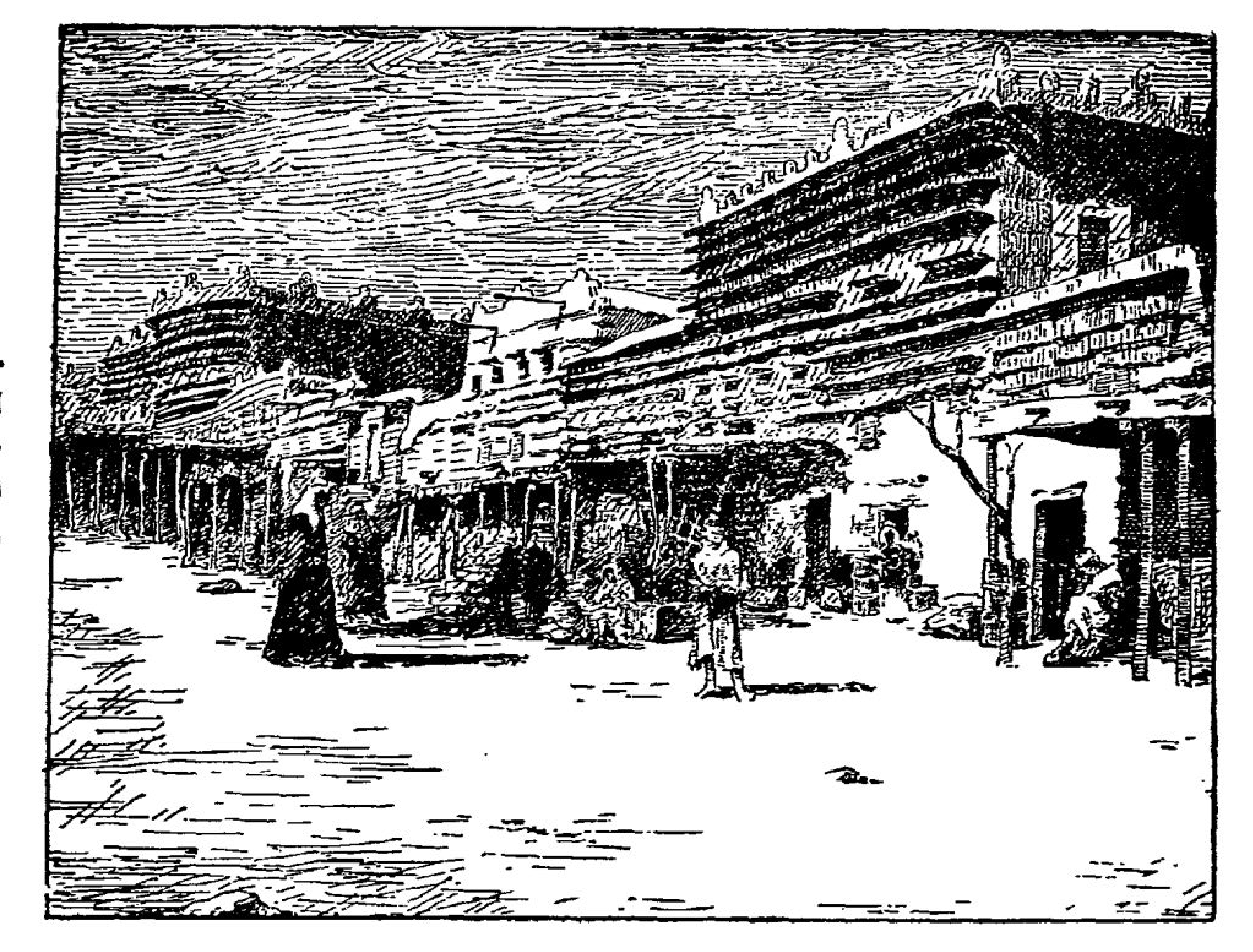
ان البدو في ذلك المكان من قبيلة عتيبة وهم رعاة تكسو أجسامهم أطمار من الصوف الخام ، وتضع نساؤهم خزامات في انوفهن ، ويلبسن عقوداً من الصدف ، ويضمن سلاسل صغيرة من الحديد في حجابهن . وكان سكان قرية العقيق قد هجروها عند اقتراب الجيش ، ولم يبق فيها إلا التكرونيون الأحرار الذين يعرضون أولادهم للبيع برضى منهم .

بلغ الجيش أخيراً وادي دَنْيَة ، وغابة من النخيل تحيط بقرية تسانيا الكبيرة ، وراء وادي بيشة الذي لم يلبث أن بدا في كل روعته ما وراء بحر من الرمال يتناقض الصمت المخيم عليه وجدبه ، مع المزروعات الجميلة المخضوضرة في الأفق .

في هذا الوادي مجموعة من القرى يعمل سكانها بالزراعة والحراثة ، والبدو يتهمونهم باقتباس عادات الفلاحين ، ويأبون أن يتزوجوا من بناتهم لأن آباءهن قد أضاعوا أصلهم ، وأفسدوا نقاوة جنسهم .

كان الجيش حتى هذا المكان قد تتبع سلسلة الجبال الصغيرة الأخيرة في شرقي عسير ، ولكنه ابتداء من بيشة كان مزمعاً أن يتوغل نحو قلب السلسلة الجبلية .

تحرك الجيش في السابع من شهر آب (أغسطس) متبعاً وادي بيشه المنحدر من أعلى منطقة ، في ضواحي العاصمة ابها . وأصدر أحمد باشا أمراً الى حاكم أبي عريش أن يهاجم عسير من الجنوب . وكان مزمعاً هو نفسه أن يقتحم منطقة عيت المنعزلة متوغلاً في امارتها .



منازل في مدينة أبها ، نقلاً عن صورة فوتوغرافية التقطتها بعثة ريكمانس فيلبي .

سلك الجيش وادي مرنجاب لا وادي بيشه ، وأخذ يجتاز مرة ثانية جبالاً قاحلة ، جرداء ، هزيلة ، ممزقة ، ثم أودية معشبة ، ومضايق يسودها خراب كامل مروع ، ثم وادياً خصباً ظليلاً نبتت فيه أشجار النخيل ومعرشات العنب والقطن ، وقامت فيه منازل عالية بشكل اهرام رباعية الاضلاع ، محذوفة الرأس .

في وادي الحامة ، الذي يقول انه يتصل بوادي بيشة ــ الأمر الذي يُفترض منه ان الخرائط التي وضعت استناداً إلى رحلات فيلبي الى هذه المنطقة تحتاج إلى اكمال نقائصها من هذه الجهة ــ اكتشف وادياً « رائعاً » تقوم على كل من جانبيه قرية حصينة ، وأشجار نخيل ، ومزروعات ذرة ، وقطن ، و كروم عنب ، وأشجار تين ، وأشجار حور . وقد أسرع السكان في الهرب من القريتين اللتين غدتا مقفرتين بشكل غريب . وشاهد قروداً تسكن ضواحي هاتين القريتين .

وأجمل من هذا الوادي ، وادي شهران الواقع في وادي بيشة ، حيث تنمو أشجار النخيل ، والتين ، والعنب ، والدراقن . وقد شاهد تاميزيه ، والألم يحز في نفسه ، الجيش يقوم بإتلاف المزروعات ، وتهديم المنازل المهجورة .

تمتد في الوادي على بعد قليل غابة من السرو والصنوبر ، وتقع بعدها قرية ينفور (غير المذكورة على الخارطة الحالية) ، بين جبال انتصب على قممها سور ضخم متهدم لا بد أن يكون قد احتمى وراءه معسكر ، أو أن يكون قد شهد معركة دامية ، لأن الأراضي المحيطة به مكسوة بقبور صغيرة من الحجارة الناشفة ، ولا تزال أطلال قلعة بادية في الوسط .

عند هذه النقطة من الطريق أخذت تباشير المعركة تلوح . فقد وردت أخبار من بعض القبائل تعلن انحيازها إلى جانب الجيش . وقد استدعى

أحمد باشا أبناء عشيرة يام المجاورة المرحلة المقبلة ، ووصـــل من اليمن ثلاثمائة رجل وكميات من الأرزاق تكفي أربعة أيام .

تحرك الجيش في اليوم التالي متجهاً إلى مكان الملتقى الذي كان سيصبح ميدان المعركة ، وبعد اجتياز بعض سلاسل الجبـــال الصغيرة الصخرية ، تراءت للعيان قرية خميس مشيط حيث اتخذ العدو مواقع حصينة .

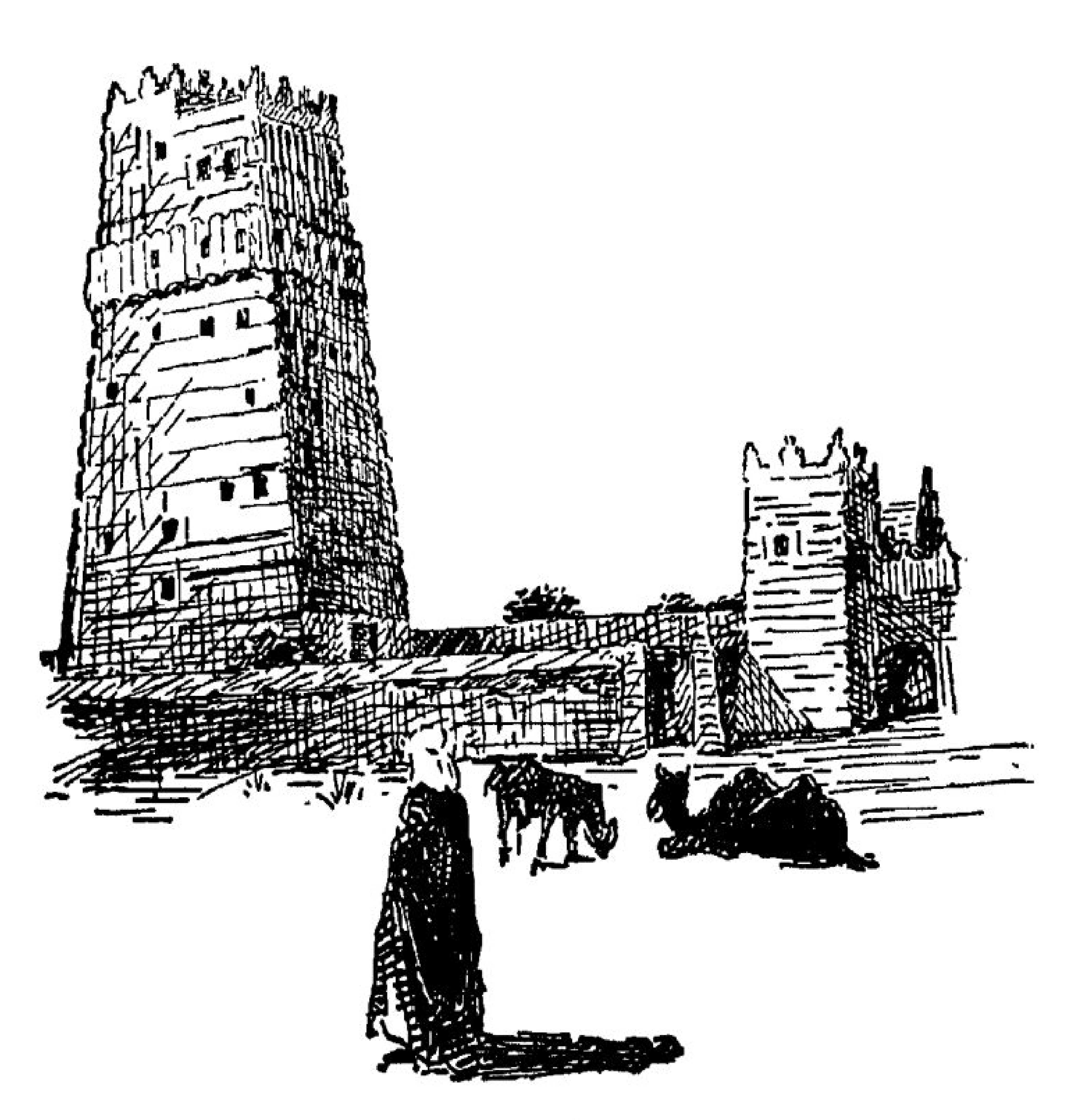
انه حوض « شديد الاخضرار بأشجار البلح ، والأشجـــار المثمرة ، والمزروعات المختلفـــة كالبرسيم والحنطـة والشعير والذرة التي ترتفـع إلى علو هائل ، تحيط به جبال تكسـو سفحها القرى ، وتنتصب باتجاه السلسلة ست قلاع » .

انتشر الأتراك وركزوا مدافعهم ، ووزعوا قوات البدو . وقد احتلوا في المرحلة الأولى من المعركة الحصون التي وجـد المدافعون عنها أنفسهم منكشفين أمام قنابل المدفعية . وحوالي المساء فقط خرج جيش القائـــد عايض من المضيق الجبلي بعد فوات الأوان . وكان قد اتكل على مقاومة القلاع ، ولكن خططـه أفسدت . وبوغت من الوراء وغلب واندحر في ساعـة من الزمن . ولم يتكبد الأتراك خسائر تستحق الذكر ، ولكن عايض خلف وراءه خمسمائة من القتلى وأصيب عدد مماثل من رجاله بجراح . وهنا ظهرت الهمجية في قطع الرؤوس وصلم الآذان ، وذبح الأسرى ، التي أعطت تاميزيه فكرة مؤلمة عن تصرف الجيش التركي .

سقط موقع خميس مشيط ، قلب عسير الأخضر الخصب ، ولكن كيف السبيـــل الى اقتناص النسر في وكره الجبلي ؟ فقـد انسحب عايض إلى مناظر ، قلعته الواقعة على ارتفاع ثلاثة آلاف متر عن سطح البحر .

توجه أحمد باشا إلى الجبل من غير احتياطي من المؤن ، باتجـاه أبهـا عاصمة عايض التي كان قد انسحب إليها ، فان ما أطلق عليـه تاميزيه اسم مناظر ، لم يكن سوى أحد أحياء أبها . وقد بلغ الجيش هضبة محاطـة

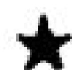
بالجبال بعد أن اجتاز أودية معمورة خصبة ، وعسكر في حي المناظر . وكانت قلعة عايض واقعة على المنحدر الغربي من الجبل على مسيرة عدة ساعات من هناك .



مزرعة محصنة في نجران ، نقلا عن صورة فوتوغرافية التقطتها بعثة ريكمانس – فيلبي .

بعد فترة انتظار طويلة ، حاول أحمد باشا القيام بهجوم كان موفقاً ، ولكن العدو صعد إلى أعلى الجبل ولما بلغ المطاردون القمة لم يجدوا أحداً أمامهم ، ولم يعودوا يجسرون على التقدم ، فأمر أحمد باشا بالانكفاء .

منذ ذلك الحين لم يعد للجيش من عمل سوى الانتظار يوماً بعد يوم ، والرد على التحرشات المستمرة التي كانت تقوم بها فصائل صغيرة من البدو . فانحطت معنويات الجنود ، وانتشر المرض والجوع بينهم . ولم يعد أحمد يجرؤ لا على الهجوم لأنه أضعف من أن يفلح فيه ، ولا على التقهقر لانعدام الأرزاق . لقد تغلبت عليه عسير ان لم نقل زعيم عسير ، فاضطر قاهر « خميس مشيط » إلى طلب عقد الصلح الذي كان الوسيلة الوحيدة لاعادة جيشه بمساعدة الادلاء ، إلى منطقة الأمان . وقد وقعت معاهدة الصلح في السادس والعشرين من شهر أيلول (سبتمبر) .



لا شك في ان تاميزيه عاد عن طريق المنطقة الساحلية المعروفة بتهامة عسير ، وفي صدد تحدثه عن حاكم أبي عريش عاصمة تلك المنطقة ، وصف لنا المدينة فقال انها لا تشبه أياً من مدن اليمن أو البلاد الأخرى التي سبق لنا أن عرفناها ووصفناها .

ان هذه المقاطعة الحارة الرطبة لا تشبه سلاسل الجبال الشاهقة التي تطل عليها في أي وجه من الوجوه ، نباتاتها أشجار البلسان المكية ، والداتورة ، وفي بساتينها السنا الحجازي ، والحنظل ، واللفت ، والموز ، والملوخية ؛ وشجر الأراك بشكل مورداً هاماً من موارد البلاد يصنعون من خشبه نوعاً من الأمشاط الصغيرة « مسواك » لتنظيف الأسنان من بقايا التبغ الذي اعتادوا أن يمضغوه ، ويبنون به المنازل .

تقام المنازل من شجر الأراك ، فتغطى أغصانها بحزم الحشيش ، وتلبد من الداخل بروث البقر إلى ارتفاع خمسة أقدام ، يكلس كل ذلك.

فيغدو صلباً كالحجارة ، وحول هذه المنـازل المصنوعة من الأغصان ، والمعروفة « بالعشات » يزرع الحبق الذي يبلغ ارتفاعه سبعة أقدام وتفوح منه رائحة عطرة . وتغطي المنزل كله الفاصوليا الخضراء الحاملة أزهاراً براقة الألوان متعددتها ، وتضفي عليه هيئة « مهد رائع » . وبسيج أخيراً بسياج من الحطب اليابس لزرابة البهائم ليلاً .

ولكبار القوم عادةً عشتان أحداهما للرجال والأخرى للنساء . والقصر نفسه ليس سوى عشة أرحب وأكثر أناقة ، وتكسى الغرف من الداخل بأصداف عرق اللؤلؤ .

يتألف السكان البالغ عددهم من ثمانية آلاف نسمة من بـدو وبعض البانيانيين وتجار حضرموت . الأولاد عراة ، والرجـال الذين يدهنون أجسامهم بالسمن أو بالزيت يكسون عورتهم بفوطة يشدون بها الحقوين . يضيف الأغنياء إلى ذلك قميصاً من الشاش ، وترتدي النساء ضربـاً من القمصـان مشقوقـة الأكمام حتى الأسفل « يرفعنهـا على رؤوسهن لاتقاء الشمس ، ولا يحجبن وجوههن إلا فيما ندر » . ولا يستعمل سكان المنطقة الوشم ، ولكن الرجال والنساء يكحلون عيونهـم ، ويخضبون أيديهـم بالحنـاء .

★

هكذا قدم تاميزيه للغرب وصفاً حياً مفيداً لمختلف الأقاليم ، وللمشتركين في هذه الحرب ، أحمد باشا والطائف ، عايض وعسير ، وحاكم ابي عريش وعاصمته .

وكان « بلانات » من جانبه قد رسم خارطـة أرسلهـا إلى فولجانس فريسنل قنصل فرنسا في جدة ، الذي كان دائم الاهتمام بكل مـا يمكن أن يخدم التعرف إلى شبه الجزيرة العربية .

بالاستناد إلى هذه المعلومات ، مضافاً إليها تقريران كان فريسنل قـد

حصل عليها من أحد رفاق أبي نقطة في القتال ، بـذل جومارد قصارى جهده لوضع خارطة وكتب بحثاً عن البلاد ، وأورد في قائمة حسب الترتيب الهجائي أسماء جميع الأقاليم ، والقبائل ، والمدن ، والقرى ، والينابيـع ، والسيول ، والجبال .

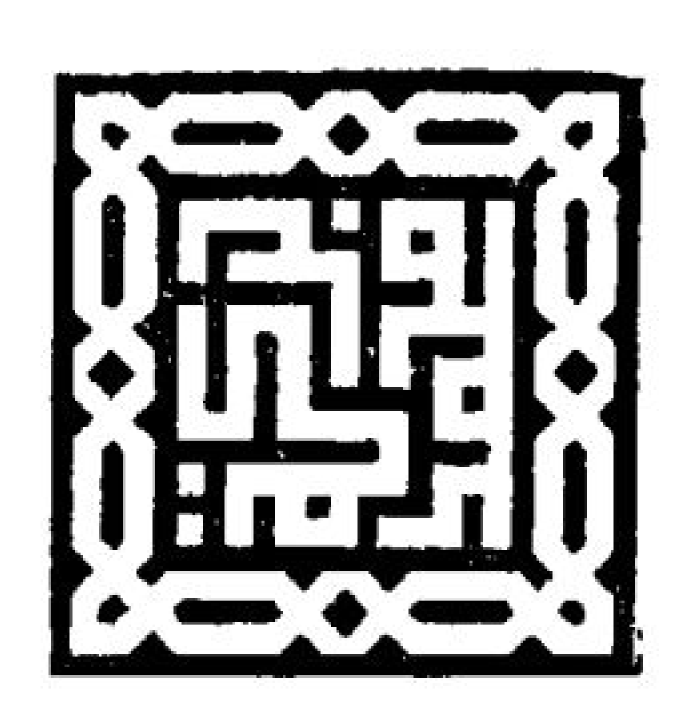
كانت الخارطة لا تخلو من النقص ، ولا شك ، فالجغرافية العامة لشبه الجزيرة العربية كانت ما تزال تحوم حولها بعض الأسئلة : هل هنالك واد تستمر به الأودية المنحدرة من عسير ، حتى يبلغ الخليج العربي ؟ أو ان المياه تضيع في الرمال في العربية الوسطى ، وهل هنالك مصارف المياه ابتداء من جبال نجد ؟ وكان ارتفاع المناطق بالنسبة إلى سطـــح البحر صعب التقدير ، ولم يكن أحد يعرف بعد إلى أية جهة تميل الهضبة الوسطى في الجزيرة العربية ، وبالنتيجة ، كيف تتجه مجاري المياه ؟.

وكان شيدوفو وماري من جهتهما يقومان بمهمة علمية اخرى خاصة بعسير ، فقد وصل بالفعل الى جدة في سنة ١٨٤١ ، ضابطان من هيئة أركان الحرب الملكية ، غالينيه وفريت ، كانت الحكومة الفرنسية قد أرسلتهما إلى بلاد الحبشة . فقدرا ان من المفيد لهما أن يرسوا لشهر واحد في ذلك الميناء العربي ليستقيا من شيدوفو وماري كل المعلومات التي كانا قد توصلا الى جمعها عن عسير والحجاز . فأتاح لهما ذلك ، عند عودتهما في عــــام ١٨٤٩ ، ان ينشرا في مؤلفهما الجليل الجدي عن بلاد الحبشة خارطة لعسير ، وبحثاً تحليلياً للمعلومات المعطاة عن الأماكن والقبائل فيها .

وأخـــيراً كان ثمة طبيب ألماني ينتمي الى الحملة توفي في إقليم ابي عريش ، وما يزال اسمــه مجهولاً ، قــد عني بجمع نمـاذج من النباتات ، وصلت فيما بعـد إلى الجمعيـة الوطنيـة للعـــلوم في فيينـا حيث جـرت دراستها .

لا ريب ، في ان مـا انجز حتى ذلك الحين من الاكتشافات كان

ما يزال ناقصاً ، ولكن من الراهن ان الحملة التي قام بها محمد علي في عسير ، وتضامن جهود الفرنسيين من اطباء ، وسكرتير ، وقنصل ، وعضو في جمعية الآداب والعلوم ، وضباط ، وتوحيد معلوماتهم لتسخير هذه الحرب من اجل تقدم المعرفة ، ان ذلك كله ادى إلى اكتشاف منطقة جهلها الجغرافيون القدماء والمعاصرون .





والآن وغوارماني
لدى أمراء آل رشيد

كان جزء هام من شبه الجزيرة العربية ما يزال مجهولاً ، وهو منطقة جبل شمر الواقعة في شمالي البلاد . فبوركهاردت وستيزن كانا في الحقيقة قد اجتازا الأراضي المتاخمة لهذه المنطقة من الجانب الفلسطيني ، وكان وربل قد مر بساحلها غرباً ، وقطع بلايسند وأليوت ثم غريفيت الصحراء المتاخمة للعراق وسوريا ، وكانت الجيوش التركية المصرية وسادليير أخيراً قد اجتازوا جنوبي نجد ومنطقة الوهابيين الحيوية .

كان ما يزال في وسط كل ذلك ألسنة مترامية الأطراف من الرمال ، أعني بها الانفاد التي كاد داكوادرا أن يهلك فيها عطشاً ، وكذلك نجد الشمالي ، ومدينة حائل الواقعة في جبال شمر ، العاصمة الثانية للعربية القفراء بعد الرياض .

لم يكن أحد قد أعار تلك المنطقة حتى ذلك الحين إلا القليل من الاهتمام في حين ان المدينتين المقدستين والرياض كانت موضوع اهتمام كلي . ولكن تلك المنطقة أصبحت في سنة ١٨٤٢ من الاماكن التي استرعت

اهتمام محمد علي ثم اهتمام نابوليون الثالث .

لم يتخل نائب ملك مصر الذي كانت المعاهدة المعقودة في لندن قد انتزعت منه سورية والأماكن المقدسة في شبه الجزيرة العربية ، عن أمل الاحتفاظ بسلطته على شبه الجزيرة . فقد ترك الحرية في عام ١٨٤٢ لفيصل سليل الوهابيين الذي كان قد احتفظ به حتى ذلك الحين في القاهرة ، باستعادة السلطة في الرياض تحت الحماية والسيادة المصريتين .

ولكن آل رشيد الذين كانوا يتزعمون عشيرة شمر ، كانوا في تلك الأثناء قد وطدوا سلطانهم . وكانوا قد لزموا جانب الحياد عندما قام المصريون بمهاجمة السعوديين ، واعتبرهم محمد علي حياديين ، ميالين إليه ، فلم يعامل سكان هذه المنطقة المعاملة القاسية التي استهدف لها سكان نجد الجنوبي ، بل اكتفى بأن يترك في حائل حامية ثابتة . وكان عبدالله ابن الرشيد قد استولى على السلطة فيها ، في عام ١٨٣٥ ، بعد ان خلع ابن عمه ، وحصل على اعتراف محمد علي بحكومته ، وبرهن عن اخلاصه للاسرة السعودية بانزاله العقاب بالمغتصب الذي كان قد استولى على السلطة في الرياض في غياب الوريث فيصل . لذا فقد أصبح عبدالله حليفاً وتابعاً لفيصل السعودي ، عندما أطلق محمد علي يد فيصل في استعادة السلطة تحت حماية مصر وسيادتها . ولكن ، في الواقع ، كان التابع هو الأقوى بين الاميرين ، وقد امتد سلطانه سامياً فشمل جميع انحاء نجد .

وكانت هذه النقطة هي التي تشغل بال محمد علي ، فيتساءل : ما هي حقيقة منافس فيصل هذا ؟ وما هو المدى الحقيقي لسلطته ؟

★

كان يعيش في القاهرة شاب فنلندي يدعى والان من رعايا قيصر الروسيا ، حصل على منحة من جامعة هلسنغفورس للقيام برحلات ، فقضى سبع سنوات متنقلاً ما بين بلاد الفرس ، والعراق ، وسورية ، واستقر



جورج اوغسطس والان

اخيراً في مصر ، فوطد العزم على اكتساب ثقافة تمكنه من ان يظهر بمظهر مسلم حقيقي ، وكان يرغب في زيارة نجد الوهابية ، وبلاد اليمن ، بحثاً عن الكتابات الأثرية . لذا فقد عاش في القاهرة حياة تتناسب وأهدافه وضآلة موارده في آن واحد ، بين أشد الطبقات فقراً .

فهل عرض عليه محمد علي ان يذهب الى حائل ليشتري خيلاً لاسطبلاته ، أو نصح له بالتوجه الى تلك المنطقة التي كانت الأوضاع السياسية فيها تستدعي اهتمامه ؟ ان هوغارث يزعم ذلك ، ولكن كييونان ينكر باسم السويديين كل افتراض من هذا النوع .

إلا ان الأمر الأكيد هو أن وآلان لم يذهب لا إلى اليمن ولا الى الرياض ، بل قام برحلتين متتابعتين الى حائل . ولم يفسد ذلك ، الروح العلمية المتجردة التي كان يتحلى بها ، وكان في وسع محمد علي أن يوجه حماسة العالم الشاب نحو منطقة كانت موضع الاهتمام في ذلك الحين ، وهي ما تزال مجهولة كلياً . فهل قام محمد علي بهذه المحاولة ، أم ان خيال وآلان هو الذي اخترع ذلك ؟ ليس لدينا أية وثيقة تتيح لنا توضيح هذا الامر .

كان فريسنل قد نصح وآلان بدخول العربية من الشمال ، تجنباً لاثارة الشبهات حول نفسه في حال مجيئه مباشرة من مصر ، فسلك في سنة ١٨٤٥ طريق سيناء متوجهاً الى معان

اننا نعرف ما كان يتمتع به هذا العالم الشاب من ثقافة ممتازة في الشؤون العربية واطلاع واف على أخلاق العرب وعاداتهم ، من قصة رحلته إلى سيناء التي كتبها بعد ذلك بعشر سنوات ، وعبر فيها عن فرحته الصارخة بأن يجد نفسه ثانية في خيمة بدوية بين « سكان البادية الممتازين » .

لقد كانت النتيجة الاولى المدهشة لهذه الثقافة تمكنه من الاتصال المباشر الصميم بالحياة البدوية . فلننظر إليه في مرحلة دخوله الخيمة التي حل ضيفاً على أصحابها .

« كنت قد أصبحت آنذاك معتاداً على اصول اللياقة المتبعة لديهم وعلى عاداتهم ، وقد تصرفت تصرف بدوي ممتاز ، اقف لكل قادم جديد ، وأسلم عليه ، واعانق كتفيه ثلاث مرات متتابعة ، مردداً باستمرار « سلامات .. هلا بيك » لذا فقد سمعتهم يثنون علي ويقولون انه رجل بدوي يحب بلاد العرب . ولكن الثناء عليّ بلغ أوجه حين أخرجت من كيس البن الذي كان لدي حفنة كبيرة من البن ووضعتها في المحمصة ، ولم اسمح لمضيفي بأن يقوم بهذا الواجب الذي يؤديه من يضيف غريباً في البادية » .

افادت وآلان في هذه الظروف ميزة عدم جهله لاصول الملاطفة . فقد قدر حق القدر تضحية البدوي الذي أضافه ، وذبحه خروفاً على شرفه ، وهو اسراف لا يصدقه العقل ولم تسمع بمثله الاذن ، بالنسبة الى رجل فقير مثله ذي عيلة ساغبة ، فلم يأكل الا ربع كفايته ليدع معظم الذبيحة لمضيفيه الذين كانوا ينظرون اليه بعيون تتقد شهوة وهو يأكل وحده أولاً .

من هذه العلاقات البشرية الصميمية ينشأ تعاطف عميق ولم يحب وآلان البدوي فحسب ، بل أحب الجمل الذي « ليس سوى جزء من قلب البدوي » حسب قول عربي مأثور . وهو يعجب بالطريقة الخاصة التي يخاطب بها صاحب الجمل جمله ويدلله ، او يوبخه ، ويضع هذه القاعدة السلوكية التي تصلح لأن تتخذ كقاعدة ذهبية للتفاهم ما بين البشر : « يجب ان نرى الانسان والحيوان في بلدهما ومحيطها الخاصين بهما كي نحبهما » .

وقد نتج عن ذلك ايضاً تعلّم الوسيلة لاكتساب المحبة ، وهي حسب رأي وآلان ، تكمن في ما يأتي : « ان على الغريب في الصحراء ان يجود بشيئين اثنين : البن والتبغ ليكتسب لقب « كريم » وهو اسمى ثناء يمكن ان يوجه الى انسان في الصحراء . وانه ليرتكب خطأ فادحاً اذا هو سمح

لنفسه بتوزيع الدراهم على البدو ... ويفقد قدره في نظرهم ، فالبدوي يقبض منك المال ولا شك ، ولا سيما اذا كان على جانب من الأهمية ، ولكنك ، حالما تدير ظهرك ، يضحك منك ، ويرغب في الحصول على المزيد منه ، ولا يخصك بأي مديح من أجل ذلك . ولكنك إذا لم تحمل الى فمك لقمة دون ان تشرك بها رفيقك ، وإذا افرغت بنك في المحمصة طوال النهار ، وفتحت كيس تبغك لكل مدخن – وبالاضافة الى ذلك ، اذا قدمت الأقمشة والحام لاستئجار الجمال خلال الرحلة كلها ، من مكان الى مكان ، عندئذ تستطيع ان تسافر في الصحراء آمناً محبوباً ، مكرما من الجميع . »

ان هذه المحبة المدركة البصيرة ليست ذات نفع في تأمين السلامة بين البدو فحسب ، بل هي شرط لازم لا يقدر الرائد بدونه ان يقوم بدراسة دقيقة للمجتمعات التي يكون فيها لذا فقد كان وآلان ، الذي يمتلك هذه المحبة ، بعد بوركهاردت ، وقبل دوغتي ، محللا نفاذاً للمجتمع العربي . كان الرحالة السويسري قد سبق له ان حدد العلاقات التي تنظم تعايش الفلاحين الحضر والبدو ، ولكن وآلان ذهب الى أبعد من ذلك . فقد وصف ما يحدث على العموم ، ولكنه ألقى النور على الحالة الخاصة التي تمكن فيها سكان معان من الامتناع عن تأدية رسم « الخوة » للبدو ، وبيّن أخيراً النظام الخاص لعشيرة شمر الذي يرى فيه معنى سلطة هذه العشيرة المتعاظمة باستمرار .

لا تستطيع أية مدينة أو قرية ان تعيش وتقاوم هجمات البدو الا اذا دفعت رسم « الخوة » ، مدمنة بذلك حماية قبيلة أو عدة قبائل من البدو . « وليس هنالك ما يحدد شروط هذه الحماية الأخوية التي تمنحها القرى ، الا العرف السائد ، والضريبة التي يؤديها القرويون عادة ، عبارة عن هدايا من الملابس تقدم لا لشيخ العشيرة فحسب ، بل لكل متنفذ في أفخاذها المختلفة ، ومن تمر وقمح ، في بلاد تجد بنوع خاص . ولكن

الشيخ يتطلب قبل كل شيء استقبالاً متسماً بالكرم ، ومعاملة سخية ، ومساعدة جاهزة عند الحاجة . والشيوخ من جهتهم مجبرون على حماية زبائنهم من مطالب العشائر الأخرى واعتداءاتها ، وعلى القيام بدور الوساطة ، اذا ما نشب نزاع فيما بينهم .

وهذه « الخوة » سائدة ما بين البدو أنفسهم لكن بشكل معدل بعض التعديل . والعلاقات الممكن نشوؤها بين مختلف العشائر على ثلاثة أنواع :

١ ـ علاقات اخوة تتحالف بموجبها تحالفاً متبادلاً ، وتلتزم ايضاً بحماية الغرباء والقرويين « اخوتهم » ، بدون ان تؤدي احداها رسماً للأخرى ، ويفترض في العشائر التي تربط ما بينها علاقة الاخوة ان تكون متعادلة في نقاوة النسب .

٢ ـ علاقة صداقة تأمن العشائر بموجبها المعاملات السيئة ، والاعتداء من قبل الغير ، ولكن لا يحق لأية عشيرة ان تحمي الغير من مطالب العشيرة صديقتها .

٣ ـ علاقة عداوة في حال انعدام احدى العلاقتين المذكورتين ، وعندئذ ترفع يد كل فرد من أفرادها على كل فرد من أفراد العشيرة العدوة .

على ان البدو ينظرون الى الفلاحين الحضر كأعداء طبيعيين ، ولا يسمح لهم نتيجة لذلك ان يعيشوا على أراضيهم ، الا اذا اشتروا حمايتهم بأقصى ما يستطيع الحماة ان يحصلوا عليه من ثمن . ولكن بقدر ما تزداد الجماعة المتحضرة قوة وثروة ، يزداد امتناعها عن تنفيذ مطالب البدو او تعمل على تعديلها ... على ان مقاومة القرويين ، واستقرارهم في أرضهم ، لا يبدوان غريبين في نظر البدو الذين لا يزدرون شيئاً كالجبن ، والاعتماد على الغير ، وهذا ما يساعد عادة على توثيق العلاقات بينهم وبين سكان هذه القرى .

هكذا كان الأمر في معان التي يقدر البدو بسالة سكانها وبجولتهم أكثر من سكان غيرها من القرى . وهذا ما يسهم في تسهيل التبادل التجاري بين الجانبين تبادلاً أنشط منه في أي مكان آخر مررت به في رحلتي .. وقد رأيت اثناء الرحلة التي قمت بها من هناك ، في كل مخيم على وجه التقريب ، عدداً من تجار معان جاؤوه كعادة سكان المدن ، للحلول ضيوفاً على أخوانهم البدو في خيامهم اثناء الربيع ، والاغتذاء بحليب النوق من جهة ، ولاستيفاء ديونهم القديمة من جهة اخرى . »

تمكن وآلان من معرفة السبب في تفوق عشيرة شمر على غيرها من العشائر ، فكتب يقول : « ان سكان القرى من عشيرة شمر ، يعتبرهم البدو متفوقين عليهم في الشجاعة واستخدام الأسلحة » . وهم يتعاونون وحلفاءهم البدو تعاوناً وثيقاً ، لأن هؤلاء الذين يربون الجمال لاستخدامها في غاراتهم وأعمالهم الحربية ، يؤجرونها للفلاحين الذين يستخدمونها طيلة ثلاثة اشهر في مشاريع الري لقاء كمية من التمر والقمح . وفي القتال يتواعد القرويون والبدو على الانضمام الى صفوفهم . والغريب حقاً ان القرويين هنا يكتسبون نوعاً ما عادات حياة البداوة ، كما ان البدو يتعاطون اعمالاً يعتبرونها ، عادةً غير مناسبة لهم . فيذهب عدد من سكان المدن خلال الربيع ، الى البادية ومعهم خيلهم ، وقطعان جمالهم وأغنامهم ، ليعيشوا في الخيام عيشة البدو ، وتتملك اكثر الاسر البدوية مزارع نخيل ، وحقول قمح في الجبال يستثمرونها لحسابهم الخاص . ان تضامن الحضر والبدو من ابناء شمر هو الذي أسهم اسهاماً عظيماً في زيادة سلطة هذه العشيرة ونفوذها .

وقد لاحظ وآلان انواعاً من العشائر البدوية : بعضها يسرح في البادية مع قطعانه اثناء موسم الرعاية في الربيع ، فينام أفراده في العراء او في المغاور ، تاركين خيامهم معلقة على أشجار الطلح ، او مودعة في منازل اخوانهم القرويين ، وبعضها شريف المحتد ، يحافظ على انظمة الشرف

البدوي وعاداته ، والبعض الآخر ينظر اليه بازدراء ، وهكذا نرى البدو الفلاحين ، انصاف الزراع ، المتحدرين من الفلاحين المصريـــين المتبدّين ، تفرض عليهم الضرائب الفادحة ، ولا ينظر اليهم الا بعين الازدراء ، لأنهم ليسوا من أصل بـدوي ، ويلاحظ وآلان انهم يجهلون قواعد الدين ولا يكترثون بها .

وقد أثار دهشته ان افراد عشيرة المعازة الذين يشغلون المنطقة الممتدة من معان حتى الحدود المصرية « يجهلون دينهم جهلاً كلياً . ولا اذكر ابداً انني التقيت شخصاً واحداً منهم يمارس شعائر الاسلام او يعرف اي شيء من اركان الاسلام الاساسية . » ويضيف قائلاً : « ومن ثم تتضح ضرورة احياء التعليم الديني . امـــا البدو الوهابيون فهم على عكس ذلك الى درجة ما . »

★

لم يكتف وآلان بملاحظة الحياة الاقتصادية والسياسية والمستوى الثقافي ، والعلاقات التي تربط العشائر بعضها ببعض ، بل عرف اكثر من أي زعيم بدوي ما دوّنه الكتاب العرب عن مختلف العشائر ، وهـذا ما يجعل منه رائداً في هذه الدرجة من الكمال . فهو يعرف مسبقـــاً مقداراً من المعلومات اكتسبها بحكم ثقافته كاختصاصي في الشؤون العربية ، وقد قارن هذه المعلومات بما رآه للتحقق من صحتها ، او على الأغلب لإلقاء ضوء على ملاحظاته ، وهكذا عرف بالاستناد الى المؤرخين العرب مـــا أصل كل قبيلة ، وما المعنى الأصلي للاسم الذي تحمله ، وما هي الأراضي التي كانت تمتلكها ، ودرجتها من القدم ، والدور الذي لعبته في التاريخ . واذا ما عثر على قبيلة لم يأت المؤلفون على ذكرها ، سعى الى معرفة أصلهـــا والظروف التي دفعتها الى التبدي .

ولكن وآلان لا يمتاز بهذه الملاحظة الاجتماعية فقط ، بل اختط طريقاً رحبة ودون ملاحظات جغرافية تنم عن الذكاء الشديد وتتصف بالدقة .

لنعد الى حيث تركنا رحالتنا في معان . انه يغادر المدينة برفقة شيخ يتاجر بالخيل ، فيرى في السهل المقفر المجدب الذي يجتازه اطلال « مدينة مسيحية بنيت قبل محمد بن عبد الله بزمن طويل » ، مدينة لا شك في أنها يونانية . اذا حكمنا عليها من طراز ابنيتها . ولكنه لم يعثر فيها على أية كتابة أثرية . وقد رأى المزروعات نامية حول ينابيعها وفلاحين من البدو يقيمون تحت قبابها التي كانت ما تزال باقية .

وشاهد أبعد من ذلك اطلال القصر الذي شاده سليمان العظيم في احدى محطات قافلة الحج .

وأخيراً بلغ مخيم شيخ قبيلة « المجية » الاكبر ، تلك القبيلة التي تحمي مدينة الطفيلة حيث تودع خيامها ومؤنها . وقد قيل له ان تلك الجبال التي تحولت الى منطقة من الحجارة الصوانية القفراء ، كانت يوم سكنها النصارى « مكسوة بمزروعات القمح ، والحدائق ، وبساتين الخضر ، وكروم العنب » . ويقول : « ان الآثار الواضحة للزراعة القديمة الواسعة الانتشار ، التي كنا نراها في كل مكان ، كانت مصداقاً لما يقوله السكان . » ولم يبق من تلك الجنة سوى هواء ممتاز ، معطر بأريج النباتات العطرية ، واسماء المدن التي ذكرها الكتّاب العرب وطويت في صفحة النسيان .

*

وأوغل وآلان في العربية القفراء برفقة ثلاثة من بدو الشرارات . وقد اجتاز حتى بئر ويسط ، أشد قفرٍ وحشةً وجدباً رآه في حياته ، تكسوه حجارة سوداء لانعكاساتها البيضاء البراقة وقعها الأليم على العين .

عندئذ دخلوا وادي السرحان ، وهو في الواقع منخفض طويل ، مليء بأكوام غير متساوية من الرمال ، شبيهة بما في النفود ، لكن أشد منها انخفاضاً . الا انه رغم ذلك « أخصب مناطق الصحراء ، واذا ما هطلت الامطار الكافية ، اكتست الارض فيه بالعشب ، والنبات ، والاشواك ، والشجيرات » .

هل نصدق ان هذه المساحات الشاسعة من الرمال ، التي تكسوها امطار مجهولة ، غير متوقعة ، خلال بضعة اشهر من السنة على الأكثر ، ببساط خفيف مريع الزوال من الخضرة ، هي أحب المناطق الى قلوب البدو ؟ لقد أحس وآلان بذلك ، خلال رحلته الثانية . فقد كان عليه وعلى رفاقه القادمين من ساحل البحر الاحمر ان يجتازوا نفوداً ، فكتب يقول : « ما كدنا نغدو على مرأى من رقعته الصفراء المترامية الاطراف ، حتى هتفت نساء القافلة معاً ، بارتياح ظاهر : « تبارك الله الذي أرانا النفود ثانية ! » .

وصلوا عند آخر وادي السرحان الى دائرة من الجبال الصغيرة الكلسية الحجارة تقع بينها مدينة الجوف ، التي يفتخر سكانها بتسميتها « جوف الدنيا » لانها تقع على بعد متساو من مختلف تخوم الجزء الشمالي من الجزيرة العربية ، وجنوبيها ، والرياض ، والمدن المقدسة .

ان وصف وآلان لهذه المدينة فريد من نوعه كوصف بوركهاردت لجدة ، قال عنها : « تتألف من اثني عشر حياً ، محاطاً كل منها بسور من القرميد ، تقوم في وسطها قلعتها الحصينة المشرفة عليها ، كل ذلك في شكل دائرة واقعة على منحدرات احد الجبال الصغيرة . تنتشر منازل اللبن ، او الحجر في بعض الاحيان ، التي تفصل فيما بينها بساتين الخضار او الازقة الضيقة غير المنتظمة ، حول الساحة العامة حيث ينيخ الغرباء جمالهم عند وصولهم اليها ، وحيث يجتمع ابناء الحي عصراً لقضاء الساعة التي تسبق الغروب في التحدث عن الاعمال . تحيط بساتين الخضر ومزارع النخيل بالمدينة من جهة الجبل حيث ينابيع المياه ممتدة نحو اسفل الوادي . وتزرع الحبوب ما بين الاشجار ، ولكل بستان حسب أهميته ، ساعات معيّنة للسقاية اليومية ، تسال خلالها المياه اليه في الازقة الفاصلة . تنبت في هذه البساتين اشجار التين والمشمش والدراقن والعنب وغيرها على الرغم من قلة عددها ، ما عدا خمسة عشر صنفاً من البلح تعطيه

اشجار النخيل التي تمتاز بها المنطقة ، وتعرف بكونها من افضل الاصناف في بلاد نجد .

ان اغرب ما في هذه المدينة ، التركيب الاجتماعي لكل قرية ، فلكل قرية منظرها الخاص ، وسكانها المتميزون من غيرهم ، ولم يغفل وآلان تحليلها بدقة عجيبة ، وذكر تاريخها وعلاقاتها الخاصة بهذه او تلك من القبائل البدوية .

اقدم حي فيها الحي المحيط بالقلعة ، حيث كانت تقوم كنيسة في الماضي ، واغلب سكانه من جنوبي نجد ، ولكن فيها حياً آخر انشئت فيه قلعة أحدث من الاولى ، بسبب العداوة التي كانت قائمة ما بين الحيين ... واربعة اخماس السكان في هذا الحي من السوريين . ويُرى في الاحياء الاخرى بدو من وادي السرحان ينتسب بعضهم الى قبيلة سرة ، والبعض الآخر إلى قبيلة شمر . والمعارك فيما بين هذه الاحياء لا تقل عن المعارك التي تدور فيما بين القبائل الضاربة في الصحراء ضراوة . فقد قام رئيس عشيرة شمر منذ ثماني سنوات خلت نصرةً لحلفائه في هذا الحي يغزو الحي المعادي ، وتدمير منازله ، واتلاف بساتينه ، ومزارع نخيله ، وردم آباره ، غير تارك لسكانه سوى الحياة ، وحرية اللجوء الى قبيلة السرة ..

وقد اتم وآلان اللوحة التي رسمها ، بمعلومات عن المستوى الثقافي ، فذكر أن عدد الذين يقرأون فيها ويكتبون اكبر من عدد القراء ومجيدي الكتابة في المدن التركية ـ العربية ، وأن اهلها يتعاطون نظم الشعر والموسيقى والغناء .

ليس سكان الجوف محاربين ولا تجاراً ، لذا فانهم بعكس ما يحدث عادة ، يعتمدون على اخوانهم البدو في تأمين الارز والقمح لهم من سورية والعراق ، وفي القيام بالتبادل التجاري .

وينتقل وآلان اخيراً الى الناحية التاريخية فيقول : « ان جميع سكان الجزء الشمالي من شبه الجزيرة العربية وسكان نجد ، يعتبرون سليمان الملك الحكيم ، الحاكم القدير على جميع الكائنات والارواح والحيوانات ، اول من نشر الحضارة في بلادهم ، ومؤسس القرى والآبار التي يعتقدون انه انشأها بمساعدة الجن » .

ولكن وآلان يعرف من مؤلفات الكتاب العرب اكثر من ذلك ، وهو يكمل ملاحظته لهذه الاماكن بايضاح تاريخ هذا الموقع .

غادر عالمنا الجوف بصحبة البدو ، ودخلوا حدود النفود الكبير . ولن يجدوا اماكن معمورة قبل بلوغ قرية جُبَّة التي يقطنها محاربون من عشيرة شمر والوهابيون الحديثو الاهتداء الى المذهب . « وبحجة اعلان الحرب المقدسة على الكفار الذين لا يؤدون الزكاة ، ولا يعملون بتعاليم القرآن الاخرى ، يرون من واجبهم ان ينهكوا بغارات مستمرة كل العشائر التي لا تعتنق المذهب الوهابي ، حتى يضطروها الى الدخول في حلف مع شمر ، ويقبلوا بتأدية الزكاة لزعيمهم ، ويقسموا يمين الولاء له . »

في هذا المكان ، بينما كان وآلان يقوم بزيارة المرتفعات التي تحمي المدينة ، رأى في سفح أعلى تلك المنحدرات على حجارة ضخمة سقطت من أماكنها ، كتابات عديدة بارزة على الصخور ، شبيهة بالكتابات التي كان مزمعاً أن ينسخها عن الحجارة في ضواحي تبوك في رحلته الثانية ، الى جانب رسوم للجمال والكلاب والماشية ، وقد بدت له قديمة على الرغم من خشونتها . واذا كان لم يعثر على كتابات اثرية حميرية ، فقد كان مقدراً له ان يشاهد اولى الكتابات الاثرية الغرافيتية التي سميت فيما بعد بالثمودية ، والتي ما تزال تشكل معضلة صعبة تحتاج الى الحل . فقد اكتشفت بعثة ريكمنز – فيلبي ما بين سنتي ١٩٥١ و ١٩٥٢ عدداً كبيراً من هذه الكتابات الأثرية في مساحات واسعة من العربية الوسطى يفوق

بكثير ما ذكرت الروايات العربية من ان شعب ثمود القديم قد شغله ، هذا الشعب الذي ذكر ابو الفداء انه كان يسكن منطقة الحجر ومدائن صالح .

غادر جُبّة برفقة دليل شمري فبلغ قنا في اقصى النفود ، وقد تبدلت التربة تبدلاً مفاجئاً الى ارض مسطحة كلياً تكسوها طبقة رقيقة من الحصى الصوانية ، شبيهة بأرض نجد . ورأى سلسلة جبال مزدوجة من الحجارة الصوانية الرمادية ترتفع ، وفي وسطها حائل ، عاصمة شمر . وقد وصفها والآن ذاكراً انها مدينة مؤلفة من مائتين وعشرة منـــازل ، عصرية نسبياً شادتها الأسرة الرشيدية الحاكمة في الوادي الذي تحدق به المرتفعات ، وقال : « ان الشوارع واسعة مريحة رغم انها غير مرصوفة ، وفي الشارع الرئيسي صف من الحوانيت يشغلها بصورة خاصة تجار عراقيون متجولون، وتجار من المدينة ومن القصيم » .

« معظم المنازل يتألف من دورين ذات غرف فسيحة مريحة ، رغم قلة عددها ، يدخلها النور من بابها فقط ، ومن كوى صغيرة في الجدران تقع تحت السقف بقليل . ولكل منزل دون ما استثناء مضافة خاصة بالقهوة ، مفصولة عن باقي الغرف ، تطل على الحديقة ، فيها يستقبل الضيوف ، ويجتمع الناس للتحدث في مختلف الشؤون .

« ولا يمتاز مقر عبدالله بن الرشيد عن غيره من المنازل إلا بكبره ، وامتداد مساحته اللازمين لايواء أسرته الكثيرة العـدد ، والجمهور الغفير من الضيوف الذين يقدم لهم الطعام طوال السنة . فهو في الحقيقة يستقبل جميع الغرباء الذين لا معارف لهم في المدينة ، طوال المدة التي يرغبون قضاءها فيها .

« على طول الابنية المحيطة بالفنـاء الخارجي مدت أرائك او مقاعـد من اللبن ، لأن الزعيم يعقد فيهـا مجلس قضائه مرتين في النهار . وقـد

رأى وآلان مائتي شخص وفدوا من مختلف انحاء شبه الجزيرة العربية ، وحلوا ضيوفاً على عبدالله ، بانتظار ان يعرضوا عليه دعاواهم .

وقد اتخذ عبدالله آل الرشيد من افراد الحامية التي فرضها عليه باشا مصر ، وعددهم مائتا رجل من المصريين والزنوج حرساً خاصاً له .

إنه يصدر احكاماً صارمة تختلف عن الاحكام التي يصدرها الشيوخ العاديون . يسجن الشيوخ الذين يمتنعون عن تأدية الزكاة ، ويبتر أيدي المتآمرين ، ويأمر بالجلد لأخطاء طفيفة » .

ولكن وآلان لاحظ حتى لدى البدو الرحل في وادي السرحان ان عبدالله يتمتع باحترام ، وسلطة خارقتين لدى العرب . فمن اين جاءاه ؟ لا شك في أنها لم يأتياه من الحكم والثروة . ولكنه مدين بسلطته العظيمة « لمزاياه الشخصية الرفيعة ، وجرأته ، وإقدامه ، وعدالته الدقيقة ، ووفائه بالوعد ، واحترامه شرف الكلام ، ولا سيما لكرم ضيافته الذي لا مثيل له ، وعطفه على الفقراء الذين يعلم الجميع أن ما من واحد منهم قصد بابه وعاد خائباً . ان عبدالله يتمتع بأعلى درجة من هذه المزايا التي يكبرها العرب . والبلاد تتمتع في ظل هذا الحكم ، بأمان في الطرق نادر المثال .

ان المذهب الوهابي مطبق دون ما تطرف ، والتبغ مسموح به ، وترى في اسوقها اقمشة أدخل الحرير في حياكتها ، ويحافظ عبدالله على علاقات حسنة مع العراق ، ومصر ، والحجاز . على أن التغيب عن صلاة الجمعة يعرض للعقوبة .

إذا كان الناس في حائل أقل ثقافة ، وأقل تضلعاً في العلوم الاسلامية من الاتراك والعرب ، والأعجام ، فانهم يعرفون على الغالب القراءة والكتابة . وهم ينظمون الشعر ويمارسون الغناء . وقد تمكن وآلان هناك من قراءة مؤلف للمصلح الوهابي .

أزعج وآلان في حائل امر واحـد هو الخلاف الناشب ما بين ولدي عبد الله . فما ترى يحدث اذا توفي الزعيم الكبير الذي يفرض سلطته على بلاد نجـــد بكاملها بفضل إقدامه وعدالته وجوده ؟ وتمكن بلغريف وغوارماني فيما بعد ان يشعرا بهذا الخلاف .

أتم وآلان رحلته الاولى الى حائل ، وسيعود إليهـا مرة ثانية عن طريق المدينة ومكة مع القافلة القادمة من بلاد ما بين النهرين . ولكنه لن يجرؤ حينئذ على تدوين أية ملاحظة خشية ان يثير الشبهات لدى تلك الجماهير الدينية المتحمسة التي يعيش بين ظهرانيها .

وقـد عاد الى حائل مرة اخرى في عام ١٨٤٨ ، ولكن عن طريق ساحل البحر الاحمر مروراً بتبوك وتيماء ، وكانت الطريق التي يسلكهـا جديدة ، سمحت له بأن يلقي النور على جغرافية تلك المنطقة غير المرتادة . وارتاب في الطبيعة البركانية لأحدى الصحارى التي اجتازها مرتين ، واسمها الحَرّة . فالارض على مدى البصر مكسوة بالحجارة السوداء التي ظهرت فيها فيما بعد بعض الرواسب البركانية . وقد رأى فيها في المرة الثانيـة بروز رؤوس بركانية المظهر .

كان وآلان أول من مرّ بتيماء ، الواحة التي كان يقطنها وهابيون من عشيرة شمر آنئذ ، وكانت في الازمنـــة الغابرة مقراً لأحـــد الملوك الآشوريين . ولكنه لم يكن يبدو للعيان اي شيء من القصر والمدينـة القديمـة .

بعد ان بلغ حائل ، تابع طريقه باتجـاه الفرات ، مجتازاً منـاطق صحراوية دون بعناية خصائصها المختلفة . ولم يكن يحمل معه في رحلته من الآلات سوى ساعـة وبركار وميزان حرارة ، ولا شك في أنه لم يستطع ان يحدد اي موقع بالنسبة الى خطوط الطول . ولكن المرء ، فيما عدا ذلك ، لا يستطيع إلا ان يعجب بشمول ملاحظاته ودقتها ،

وعمقها ، التي أثار لها السبيل استخدام المعلومات التي استقاها من الكتب .

*

لقد حق لجامعة هلسنكي التي اصبح وآلان فيها استاذاً في نهاية الامر ، أن تفخر به ، فقد كان يأتي مباشرة بعد نيبور وبوركهاردت ، بفضل مناقبه الانسانية ، وفطنته ، وتضلعه من التاريخ والادب ، كمثال للرواد متصف بالزهد ، والجرأة ، كثير البساطة ، قريب الى القلوب ، ثاقب البصيرة في الأمور ، نافذ البصر ، راوية أمين ، محب للاختصار والدقة، لكل لفظة يستعملها وزنها الصحيح ، وتعليمها المفيد .

وكأن القدر شاء ان يعين له خلفاً هو بلغريف . يبرز كل الابراز التناقض التام لمزاياه . ولكن ، لا يمكن كما سنرى فيما بعد ، ان يقرن ذكر بلغريف هذا بذكر الرواد الذين تحروا الصحة ، وبحثوا عن الحقيقة ، مساعدين بذلك على تقدم المعارف . اننا سنفرد له مكاناً خاصاً ، وسنقفو الآن خطى كارلو غوارماني ، الذي لم تجتذبه بلاد نجد لما في تطورها السياسي من جدة الحوادث ، او لأنه من المحتمل ان تكون بلاد العرب ، حسب الرأي الذي عبر عنه احد اعضاء الجمعية الوطنية للطب في باريس ، مهداً لأقدم جنس بشري ، الجنس العربي الذي بدا له بتركيبه الفيسيولوجي ، وقواه الخاصة بمركز الحواس في الدماغ ، قريباً من كمال الصورة الاصلية ، بل اجتذبته نجد ، لأنها في عداد البلدان الجديرة بالاهتمام ، ولأنها ، كانت منذ أقدم الازمنة مهداً لأكمل جنس من اجناس الخيل ، وهو يذكرنا بهذه المناسبة ، بعزبة لبلاد العرب كانت منسية حتى ذلك الحين ، وهي أنها مشهورة بخيلها مثلما اشتهرت ببنّها ، هذا قبل ان يبدأ عصر البترول .

لقد كان غوارماني حسن الاستعداد لارتياد بلاد نجد ، لا بتضلعه من الشؤون العربية والاسلامية ، ولكن بالدالة التي كان قد اكتسبها على العشائر البدوية . فقد كان هذا الايطالي الشريف النسب ، مستقراً في

الحقيقة في القدس منـــذ زمن بعيد كوكيل لشركات النقـــل البحرية الامبراطورية الفرنسية . وهكذا سنحت له عدة فرص للقيام برحلات في فلسطين ، ومصر ، وسورية ، وانشاء علاقات تجارية مع العشائر الرحل في تلك المناطق ، مكتسباً مقدرة كبرى في كل ما يختص بها ، ولا سيما بالنسبة الى المنطقة الممتدة ما بين القدس والبحر الميت .

وقد استدعاه وزير الزراعـة الفرنسية الى باريس في عام ١٨٦٣ وهو الذي أهدى إليه كتابه فيما بعـــد ، ليعهد إليه بشراء خيـل للاصطبل الامبراطوري . واغتنم فيكتور عمانوئيل الفرصة فعهد إليه بأن يشتري له خيلاً عربية أصيلة للبلاط الايطـــالي . فتوجه الى نجد وقام بزيارة امير شمر ، ليمكنه من الحصول على أجمل نماذج من الخيول العربية من رعاياه.

ولكن هذا السيد المثقف كان يضمر طموحاً نبيلاً ، وهو تسجيل اسم مواطن ايطالي مع اسماء كبـــار الرواد الذين اشتهروا في ذلك العصر باكتشافاتهم الجغرافية من بوركهاردت الى وآلان . وقد أشعره هـــذا الامل فرحاً عظيماً ، وشجعه على ترك أسرته التي أحزنهـــا انصرافه الى مغامرة ملؤها الاخطـار . فسافر في السادس والعشرين من كانون الثاني (يناير) من عام ١٨٦٤ ، مرتدياً ثوب بدوي ، يرافقه خادم عربي امين ، كاد ان يتركه في بيت لحم لذعر استبد به لدى التقائها موكب جنازة .

بلغ غوارماني دواراً لأحد زعماء القبائل واقعاً على تخوم العربيـــة البتراء ، ومن هناك كان مزمعاً ان يوغل في داخل البلاد مع احد شيوخ العشائر وابن اخيه وفارس ثالث ، عرضوا انفسهم لمرافقتـه . ومرّ من مخيم الى مخيم ، مغموراً بأريحية الضيافة البدوية الذي لقيه ، الى ان حلّ ضيفاً على رئيس عشيرة بني صقر . وهنـــاك حصل على جمل ذي سنام واحد سريع الجري ، بثلاث ليرات ذهبية ، وكتاب توصية الى حلفاء

بني صقر ، وكتب له رئيس عشيرة الرولة رسالة موجهة الى شيخ عشائر العتيبة المستقلة ، معرّفاً عنه بأنه موفد من الحكومــة التركية لشراء الخيل . ومن الواضح ان التركي لا يمكن ان يكون مطمئناً مرتاحاً بين عشائر البدو العربية ، لكن لن يُنظر الى نصراني فرنسي - ايطالي نظرة افضل ويكون اكثر راحة من التركي .

وكان اول ما رآه غوارماني لدى وصوله الى حائل ، جثة يهودي عجمي ادّعى الاسلام ولكنه أبى تأدية الشهـادتين حين افتضح امره ، فقضت عليه الجماهير . وكان الفارسي قد جاء مجداً في مهمة شراء خيل للشاه ، فلما بلغ الخبر مصر ، ظُن ان القتيل غوارماني ، فبكته أسرته . ولكن غوارماني كان في تلك الاثنـاء يأكل الارز بلء شهيتــه ويتلو الصلاة بالخشوع الذي يتطلبه الاسلام ، موجهة « الى الله قلبـــاً ، والى محمد شفاهاً » وكان يعتقد ان على من يقرر القيام بمغامرة في مثل تلك الاهمية ، ويحتاج فيها الى استخدام كل الوسائل ، ومحــاولة المستحيل ، يجب ألا يسمح لأية عقبـــة ان توقفه عن المسير . « وتذكرتُ موعظة السيد المسيح الذي أعطى فيها الطوبى ، وكذلك جثة القتيل الاسرائيلي المنتنة ، فقررت في قرارة نفسي ألا اكون في عـداد الفقراء بالروح ، وألا ادخل الجنة بوصفي أبله » .

ان كل انسان يتصرف حسب وجدانه ، وربما كان وجدان علي بك شبيهاً بوجدان غوارماني ، وسنرى ان آرنو سيتكلم بصورة اخرى .

وصل غوارماني وخادمه في زي بدويين حقيقيين مرتديين ثياباً رثة ، ورداءين من فراء الحملان ، ويحملان قربة ماء ، الى تيماء التي كان وآلان قد زارها من قبل . ولكي لا يعرض الدراهم التي كانت في حوزته لاخطار الصحراء ، استودعهـــا مرافقه ، وتابع الطريق وحده نحو مراعي قبيلة عتيبة .

ولو التقاه شيخ ميال الى الظن بالناس ، لاعتقد أنه جاسوس تركي اكثر من كونه تاجر خيل ، ولكنه أنجز مهمته حابساً انفاسه واشترى جياداً أصيلة ، الا انها أصغر من ان تعجب الذوق الاوروبي .

وخلال بحثه عن الخيول الاصيلة ، بلغ غوارماني مكاناً سبب له أعظم مفخرة من مفاخره ، ألا وهو منطقة خيبر ، ذلك الموقع القريب من طريق القافلة ، قبل المدينة بقليل ، الذي قال عنه دي فارتيما ان اربعة أو خمسة آلاف يهودي من المختنين الذين يغلب على لونهم السواد ، ويكرهون المسلمين ، يقيمون فيه . ولم يكن احد قد بلغ هذا المكان للتحقق من صحة رواية دي فارتيا الغريبة . وقد قال عنها ابو الفداء : انها ارض اولاد عنزة ، ولفظة خيبر في العبرية تعني قصراً .. اما الإدريسي فيرى ان خيبر مدينة صغيرة ، شبيهة بقصر عظيم ، غنية بالفواكه وأشجار النخيل .

عند دخول غوارماني المدينة المحوطة بمزارع النخيل لم يدهش لرؤية سكانها ، وخيل إليه انه في السودان . وقد استقبله الحاكم التابع لأمير شمر في حائل استقبالاً حسناً بوصفه مبعوثاً تركياً ، وتمكن من التجول في المدينة على هواه . ووصف غوارماني مدينة خيبر فقال ان عدد سكانها ألفان وخمسمائة نسمة على وجه التقريب ، وهي مقسومة الى سبعة احياء ، يشغل كل منها وادياً من الوديان السبعة الواقعة في جبل الحرّة الذي تكثر فيه ينابيع المياه العذبة . ويشرف على هذه الأودية صخرة شديدة الضخامة ، مرتفعة ، يعلوها حصن قديم جداً يدعى قصر اليهودي . وقد زار خرائبه لكنه لم يجد سوى أطلال من الخرائب دون اية كتابات أثرية .

اما السكان فمن نسل العبيد الاحباش من قبيلتي اولاد سليمان وعليدان. وقد شغلوا منطقة خيبر زمناً طويلاً حتى قضى الجدري على عدد من اسيادهم منذ عدة قرون سلفت ، واعتبروا المياه مصدراً لذلك الوباء

فنزحوا عنها وتركوها لهم . ولكنهم لم يتخلوا لهم عن ملكيتها بل احتفظوا بحق استيفاء قرطين من البلح منهم عن كل شجرة في الموسم ، على انهم تركوا لهم الحرية في ان يقوموا بزراعات اخرى لحسابهم الخاص . لذا فان القبيلتين تقتربان من خيبر في كل عام من غير ان تدخلاها لاعتبار انها شؤم على البيض ، فيسلمهم السود البلح الذي يصيبهم ، ويدفعون لهم مبلغ تسعة آلاف وثلاثمائة وعشرين فرنكاً من عملة سنة ١٨٦٥ الذي تعهدوا بدفعه لامير حائل الشمري .

يقول غوارماني ان هؤلاء السود جميعاً مسلمون ، وانهم دمثو الاخلاق ، وليس صحيحاً ما قيل عن وجود يهود في تلك المنطقة في القرن الثامن عشر . واذا صح أنهم وجدوا يوماً ما ذلك الا في عصور متقدمة جداً ، وهذا ما يدور حوله الجدل حتى الآن . فلا شيء في الوقائع التي رواها غوارماني ، عدا اسم القصر المتهدم ، يسمح بالبت في المسألة . ويُعتقد اليوم ان الكتابات الاثرية النيوبابلية قد تلقي بعض الاضواء على ذلك .

غادر منطقة خيبر ، وقصد منطقة يقطنها اقوام هُتَيْم من الحضر ، ولكنه رأى في ضواحيها فخذاً من قبيلة عتيبة يعرف بالرُّوَقَة قد نصبوا لهم ما يقارب الالف خيمة . ولكي يوغل باتجاه الشرق ، التحق بأفراد القبيلة المشرّقين . ولكن هذه القبيلة كانت في حالة حرب مع فيصل بن سعود الامير السعودي الحاكم آنئذ ، وقد رفع ابناء العتيبة خيامهم وتحركوا بغية اختراق صفوف الاعداء الذين كانوا يشغلون المرتفعات أو تطويقهم . وقد بدأ المسيرة مائتا خيال ، جعل في الوسط الاولاد والنساء والقطعان والأمتعة ، وسار في المؤخرة سبعمائة محارب تسلحوا بالبنادق . واستمر سيرهم اربعة ايام ، واربع ليال ، تخللتها اوقات استراحة قصيرة ، من غير أن تنصب الخيام ، متعرضين لهجمات الفرسان النجديين ورجال بني قحطان بقيادة الامير عبدالله بن فيصل . وفي مساء اليوم

الرابع ألفت القبيلة نفسها في المخيم الذي خرجت منه ، ولكنها فقدت كل قطعان ماشيتها وستين قتيلا ، وجرح منها مائتان .

ولكن المعركة لم تكن قد بلغت بعد مرحلتها النهائية ، ولم يلبث ابناء عشيرة الرُّوَقَة ان اغتنموا فرصة انفصال القحطانيين عن حلفائهم ، حتى أغاروا على السعوديين بخيـالتهم الاربعماية وهجانتهم الخمسة آلاف المسلحين جميعاً بالبنادق ، وأفنوهم .

قدم الشيخ عند توزيع الغنائم جواداً أصيلا رائعاً لغوارماني كحصة له من الاسلاب ، رغم أنه لم يشترك في المعركة ، بل ظل بعيداً يعاون في العناية بالجرحى ، وكان عدة شيوخ قد اختلفوا فيما بينهم على من يحوز هذا الجواد . واشترى ثلاثة جياد من الخيل الأصيلة بثمن مائة ناقـة ، وأراد عندئذ ان يعود الى اوروبة بعد ان قام بمهمته .

رحلت قبيلة عُتَيْبَة عن تلك الاماكن ، وبينما ذهب دليل غوارماني الثاني للمجيء ببدويين آخرين من مخيم قبيـلة هُتَيْم ، لمرافقته وحراسة خيله ، بقي هو مع دليل واحد في ذلك السهل المخضب بالدماء . وإليك ما يقوله : « كانت بنات آوى والغربان والذئاب والعقبان تمزق الاشلاء امام ناظري ، فترتعد فرائصي هلعاً » .

بعد ان تم الاتفاق مع بعض افراد من قبيلة هُتَيْم لقيادة خيله نحو المحط الذي سيعود منه الى بلاده ، قرر ان يسلك هو أطول طريق لئلا يحرم من رؤية نجد والتعرف الى الامير فيصل وابنه . ولكن ، فيما كان يقترب من عنيزة ألقى عليه القبض فرسان الامير عبد الله . فقـدم لهم غوارماني رسائل التوصية التي كان يحملها ، فأخذوها الى الامير . فرفض عبد الله رؤيته حذراً منه ، لاعتقاده بأنه تركي كما جاء في رسائل التوصية ، وأرسله الى عنيزة حيث سمح له الحاكم بمتابعة طريقه الى حائل .

ان مدينة عنيزة مختصة بتربيـة المهور التي تشتريها من البدو ، وهي

ترويبها ثم تشحنها الى بلاد العجم والهند . وقد أحس غوارماني أن الشعب في المنطقة يخضع لآل رشيد في حائل ، التي كان اميرها طلال الحاكم قد بسط سلطته خلال السنوات الاخيرة حتى الجوف شمالاً ، وتيماء وخيبر غرباً . وكان الامير زامل في عنيزة ، يعارض فيصل بن سعود علناً ، ويستعد للانتقاض عليه ، فاستنتج غوارماني قائلا : « ان نجم ابن سعود جانح الى الافول » وكان استنتاجه في محله .

والحقيقة ان عبد العزيز بن سعود الذي كان يومذاك حدثاً ، كان هو الذي سيجدد مجد آبائه عندما يبلغ سن الرشد بعد ان مالت شمسهم الى الافول ، وظن الناس ان صفحة تاريخهم اوشكت ان تقلب . لم يستطع غوارماني ان يرى مسبقاً ان اعطاء نجم السعوديين التألق الذي لم يسبق له مثيل ، لم يكن في حاجة إلا الى رجل واحد ، هو مثال خارق للامير البدوي المحارب الجدير بقصص الفروسية او قصص ألف ليلة وليلة ، ذي ارادة لا تقهر ومثابرة فوق طاقة البشر ، اعتاد أقسى انواع الحياة ، لأنه ربي كبدوي ، ينقصه كل شيء ولكنه كريم وأنوف ، مخلص لرفاقه في السلاح ، مؤاخ لهم ، ذو ذكاء خارق يعينه على حسن التصرف مع عشائره والدول الاوروبية على حد سواء .

كان عبد الله بن الرشيد واولاده قد سيطروا على نجد بسلطة شخصياتهم النبيلة الكريمة . ولكن عبد العزيز بن سعود كان مزمعاً ان يقدم للنجديين شخصية أعظم من شخصياتهم ، فيحوّل الى نفسه ، منذ ذلك الحين ، قلوب ابناء العشائر ، ويكتسب اخوة السلاح معهم ، فتغدو العربية الوسطى بأسرها سعودية .

ان البترول اليوم قد رسم هالة من الثراء الاسطوري حول جباه آل سعود . ولكن لنقرأ بوركهاردت ووآلان كي نعرف ان البدوي الحقيقي لا يرى حرجاً في ان يأخذ الذهب بنهم ـ ولكنه لا يضمر

اي اعتبار لمالكه ، ان الكرم الذي يعدل ثروته هو وحده الذي يستطيع ان يمنح الشيخ تقدير شعبه او بالاحرى رفاقه . والبدوي يدين بالتبعية والزعامة لكل من عرف فيه تفوقاً في الرجولة .

عند زيارة غوارماني كان طلال بن الرشيد – بعد ان توفي عبد الله سنة ١٨٤٧ – هو الذي يجسد المثال الكامل في نظر البدو . وكان يعقد مجلس القضاء امام القصر صباحاً وامام المسجد مساءً . وكان يحب ان يعلن على رؤوس الاشهاد ان الايتام والارامل أحب الى قلبه من ابناء بيته ، وكان كرمه بالفعل ، بالنسبة الى الجميع كرماً متطرفاً . فقد رآه غوارماني يصل شاعراً أعمى بمائة ريال ، وثوب ضافٍ ، وجمل ذي سنام واحد ، وجواد ، لقصيدة ارتجلها . اما قضاؤه فقد كان عادلاً لكنه صارم ، اذ كان يحكم على القاتل بالموت ، وعلى من يجرح غيره في نزاع ببتر يده ، وعلى الكذابين وشهود الزور بحرق لحام فوق الموقد ، الامر الذي لم يكن يبقي على عيونهم ، وعلى العصاة بمصادرة أملاكهم . وكانت النتيجة الاولى المنظورة لذلك ، امانة الطرق التي أفاد منها غوارماني للتجول في المنطقة بأسرها .

*

ولا شك في ان غوارماني كان افضل من تحدث عن تجارة الخيل ، فقد علمنا منه أن بني قحطان يقدمون المهور لعنيزة ، في حين ان عشيرة مُطَيْر تغذي اسواق بريدة بأعداد اكبر ولكن من نوع اقل اصالة . وهذه المدينة الاخيرة ، حاضرة ولاية القصيم ، وهي كثيرة الخرائب ، لكنها مأهولة بأمراء وتجار أغنى ممن يسكنون عنيزة .

في اثناء تجوال غوارماني في ضواحي حائل ، تمكن من زيارة الامير الرشيدي بينما كان يراقب في المرعى ، ما يقارب الخمسمائة فرس ، يحرسها ثلاثمائة عبد في جبل شمر ، فلاحظ ازدهار المنطقة ، وقال عن القُفَيْفَة

الواقعة في الجبل غرباً » في سهل فسيح ، حيث ستنشأ في ظرف العشرين السنة المقبلة ، كثير من القرى الاخرى ، نشاهد منازل كثيرة منفردة تبنى ، وآباراً تحفر ، ومزارع نخل تنصب » ، وكان السهل في الواقع بساطاً أخضر فسيح الرقعة .

ويذكر غوارماني العملي ان الجراد بالنسبة الى قبيلة شمر مصيبة ومورد في آن واحد . فالناس يهرعون الى حيث يهبط كالسحاب ، يحفرون الحفر ، ليسلقوه فيها بسرعة ، وهو لم يستسغ اكل الجراد لا مشوياً ولا مسلوقاً ، ولكنه رآه أشبه بالشعير بالنسبة الى الخيل . وإذا ما جفف ، وسحق ، شكل غذاءً اساسياً يؤخذ بكميات قليلة ، ويمكن الا يتسرب الفساد إليه سنين عديدة .

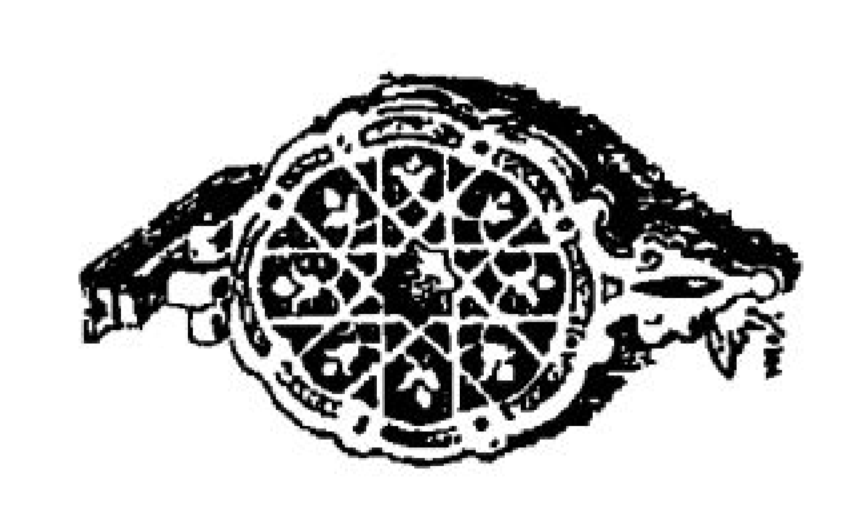
غادر غوارماني اخيراً جبل شمر ، عائداً بخيله في الطريق التي كان قد سلكها من وجهتها الاخرى ، مهنئاً نفسه بالاستقبال اللطيف الحي الذي لقيه في البقعة الواقعة تحت حكم طلال بن الرشيد ، متذمراً من التعصب الديني المتطرف ، معجباً بالنساء البدويات اللواتي منحهن الله قدراً عظيماً من الجمال .

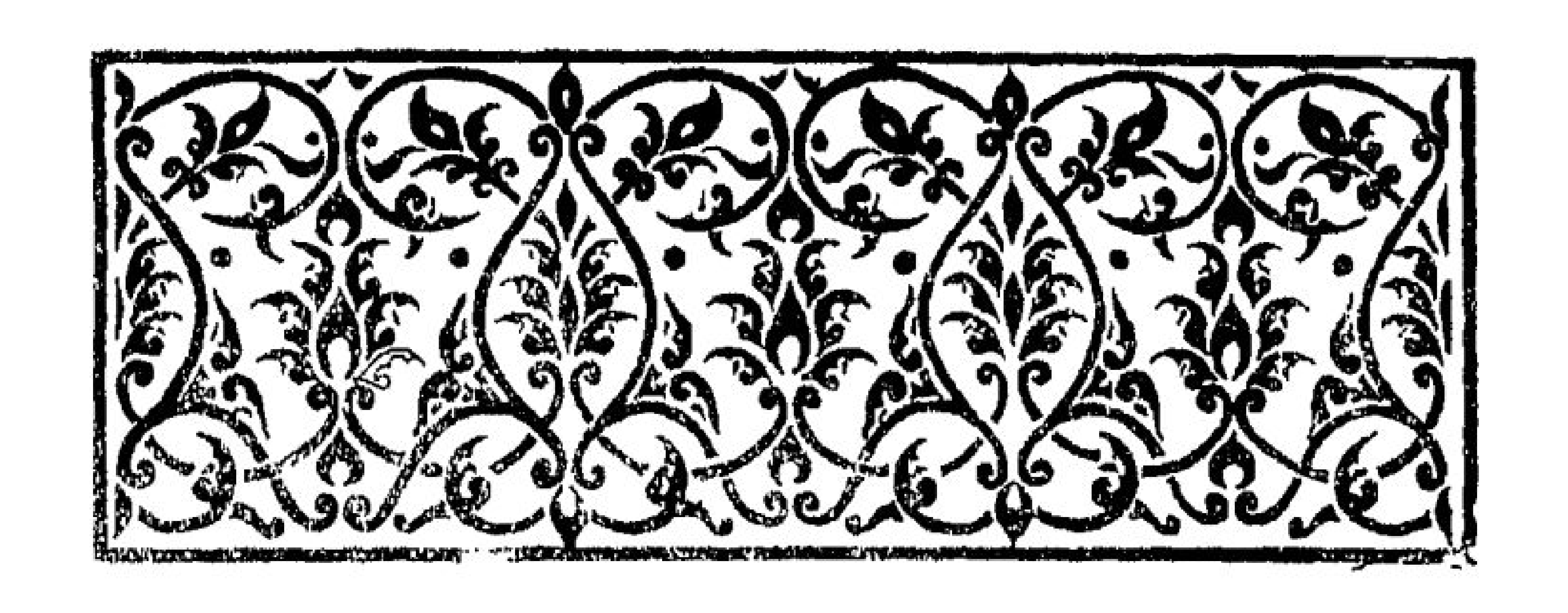
وكان أعظم خطر تعرض له في رحلته ينتظره في وادي السرحان ، فقد كان سائراً مع قافلة مؤلفة من مائة واثنين وتسعين مسلحاً متوجهين الى حوران ، ولكن نفراً من البدو من أفراد قبيلتي الشرارات وسيلان اتفقوا على سلب القافلة ، فأغاروا عليها يهزون الصفائح ويطلقون النار ، ولكن القافلة بلغت المحطة بعد ان فقدت رجلين ، وجرح منها عشرة ، ونهب كل ما عندها ، واصبحت في حالة يرثى لها . فوزع غوارماني على من في القافلة خمسين كيلاً من البلح ، وساعد في مداواة الجرحى الذين توفي اربعة منهم .

في اليوم التالي سلك طريق دمشق التي عاد منها الى القدس ، وكان

لكتابه الذي قام الآباء الفرنسيسكان بطبعه طباعة متواضعة ، وترجم على الفور الى اللغة الفرنسية ، قدره الكبير البيّن في نظر المبتدئين في علم الاكتشاف، لا لأنه احتوى على معلومات كثيرة صحيحة عن البدو وحياتهم ، وعن منطقة جبل شمر فحسب ، بل لأنه أعطى عدداً من المعلومات الجغرافية دونت استناداً الى البركار ، وتقديرات للمسافة كانت مزمعة ان تجعل رسم خارطة للعربية الوسطى امراً ممكنا .

هكذا اكتشف بفضل وآلان وغوارماني شمالي شبه الجزيرة العربية ، وبلاد الامراء الرشيديين . اما الشهرة فانها لم تكن من نصيبها ، بل من نصيب و. ج بلغريف الذي لا نقدر ان ننكر ان كتابه كان جديراً بأن يحدث دوياً بالغا !..





قضية بالغراف

استقبل كتاب وليم جيفرد بلغريف المعروف « بقصة رحلة الى العربية الوسطى استغرقت سنة » لدى نشره في سنة ١٨٦٥ كأعظم كتاب وضع عن شبه الجزيرة العربية . وقد ترجم بعد سنة الى الفرنسية ، ثم الى الالمانية ، وبعد انقضاء عشر سنوات على ذلك ، نشرت الترجمة الفرنسية مختصرة ومصورة للاحداث في المكتبة الوردية . وقد تمكن جيل بكامله من اكتشاف شبه الجزيرة العربية بعيني هذا المؤلف الساحر !

لا ريب في ان القصة كانت قادرة على منافسة أشهر الروايات ، واكثرها تحريكاً للعواطف . ولكن ، على الرغم من أنها بدأت في معان ، لا يستطيع القارىء ان يتبين فيها المكان والمنطقة اللذين وصف وآلان حياتها الاجتماعية ، وخرائبها القديمة ، وميزاتها الجغرافية ، لأن هذا المؤلف قد غذى يراعه بحبر يختلف كل الاختلاف عن حبر وآلان.. وفيما يلي نبذة من قصة بلغريف :

« في السادس عشر من شهر حزيران (يونيه) من عام ١٨٦٢ .

عند هبوط الليل ، كنا ننتظر ، عند باب مدينة معان الشرقي ، أدلاءنا البدو الذين ذهبوا بقيادة زعيمهم سليم لملء القرب من مياه نبع مجاور . وكانت السروج توضع على صهوات الجياد ، والامتعة ترتب على ظهور الجمال ، والنجوم قد اخذت تتلألأ في سماء زرقاء قاتمة خالية من الغيوم . وكان لألاء الهلال الخاص بالشرق ، يمنينا بسرى ليلي أسهل من مسير النهار . ولم نلبث ان رُفعنا الى متون مطايانا ذوات الاعناق الطويلة ، وفي وضع يشبه وضع من يجلس على رأس صارية ، على حد تعبير احد الشعراء العرب

« كان الصمت مخيماً في كل مكان . وقد بدا وكأن ادلاءنا انفسهم يخشون قطع أسبابه ، فتبادلوا الملاحظات بأصوات خافتة ، في حين ان جمالنا كانت تتقدم مسترقة الخطى في وسط الوحشة ، غير مزعجة ذالك الهدوء المهيب

« كان رفيقي المدعو بركات ، النصراني السوري ، يرتدي مثلي ثوباً عادياً من الاثواب التي يلبسها افراد الطبقة المتوسطة في سورية ، وكنا قد استعرنا هذين الثوبين للذهاب من غزة الى معان ، فوفرا علينا بعض الملاحظات الغريبة ، والاسئلة غير الرصينة التي كان من المحتمل ان نتعرض لها في ذالك البلد المعروف لدى المسافرين باسم العربية البتراء » .

وتبدأ المغامرة ، فيتبع المسافران الى حائل الطريق التي سبق لوآلان ان سلكها ، مروراً بوادي السرحان ، والجوف ، وجُبّة . ولكن عاصفة رملية فاجأتهم ، مهددة حياتهم ، حارمة المسافرين من التمتع بالمشاهد الجديدة بالنسبة إليها ، هذا فضلاً عن الحوادث المؤثرة التي جرت اثناء إقامتها في الجوف .

دخل الطبيب المزعوم وتلميذه فناء البناء الخاص بضيوف طلال ابن الرشيد أمير شمر ، في اواخر شهر تموز (يوليه) . فماذا كان الهدف

الذي يسعيان إليه ؟ ان مقدمة القصة تبين لنـــا ذلك : « ربما تساءل القارىء عن غرضي الخاص من تلك الرحلة المليئة بالمخاطر ، والبواعث الدافعة إليها . لقد حدا بي الى ذلك ، الأمل في الاسهام في تقدم هذه المناطق الاجتماعي ، والرغبة في بعث ماء الحياة الشرقية الراكدة بملامسة التيار الاوروبي السريع ، وربما الرغبة الملحة في الاطلاع على ما لا يعلمه احد غيري ، واخيراً روح المغامرة التي فطر عليها قومي الانكليز . تلك كانت الدوافع الرئيسية للقيـــام بمغامرتي هذه . ولأضف الى ذلك ، انني كنت مرتبطاً آنئذ بالمنظمة اليسوعية الشهيرة في تاريخ الخدمات الانسانية الجريئة المخلصة ، واعترف في نهـاية الامر ، ان الامبراطور الفرنسي هو الذي قدم لي بسخاء الاموال التي احتجتها لرحلتي » .

ولكن الوقائع التي رواها تدل على ان الرحالة كان مكلفـــاً بمهمة واسعة النطاق .

بعد ان مكث بعض الوقت في العاصمـة ، سابراً غور الشعور الوهابي لدى السكان ، واخلاص طلال لأسياد الرياض ، قرر المبعوث الخفي ان يكشف اوراقه للامير المعادي للسعوديين . فحاول ان يسبر غور ما يكنه صدر زامل امين الخزينة . وقد كتب يقول :

« بدأنا نقول له اننـا نرغب في مقابلة طلال لنطلعه على امور ذات اهمية بالغة . وبعد ان أشعرناه بعض الشيء بسرّنا ، أطلعناه على الحقيقة الكاملة ، وسألناه رأيه في الاقتراحات التي كنا مزمعين أن نقدمها الملك . فعين لنا موعداً للمقابلة وأدخلنا عند الفجر من باب سري الى غرفـــة منعزلة ، يقوم بحراستها عبيد سود ، ويقف بعيداً عنها حراس مسلحون لا تصلهم اصوات المتكلمين فيها ، فألفينا طلالاً مستعداً للاستماع إليّ .

« وقد شرحت له باختصار اسباب رحلتي ، وأطلعته على المكان الذي أتينا منه ، والأمل الذي حدا بنا للمجيء الى بلاد العرب ، وما ننتظره من حسن

التفاته . وتلت ذلك محادثة استغرقت ساعة كاملة . واختتم طلال الحديث مصرّاً على التكتم المطلق قائلاً : « اذا ما عُرف الامر الذي تباحثنا فيه الآن ، اصبحت حياتكم وحياتي في خطر » .

وتتألف لحمة القصة من حادث عرضي سببه عُبَيْد عم طلال الماكر الذي كان يتظاهر بالمودة واللطف ، والذي نزع عن وجهه القناع ذات يوم ليظهر وجهه الرهيب :

« أرسل عبَيد يطلبني ذات صباح لأقوم بفحص خادم له مصاب بمرض ، فتوجهت الى قصره ، حيث ما عتم أن كشف لي عن حقيقة نواياه بعد محادثة قصيرة ، وقد تغلب غيظه على ريائه ، وحل الحقد والغضب محل وداعته وكلامه المعسول ، وأخذ يكيل الاتهامات للمجددين النصارى الذين يريدون ان يدنسوا طهارة الاسلام . ثم التفت نحونا وقال : « كونا من تكونان ، ولكن اعلما هذا . اذا ما ارتضى ابن اخي ، وشبه الجزيرة العربية كلها ، الخروج عن الاسلام ، سأظل انا بمفردي مدافعاً عن معتقدات أسلافنا ! » ثم شعر عبَيد انه بالغ في غضبه ، فعاد الى لهجته اللطيفة وحديثه الودي ، كأن الشك لم يتسرب قط الى نفسه ، ولكننا كنا قد رأينا منه الكفاية ، فقطعنا معه علاقاتنا كلياً »

أرسل طلال عمه في مهمة حربية ، ومع ذلك فقد تلطف هذا الاخير بإعطاء بلغريف كتاب توصية الى ولي العهد السعودي في الرياض . وبما أن الخوف تغلب على اصول اللياقة في قلب بلغريف الحذر ، فقد فتح الكتاب فوجد ان عُبَيداً قد نعته « بنعت يمكن فهمه على وجهين » ، ولكن يغلب معنى الساحر فيه على الطبيب ، والسحر في الرياض يعاقب عليه بالموت » فعرف أن ذلك الماكر يريد ان يدفع به وبرفيقه الى سيف الجلاد .

عندئذ وصل جواب طلال : « بعد ان أبعد عبيد ، اخذ طلال

يشعر بالحرية . فدعينا في السادس من شهر ايلول (سبتمبر) للذهاب الى « خفوة زامل » في الساعة الواحدة من بعد الظهر . وكان قد أقيم حارس على الباب لابعاد الزوار المزعجين ، ولم تنقض عشر دقائق على دخولنا حتى أقبل طلال يخفره حارسان مسلحان تركهما في الفناء كان عادي الثياب ، جدي النظرات اكثر من العادة ، ينم محياه عن انشغال بال شديد . فجلس وصمت بعض الوقت ، ولم نشأ ان نفسد ذلك الصمت . واخيراً رفع نظره ، وحدق في عيني وقال : « لن تسألني في هذه الظروف الحالية ، ولن اكون من قلة التبصر في درجة أعطي فيها جواباً ايجابياً رسمياً على مخابرات كمخابراتك . على انني اؤكد لك ، انا طلال ، مؤازرتي وارادتي التي لا تتزعزع . تابع رحلتك الآن ، وعندما تعود ، وآمل ألا تبطىء في العودة ، سيصبح كلامك قانوناً ، وسيتحقق كل ما تريده . هل انت راض ؟ فقلت له ان جوابه قد حقق لي رغباتي ، وتصافحنا علامة للتحالف المتبادل » .

على القارىء ان يرجم بالغيب حول حقيقة هذه الاقتراحات الغامضة ، ولكن من الراجح انها لم تكن سوى شن هجوم من اوروبة على الوهابيين ، وتعهد بشد أزر آل رشيد !

بيد ان المسافرَين لم يوقفا اعمال الارتياد عند ذلك الحد ، فقد قررا ان يتوجها الى الرياض ، الامر الذي لم يقم به احد سواهما ، وبعد ان مكثا فيها بصورة شبيهة بالمآسي ، هربا من المدينة خلسة ، واختبأا في ثنية من الارض ، منتظرين مجيء حليفهما السياسي ، الذي كان دليلاً للقافلة ، ليضمها الى القافلة التي كان يقودها الى الهفوف . ومن هناك قصدا زيارة القطيف ، وأبحرا منها فزارا جميع المراكز السياسية الهامة على الخليج العربي : عاصمة « القراصنة » ، ومستعمراتهم على الضفة الاخرى (جاولك ولنجه) ثم هرمز المستعمرة الرئيسية لحكومة مسقط في تلك المنطقة نفسها ، واخيراً عمان ذاتها .

وقد غرقت السفينة التي كانت تبحر بها الى عُمان ، على شكل يماثل ما يحدث في الروايات الخيالية ، ولم ينجُ من ركابها الا تسعة رجال من بينهم مسافرانا ، لا بأعجوبة ، بل بفضل بسالة بلغريف وطريقته الانقاذية التين جعلتاه يجبر بقية التعساء الذين تشبثوا بالقارب مهددين اياه بالغرق ، على كف أيديهم عنه . بلغ بلغريف ورفيقه الساحل سباحة وهما عاريان ، وفقدا كل الوثائق التي كانت بحوزتهما عن رحلتهما ، فقصدا من فورهما مقر السلطان فألفياه فيه لحسن حظهما . فألبسا ثياباً جديدة ، وقُدم لهما الطعام ، ولكنهما لاذا بالفرار خلسة وتوجها الى مسقط . ولم يبق على بلغريف آنئذ الا ان يعود الى سورية عن طريق بغداد .

*

ان الكتاب كقصة لجدير بكل اطراء . لا شيء ينقصه ، لا الحبكة ولا « اللون المحلي » ولا الحوادث الدراماتيكية المثيرة ، ولا جاذبية الاسرار السياسية .

ولكن و ج. بلغريف لم يكن روائياً مثل الكسندر دوماس ، بل كان رائداً وأي رائد ! ألم يمر في الطريق التي سكها بمعظم أنحاء شبه الجزيرة العربية من معان الى عُمان ، وبمنطقة مجهولة واقعة بين حائـــل والقطيف ؟

لقد منحته الشركة الجغرافية الفرنسية وساماً لكونه شرّف المخصصات التي منحه اياها نابوليون الثالث ، واستطاع وهو بطل المغامرات المدهشة الحي ، ومؤلف ذلك الكتيب المثير ، ان يتذوق المجد ، ولكن ... اجل ، هنالك لفظة « لكن » كانت مزمعة ان تفرض نفسها ، وظلت تكبر وتكبر حتى يومنا هذا .

حين أصغت الجمعية الملكية الجغرافية في لندن الى القصة التي رواها لها بلغريف عن رحلته ، أبدت اهتماماً كلياً ، ولا ريب ، بملاحظاته المثيرة ،

ولكنها لمّحت في شيء من المزل ستر ظواهر المجاملة الى « قصة ألف ليلة وليلتين » وألقت سؤالاً ما انفك يُطرح حتى اليوم : « كل هذا صحيح ، ولكن الى أي حد ؟ »

لقد اعترض الدكتور بادجر على طريقة وصف بلغريف لمجاري المياه ، ولكنه لم يتمكن من اثبات خطئه ، وكان لا بد من انتظار رواد آخرين يؤمون تلك المناطق نفسها او اغرائهم على ذلك . وقد لجأت انكلترا الى الأمر الثاني ، فلفت رئيس الجمعية الجغرافية الملكية في بومباي نظر الليوتنان كولونيل ل. بلي المقيم السياسي آنئذ في بوشهر ، الى التقرير الذي قدمه بلغريف ، وأقنعه بالقيام برحلة الى تلك الاماكن ، مظهراً له أهمية تحديد المواقع الجغرافية للرياض والهفوف ، وملاحظة الطبيعة الجغرافية للمناطق الواقعة على هذه الطريق ..

وكان لدى المقيم الانكليزي في الخليج العربي موضوع القراصنة الهام الذي يريد بحثه مع الامير السعودي . وكان يأمل في ان يحمل فيصل على تفهم الاسباب التي من اجلها ترى انكلترا نفسها مضطرة الى التضييق على من يقومون بالقرصنة في الخليج العربي . فكتب رسالة أولى الى الامير السعودي ، ثم اتبعها بثانية ، ولكن لم يتلق عليها جواباً . فتوجه الى الكويت وانتظر فيها وورود جواب على رسالة ثالثة أنفذها إليه منها . واخيراً تلقى دعوة بالتوجه الى الرياض ، ولكن من غير ان يُقدّم له حرس ودليل . فلم ييأس ، بل اصطحب معه ضابطين ، وترجماناً ، وطاهياً ، وحرساً من العرب .

دوّن اولئك المسافرون ملاحظات خلال الطريق من الكويت الى الرياض عن النبات ، والتربة ، بوساطة آلات دقيقة ، مجتازين بادىء ذي بدء سهلاً متماوجاً ، قاحلاً ، مجرداً من الاماكن المعمورة ، ثم ظهر وشاح الدهناء الصحراوي الاحمر الرملي . وبدا أول خط من الرمل

وقد نمت عليه النباتات ، مرتفعاً بضع مئات من الاقـدام فوق المنحدر الحصوي الذي تقدمه ، وقد فصل سهل يبلغ عرضه بضعة أميال بين هذا الخط الرملي الاول وسبعة خطوط رملية اخرى تأتي متتالية من ارتفاع مائتين او ثلاثمائة قدم .

ولدى خروجهم من هذا القفر وجدوا امامهم هضبة من هضاب نجد ، وتلالاً وسهلاً آخر ، وأخيراً سلسلة جبـــال طويق التي تقوم الرياض في وسطها في وادي حنيفة .

انعطفوا في سيرهم نحو الغرب لمشاهدة عمود قديم قيل لهم انه موجود في سَدُوس ، ولاحظوا ان صليبين رومانيين منقوشان فيـــه . واسفرت البعثة في الرياض عن نتيجة سلبية ، فقد بدا فيصل المصاب بالعمى والشلل صريحـاً ودوداً ، ولكنه أراد ان تعترف انكلترة بحكمه ، وان تحترم تجارة العبيد . فرأى ل. بلـّي ، ألا فائدة من متابعـة المحادثات . ولما تنـازل فيصل عن الملك بعد القضاء ثلاثة اشهر على ذلك ، وطلب ابنه عبدالله مساعدة الانكليز له على اخيه سعود ، نصح بلـّي الى حكومته بمساعدة هذا الاخير ، لانه كان قـد كوّن عن عبد الله فكرة سيئة . وكان من نتيجة هذه الخصومـــة الناشبة ما بين الاخوين ، النداء الذي وجهه عبد الله الى العثمانيين ، واحتلالهم ثانيـــةً ولاية الحسا الساحلية في سنة ١٨٧١ .

سلك بلـّي في طريق العودة ، الطريق التي سلكها بلغريف على وجه التقريب ، ولاحظ تعاقب الاراضي ذاتها بصورة عكسية لتعاقبهـــا عند المجيء : هضبة متماوجة ثم تـــلال الدهناء الرملية ، وأخيراً ارض قليلة التماوج حتى الهفوف .

ودوّن بلـّي الى جانب قوائم خطوط الطول الدقيقـة ، وملاحظاته الجغرافية ، ايضاحات قيمة عن مواقع الخرائب في المنطقة ، وكان أول

من حصر اهتمامه بقبيلة غريبة من الحضر عرفت باسم الصليب ذات عادات ومعتقدات خاصة غير اسلامية ، ووصفها وصفاً دقيقاً ، وما زالت هذه القبيلة حتى اليوم تشكل معضلة من معضلات التاريخ الديني والثقـــافي مستعصياً حلها .

★

من وجهة نظر التحقق من اقوال بلغريف ، لم يكن تقرير الكولونيل بلـّي المؤلف من بضع صفحات كافيـــاً لاجراء مقارنـة بين ما كتبه الاثنان ، بالنظر الى ان الكتاب لم يكن قد نشر بعد .

ولكن مسافرين آخرين كانوا مزمعين ان يجتازوا شمالي شبه الجزيرة العربية : الليدي واللورد بلنت ، ثم الرائد الكبير دوغتي ، ولكنهم لم يروا نفود الدهناء الذي وصفه بلغريف بقوله انه منطقة رهيبة ، لا يُرى فيها الا الرمل الخفيف الذي يشكل تموجات يبلغ ارتفاعها ثلاثمائة قدم ، يجد المسافر نفسه بينهـا كأنه سجين يختنق في هوة من الرمل ، ويؤكد ان قوافل بكاملها يمكن ان تضيـع فيها ولا تجد طريقاً للعودة ، وهذه التلال الرملية الهائلة معقدة الى درجة ان دليـــل بلغريف لم يتوصل الى معرفة الاتجاه الصحيـح الا بوساطة حس خارق للعادة والطبيعة فأنقذهم من موت محقق .

ويُلاحظ أن بلـّي لم يجد في النفود اي شيء مخيف . وقـد كتبت الليدي بلونت فيما بعد : « ان هذه المناطق الرملية تؤوي خلال المواسم الماطرة من كل سنة ، طوال بضعة اشهر ، قبائل البدو الرحل ومواشيهم ، وهي تحتوي على سر الحياة البدوية لأنه ما من مكان آخر يشبههـــا في خصب المرعى ، ولولا هذه الثنايا البالغـة الخصب لتعـذر وجود البدو الرحل الرعاة » ، في حين ان بلغريف يدعي انه غـادر الرياض في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ، بعد ان هطلت امطار غزيرة ، وان منطقـة

الدهناء لم تكن سوى « محيط من النار » لا عشب فيه .

ان غوارماني الذي قام برحلته بعد بلغريف بسنة واحدة ، واجتاز الاماكن ذاتها على وجه التقريب ، وان كان لم يلمّح إليه ، قد صحح اخطاءه في بعض النقاط ، في نوع سوق حائل ، وعمر ابن الإمير ، وهيئته ، وعدد سكان القرى العامة ، والعاصمة . فعدد سكان القرى الذي يذكره بلغريف يفوق ما يذكره غيره من المسافرين ، ويبلغ الرقم الذي يذكره لسكان حائل ثلاثة اضعاف ما يذكره غيره . وهذا الغلو هو الذي يدفعه الى القول عن احدى القرى ان عدد سكانها يبلغ ألفي نسمة . واذا ما قورنت تقديراته العامة التي يوردها عن افراد العشائر المختلفة ، بالأرقام التي اوردها بوركهاردت وجدنا ان لا شبه بينها البتة .

ووصف بلغريف الطريق التي سلكها وآلان من قبله ، يختلف كل الاختلاف عن وصف هذا الاخير الدقيق لها . فوادي السرحان يصبح « واحة ممتدة ، ولا وادي آخر في البلاد يعدله طولاً » ، في حين ان وآلان يقول انه منخفض له هيئة النفود . وهو يصف في « جبّة » صخوراً ضخمة هائلة من الصوان الاسود ، وحشية فظيعة ، وعيوناً كثيرة عذبة المياه باردتها ، في حين ان وآلان لم يجد سوى تلال متواضعة من الحجارة الرملية ليس فيها الا آبار مياه ملحة .

كل هذا لا يمكن ان يوحي بالثقة في ذلك الرائد . فهل كان وصفه غلواً طُبّق في كل مكان للحصول على تأثير أشد في القراء ؟ ان هنالك ما هو اكثر من الميل الى المبالغة وأكثر من عدم الدقة ، هنالك اخطاء غريبة ، جسيمة . وقد علم ش. م. دوغتي ان زملاء بلغريف من اليسوعيين لم يعترفوا له بميزة الصحة في مؤلفه ، وأبى الاعتقاد بأن يكون بلغريف قد قام برحلته تحقيقاً لبعض مصالح نابوليون الثالث .

ويستطيع المرء ان يتساءل ، في الحقيقة ، ما اذا كان ادعاء بلغريف

بكونه موفداً سرياً ، مكلفاً بمهمة سياسية شديدة الاهميـة ، ليس مجرد تبجح منسجم وأسلوب الكتاب كله ، هذا الكتاب الذي قال عنه د. ج. هوغارت : « انه مشحون بلفظة « أنا » التي يُكثر المؤلف الأناني من استعمالها من اول الكتاب الى آخره » .

ماذا يجب ان نقول عن عميـــل سري يعطي نفسه دوراً ممتازاً أشبه بدور ابطال الروايات الخياليـة ، بإفشائه فور عودته أسراراً ديبلوماسية معرّضة للخطر بمقدار ما كانت غير دقيقة ، ومقدّمة بحيث تبدو كأنها لا تهـــدف الى شيء سوى إثارة شبه الجزيرة العربيـــة ، وإبطال الدين التقليدي فيها ؟

ان رغبة الامبراطور الفرنسي في معرفة مقدار القوة الحقيقيـــة التي يتمتع بها الامير الرشيدي ، ودرجة امكان انتصار الوهابية ، أمر يؤكده تمويله المشروع فيما بعد لرحلة غوارماني ، ولكن مما لا ريب فيه أنه قد أحس بانزعاج شديد إذ قرأ تلميح بلغريف الى تلك الأوامر السرية التي أراد الايهام بأنه قد تلقاها منه .

لقد ظهر ان هذا الرجل غير جدير بالثقة ، لا سيما وانه كان نصف يهودي ونصف انكليزي ، ثم اعتنق الكثلكة ، ودخل في سلك المنظمة اليسوعية ، وانضم الى القضية الفرنسية ، ثم ترك منظمته بعـــد عودته بقليل وتنكر للكثلكة ، وعاد الى البروتستانتية موجهـــاً الى الكنيسة الكاثوليكية هجوماً عنيفاً . ولم يكن كل ذلك ليزيد في ثقـة العالم في امانة أقواله .

وقد استنتج ادوارد نولد الذي سلك فيما بعد الطريق التي سلكهـا بلغريف ان المعلومات التي أوردها صحيحة . وقدّر دوغتي ، والليـدي واللورد بلونت ، رغم كل شيء ، ان الصورة التي رسمهـــا للمجتمع في نجد كانت تستند الى المشاهدة الحية .

واعتبر د. ج. هوغارث في عام ١٩٠٤ ان حقيقة الرحلة ليست موضوع جدل ، وان بلغريف يشكل « أفضل مخبر لنا ، فيما يختص بنصف هذا الجزء الجنوبي من نجد الذي لا نعرف عنه أي شيء ، اما فيما يختص بالنصف الآخر ، فان تقريره عنه أملأ من تقارير سلفيه الوحيدين دينو وسادلير ، وخلّفه الوحيد بلنّي ، الى درجــة انه يشكل نصاً ولا تشكل تقاريرهم الا تعليقاً » .

وقد منحه هوغارث الثقة بالنسبة الى ما يختص بملاحظاته عن منطقـة الحسا الساحلية ، فكتب يقول : « ان قصته التي لا تبدو غنيـة حية في اي جزء من اجزائها ، تظهره كرجل لا يكلف نفسه عناء اخفــاء ميله شبه الشرقي » .

وفي لمحة اكثر جدية يصف بلغريف المدينة والواحة المحيطة بها وصفاً مفصلاً رائعاً متفقاً والنبذ التي أوردها عنها سلفه سادلير وخلفاه بلنّي وزويمر . وهذا الاخير الذي جاء الحسا ، تحت الحماية التركية ، في سنة ١٨٩٣ ، وجد في الحقيقة مخطط الهفوف صحيحاً بعد انقضاء ثلاثين سنة : « معلومات مفصلة عن المعيشة — البيوت وداخلها ، المنتوجات والتجارة ، الاخلاق والعادات — » ووجد لكلامه « نغمة إلفة ندر ان توصل إليها أي اوروبي في الشرق » . واستنتج قائلاً : « بالنسبة الى الجزء الاكبر من نجــد يجب ان نعتبر بلغريف كمرجع ، اذ لا مرجع غيره ، وبالنسبة الى الحسا نلجأ إليه مؤثرين اياه على سواه » .

ولكن وضع معلوماتنا تغير منذ عام ١٩٠٤ ، اذ ان احد الاوروبيين الذي أسلم وتعرب عن طريق التبني عاش في الرياض لدى الملك الكبير عبد العزيز آل سعود وابنه ، ولم يتخل منذ عام ١٩٢٥ حتى يومنا هذا ، عن رغبته الملحة في الارتياد ، وعن معرفته الوثيقة بمؤلفات الاوروبيين ، وثقافته العلميــة التي اكتسبهـا في كامبردج . وكان التحقق من اقوال

بلغريف بالنسبة إليه في سهولة تحققنا نحن بما جاء في « الدليل الازرق » عن المسافة بين ليل ومونت كارلو . والقيام بذلك لا بد من ان يكرس له الوقت والرحلات . ولكن م. فيلبي توصل ، شيئاً فشيئاً ، الى سلوك الجزء الاعظم من طريق بلغريف من جديد . وقد قدّم في عام ١٩١٩ ملاحظاته الاولى عن ذلك للجمعية الجغرافية الملكية ، ثم وضع تدقيقاً مفصلاً للوقائع في كتابه الذي أسماه « قلب الجزيرة العربيـة » وأصدره في سنة ١٩٢٢ ، وأخيراً حمل في سنة ١٩٤٧ للجمعية الجغرافية الانكليزية البرهان الاخير لنظريته .

لقد قدّر ان في وسعه اثبات ان بلغريف لم يتمكن من القيـام بالرحلة التى ادعى القيام بها من حائل الى الخليج العربي ، لأنه يؤكـد اشياء تبرهن بوضوح انه لم يرَ ما تحدّث عنــه ، ثم تتبّع التهم ، خطوةً فخطوة .

لنأخذه على طريق حائـل – بُرَيْدَة . لقـد أدلى باديء ذي بدء ، بخبرين خاطئين إذ قال ان آبار منطقة القصيم لا يبلغ عمقــها إلا ستة اقدام كحد أعلى ، وان اهل هــذه المنطقة يصدرون الملح الى اليمن والحجاز ، وان المرحلة الاخيرة قبل بريدة هي واحـة غات – التي لا وجود لها – والتي يقول ، رغم ذلك ، انه قضى ساعة في حدائقهــا ومزروعاتها . ولما أصبح على مرأى من بريدة ، توقف عن متابعــة السفر لقضاء الليل في الدويرة ، وذلك ابتكار آخر من ابتكارات مخيلته. ويقول أنه لدى بلوغه المدينة وجد فيها الملح المستخرج من المقــالع ، خالص النقاء والبياض ، في حين ان لونه في الحقيقة وردي وغير نقي .

ويقول بلغريف انه نظر الى بعيد ، فرأى في الجهة الجنوبية الغربية المنطقة كلهـــا مكسوة بجزر صغيرة من المزروعات الواقعة بين الرمال ، وبخطوط طويلة من الظل الكثيف ، تزداد كثافة كلما بعدت ، دالةً على

مكان وجود عنيزة ، في حين انه تشاهد من تلك المنطقة والى أبعد مدى مرتفعات رملية لا نهاية لها ، تختفي بعيداً وتحول كلياً دون رؤية عنيزة ، وحتى مزارع النخيل في الوادي .

ويزعم بلغريف انه قام بنزهتين استغرقت كل منهما يوماً واحداً لدراسة الحياة الريفية . والمكان الأول الذي ذكره لا وجود له ، الا اذا كان اسم مكان يبعد مسيرة ايام من هناك . والمكان الثاني ليس الوصول إليه في يوم واحد متعذراً فقط ، ولكنه موجود على الطريق المباشرة بين بريدة وشقراء التي يذكر انه لم يستطع سلوكها لانها كانت مليئة بالجيش . ومن الواضح انه لا يعلم ان المكان الذي قصده للنزهة واقع على هذه الطريق !

ويورد بلغريف لمحة موجزة عن الطريق بين بريدة والزلفي التي يدعي انه قضى ثلاثين ساعة من السير الفعلي في سلوكها وهي في الحقيقة لا تتجاوز الستين ميلاً . ويذكر انه توقف في عدة واحات ، وهذه الواحات لا وجود لها البتة .

ويقول بلغريف انه اثناء وجوده في الرياض قام برحلة الى منطقة الافلاج ، وان في هذه المنطقة شيئاً مميزاً لها من كل ما في الجزيرة العربية كلها ، وهو بحيرة . ولكن بلغريف لا يصفها ، كما انه لا يذكر اي شيء عن طريقة الري فيها يستحيل ألا تسترعي الانتباه ، علاوة على ان هذا المكان الذي يبعد مائة وسبعين ميلاً عن الرياض ، يدّعي بلغريف أنه بلغه في يومين من السير العادي .

اما التقرير الذي أورده عن سلسلة جبال طوَيق ، فلا يرى فيه م. فيلبي الا ضرباً من الكاريكاتور . والارتفاع الذي ذكره خاطىء ، وما قاله بلغريف عن توزع المياه من هذه السلسلة مخالف كل المخالفة للواقع . وبلغريف يسخر من الجغرافيين الذين يفترضون وجود أودية

تتجه من منطقة الرياض نحو البحر ، والسيد م. فيلبي يذكر ان وادي حنيفة لو كانت فيه كمية من المياه لبلغ البحر . وبلغريف يذكر انه بلغ هذا الوادي في يوم واحد من السير ، في حين ان المسافة الحقيقية التي تفصله عن الرياض لا تتجاوز ميلاً واحداً حسب قول فيلبي الذي سلكه في وقت جرت فيه المياه لأن أمطاراً غزيرة كانت قد هطلت في الرياض . ويزعم بلغريف ان هذا الوادي لا يتجه نحو البحر ، بل يتجه غرباً ، أي ان المياه اذا ما سالت فيه ، جرت في الاتجاه العكسي . ويشرح هذه النظرية مدعياً انه في شرقي الطريق وصل الى سلسلة جبال عمودية (هذه السلسلة لا وجود لها البتة) تجري منها المياه التي تسيل في وادي حنيفة . وكذلك فيما يختص بوداي السُلَيّ الذي يقول انه سلكه فيما بعد ، فقد جعله يتجه اتجاهاً عكسياً ، نحو الشمال ، ويصفه كأنه آت من نبع خيالي ، واقع في منطقة خيالية أيضاً . ويقول انه رأى في هذا الوادي قرى صغيرة فقط لا اهمية لها ، في حين ان لا قرى فيه .

ويقول بلغريف انه بلغ في طريقه غابة من اشجار الدلب ! وانه شاهد ذات صباح ضباباً كثيفاً كضباب ايقوسية ، وانه صعد الى احدى قمم الطريق ورأى مشهداً (من نسج الخيال) على جبل الحريق الازرق من جهة الجنوب ، وانه شاهد من هنالك الطريق تختفي في الرمال بانحدار شديد ، وهي في الحقيقة لا تختفي الا في بطء على مسافة بعيدة من هناك ثم يعود ثانية الى ذكر مسافات غير صحيحة ، ومحطتين عند بئرين لا وجود لهما . ثم يبلغ الدهناء التي يصفها وصفاً لا يمكن لاحد من الرواد ان يتعرف إليها منه .

ثم يخترع اختراعاً جديداً هو اختراع النتوءات ، فهو يدعي ان خطاً من التلال القاحلة ، الوعرة الاشكال ، محيطاً بالجزيرة العربية كلها ،

يفصل بين الصحراء والساحل ، وان هذه المرتفعات المكونة من الصوان ، والحجر الرملي ، والنسفة ، ترتفع ألفاً واربعماية قدم عن سطح البحر ، وفي الحقيقة ليس بين الدهناء والساحل سوى صحراء مترامية الاطراف كلسية الحجارة تنخفض تدريجياً ، لا يغير من رتابتها المملة الموحشة سوى بعض الآكام .

وقد تبقّى على م. فيلبي ان يورد برهاناً لا على عدم صحة المعلومات التي أوردها بلغريف فحسب ، بل على طريقته في تلفيق القصص . فقد ادعى بلغريف ، انه اكتشف في قلب الجزيرة العربيـــة اكتشافاً اثرياً مثيراً ، وإليك ما يقوله :

« رأينا أحجاراً بالغة الضخامة غير منحوتة ، مقامة على الارض ، بعضها منفرد ، والبعض الآخر قد وضع فوقه أحجـــار من ذات النوع بشكل معترض . وتدل طريقة وضعها على انها كانت تشكل دائرة كبيرة ما تزال بعض بقاياها ماثلة للعيان عن بعد قليل . رأينا منهـا ثمانيَ أو تسعاً ، تفصل بين اثنتين منها مسافة ثلاثة أو أربعة امتار ، وما تزالان متوجتين بقطعة صخر تشكل اسكفة ، ويبـدو انها كانتا تشكلان بابـاً هائلاً ، وكانت الاحجار الموضوعة عرضاً تشكل وحدة تامة والاحجار التي ترتكز عليها . وقد دفعتُ جملي فدنا من احدى هذه الاحجار ، ومددت ذراعي محاولاً تحريكها بعصاي ولكنني لم استطع . وقد كان ارتفاعهـا عن الارض يراوح بين اربعة وخمسة امتار على وجه التقريب .

« ان نوع هذه الاحجار يحمل على الافتراض بأنها قد استخرجت من الجبـال الكلسية المجاورة . وهي منحوتة نحتاً خشناً خالياً من الأناقـــة والانسجام ، ولا يُرى فيها أي تجويف يحمل على الافتراض بأنها استعملت لتقديم الأضاحي . وينسب سكان البلاد إقامة هذه الاحجار الى الساحر داريم الذي يزعمون انه أقامها بيديه كي يستعملها في بعض اعمال السحر .

وقد اكد لنا رفاقنا وجود دائرة اخرى من الاحجار الضخمة المماثلة ، وان دائرة ثالثة مماثلة موجودة بالقرب من الحناكيّة على حدود الحجاز .

« لا شك لديّ في ان هذه الاحجار المقامة كانت تستخدم لبعض الاغراض الدينية ، واذا كان العلماء لم يخطئوا في افتراضاتهم عن احجار ستونهنج ، والكرنك ، انها رموز لعبادة النجوم ، في الامكان ان تحظى هذه الاحجار العربية الضخمة بمثل هذا الافتراض ، لا سيما وانها اقيمت في بلد سبق لأهله ان عبدوا النجوم الدائمة اللألاء في سماء بلادهم . والحق انه لا فرق جوهرياً بين هذه الاحجار الاثرية في القصيم والاحجار الموجودة في بريطانيا وكونتية سومرست » .

ولكن م. فيلبي اغتنم فرصة سنحت له فذهب ليرى ما هي تلك الاحجار الضخمة ، فلم يجد لها اثراً . ولكنه ظن انه قد يكون أخطأ بحق بلغريف ، وان هذا الاخير يحتمل ان يكون قد صدق في ما رواه ، نقلاً عما سمعه من احاديث القرويين عن حجرة لا تتزعزع . فقال في نفسه : « ألم يقل بلغريف انه حاول ان يهز بعصاه صخرة ضخمة لا تتزعزع ؟ » فطلب الى القرويين ان يرووا له الاسطورة ثانية ، وان يدلوه على مكان وجود الحجرة ، التي نشر لها صورة . فرأى انها كتلة صخرية نائتة أفقياً من احدى التلال ، تدعى الحرَيْشة . وتقول الاسطورة ان احد اشراف القرية ، بعد ان عزم على تشييد قصر له ، عهد الى عماله بمهمة نشر هذه الكتلة الصخرية ، ليصنعوا منها احجاراً للبناء . فبعد ان أحدثوا فرضة عميقة جداً ، رقيقة ، وربطوا حبالاً الى هذه الكتلة الصخرية واستعانوا بسكان القرية جميعاً لمساعدتهم في اجتذابها الى اسفل . ولكن جهودهم ذهبت ادراج الرياح ولم تتحرك الكتلة واخذ بعضهم يشجع بعضاً بقولهم : « لقد تحركت حرَيْشة » ، ولكن حريشة لم تتحرك ، واصبحت هذه اللفظة مثلاً يعني أملاً يستحيل تحقيقه .

لا شك في ان هذه الكتلة الصخرية المتمدة « عرضاً » والتي أبت ان تتحرك ، كانت اسكفة الاحجار المائلة التي ذكرها بلغريف .

اما الاحجار الضخمة ، فقد رآها فيلبي بدوره ، ولا ريب في انها كانت كتلاً صخرية تبعد ميلين عن ذلك المكان ، يرى منها الزمن ، تنتصب كالأفطرة ، نقش عليها المسافرون ، على مر السنين ، شارات قبائلهم ، وبعض الكتابات الخشنة . وقد نشر لها صوراً هي ايضاً .

في هذه المرة ، اكتشف م. فيلبي طريقة كتابة بلغريف للتاريخ ، واتضح له انه استمع الى اقوال العرب التي مثلت له الصخور المنتصبة كالأفطرة ، حجارة مقامة ، « وحريشة » كعارضة ضخمة . ولاحظ فيلبي ايضاً ان البدو يتحدثون ايضاً عن الفوهات الناجمة عن الاحداث الجوية في « وبَار » كأنها بقايا قديمة . كيف يكون بلغريف قد كتب اذن ما كتبه ؟ لقد استعان بالتقارير الشفوية التي جمعها من العرب الذين كان يتردد إليهم خلال إقامته في بيروت . ويعتقد م. فيلبي انه ربما يكون قد ارسل اناساً الى قلب الجزيرة العربية لجمع المعلومات التي تساعده على الاجابة عما كُلف به في مهمته السياسية ، اما الحياة في المدن العربية ، فان بلغريف كان قد ألفها تماماً في بيروت وفي امكنة اخرى ، بحيث نجح في أن يرسم لوحة عنها ، استناداً الى تقارير منمقة بتفاصيل خيالية . ولا ريب في اننا قاربنا ، هكذا ، الحقيقة .

لكن ، هل يجوز الاعتقاد بأنه استطاع ان يكتب كل شيء مما كتبه استناداً الى تقارير غير مباشرة ؟

انني شخصيا ، أشك في ان يكون الخيار قد وقع حقيقة على مخلوق في مثل تفاهة بلغريف ، مجرد الى هذا الحد من الرصانة الضرورية ، للاضطلاع بمهمة سرية . فهل يكون قد جمع هذه الروايات في بيروت ؟

ان م. شيسمان الذي قام مؤخراً برحلة الى الحسا يقول ان بلغريف يمكن ان يكون قد بلغ الهفوف بالفعل . وقد برهن م. فيلبي فيما يختص بهذه النقطة ان المخطط الذي استشهد به هوغارت ، والذي صادق عليه زويمر ، كان رديئاً الى درجة انه لم يكن موجهاً توجيهاً حسناً ، إذ جعل حياً واقعاً في الشمال الشرقي من المدينة في الشمال الغربي منها ، ولاحظ بأنه لا المزروعات التي تزرع في الهفوف ولا حيواناتها تنطبق على ما جاء في الوصف الذي أورده بلغريف .

ولكن شيسمان يظن ان من المحتمل ان يكون بلغريف قد اخطأ في اعتبـــار احد النباتات المحلية قصب سكر ، ودباء الهند خروعاً عادياً . ويضيف الى ذلك قوله ان بلغريف قد ارتكب اخطاء في كل ملاحظاته المختصة بالزراعـــة وتربيـة الحيوانات ، لأنه كان يفتقر الى المعرفـــة اللازمة لذلك .

ان هذا لمحتمل ، ولكن اذا كان بلغريف قد بلغ الهفوف ، كيف أمكنه ان يشاهد سلسلة جبال ساحلية شاهقة ، يبلغ ارتفاعهـــا ألفاً وأربعمائة قدم ، ليس فيها سوى انحدار كلسي يكاد يكون مسطحاً ؟ لا شك في انه لم يكن ضعيف النظر الى ذلك الحد !

سيقال لنا ، ولا ريب ، انه فقد كل ملاحظاته عند غرق السفينـة التي كان يركبها ، وانه اضطر الى التعويض عما أخطأته ذاكرته ، ببنات مخيلته . ولكن ما هو السبب في اختلاقه سلسلة جبال ساحليـــة لم تقع عليها عيناه ؟ وما هو السبب في اختلاق نظام مائي عكسي ، وتبريره ذلك بذكر جبال لا وجود لها ، الامر الذي لا يمكن محوه من الذاكرة ؟ وربما كان الغرق عذراً نافعاً ، وهل كان من الممكن ان يتعرض للغرق لو لم يذهب الى عُمان ؟

وهذا الشك أيضاً يمكن الدفاع عن بلغريف حياله . فقد ذكر الميجر

س. ب. مايلز الذي أقام زمناً طويلاً في عمان ، ان الوصف الذي أورده بلغريف لا يمكن ان يكون قـــد صدر عن شاهد فعلي للحقيقة ، وانه خاطىء كلياً . لقد أمكن التأكيد ان وصف بلغريف صوّر بشكل اجمالي تصويراً اميناً ، جو البلاد ، ولكن أليس في الامكان الاطلاع على ذلك بشكل عابر من قراءة قصص المتقدمين ، الذين لم يأت بلغريف البتة على ذكرهم ، أو من الاستماع الى احاديث الآخرين ؟ هذا اذا لم يكن بلغريف قد مر ببعض جهات الخليج العربي ، ووصف الاماكن التي رآها وصفاً تقريبياً ، مشحوناً بالاخطاء والذكريات الزائفة والاختلاقات.

يبقى انه وسم ما كتبه بطابع تاريخي وجد انه لا بد منه لاضفاء الصفة العلمية على ما كتبه . وانني اعتقد انه لم تجر اية محاولة لدراسة اقواله الغريبة عن علم اللغة العربية ، وعن تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم . فقد بحث ، دون ان يورد اسم اي مؤلف عربي ، في اللهجتين الاساسيتين في شبه الجزيرة ، لهجة القحطانيين الذين يرجع اصلهم على ما يزعم الى الاحباش ، ولهجة الأنبـاط ، وكل ذلك عادم الاساس كجغرافيته ، ولا يهدف الى شيء سوى التأثير في القراء .

وقـــد أظهر اختصاصي انكليزي يدعى اللورد و. بلونت فيما يختص بتربية الخيل ، في كتاب وجهه الى د. ج. هوغارث ، استحالة ما وصفه بلغريف ، مقرراً تقريراً حاسماً : « ان الفصل الذي كتبه بلغريف عن الخيل ، يبدو وكأنه قد كُتب فيما بعـــد ، لتلافي نقص هام احتواه التقرير عن البلاد » .

لقد اتضحت قضية بلغريف بفضل م. فيلبي ، ولكن هل من الممكن جلاء سر القيام بتركيب مصطنع بهـــذه الجسامة ، وتبين درجته من الكذب والصدق ؟

لقد كثر القائلون بأن تصوير الحياة الاجتماعية اقرب ما في كتابه

الى الصحة . وكل اعتقادي ان هذا التصوير ايضاً لا يعدو سطحية الرواية الخيالية والطرفة .

عندما يقرأ المرء ما كتبه وآلان يتضح له بُعد بلغريف عن التعمق فيما رآه . فهو ينظر الى المجتمع العربي نظرة ساذجة خاطئة . يرى ان افراد عشيرة شمر الذين يقطنون حائل وسكان المدن وحدهم هم المتحضرون ، وانهم « جنس من أنبل الاجناس الموجودة على وجه الارض » . اما البدو فلا يرى فيهم الا مخلوقات هوت بهم حياة الترحال « بما يرافقها من النقائص والجرائم » الى حضيض الانحطاط والفساد . ويقول مستحسناً ان امير شمر يحكم البدو بمقرعته لان الطريقة المثلى لحكم شبه الجزيرة العربية انما هي « إلزام البدوي بالقيام بالدور الوحيد الذي يلائمه وهو دور رعاية الماشية ، وألا يُترك له اي نفوذ ، الا في حال التعرض للخطر . « ان ازدهار سكان المدن لعلى نسبة عكسية مع ازدهار البدو » لذا توجب حرمان البدو من كل شيء كي تصبح المدن مزدهرة . ولم يستطع بلغريف ان يطبق على المجتمع العربي المتميز بشخصيته كل هذا التميز ، الا مفهومين : مفهوم الحضر ، ومفهوم الرعاة ، وهو يبني مَثَلَه السياسي الأعلى على نزاعهم الطبقي .

اما وآلان فقد أبان لنا ، على العكس من ذلك ، العلاقات المتبادلة ما بين القرويين الحضر والبدو ، وأرانا ان ازدهار البعض مرتبط بازدهار البعض الآخر ، واستطاع ان يرى ان في قبيلة شمر ، قد اقتبس البدو عن الحضر ، والحضر عن البدو ، وان في هذا يكمن سر قوتهم ومضائهم .

كيف يستطيع بلغريف ان يرى ويفهم مجتمعاً ينظر إليه بتغرض جسيم الى درجة انه غدا جديراً بالضحك . فهو يقول انه قدّر رفيقه تقديراً كلياً لاحتقاره الشعوب المجاورة لبلاده ، يعني بها البدو المجاورين للحدود السورية . ولا يرى بلغريف فرقاً بين « العشائر المنحطة التي

تعيث بالجزيرة العربية فساداً » فيقول : « انهم ليسوا سوى كلاب »ويقدّم القول الذي يدعي انه سائر فيا بينهم : « لا نسوى حتى كلابنا ؟» ويؤكد بدون أي مبرر : « ان العلاقات غير الشرعية تشكل ، اكثر من تعدد الزوجات ، اساس العلاقات الزوجية لديهم » وفي صدد التحدث عن جودهم يقول : « ان كرمهم ناتج عن عدم اكتراث همجي ، اكثر من كونه ناتجاً عن نبل خلق حقيقي .. ان البدوي يحب الضيافة من كل قلبه ، رغم كونها ضيافة خرقاء ، مزعجة ، وهي جديرة بالاطراء ، ولكنه اجمالاً طفل قليل الادب ، خنق الاهمال المتطرف خلاله الفطرية الحسنة » . واذا قيل انهم لا يقتلون في اثناء الغزو ، أجاب على ذلك بقوله : « انهم يبحثون عن الغنيمة لا عن إراقة الدم ، ولا يشعرون بالطموح الرفيع في قتل عدوهم ، او الهلاك تحت ضرباته . فهل يكون البدو اذن أودع وأقرب الى الانسانية من الشعوب المتمدنة ؟ كلا . ولكن تنقصهم المبادىء الدينية والمشاعر الوطنية التي كانت سبباً لكثير من الحروب الدموية في اوروبة وآسية » .

يا له من اطراء جميل يوجهه اليهم ذلك المتمدن ! ولكن اذا قلنا ان العربي الحقيقي ليس سوى البدوي ، وجدنا ، بمزيد الاسف ، ان البدوي لا يقل عنا في أي شيء ، وكذلك في الحروب الدينية !..

ولكن ليس هذا كل ما في الامر ، على حد قوله : « فمن الخطأ الفادح ألا يستعلم الانسان عنهم ، او ان يتصور انهم يحفظون الذمام . فالأمثلة عن خياناتهم الباردة الميتة ليست نادرة فيا بينهم . والغرباء الذين يؤتمنون عليهم ، واخوانهم في البادية انفسهم ، يسقطون في غالب الاحيان ضحايا لمكايدهم الفظيعة » . ويمتد احتقار بلغريف للبدوي حتى الى جمله : « خلاصة القول ، انه حيوان همجي ، غير قابل للتعلق بالانسان ، حيوان لا يدجن ابداً ، ولا يخضع للانسان الا عن بلادة ،

ولا يخالجه سوى ميل واحد هو حب الانتقام » .

ولا ريب في ان تصرفه في المجتمع البدوي لا بد أن يكون مثيراً للغضب في نظر البدو ونظر القراء الذين قدّر لهم ان يطلعوا على ما كتبه وآلان . فبعد ان حل ضيفاً مكرماً على احد الزعماء من قبيلة الشرارات أخذ يلمّح عن رغبته في الحصول على هدية منه . وقد رفض بكل اصرار معالجة المرضى ، أو فك طرود بضاعته التي جاء بها للبيع ، او ملء الفلايين التي مدت إليه ، كما رفض أن يطعم من الجمل الذي ذبحه المضيف على شرفه ، لأنه ، على حد قوله « تقزز من المشاركة في الاكل الشبيهة بما يختص به الكلب من القنيصة » .

ويلاحظ م. فيلبي انه حتى فيما يختص بوصف الأعمال القليلة الشأن في حياة المدن ، يكفي بلغريف بعض المعرفة بمدن الشرق كي يكتب معظم أوصافه دون ان يقتصد في التفاصيل المفتقرة الى من يكفل صحتها . وهكذا يتطرق مؤلفنا في صدد تحدثه عن شوارع الرياض ، الى الزحام الذي ينتج عن صفوف الجمال المربوط بعضها الى بعض بشكل لا يصادق عليه فيلبي ، إلا بالنسبة الى الطريق الواقعة بين مكة والطائف .

اما بالنسبة الى المذهب الوهابي . فان الكتاب كله موضوع ضده . فهو يصف الاستبداد الوهابي في الرياض ، وارغام الناس على حضور الصلاة ، والمحافظة بقصد التباهي على أوامر هذا المذهب المفرط التشدد . ولكن هنا ايضاً يبرز تعرضه للعيان ، وقد أظهر م. فيلبي ، في هذا الفصل من فصول بلغريف ، أموراً مخالفة للحقيقة ، بل مؤذية . ان بلغريف يؤكد بدون برهان ، ان فواحش مختلفة ، حتى تلك التي يأنف اللسان من تسميتها ، أغلب حدوثاً هنا ، في الرياض ، منها في دمشق وصيدا نفسيها ، وان الحشمة النسبية في بعض المدن العربية تظهر انحطاط

الرياض القاتم في تنـــاقض شديد ، غريب ، ولكن فيلبي لا يتردد في القول بأن هذا محض تشنيع وافتراء .

ثم ان بلغريف ، بوصفه طبيباً ، يدعي انه وجد داء « الزهري » منتشراً انتشاراً مخيفاً ، في حين ان م. فيلبي يحدد بدقة « ان هـــذا المرض في الحقيقة نادر جداً في المنـاطق الوهابية ، وان الاصابات القليلة التي تظهر انما بطريقـــة العدوى من الزوار الذين يأتون من البصرة ، ودمشق ، والقاهرة ، ومكة ، والمدينة » .

ولا يتضمن كتاب بلغريف من الحقيقة فيما يختص بالمجتمع ، أكثر مما يختص بالجغرافية ، والخيل ، والتاريخ ، وعلم اللغة . ولم يبحث بلغريف في الدين بحسن نية أكثر من بحثه في العرب . وهو يحشو كتابه بتحليل للعقيدة الاسلامية يشكل مثالاً للشرح الذي يفسد هدفه .

ان الأمر الوحيد الذي يردّ على جميع الانتقادات الموجهة إليه ، هو أن يستطيع امرؤ ان يبرهن على ان هذا الرحالة قد كتب شيئاً كان من المتعذر عليه اقتباسه من التقارير البسيطة التي جمعها من الشهود ، ونقشها بحرية على نسيج غليظ دراماتيكي بموارد خياله الخصب ، حتى ان كونه اول من وصف الانخفاضات الغريبة النعلية الشكل الكائنة في النفود الكبير ، لا يمكن ان يبرهن على شيء من هذا القبيل ، اذ يمكن ان يكون شاهد عيان عربي قد وصف له الظاهرة الشديدة البروز التي سيأتي اللورد بلونت وزوجته على وصفها بدقة اكثر .

وما دام ذلك البرهان لم يؤت به ، فان مجمل الملاحظات التي يمكن اعطاؤها عن كتاب بلغريف ، يحملنا على الاستنتاج بأنه وضع كتابه بالطريقة التخمينية التي وضع بها الروائي الكسندر دوماس رواياته المثيرة استناداً الى الذكريات التي احتفظ بها الكولونيل لويس دي كوويت عن رحلاته الحقيقية التي قام بها الى شبه جزيرة العرب .

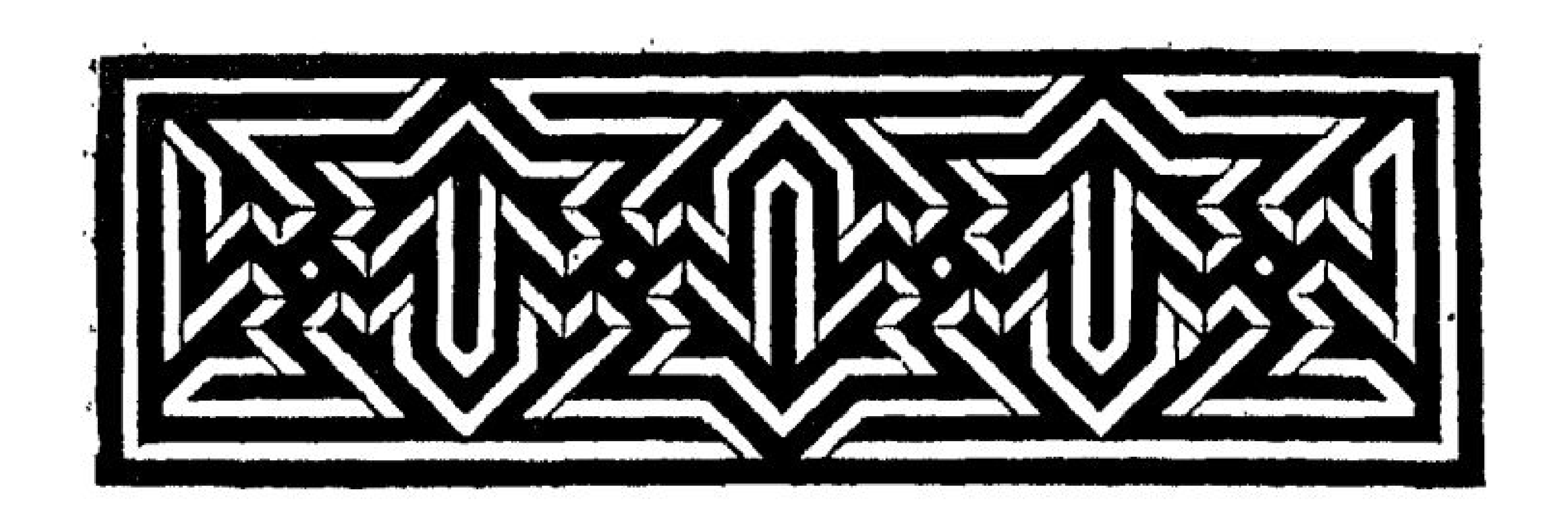
ولكن دوماس قدم قصصه كروايات ، رغم ان اساسها كان صحيحاً ، في حين ان بلغريف قدم ما لا يعدو ان يكون مجرد رواية بشكل قصة ارتياد علمي ، كتبها استناداً الى معلومات استقاها من شهود عيان مجهولين ، رتبها كما عنّ لباله ليلفق منها مؤلَّفاً بادي التحيز ، والتغرض ، والخطأ ، وعدم الانصاف .

ان المرء ليرتعش اذ يفكر في انه من خلال كتيب كهذا متستر بستار الارتياد العلمي ، ظن المراهقون الاوروبيون في أواخر القرن المنصرم ، انهم تعلموا معرفة شبه الجزيرة العربية ، كباراً وأحداثاً ، والعرب ، واخلاقهم ، ودينهم .



الجزء الخامس

العربية السعيدة



البحر الاحمر

منذ ان ركب دوم استادو دي غاما البحر الاحمر حتى السويس في سنة ١٥١٧ ، لم يعد أحد يقوم بارتياده نظامياً ، فقد كان محظوراً على السفن الأوروبية التي تجتاز باب المندب للاتجاه الى المخا ، أن تقترب من مرافىء الأماكن المقدسة ، ولم يتمكن الرحالة الحجاج من تقديم أية ملاحظات بحرية دقيقة بعيدة المدى .

وفي وسعنا القول ان كشف البحر الأحمر من أواخر القرن الثامن عشر الى سنة ١٨٣١ كان مزمعاً ان يكون عملاً انكليزياً . اولاً : لكون الانكليز بحارة شديدي الاندفاع والحماسة ، ثم لأن وصف السواحل ورسم خرائطها مهمة يقومون بها بصورة طبيعية . والواقع اننا مدينون لهم بدراسة شواطىء هذا البحر . وسيقوم بروس ، وفالانسيا ، وهاينز ، وضباط السفينة بالينوروس ، بحزم ووجدان ، بهذه المهمة .

واذا كان البحارة الانكليز وحدهم هم الذين ارتادوا هذا البحر حتى عام ١٨٣١ ، فما ذلك الا لأن انكلترة احرزت السيادة فيه ، فقد حصر الهولنديون اهتمامهم كله بأرخبيل اندونيسيا ، وكف الفرنسيون عن اثبات

فعالية وجودهم في الشرق ، لانصرافهم الى توسيع سلطانهم في اووربـــة خلال عهد نابوليون ، ولكنهم ظلوا مخلصين الحلف الذي عقدوه مع محمد علي حاكم مصر ، على ان فرنسة أصبحت في عهد لويس فيليب ، اعتباراً من سنة ١٨٣٠ ، الدولة الصناعية الثانية في العالم ، بعد انكلترة . ومن الطبيعي انها كانت مزمعة أن تستأنف توسعها وتنافس انكلترة في الشرق .

لقد أحرزت فرنسة فعلاً ، ما بين سنة ١٨٣٠ وسنة ١٨٤٨ ، مكانـة ذات اهمية قصوى : فهي حليفة محمد علي ومناصرته في سورية التي كان قد ضمها إلى ملكه واحتفظ بها حتى عام ١٨٤١ ، وهي مستقرة في شمالي افريقية ، وحامية موارنة لبنان البلد الذي كفلت كيانه ، ولها في البحر الابيض المتوسط ، وعبر مصر ، وفي البحر الأحمر ، نفوذ لن يعتم ان يثير القلق الشديد لدى الانكليز . وهذا ما يفسر معنى وجود الفرنسيين في البحر الأحمر اعتباراً من عام ١٨٣٠ ، ولم تكن غايتهم من ذلك رسم خرائط لسواحله ، بل كانت الحبشة هي التي اجتذبتهم ، فلم يمر كومب ، وتاميزيه ، وفيرّه ، وغالينيه ، وروشه ، وهيريكور ، بشبه الجزيرة العربية ، الا سعياً وراء هدفهم الحقيقي في مكان آخر . واهاب حب السفر والمغامرة بآخرين غيرهم ، كما دفع تاميزيه ، الى الافادة من الصداقة الفرنسـية المصرية للقيام ببعض الأعمال في الجزيرة العربية ، وسنرى الى أي حد شغل البحر الأحمر أذهان الفرنسيين ومخيلاتهم في ذلك العهد .

بين طوري الارتياد هذين ، من سنة ١٨٢٠ الى سنـة ١٨٣١ ، ظهر بعض الألمان الذين لم يكونوا تجارة ولا مغامرين ولا سياسيين ، بل علماء في الطبيعيات .

فلننظر اذن في الطور الانكليزي البحري من أساسه :

ان الفضـــل في اكتشاف شاطىء البحر الأحمر من السويس الى باب المندب ، منذ عام ١٧٦٩ ، يعود الى ايقوسيّ نبيـل هو جايمس بروس .

فقد ذهب في مهمة شبه رسمية لتصوير أطلال الأبنيـة الأثرية القديمة في افريقية الشمالية ، فأوغل حتى بلاد مصر ، ثم عاد نحو شاطىء البحر الأحمر الذي قرر ارتياده قبل دخول بلاد الحبشة لمتابعة رحلة التحريات الأثريـة التي يقوم بها .

وقد تضاربت الآراء حول قصة رحلته الشائقة الى الحبشة . ويبدو انه كان لبروس في بلاد الانكليز مشنعون نظاميون حتى قبل ان يخط سطراً واحداً ، ولكنه لم يكن محروماً من المعجبين به . فما هي قيمة المعلومات التي اوردهـا ؟ ان اللورد فالانسيا الذي تتبع شواطىء البحر الأحمر من سنة ١٨٠٢ الى سنة ١٨٠٦ لم يغفل توجيه تهمة عدم الصحة الى بروس ، ذاكراً ان بعض اجزاء خارطته بدت له وكأنها خارطة برتغاليـة صححت على خط مستقيم ، ثم يتهمه بالوقوع في الخطأ في تقـدير مواقع العرض . وخلاصة القول ، يعتبر فالانسيا ان قصة بروس قد لفقت ، وان الحقيقـة والخيال يختلطان فيها اختلاطاً مستعصيـاً . اما ولستند فيزعم ، بعكس ذلك ، انـه قد تأكد من صحـة أقوال بروس ، فيما يختص بالمناطق التي اجتازها من بعده .

كانت امكانية سلوك طريق برية بين السويس والاسكندرية ، تحاشياً لسلوك الطريق البحرية الطويلة ، ولتأدية رسوم الارساء الباهظة في الموانىء العربية ، قد أخذت تشغل الاذهان ، لذا فان شركة الهند الشرقية أوفدت ايـلز اروين سنة ١٧٧٧ للكشف عن هـــذا الموصل البري . فخرج من مدراس صاعداً البحر الأحمر ، لكنه ارغم على النزول في المخا وينبع . وقد امتازت قصة رحلته ، على رأي مترجمها ، بسلسلة من المغامرات ، بل من الويلات والمعاكسات ، تعرّض لها المؤلف ورفاقه في بـــلاد اطرى الكثيرون من المسافرين حسن ضيافة اهلها .

ان قصته لا تشتمل على شيء من اخبار هذه المدن ، فهو يعطي بعض

المعلومات العامة القيمة عن الهفا ، حيث لم يكن لاقامته أية ذيول . أما في ينبع فقد أحس وكأنه يعيش في خطر قتال ، فيقول : « كنا نترنح على شفا الأبدية » وما ينفك يستعد للموت بطريقة مؤثرة في النفس . على ان في هذه القصة شيئاً منوّراً ، فهو يظهر كيف ان عدم الفهم ، وقلة الثقة ، يمكن أن يُشعروا الغريب بأنه قـد تعرض للخيانة ، وسجن ، وطورد ، حيث لا شيء من ذلك .. ويمكن ان يدفعا الى اعمال ثأرية .. كما سماها هو بنفسه .

اراد أصحابنا اللجوء الى ميناء ينبع وأخذ بحّار منها ، وقد استقبلوا احسن استقبال ، وحلّوا ضيوفاً مكرمين على شيخ مضياف ، واستقبلهم الوزير مبدياً استعداده لمساعدتهم ، على ان كل شيء تبدل في نظر اروين حين علم ان الوزير لن يسمح لهم باستئناف السفر الا بعد ان يتلقى اوامر من حاكم مكة . وكان كل ما في الامر ، كما تثبت ذلك تتمة القصة ، تأمين استيفاء رسوم المرفأ عن رسو السفينة في الميناء ، فقد ارسل الحاكم ضابطاً من جدة الى ينبع للاتفاق على تسديد الرسوم وفقاً لتعرفة هـذا الميناء . وقد حدث لجون جوردان مثل مـا حدث لاروين بالضبط ، فلم ينظر اليه نظرته الى مأساة .

ولكن أصحابنا اخذوا يتخيلون ، خلال هذه الاسابيع الثلاثـة ، ان الوزير الماكر يدبر لهم مكايد سافلة رغم ان اروين يشهد عنه بقوله : « ان مظهره لا يوحي الى النفس الا بأحسن الافكار عن نزاهته ، فهو دمث الخلق مهذبه ، عفيف اللسان ، سليم الطوية » . ولكن اروين الذي حكم عليه حكماً مسبقاً « لا يشعر الا بعدم الانسانية المتمثـل في سلوكه » و « بشعور ضمني بمكره » .

لقد خيل اليهم في منزل الشيخ ان جنوداً مسلحين يقومون بحراستهم . ولما ارسل الوزير خدماً لينقلوا سجاداتهم الى حجرة عالية من غرف المنزل ،

اعتبروا ذلك « حيلة » ، وتصوروا غة « زنزانة يريد احتباسهم فيهـــا » واحتجوا على هذا العمل بشدة ، فلم يعد احد يطلب منهم القيام بـه . وقد اخذ اروين ورفاقه يحلمون بالفرار ، وطلبوا الى البحـارة ان يذهبوا الى جدة لاحاطة الانكليز علماً بمصيرهم . ولكن حين همت السفينة بالاقلاع انقطع حبـل المرساة ، وأصبحت السفينة معرضة لخطر الاصطدام بالصخور القريبة من سطح الماء ، ولم ينقذها الا العرب ، الا ان بحارة السفينة كانوا قد اطلقوا عدة طلقات نارية من بنادقهـم ، فاحتج الوزير على ذلـك ولم يغنهم شيئاً زعمهم بانهم انما اطلقوا النار استنجاداً ، فأمر بتجريد السفينة ، حتى الاسرى الموجودين على ظهرها ، من السلاح . ورغم ذلك ، لم يلبثوا ان سمح لهم بمغادرة منزل الشيخ والعودة الى السفينة .

وخلاصة القول ، لم يكادوا يؤدون الرسم المقرر حتى سمح لهم بالرحيل دون أي اعتراض . لكن من الطبيعي ان الامور لم تسر معهم سيراً حسناً بين البدو في سيناء .

★

بعد مرور عشرين عاماً على ذلك ، كان أحد الضباط الانكليز مزمعاً أن يُحمل على ظهر مركب عربي "كمسافر عادي" ، وبطريقة عرضية ، الى الجزيرة العربية .

لقد أبحر الاسطول الانكليزي الحربي ، في الثـالث عشر من شهر آذار (مارس) من سنة ١٧٨١ ، يرافقه ثلاثة عشر مركب نقل وتموين ، في اتجاه الهند ، بقيادة امير البحر داربي ، وبعد ان اجتاز الرأس الأخضر ، وجد امامه ، في الخامس عشر من شهر نيسان (ابريــــل) ، الاسطول الفرنسي في سانتياغو بقيادة سوفرن ، فجرت بين الاسطولين معركة حامية انتصر فيها الفرنسيون ، فسبقوا الانكليز الى رأس الرجاء الصالح .

وبعد تجارب قاسية مختلفة ، كالعواصف ، وداء الحفر (الاسقربوط) ،

مر الاسطول الانكليزي في المياه العربية ، ولكن بعد فوات الأوان ، اذ اضطرت الرياح الموسمية قطعاً عديدة منه الى العودة نحو الساحل ، فلم يجد الانكليز بداً من دخول البحر الأحمر للبحث عن ملجأ فيه ، ونزلوا الى البر في جنوبي المخا للتزود بالماء .

كان على ظهر هذه المراكب مسافران يختلف احدهما عن الآخر اختلافاً كلياً ، يستمدان لرواية قصة مغامرتها : بحار يدعى سيلاس جايس وضابط اسمه هنري روك .

كان أولهما يتيماً في الرابعة عشرة من عمره راكباً احدى سفن النقل ، ولم يكن الرسو الاضطراري الا مرحلة من مراحل مغامراته الشخصية الشبيهة بالمغامرات التي يرد ذكرها في الروايات الخيالية ، وقد كتب قصتها فيما بعد استناداً الى ذاكرته ، مضمناً اياها وصفاً محزناً لظروف حياة البحارة الانكليز في ذلك العصر .

أما روك الذي كان قائد فصيلة من الخيالة ، فحين رأى ان الاسطول قد رسا عند ذلك الساحل الكثيب الشديد الحرارة ، قرر ألا ينتظر سماح الريح الموسمية لهم بالتحرك ، فصعد بوسائله الخاصة الى المخا ، ومنها الى الحديدة ، ومن ثم الى السويس فالقاهرة . تدبر امره على ظهر مركب عربي قام بملاحظة بحارته ملاحظة تسترعي الانتباه . فقد تمكن من أن يشهد — وقد استولت عليه الدهشة — حادثاً معبراً عن تصرف العربي في انتقامه .

لقد رست السفينة في خليج كان من المأمول العثور فيه على الماء ، ولكن البدو لم يسمحوا لهم بالحصول عليه من غير مقابل ، فنشبت معركة بين البحارة والبدو فقد فيها الاولون ثلاثة رجال وجرح منهم رجل رابع . فتراجعوا الى المركب حيث توفي الجريح . وقد اعجب روك باحترام البحارة للموتى ، وبجلال الحداد . ونزل البحارة الى الشاطىء لدفن الموتى ، فجاء ثلاثة بدو غرباء يشهدون الجنازة ، وما أشد ما كان ذهول

روك اذ رأى اولئك البحارة الذين أطرى انسانيتهم منذ هنيهة ، يذبحون هؤلاء البدو الابرياء الثلاثة .

وبجمل القول ، ليست قصص اروين ، وجايمس ، ورورك ، من وجهة نظر الارتياد ، الا قصصاً قليلة الأهمية ، فأروين لم ير سوى الخوف الذي ساوره ، ولم يرى جايمس سوى الأسماك التي كان يصطادها واختبارات رثيسه ، ولم ير بروك الا القليل السطحي من الامور .

★

كان قد تبقى اذن أن يُكتشف البحر الأحمر اكتشافاً جدياً ، وان توضع خرائط لشواطئه لاثبات عمل بروس واكماله . وهذا ما وضعه اللورد فالانسيا نصب عينيه . فقد أراد ان يبرهن على ان السفر في البحر الاحمر أيسر اذا اتبع الساحل الغربي الحبشي . فعرض على الشركة الانكليزية للهند الشرقية ان يتعرف الى هذا الساحل اذا قدمت له سفينة ، وقام برحلتين في سنة ١٨٠٥ توقفت اولاهما في مصوع ، للنزاع الذي نشب بينه وبين قبطان السفينة التي وضعت تحت تصرفه .

لقد أُخذ على اللورد فالانسيا اسهابه . فان مجلداته الثلاثة الضخمة تحتوي القليل من المادة المفيدة ، وقد بحث اكثر مما يلزم في الأحداث اليومية ، وفي الخلافات بين مختلف بحارة المركب ، او مكتب التوكيل التجاري في المخا ، وفي سرعة انفعال القبطان الذي يعتبر ان معلومات بروس حسنة جداً ، في حين ان اللورد فالانسيا يقلل من قيمتها .

خلال كل ذلك تعرض أحياناً ملاحظات مفيدة ، ففيا يختص بالسياسة يبدو ان الناس في عدن كانوا يميلون آنئذ الى فرنسة ، ويعارضون الوهابيين ، وتعتبر حكومة المخا الانكليز ميالين الى الوهابيين ، الأمر الذي يؤكد صحته تردد فالانسيا على احد اركان هذه الحكومة .

ويخصص فالانسيا عدة فصول لاعطاء معلومات عن التجارة في جدة ،

ويقارن بين اجور النقل عن طريق الهند ، وعن طريق قنـــاة السويس ، وعن طريق الرجاء الصـالح ، ويذكر حجم تجـــارة الصمغ ، والصبر ، والبخور ، ويقول ان بن المخـا لم يعـد ضرورياً بالنظر الى ان انكلترة تستطيع استـيراده من مكان آخر ، ولكن الشركة الانكليزية ماضية في اتجارها مع المخا بسبب تصريفها كميات كبيرة من بضائع الهند فيها .

وقد أورد ايضاً وصفـاً لداخل البيت العربي في المخـا ، بنوافذه ذات الشرفات المصنوعة من الخشب ، والنوافذ المستديرة التي استعمل فيها الرخام الأبيض الشفاف عوضاً عن الزجاج ، والتي تعلوها كوى مفتوحة ، ودوّن ملاحظات عن الاخلاق والعادات فقـال : « ان انشاء علاقات بـين المرأة العربية ورجل مسيحي محظـور . واذا اكتشفت علاقة من هـذا النوع ، حلق رأس المرأة ، وطلي وجهها بالسواد ، وطيف بهـــا على ظهر حمار ، وعرضت لاهانات الجماهير ، وطردت من المدينة » .

وكتب الملاحظة التالية عن الرق : « ان العبد في الجزيرة العربية ليس في حالة يرثى لها . فهو يُعتبر كأحد أفراد الأسرة ، يطعم جيد الطعام ، ويسكن المسكن الحسن ، ويلبس فاخر الثياب . والقانون يحـدد العقاب الذي ينزل به في حال اقترافه ذنباً يستحق من اجـله القصاص . حتى ان القانون يسمح له بترك سيده . ويكفي ان يقدم العبـد عريضة للقاضي ، فيسرع باصدار الحكم ببيعه علنـاً . وليس الرق هنـاك عاراً ، ويستطيع الرقيق ان يرتفع الى اعلى المراتب في الدولة » .

وأخيراً لكي يكمل اللورد فالانسيا ، ارتياد البحر الاحمر والحبشة كما فعل بروس ، ارسل سالت في مهمة ارتيادية الى هذه البلاد ، فقـام سالت فيها برحلة آتت ثمارها ، واضاف فالانسيا بعض الشيء الى معلوماته بما ذكره عن الأبنية الأثرية القديمة التي كانت تختفي في هذه البـــلاد ذات الحضارة القديمة ، والتي كان بروس قد أتى على ذكرها بشكل روائي .

بعد مرور عشرين سنة على ذلك ، كان عالمان المانيان في الطبيعيات يقومان برحلة دراسية في عـــام ١٨٢٥ اوصلتهما الى مصر ، وسورية ، والعربيـة ، والحبشة ، فـنزلا الى شاطيء العريش التي كانت تحت الحكم المصري منذ ان استولى محمد علي على ساحل اليمن .

درس احدهما وكان يدعى اهرنبرغ طبقات الصدف المرجاني التي تمتـد على الساحل العربي الواقع على البحر الأحمر ، ولم يكن أحد في ذلـــك العصر يعرف شيئاً عن طبيعة تلك الصخور الغريبة والتي تتشكل في الحقيقة من جماعات من الحيوانات تعيش عيشة مشتركة كان تركيبها ما يزال مفتقراً الى الايضاح .

وفي السنة التالية قام ثانيهما ، ويدعى ا. روبل ، باجتياز الساحل من المويلح باتجاه الشمال حتى العقبة ، سالكاً طريق عودة قافلة الحجاج المصرية ، مدوناً ملاحظات عن تكوين طبقـــات الارض ، والجغرافية ، والمناخ . وشاهد الطبيعة البركانية للقمم العالية المشرفة على الساحل ، واكتشف عرضاً على بعد بضعة اميال من المويلح ، بادىء ذي بدء ، ثم في مغير ، اطلال مناطق كانت معمورة في قديم الزمان جديرة بالاهتمام .

وقام روبل برحلة ثانية في سنة ١٨٣١ متبعاً فيهـا الساحل الى جـدة نزولاً ، لبلوغ الحبشة فيما بعد .

وقد مكنت رحلات هذين العالمين مواطنهما الجغرافي الالمـاني برغهوس من ان يضع في عام ١٨٣٥ خارطة محسنة لشبه الجزيرة العربية .

ولكن ارتياد السواحل ، ورسم خرائطها ، كانا ما يزالان يفتقران الى الشيء الكثير ، وقد حصر الانكليز اهتمامهم بها مرة ثانية ، فخصصت السفينة بالينورس التابعة لشركة الهند الشرقية ، منذ سنة ١٨٣١ ، لدراسة الوسائل اللازمة لتحقيق ذلك . وقد تعرف القبطان موريسبي يرافقه الليوتنان ولستد ، في الرحلة الاولى ، على السواحل التي كان روبل قد ارتادهـا .

وسمحت الدراسة التي اجريت في السنين التالية بقيادة القبطانين كيرلس وهاينس بتصوير الساحل الغربي لشبه الجزيرة العربية تصويراً دقيقاً ، واستطلع هاينس في عام ١٨٤٣ خمسمائة ميل من الساحل الجنوبي ، ونشر ملاحظاته عنها . ولكننا سنرى ان ضباط السفينة بالينوروس لم يقصروا عملهم على دراسة السواحل ، بل قاموا برحلة الى صنعاء ، وعلى ساحل حضرموت ، واضافوا اكتشافات اثرية جديدة الى النتائج التي أحرزوها في رسم الخرائط .

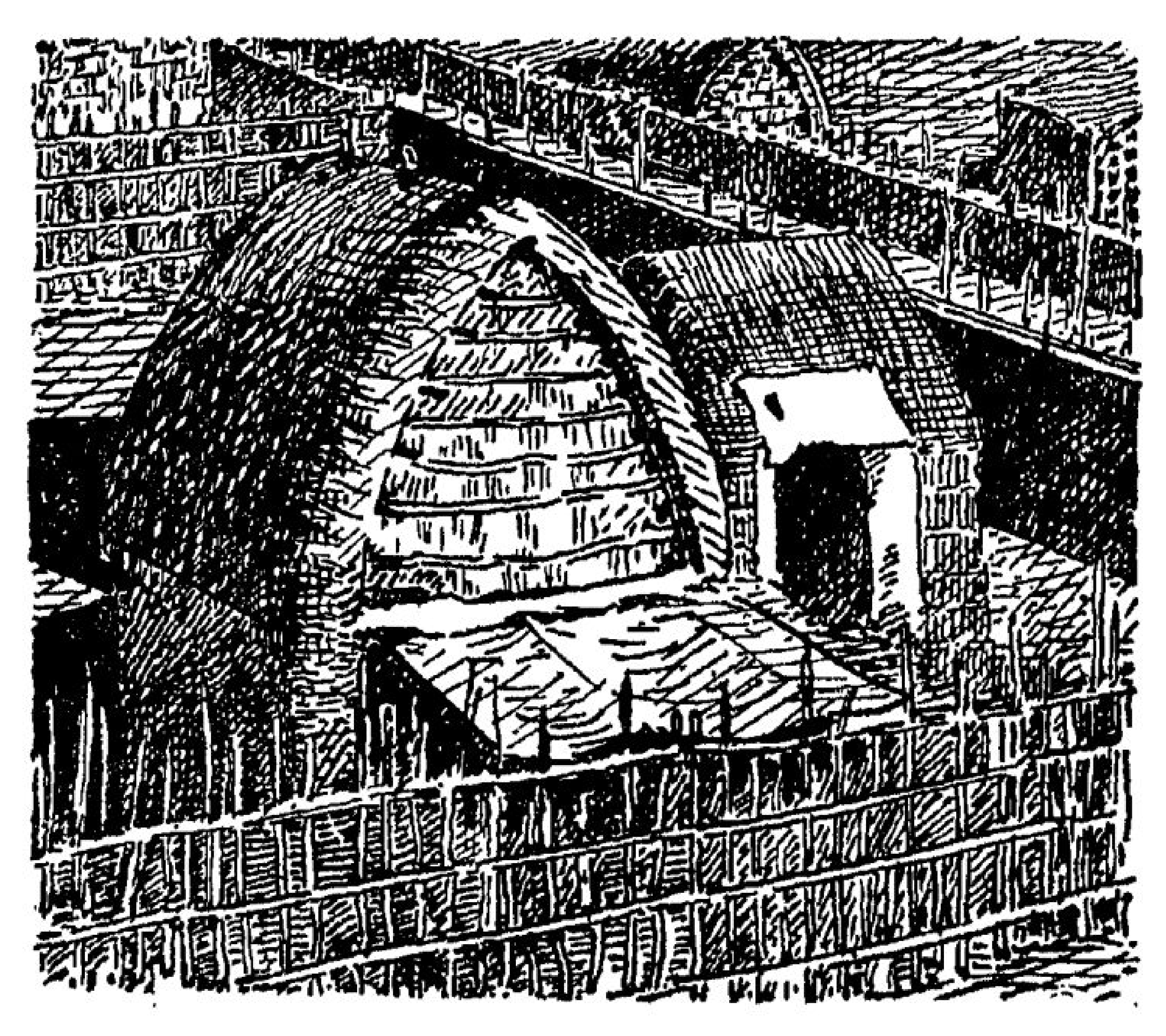
★

في هذه الاثناء كان الفرنسيون ، مساعدو المصريين ، قد اخذوا يدخلون البحر الاحمر . فقد رأينا الشاب تاميزيه يرافق المؤسسة الصحية في حملة عسير في عام ١٨٣٦ ، ولكنه كان قد وجد قبل ذلك فرصة ممتازة لاشباع ميله الى السفر . وكان ادوارد كومب يقوم برحلة الى بلاد الحبشة فانضم الى تاميزيه ، وكتبا قصة رحلاتها التي نالت تقدير الجمعية العلمية الفرنسية .

قبل ان يبلغ الشابان الساحل الحبشي ، اغتنما الفرصة للقيام برحلة على الساحل العربي ، فذهبا من جدة الى القنفدة بطريق البحر ، فوصلا اليها في السابع عشر من كانون الثاني (يناير) من سنة ١٨٣٥ . وكان ابراهيم باشا يهيىء حملة على عسير يقصد منها دعم الهجوم عن طريق الطائف الذي سبق لنا ان قرأنا اخباره . وقد شاهدا فلاحاً وجد مسلحاً قرب خيمة ابراهيم باشا ، يحكم عليه بتهمة محاولة اغتياله ، ويرفع على الخازوق .

وقصدا جيزان بطريق البحر ، ومن هناك اتجها الى اللخيّة ، والحديدة ، وبيت الفقيه ، وزبيد ، حتى المخا ، بحماسة متزايدة الوضوح ، ثم بلغا جيزان ورأيا اكواخها الاسطوانية الشكل ذات السقوف المخروطية محوطة بمزروعات البن والسنا ، والنساء سافرات في اردية فضفاضة زرقاء ، معتمرات قبعات

من القش ، مزينات شعورهن باكاليل نصفي من الازهار ، والرجالَ مدثرين بدثر من الصوف . وقد اثر فيهما اطيب التأثير (كما جرى لتسيجر الذي زار في ايامنا هذه نهاية هذه المنطقة) مرح الاهلين ولطفهم . وقد وجدا في اللحية التي تتشكل البيوت فيها من منازل مبنية بالحجارة ، ومساكن من القش ، او القصب المتشابك ، المحصنة بسورها القرميدي وقلعتها ، موضوعاً للوحة جذابة بفوضاها الجميلة الفاتنة ، ووجدا السوق جميلا ضيقاً محصوراً في بقعة صغيرة ، كأنه صنع كذلك لجمع عطوره في مركز واحد ، وهو كثير الفواكه والازهار .



منزل من القش في تهامة .

كان محمد علي قد استولى على الحديدة ، وكانَّ يقوم بالمحافظة على النظام فيها دوريات ضعيفة من رجال الأمن .

وقد اعجبا ببيت الفقيه ، ومسجدها الرائع ، وقلعتها البديعة المشرفة على المدينة المبنية المنازل من الحجارة أو القش .

ويعطي وصفها للطريق حتى المخا فكرةً حية عن هذه البلاد الرملية القاحلة تارة ، وذات الغابات الكثيفة الخضراء والاراضي المزروعة أحياناً ، والمحوطة بالجبال السوداء ذات القمم الشاهقة الوعرة على مقربة من المخا .

عند الاقتراب من موشج رأيا جبال الحبشة من بعيد ووجدا هذه القرية في منطقة لطيفة ، ترفل باشجار الميموزا والنخيل والادغال ، وتختفي عند الاقتراب من قرية بختل ذات المنازل المصنوعة من القش ، والمسجد الرائع الذي اثار اعجابها .

ولكن المخا ذات المنازل المصنوعة من الحجارة والقش معاً ، والمساجد الثلاثة ، تبدو لها مدينة كبيرة ، عليها مسحة من الثراء والعظمة ، رغم انه لم يمض طويل زمن على نهب بدو عسير لها . وقد وجدا اثاث المنازل فيها ما بين تركي واوروبي : ارائك ، وحصرا ، وكراسي هزازة ومناضد ، ومقاعد من صنع برماي .

ان قصة كومب التي كتبها وعاشها رجل ذو مزاج فنان ، والتي تصف منطقة قام نيبور بزيارتها ، تمتاز بأنها تُعطي عنها فكرة اكثر حياة، وتُبرزُ طبيعة الطريق الواقعة بين الحجاز والعربية السعيدة ، التناقض ما بين هذه البقاع ، وبين فتنة جنوبي تهامة ، رغم قسوة المناطق القاحلة المنتشرة فيها .

لم يحل النبوغ دون الدقة في هذا الكتاب الذي يحتوي على عدد من المعلومات عن موارد هذه المنطقة ، وتجارتها ، وصناعتها . ويشعر قارىء

هذا الكتاب ان تجارة المخا كانت ما تزال هامة يغذيها — كما قال فالانسيا — استيراد البضائع الهندية كالأسلحة ، والسكاكين ، والمرايا ، والزجاج المقصوص ، واللآلىء الزائفة ، والمنسوجات ، والسكر ، والشاي ، وخمسمائة سجادة عجمية في السنة ، في حين يصدر منها البن ، والصبر ، والبخور ، وعرق اللؤلؤ ، والعطور .

وقد لاحظا في زبيد مصابغ ، ومصانع للاسلحة البيضاء ، والنيلة . ورأيا في ضواحي جيزان مناجم حديد ، وجواهر ، وكبريت ، ورخام سماقي .

★

زادت الرحلة التي قام بها كومب وتاميزيه الى بلاد الحبشة في اهتمام الفرنسيين بهذه البلاد المترامية الاطراف ، الغنية بالآثار القديمة ، التي تقدم لعلماء الطبيعيات والاجتماعيات والجغرافيين ميداناً واسعاً للارتياد . لذا قررت وزارة الخارجية في سنة ۱۸۳۹ أن توفد إليها السيدين فرّه وغالينيه . وقد التقيا فيها بمبعوث من حديقة الحيوانات يدعى م. ويلدن توفي على اثر مرض أصيب به اثناء الرحلة .

وبعد ان مكثا ثمانية اشهر في القاهرة لتعلم اللغة العربية ، وشهراً لرسم خارطة عسير استناداً الى المعلومات التي أدلى بها ستيدوفو ومادي ، كما رأينا ، أبحرا برفقة السيدين بل وروجيه اللذين كانا يقصدان الحبشة على نفقتهما الخاصة لجمع نماذج للتاريخ الطبيعي . وكان مزمعاً ان يقضي على الاول بالشلل لجرح أصابه من طعنتي رمح كادتا أن تكونا قاضيتين على حياته ، وان يقضي الزحار على حياة الثاني . ويكفي القول بأن الرحلة لم تكن خالية من الحوادث المفاجئة والاخطار .

لقد عاد فرّه وغالينيه من رحلتهما بمؤلف علمي غني جداً ، مرفق بأطلس رائع من الصفائح ، ولكن اقامتهما في شبه الجزيرة العربية لم

تكن سوى رسو موقت .

وقام فرنسي آخر يدعى روشيه دي هيريكور برحلة على نفقته الخاصة لارتيـاد مملكة خوا في القسم الجنوبي من بلاد الحبشة . ولدى عودته ، قدرت الجمعية العلمية الفرنسية أنه بامكانه القيـــام بعمل مثمر ، فيما اذا امتلك ادوات علمية ، فقدمت إليه اجهزة دقيقة ، وعلمته استعمالهــــا ، وأرسلته في رحلة ثانية سنة ١٨٤٢ فعاد منها بعدد وافر من المعلومات في مختلف نواحي المعرفة تتعلق ببلاد الحبشة بنوع خاص .

ومع هـذا ، لا تخلو قصة رحلتـــه ، ومروره بالقصيم ، وجدة ، والحديدة ، والمخا ، من المعلومات الشائقة ، إذ كان قد طرأ تبدل عظيم في شؤون البحر الاحمر ما بين سنتي ١٨٣٩ و١٨٤٢ ، وذلك بتأثـــير الظروف السياسية الدولية .

لما رأت انكلترة أن فرنسة قـــد اكتسبت نفوذاً خطيراً في البحر الأبيض المتوسط ، عقدت حلفاً مع الاتراك الذين كانوا في أسوأ وضع مع تابعهم المصري الذي كان قد حصل في سنة ١٨٣٣ على اعتراف بامتلاكه سورية . ومن جهة اخرى اشترت انكلترة عدن من سلطان اليمن في عام ١٨٣٨ كي تحتفظ بطريقها في البحر الاحمر ، ووقعت اتفاقيـة تجارية مع الباب العالي حصلت لرعاياها بموجبها على حرية دخول اراضي الامبراطورية العثمانية بما في ذلك سورية ومصر . وقد رفض محمد علي التوقيـع على هذه الاتفاقية التي لم تعترف له بحقوقه ، فكان جواب السلطان محمود ، بتشجيع من انكلترة ، أن أمر بإقالته ، وغزا سوريـة بجيش تركي يقوده ضباط المان . ولكن فرنـة كانت قـد أوسلت ضباطاً يقومون بتثقيف الجيش المصري وتنظيمه . وقد سار هذا الجيش بقيادة ابراهيم باشا محرز النصر في الدوعيـــة ، ودحر الجيش التركي في شهر حزيران (يونيه) من عام ١٨٣٩ . وكان لهذا الاندحار تأثيره الشديد على انكلترة ، لا سيما وأن

موت السلطان محمود أثار ازمة خطيرة في الامبراطورية العثمانية . وبعد ارتقاء ابنه عبد المجيد العرش بزمن قصير ، أعلن الاسطول التركي انفصاله، ولجأ الى الاسكندرية مستسلماً لمحمد علي ، مجرداً تركية من أقوى سلاحها .

ولكن الدول العظمى التي كانت تخشى تعاظم قوة محمد علي ،وامتداد استعمار غير الاستعمار التركي ، اتفقت فيما بينها على وضع تركية تحت وصايتها المشتركة .

الا ان هذه العودة الى حالة الوضع الراهن (ستاتوكو) التي كانت مصر وسورية تظلان بموجبها القوة العظمى ، لم تكن لتقنع انكلترة ، فاستغلت العداء الناشب ، ما بين القيصر الروسي ولويس فيليب من جهة ، والخصومة القائمة ما بين بروسية وفرنسة من جهة اخرى ، وأعادت تأليف المحالفة الرباعية مع النمسة لعقد معاهدة تفرض على محمد علي قبول عروض السلطان الذي كان مستعداً للاعتراف له ولذريته بحق الملك على مصر مقابل اعادة كريت ، والمدن العربية المقدسة ، وشمالي سورية ، الى الامبراطورية العثمانية .

ولكن محمد علي الذي كانت تشجعه فرنسة وتسانده ، رفض تلك العروض . فأسرع اسطول انكليزي ـ نمسوي بفرض الحصار على السواحل السورية ، ورمى بيروت بالقنابل ، بينما أعلن السلطان خلع محمد علي . وقد أعلن تيير وزير الخارجية الفرنسية آنئذ ، معارضته لذلك العمل ، وعدم سماح فرنسة به ، جاعلاً أوروبة على قاب قوسين أو أدنى من الحرب . على ان النمسة التي كانت قد أصبحت دولة بحرية بموانئها الايطالية ، كان تحالفها مع الانكليز يشكل تهديداً خطيراً جداً لفرنسة في البحر الابيض المتوسط . وكان لويس فيليب عازماً على تجنب الحرب ، مهما كلفه الأمر ، فعمد الى إقالة تيير وعين مكانه غيزو ، وكلفه بالدخول

في مفاوضات للحصول على امتيازات .

ولكن بالمرستن كان قـد وطد العزم على إذلال فرنسة ، والحصول على النفوذ الاكبر في بلاد الشرق ، فأعلن تمسكه باتفاقية لندن . وأثار عملاء الانكليز سورية على محمد علي ، واستسلمت المدن السورية واحـدة تلو الاخرى للاسطول الانكليزي ـ النمسوي ، وعدل محمد علي عن عناده عند التهديد بقذف الاسكندرية بالقنابـل ، فجلا عن سورية ، وأرجع الاسطول التركي الى السلطان ، مقابل الوعد بالاعتراف بحقه وحق ورثائه في حكم مصر ، الأمر الذي تحقق في مؤتمر لندن بفضل احتجاج غيزو على رغبة بالمرستن في ألا يدع لمحمد علي سوى سلطة تدوم مدى حياته .

هكذا وجد روشيه دي هيريكور في رحلته الثانية في جدة والحديدة، سلطة محتلة جديدة ، هي سلطة الاتراك غير المتحالفين مع المصريين .

ولم يكن روشيه قد وجـــد فيهما الوضع محموداً في رحلته الاولى ، ولكنه وجده في هذه المرة أسوأ من ذي قبل . فقد سُلّمت جدة الى باشا تركي كانت مطالبه الوقحة تزعج الاهلين . وألفى الحديدة قـد وقعت ضحية لحريق هائل ، نسبه الناس الذين جن جنونهم ، الى عُقاب أبيض ألقى عليها جذوةً ملتهبة ، ونسبه آخرون الى حاج عجمي يكاد يكون ضريراً ذي عين حاسدة أنقذه بسببها رجال الشرطة دامياً من العقـاب الاعتباطي الذي أنزل به . ولكن السكان الأفضل تفكيراً كانوا يعلمون ان الجنود الاتراك الذين كانت المدينـة تدين لهم ببعض المبالغ هم الذين سببوا ذلك الحريق .

ولم يجد المخا اكثر أماناً للغرباء ، فقـــد سادها الكآبة ، والخوف ، والأسف على نظام الحكم السابق . وكان الشريف حسين هو الحاكم فيها بفضل توصيـــة محمد علي . ولكن ذلك الجحود أعلن عداءه له فور انسحابه ، وانضم الى الاتراك وأصبح تابعاً لهم . فنكم اخوته المدن

الساحلية ، واخذ هو يبتز اموال التجار .

ولم يضعف من شجاعـة روشيه دي هيريكور التقاؤه رجلا انكليزيا عدل عن السفر الى خوا ، حيث قتل ستة جنود من حرس القبطـان هارين ، بل تابع رحلته بجرأة ، وبعد ان استخدم آلاته في إعـداد بيان دقيق عن الساحل العربي ، ذهب ليقيس مواقع العرض ، ودرجات الحرارة ، والانحراف المغنـاطيسي ، وبحث عن النباتات ، والحيوانات ، والصخور ، وعاد بنتائج اعماله الى الجمعية العلمية .

*

وكان فرنسيان آخران هما آرنو وفايسيير مزمعين ان يشهدا في الحديدة، في سنة ١٨٤٧ ، تتمة تاريخ الشريف حسين .

عندما يجد المرء في حوزته صورة او سيرة ، صورتها ريشة الكسندر دوماس الساحرة ، يكون من الاجرام تأخره عن اشراك القراء بمتعتهـا . سندع اذن روائينا يقدم لنا صورة حقيقية وتاريخاً حقيقياً لهذين الرائدين لأنه كان يعرفها وقد استمع الى قصتيها :

« ان آرنو الذي فقد عادة الكلام خلال السنوات الست عشرة التي قضاها في الشرق ، ربما لن يجيبك الا بإيمـاءة من رأسه ، أو غمزة من عينه ، او ابتسامة رقيقة لا يملكها سوى هذا الشاعر الحالم ، لكنك اذا وجهت الكلام الى فايسيير وجدت لديه تلك القريحـة المتوقدة المصحوبة باللهجة الجنوبية ، فيخيـل إليك وانت تسمعه انمـا تستمع الى ميري يروي لك قصة فلوريد السحرية .. لقد جمع الطرفة الحية ، وتاريخ قبل أمس ، وأمس ، واليوم ، طائفاً ساحل البحر الاحمر في بزة بحار أو في زي بدوي . ان فايسيير لهو القصة مجسدة . »

كان آرنو قد زار مصر سنة ١٨٣٤ والعربية منذ سنة ١٨٣٥ . ولما التحق به فايسيير كان قد زار جدة ، والمخا ، وصنعاء ، وعدن ، وعثر

على اطلال سبأ القديمة المفقودة ... ولكن هذه قصة اخرى سنرويها فيما بعد . « كان قد عاد الى عدن شبه أعمى ، مملقاً كل الاملاق ، فأراد الانكليز الذين يملكون المال القيام بكل شيء ، ان يشتروا منه ما كتبه ، ولكنه رفض البيع مهما يكن الثمن . وكان على وشك الموت جوعاً على مقربة من كنزه ، حين آواه الاب سيرافان كاهن الجنود الايرلنديين المرابطين في عدن .

« عندئذ أقرضه تاجر فرنسي مانّي فرنك أعانته على العودة الى جدة . وهناك استقبله القنصل الفرنسي م . فريسنل ، الرجل الممتاز ، والمستشرق المتعمق الذي كان في وسعه ان يبدو كعربي ، وتبيّن مخطوطاته ، وقام بترجمتها ، وأرسل دراسة عنها نشرت في الجريدة الآسيوية .

« وأخيراً أدركت الوزارة التي أرسلت إليها تلك الملاحظات والمخطوطات ، مدى الخدمات التي كان في وسعها ان تنتظرها من رجل قام برحلة في مثل تلك الصعوبة والخطورة ، اعتماداً على نفسه ليس إلا ، فكلفته بمهمة العودة الى سبأ ، والكشف عنها مرة اخرى ، وتدوين ما يكون قد فاته في المرة الاولى من معلومات . وحينئذ التقى بفايسيير في القاهرة حين جاءها لشراء ما يحتاج إليه من اللوازم الضرورية لرحلته الثانية .

« أما فايسيير فبعد سبع سنين قضاها في الجندية ، وأربع عشرة حملة اشترك فيها في الجزائر ، سافر ذات صباح الى مصر ، تحدوه إليها روح المغامرة ، التي قادت ارنو من قبل ذلك باحدى عشرة سنة . ولما التقى به آرنو كان قد مضى على إقامته في القاهرة سنتان ، وهو وكيل عباشي في وزارة الحربية . »

وقد تعارفا في الفندق فاجتذب الرحالةُ الرحالةَ ، وقدّم فايسيير استقالته ، واتجها كلاهما الى السويس ومنها الى جدة ، حيث اجتمعا

بالسيد فريسنل ، ثم يمما شطر الحديدة التي بلغاها في شهر آب (اغسطس) من عام ١٨٤٩ ..

« قاما ، وهما العالمان بالطبيعيـــات ، بجمع الاصداف ، معرضين نفسيهما لتهديدات سكان تهامة الذين لم يتمكنوا من تفهم الاسباب التي تدفع برجلين عاقلين مدركين ، الى مغادرة بلدهما ، وقطع مسافة ثلاثمائة فرسخ لجمع كركدن البحر وغيره من الحيوانات العادية . ولكن السلام كان قد عاد الى نصابه ، وكانت جرائم القتل تحدث كل يوم عوضاً عن ان تحدث كل ساعة » .

توجها الى زبيد ليصطحبا معهما صديقاً لآرنو يدعى السيد سالم من سلالة النبي . وكان الاحترام الذي يتمتع به سالم في طول اليمن وعرضها كفيلا بأن يؤمن النجاح للمسافرين في مهمتهما ، فيما لو نجحا في اصطحابه .
« ولكن كان عليهما قبل كل شيء ان يذهبا لارتياد تلك الامارة الصغيرة التي كثرت فيها الخرائب ، امارة نجران التي لم يكن أي اوروبي قد دخلها .

« وكان السيد سالم قد تزوج ، لسوء طالعهما ، فقدّم اليهما جنديين من عشيرة يام استودعاه اسلحتهما كضمانة ، وتلفظا بالعبــارة المشهورة : « في وجهي » .

ولسوء حظهما ايضـــاً ، نزل إمام صنعاء من الجبـــال ، في الوقت الذي حدداه لرحيلهما ، لاستعـــادة أراضيه القديمة ، أو بالاحرى أراضي اجداده . وهنا نجد تتمة لقصة الشريف حسين .

« كانت جيوشه تنهب ، وتسرق ، وتغتصب ، ويسمى اغتصابها بركة ، ولكنها مقابل ذلك لم تكن تحارب الا قليلا . لذا فانهــا عندما التقت بجيوش الإمام ، تخلت عن الشريف وانحازت الى جانب عدوه . »

وقد قاوم الشريف حسين الجريح ، وثلاثمائـــة من رجاله ، طوال

شهر ، محاصرين في احـد المساجد . ولكن الجدري تفشى بين رجاله ، فلم يسعه الا أن يستسلم ، واستسلمت معه المخا وزبيد وبيت الفقيه .

« في تلك الاثناء كان الرحالتان يبحثان عن تماثيل في الجبال ، متبعين تعليمات كاذبة ، وقد عثرا على بضعة عشر حجراً كالشواهد التي يقيمهـــا المسلمون عند رؤوس موتاهم . »

وامام الوضع العسكري ، انكفأا شطر زبيد واتجها نحو الشاطىء حتى الحديدة . ولكنهما اضطرا الى الهرب من هناك ، لان الحسين الذي كان قد كُسر ، كان مزمعاً على غزو المدينة ونهبها . فتركا مجموعاتهما وأمتعتهما ، ولجأا الى قارب غير متزودين بأي طعام سوى الأرز والبصل . وأبحرا بغية الوصول الى الساحل الحبشي ، ولكن العاصفة لم تلبث ان داهمتهما . وأوشك المركب ان يغرق لازدياد ثقـل القطن الذي أصابـه البلل . فاضطرا الى العودة نحو كَمَران الواقعة شمالي الحديدة ، وسافر في اليوم التالي نحو مصوع .

وظل آرنو في مصوع مريضاً ، يعاني أشد الألم من داء مفاصل حاد . اما فايسيير فقد خرج وفرنسي آخر الى القنص .

ولكن حدثاً تاريخياً جديداً اضطرهما الى الاسراع في الهرب . فقد سئم ملك تابوره انتظـــار مؤازرة الملك لويس اياه في طرد المسلمين الأتراك من مصوع ، فقرر غزوها بنفسه ، واذا بجماعـــة متوحشة من الأحباش تتدفق عليها وتنشر فيها الذعر والفظائع ، فاعتلى صاحبانا الفرنسيان ظهر سفينة من مارسيليا أوصلتهما الى جدة .

وقد اجتمعا بفريسنل الذي كان شديد الانزعاج لإقدام احد الارناؤوط على اطلاق النار عليه ، وقد أخطأه لحسن الحظ ، فطالب بالتعويض عن الحادث . ولكن لم يفكر احـد في التدخـل ، لتلافي خلق صعوبات ديبلوماسية . وفضلاً عن ذلك فقد قامت الشرطة التركية بمداهمـــة منزل

آرنو وفايسيير وقلبت مجموعاتها رأساً على عقب .

وقد أقيل فريسنل من منصبه لان حكومته لم تشأ أن تعضده وتخلق المشاكل ، وأرسل الى الموصل . وهكـــذا وُضع حدٌ لنشاط القنصل المدرك الذي عرف كيف يؤدي الخدمات المفيدة لتقـدم العلم : بإلقـاء الأسئلة على العرب لتقـديم المعلومات الجغرافية والتاريخيـة لجومارد الذي كان ينقب عن المصادر المخطوطة التي استخلص منهـا دراسة عن تاريخ جنوبي الجزيرة العربيـة القديم ، وبتشجيعه آرنو والنصح له بالبحث عن خرائب سبأ .

عاد آرنو وفايسيير الى القاهرة بصحبة فريسنل ، وكانا مزمعين ان يُحضرا الى باريس مجموعتها من الطيور ، والحيوانات الملونة ، والحشرات ، والاصداف ، والنبـــاتات البحرية ، والبرية ، التي سلمت الى متحف العلوم الطبيعية ، وأن يكتبا للجريدة الآسيوية دراسة اجتماعية عن طبقـة « الاخدام » في اليمن .

يرى القراء ان فرنسة كانت تبذل نشاطـــاً واسعاً في البحر الاحمر آنئذ ، وان البحر الاحمر كان ماثلاً في اذهان الفرنسيين ، وكان الفرنسيون يقرأون ايضاً قصة غرام واقعية ، للكاتب لويس دفيل ، حدثت في إطار من البحر الاحمر ما بين السويس وجدة ، ولكن كان هنالك شيء أفضل.

فاذا كان لامارتين ، لدى عودته من رحلته الى بلاد الشرق ، قـد حمل معه ذكريات النيل وسورية ، التي أشاد فيها بذكر البدوي وجمله ، وحلم بالمدن المنقرضة ، كان الكسندر دوماس قد يمم ناظريه شطر البحر لاحمر . فلم يدع مسافراً لم يجمع منه مذكراته وملاحظاته ، ليهيىء منها لباريس قصة ممتعة ، حية ، مثيرة . هكذا نشر في صحيفة « النظام » اليومية تقرير آرنو فايسيير ، في ملاحق مستقلة متسلسلة ، واضعـاً له المقدمة التي سبق لنا أن أوردنا مقاطع منهـــا . ولكنه كان قـد نشر

مذكرات الكولونيل لويس دي كوره ايضاً ، الذي كان نابوليون الثالث قد كلفه القيام بمهمة رسمية في افريقية ، ونشر في سنة ١٨٥٩ كتابه تحت عنوان « ذكريات رحلة الى آسية وافريقية » . وقد سمح لالكسندر دوماس ان يقتبس من مغامراته ثلاث روايات : احداها باسم مستعار لمؤلف دعاه عبد الحميد بك اطلق عليها اسم « قصة رحلة الى شبه الجزيرة العربية » (سنة ١٨٥٦) والثانية « زيارة الحاج علي بك لمكة والمدينة والعربية السعيدة » (سنة ١٨٥٦ و ١٨٥٧) والثالثة « ذكريات رحلات الى افريقية وآسية » (سنة ١٨٨٠ ثم ١٨٦١ و ١٨٦٤) وقد نشر دوماس الكتابين الاخيرين باسمه ، وكونت الروايات الثلاث احد عشر جزءاً .

لقد مال دوماس الى العرب ، ولا سيما الى الوهابيين . وكتب بلغريف الذي حاز مجلداه عدداً ضخماً من القراء ، اتهاماً حماسياً للوهابيين قال فيه : « ان شهادتنا ستساعد ، على ما نأمل ، على تصحيح الأخطاء التي أشاعها عدد كبير من الشعراء والكتاب ، ولا سيما الفرنسيين منهم ، فيما يختص بأبناء الصحراء » .

وقد غدا بلغريف من المناهضين لدوماس . واذا كان الناس قد ضنوا عليه بالاعجاب الذي ينتظره ، فما ذلك الا لأنهم ازدروا كتابيه اللذين تغلب عليهما روح الرواية ، معتبرين اياهما غير حقيقيين .

فدوماس قد أعطى المذكرات الحقيقية التي جمعها ، شكلاً روائياً ، وقدمهما بكل تواضع كقصة خيالية ، اما بلغريف فانه قدم كقصة علمية ، كتاباً مغرضاً من نوع الروايات الخيالية .

واذا كان بلغريف قد استهدف دوماس ، فيمن استهدف من الكتاب الذين أثنوا على العرب ، فلم يكن ذلك مبالغة منه في تقدير فعاليته السياسية ، اذ كان دوماس في الحقيقة ذا حجة سياسية لاذعة ، ولن

يكون عديم الفائدة من وجهة نظر التاريخ الفكري ، ومن وجهة نظر تاريخ شبه الجزيرة العربية ، ان نبعث دفاعه التالي من طيات النسيان :

« لنفترض لحظة ان الملك لويس فيليب قام بعكس ما قام به ، وانه استناداً الى محالفة الأمة الحبشية قام ببسط نفوذنا على البحر الاحمر ، ألم يكن من الممكن حينئذ ، بل من السهل ، إعطاء مسألة الشرق وجهاً لم يره أي انسان بعد ؟ اننا لو فعلنا لتركنا جثمان الباب العالي العجوز يفسد ويتفسخ على ضفاف البوسفور ، ولخلقنا عوضاً عن واجهة الامبراطورية هذه التي تحجب فراغاً حقيقياً على حساب مصر وتركية ، قومية عربية تكون قوتها المحركة امة الوهابيين التي تمتلك حيوية الاجيال الفتية ، وايمان المرسلين ، وحماسة واقتناعاً دينيين مبعثها المعتقد الوهابي ، هذا المعتقد الذي كان مؤهلاً لأن يسود ، والذي كان سيصبح مركزه ـ فيما لو تحقق هذا الاصلاح البروتستانتي في الاسلام ـ مكة المدينة المقدسة نفسها .

« ان الاصلاح لوشيك الحدوث من القفقاس الى رأس زنجبار ، اي على مسافة ألفي ميل من الشرق الى الغرب . ان مائتي مليون مسلم اليوم يتعادون ، ويتنازعون ، ويتحاكمون ، تجمعهم نقطة عقائدية واحدة هي الحج ، تشتمُ خلالَه كلُّ شيعةٍ الشيعةَ الأخرى .. ولكن المستقبل في غمرة كل ذلك للوهابيين وحدهم ... ولمذهبهم الذي يختفي أمامه ألوف الاولياء والشيوخ والمتصوفين ، الذين يقدسهم المسلمون من غير الوهابيين ، وامام مبادئهم الخلقية التي تكاد تكون مبادىء انجيلية يمحي ذلك الانحلال الشرقي المنتشر في اكثر العواصم » .

ولكن ما هو مخطط دوماس ؟ لقد قال : « ان ابن سعود الذي كان سجيناً في القاهرة ، يقيم اليوم في جدة ، في فقر مدقع ، وفي وسعه أن يثير سكان المنطقة العربية الوسطى جميعهم . فاذا ما تحالفت فرنسة والحبشة ، والوهابيون ، مكنت سعوداً من تحقيق انقلاب على ابن عمه

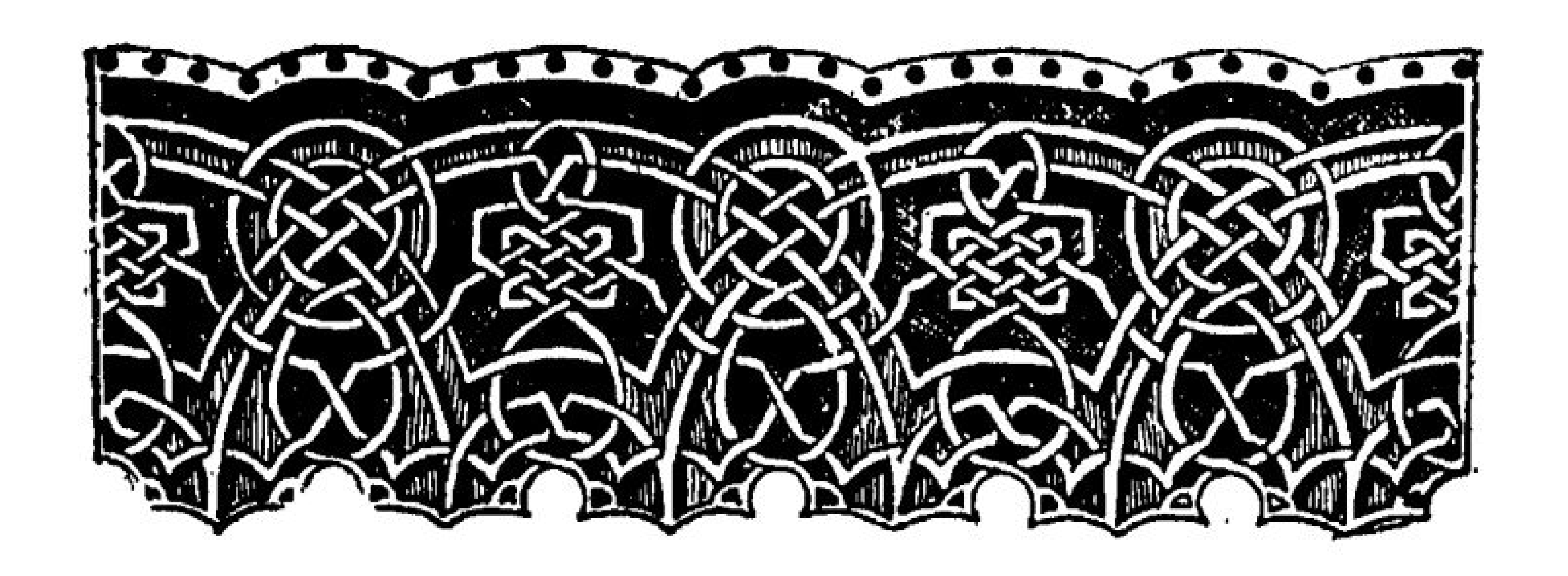
فيصل المغتصب ، ومن الاستيلاء على الاماكن المقدسة ، شريطة ان تكون لديه « حجة للقيام بثورة ، وان يكون الى جانبه رجل عبقري يدعمه ». والحجة يمكن ايجـــادها في أي عجز مالي يبدو من الباب العالي عن تأدية المخصصات المالية لزعماء تهامة الصغار . اما الرجل فهو عبد القادر الجزائري المقيم في دمشق .

« وفي انتظار ذلك ، لتكن لنا محطة في البحر الاحمر . ونحن نمتلك لذلك ارضاً تمتد ثلاثين فرسخاً على الساحل ، باعها السكان الى شركة مؤلفة من أهالي نانت وبوردو ، واقعة ما بين حايد وامفيلة .

« بعد ان قمنا بخلع الملك لويس فيليب لانه لم يحقق ما نريده ، ألم يحن الوقت لأن نقوم بعكس ما قام به ؟ »

ولكن ، حتى في النظم الديموقراطية ، لا يُعهد الى الروائيين بايجاد الحلول السياسية ، وكان بلغريف مزمعاً ان يقوم برحلته الى نجد بالأموال التي قدمها له نابوليون الثالث ، بقصد التحقق من امكانيـــة القضاء على الوهابية ، واقتلاع جذورها من الجزيرة العربية !!..





سر آثار سبأ

في مطلع القرن التاسع عشر ، أخذ النـــاس يهتمون اهتماماً شديداً بالآثار القديمة ، وبالكتابات الأثرية التي كان يحتمل احتواؤها عليها . فقد تعلموا ان يعرفوا آثار مصر الفرعونية ، وآثار افريقية الشمالية ، وسورية ، والبتراء ، وكانت آثار الحبشة قد بدأت تتكشف منذ زمن قصير .

كان قد تم اكتشاف وادي المُكتّب في شبه جزيرة سيناء ، حيث كانت الصخور مكسوة بالكتابات الاثرية الغامضة ، وقد رآها ليون لابورد ، وقام بتصويرها خلال الرحلة التي قام بها الى البتراء . وكان هـ. سالت الذي أوفده اللورد فلانسيا الى الحبشة كما رأينا في الفصل السابق ، قد شاهد في بجا أربع كتابات أثرية اخذ نسخاً عنها .

ألم يكن في الامكان العثور على وثائق أثرية مثلهـا في جنوبي الجزيرة العربية ؟ لقد سبق لنيبور وسيتزن أن برهنا عن وجود مثل هذه الوثائق على كل حال .

لم يكتف ضباط السفينة بالينوردوس بجمع معلومات عن الساحل ،

وهي المهمة التي كان القبطان هاينس يقوم بها بصورة خاصة . بل أخذوا يوغلون في البلاد ، كلما اتيحت لهم الفرصة ، بحثاً عن الخرائب والكتابات الاثرية . فأغرت تحرياتهم على الساحل الجنوبي ، إذ عثر كارلوس في عام ١٨٣١ ، قرب ويبج ، على مخطوط اثري قـــديم لم يعلن عنه الا في سنة ١٨٤٥ .

لقد نزل الطبيب المساعد هـ. ت. كارتر في عام ١٨٣٣ ، الى الساحل، لملاحظة خرائب ظاهرة للعيان في أحد الموانىء القديمة المعروف بخور روري، فعرّف عن كتـابة أثرية بالاضافـة الى الدراسات التي خلـّفها عن لهجـة عشيرة مهرة ، وعن شجرة البخور ، وموقع غرسها المحتمل ، بالاستنـاد الى بطليموس .

لكن هذه الاكتشافات لم تكن شيئاً يُذكر بالنسبة الى ما كان ثلاثة من بحارة السفينة بالينوروس مزمعين ان يحققوه بعد مرور سنة على ذلك في حصن الغراب وهم : ولستد وكروتندن وهلتن .

لم يورد ولستد اسم رفيقيه في اعلانه عن هـذا الاكتشاف في السنة التالية ، في حين ان الفضل فيه ربما كان عائداً إليهما ايضاً . وقد وُجه إليه اللوم على ذلك بحق . على ان الأهم في الامر هو الاكتشاف في حد ذاته . وإليك ما كتبه ولستد في تقريره :

« في صباح السادس من شهر ايار (مايو) من عام ١٨٣٤ ، ألقينا المرساة عند الساحل العربي ، في ممر ضيق ، قصير ، مغلق من احـــد جانبيه بجزيرة صغيرة منخفضة ، ومن الجانب الآخر بصخرة ضخمة ، قاتمة، وعرة ، ألقى عليها ملاحنا اسم حصن الغراب .. وبالنظر الى ان ثمـة خرائب بدت لنا على قمة هذه الصخرة ، توجه فريق منا الى الساحـل بغية تفحصها ... نزلنا الى البر على طريق رملية امتدت الى اسفل التلة ، فألفينا أنفسنا بين أطلال وأبراج ومنازل كثيرة . وكانت المنازل صغيرة،

مربعة الشكــــل ، تضم أربع غرف ، على الاكـــثر ، ذات طابق واحد . وانحدار التلة من هذه الجهة يرتفع باعتدال ، وقد انتشرت آثار عديدة على منحدرها ، إلا أننـا لم نجد عليه أطلال منازل ، أو أبنيــة عامة ، ولا آثار قناطر أو أعمدة ، فقد كان معظم الخرائب مبنياً من قطع فصلت عن الصخور ، كسيت بأسمنت مصنوع من الصدف المتحجر . والجزيرة الصغيرة اليوم متصلة بالساحل ببرزخ رملي ، ولكنها كانت فيما مضى ، مفصولة عنه تماماً » .

وقد بحثوا في غير جدوى عن طريق لبلوغ القمة ، وإذا بأحدهم يقول ان الابراج يمكن ان تكون اول المنطلق . وبعد أن تسلقوا الركام ، وجدوا بالفعل ، شعباً متعرجاً حفر في الارض الصخرية ، ولكنهم حين بلغوا ثلث الطريق الصاعدة ، رأوا على احدى الصخور ، كتابة أثرية نقشت فيها بعناية فائقة ، فنسخها كل منهم ، بغية اجراء مقارنة فيما بعد بين تأويلاتهم للرموز .

والى الأعلى وجدوا بيوتاً وجدراناً ، وأقساماً ناتئة من حصون ، وفي الزاوية الناتئة من القمة ، شاهدوا برجاً مربعاً ضخم البناء ، فعلموا أنها قلعة حصينة جداً بموقعها المواجه للساحل ، وتحصينها معاً . وكان للجزيرة الصغيرة علاوة على ذلك ، ميناءان يتسنى للمراكب الرسو فيهما في كلا موسمي الرياح الموسمية .

ولم يكن اهل البلاد يعرفون شيئاً عن تلك الخرائب ، سوى نسبتهم انشاءها الى بعض « الغرباء » .

افترض ولستد محقاً أن الكتابة الاثرية لا بد من أن تكشف سر ذلك المكان الحصين ، وسبب وجوده ، وتاريخ انشائــه ، والقوم الذين أنشأوه . على انها كانت في تلك الساعة أحرفاً ميتـة لا يعرف أحد أن يحلّها .

الكتابات والنقوش الحميرية التي نقلها ولستد عن حصن الغراب

ولما أعلن ولستد اكتشافها ، قال عنهـا انها « كتابات اثرية ذات طابع حبشي » ، وكانت الرموز التي احتوتها ، في الحقيقة ، شبيهة برموز الكتابات الاثرية التي عثر عليها « سالت » في بلاد الحبشة . فكان من الصواب اذن التقريب بينها ، ولكن الامر الذي توجب تحديده كان ما يأتي :

« هل كتابات حصن الغرب الاثرية حبشية الطابع ، أم ان الكتابات الاثرية التي وجدت في منطقـة بيحا من بلاد الحبشة ذات طابع عربي جنوبي ? » .

ولم يلبث الخبراء في الكتابات الاثرية ان تبنوا النظرية الثانية : لقد رئي ان الكتابات الاثرية في جنوبي الجزيرة العربية الكثيرة ، والمكتوبة جميعاً بأبجدية واحدة ، لم تكن سوى كتابات الممالك العربية القديمة التي سبقت الاسلام . وبما ان السير العربية القديمة كانت تتحدث كثيراً عن الملوك الحميريين ، وبما ان الكتابات الاثرية التي عثر عليها كانت ترجع الى عهدهم ، سميت هذه الكتابات العربية الاثرية بالكتابات « الحميرية » . وكان لا بد من الاعتراف بأن الكتابات التي عثر عليها سالت في بلاد الحبشة ، كانت تختلف عن الكتابات الحبشية ، وانها عربية جنوبية ، الامر الذي كان سيشكل مسألة تاريخية ، ما تزال حتى يومنا هذا ، أبعد من ان نلقي عليها ضوءاً .

ولكن ولستد وكوتندن أرادا أن يوغلا أكثر فأكثر في داخـل بلاد حضرموت ، فلم يسمح لهما بالتوغل اكثر من خمسين ميلًا ، واضطرا الى التخلي عن فكرة اكتشاف قلب وادي حضرموت ، والمدن التي كان الناس يحدثونها عنهـا كَدَوْعَن ، وشبام .. ولكنهما ، على كل حال ، بلغا خرائب نقب الحجر .

ألقى ضباط السفينة بالينوروس في أحد أيام نيسان (ابريل) من سنة ١٨٣٥ المرساة امام برج بلحاف ، فعلموا بوجود خرائب في داخل

البلاد غير بعيدة عنه . فبحث ولستد وكوتندن عن بعض البدو ليدلوهما على الطريق إليها . وبعد ان تم ترتيب كل شيء ، سايرا الساحل حتى بلغا وادي ميفعة الذي انتشرت فيه القرى والواحات والمزارع .

وقد تعرضا في القرية الأولى التي دخلاها الى عداء الأهالي ، اذ ان احد البدو المرافقين لهما ، أراد التلهي ، فقال لهم ان الرجلين يسعيان وراء الكنوز ، ولكنهما ما كادا يتجاوزان تلك القريـــة حتى لقيا من الاهالي معاملة لطيفة وضيافة سخية .

وأخيراً شاهـدا أمامهما من على احدى التلال ، خرائب حصن ، تتوج احد المرتفعات وتشرف على موقع خصب ، فأنعما النظر عن كثب في جدار الحصن فألفياه مبنياً من الحجارة المنحوتة ، والرخام الأخضر المجزّع بالسواد . ورأيا برجين لحراسة المداخل ، وعلى مقربـة من البرج الشمالي خط طويل من الكتابة الاثرية الجميلة النقش .

أما في داخل الحصن ، فقد رأيا أبنية عادية ، الا أن احدها امتـاز بتوجّه جدرانه توجهاً دقيقاً وفقاً للجهات الأربع الأساسية ، فقدّرا أنه معبد . ولكن خاب أمل ولستد في العثور على كتابات أثرية فيه ، لان مواد السقف المنهار الى الداخل كانت قد سدّت كل مكان .

ان الكتابة التي رأياها على الباب ، كان في وسعها وحدها أن تلقي ضوءاً في يوم من الأيام على هوية بناة هذا الحصن .

ولحسن الحظ نجا الضابطان من كمين نصبه لهما بعض اللصوص ، وعادا الى المركب ، ونشر ولستد بعد انقضاء سنتين على ذلك ، قصة الرحلة ، ووصفاً للخرائب ونسخة عن الكتابة الاثرية .

في تلك السنة نفسها ، عهد الى ولستد وحده هذه المرة ، بارتياد منطقة عمان ، ولكنه لم يعثر على أية كتابة اثرية قديمة . لقد كانت

حضارة جنوبي الجزيرة العربية القديمة هي نفسها حضارة الزاوية الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة .

وفيما كان ولستد في منطقـــة عمان ، اكتشف هلتن وسميث ، على الساحل الجنوبي ، وبالتدقيق على مقربة من رأس شرمه ، خمس عشرة كتابة اثرية منقوشة على الحجارة . وبعد ذلك بقليل ، قام هلتن بصحبة كوتندن برحلة الى صنعاء ، فيما كانت سفينة البالينوروس راسية في المخا ، وضباطها يقومون برسم مخطط المرفأ .

كان ذلك سنة ١٨٣٦ ، وكانت الجيوش المصرية ما تزال تحتـل المخا وتشدد الخناق تشديداً وحشياً على الاهلين . ولكن الشريف حسين ، حليف محمد علي الذي كان يقبض منه مخصصات مالية ، كان يحكم البلاد .

سلك السائحان باديء ذي بدء الطريق التي سبق لنيبور ان سلكها ، وقد ارتديا الزي الوطني ، ورافقهما تاجر عجمي ، وكانت هـذه الطريق تمر بمَوْزَع ، وزبيد ، وبيت الفقيه ، وهي الطريق المعكسية للطريق التي قطعها كومب وتاميزيه في السنة السالفة . وقد لاحظا هما ايضاً ، في شمالي بيت الفقيه ، مرح الاهالي ، وارتداءهم ثياباً خاصة بهم . ثم توغلا في سلسلة الجبال عن طريق واد ذي مناظر طبيعية رائعة ، يتسع في بعض الاحيان في شكل مدرج فسيح من الاراضي الزراعية المرتفعة ، تطل عليه قرى واقعة على القمم .

لم تكن السماء قد أمطرت على الساحل منذ أربع سنوات ، وكان الزرع قد يبس ، والجوع أخذ يهلك السكان الى درجة لم يكن مستغرباً معهـــا ان يرى المرء جثثاً في الشوارع . ولكن لما بلغ كوتندن وهلتن الهضبة الصخرية المحيطة بصنعاء ، أخذت عاصفة تنذر بالهبوب ، ثم لم تلبث ان هبت ، ودامت ثلاث ساعات . وهطل اول مطر ، منذ اربع سنوات ، فاستقبله الناس بفرح بالغ ، وأقاموا لهطوله المآدب والافراح .

أخذت تظهر في صنعاء التي بلغاها في اليوم التالي ، نتائج المجاعة ، اذ كان يموت في كل يوم مائة وخمسون شخصاً من حمى خبيثة . وارتفع هدير العصيان ، لأن الإمام أبدى عدم اكتراث بمصير الشعب الفاجع . وقد فرّ عمه في تلك الأيام من مأرب ، والتحق بالشريف حسين ، الذي قدم له المساعدة ، فلم يلبث أن عاد فيما بعد فخلع الإمام العاجز الذي كرهه الشعب عن العرش ، وألقى عليه القبض وسجنه .

ولما شعر الإمام بالاضطرابات نسبها الى الرجلين الاجنبيين ، ففرض عليهما الاقامة الجبرية في منزلهما ، الامر الذي حرمهما من كل أمل في القيام برحلة الى مأرب . وقد أصيب الدكتور هلفن بمرض ، وكان لا بد من انتظار ثلاثة أسابيع كي تتغلب الكيناء موقتاً على الحمى ، وتجعله قادراً على القيام برحلة العودة . فأجلسه كروتندن في هودج حمله اثنا عشر رجلاً . ولكن شجاعة الرجل الفائقة التي جابهت بانتصار ، تجربة هذه العودة القاسية ، كانت دون جدوى ، اذ توفي بعد بلوغهما المركب بزمن قصير .

كانت هذه الرحلة الجديدة الى صنعاء قد أنتجت ما لم تنتجه أية رحلة سابقة لها : أنتجت صوراً عن بعض الكتابات الأثرية . فقد شاهد كروتندن عمالاً يحملون اربع أحجار ، ثلاث منها عادية ، والرابعة رخامية ، تحمل كتابات اثرية ، جيء بها من مأرب لتستعمل في انشاء احد الابنية في المدينة . وكان كروتندن قد تمكن من رؤية جزء من رأس منحوت أتي به الى الإمام من المكان ذاته في مأرب ، فلم يكد الإمام يراه حتى حطمه ، لكونه من بقايا الكفار القدماء الكريهة ، وحصل كروتندن عليه .

لقد اهتم علماء الآثار السامية على الفور بحصيلة هذه الآثار التي أضيفت اليها كتابة اثرية وجدها هينس في عدن وأعلن نبأ اكتشافها في عام

١٨٤٣ » وخمس كتـــابات اخرى اشتراها الدكتور ماكل في عدن ، وعرّف عنها ج. بيرد سكرتير الجمعية الملكيـة الآسيوية في بومباي في عام ١٨٤٤ .

كان لا بد من فك رموز تلك المخطوطات . وقد حاول ا. روديجر ، و و. جيزينيوس ، و ج. جيلد ميستر في المانيا ، ان يلقوا بعض النور على توحيد علامات الابجدية الحميرية . فاعتقد روديجر ان الكلمـة الاولى في نقوش حصن الغراب يجب أن تقرأ س م ك (لأن اللغـات الساميّة كتابة لا أجرف صوتية لها) ، وتعرّف الى حرفين يدلان على ضمير المتكلم ، فحصل على ما ترجمته : « سكنا ... »

وظن شارل فورستر القس الايرلندي آنئذ انه توصل الى اكتشاف مثير . وتستحق قصة هذا الاكتشاف أن تروى .

لقد لاحظ ان الكاتب العربي النويري (١٢٧٩ – ١٣٣٢) قد أورد نص قصيدة ، زعم ان ملوك حمير الاقدمين كانوا قد كتبوها على احد قصورهم . وكانت هذه القصيدة تبدأ بجملة « سكنا » كما ان الكتـــابة المنقوشة على باب حصن الغراب بدأت بعبارة « سكنا » التي ترجمهـــا روديجر .

اقتنع فورستر بأنه اهتدى الى مفتاح فك رموز الكتابة الحميرية . وبما ان قصيدة النويري كانت في اعتقاده ترجمة للكتابة الاثرية على باب حصن الغراب ، لم يكن عليه الا ان يقيم مقارنة بين الاسطر ، والجمل ، والالفـاظ .. فانصرف فورستر الى عمل هائل ، أنهاه بتقديم جداول كبيرة لمطابقـــة الالفاظ ، الأمر الذي أتاح له تخمين قراءة بعض الكلمـــات ، ومن ثم مطابقة بعض الاحرف . واستنتج القراءة المحتملة لمفردات النص الاخرى بفضل الاحرف التي سبق له أن عين هويتها ، وقدمت له هـذه المفردات الجديدة بقيـة رموز الأبجدية ، ثم توصل الى دراسة المفردات التي قرأها

بهذه الطريقة ، والى تفسير معانيها تخميناً ، استناداً الى القصيدة التي أورد النويري ترجمتها ، مربوطة بعض الربط الى اصول بعض الالفاظ العربية ، الامر الذي أتاح له القيام بالترجمة التالية :

« لقد سكنا وعشنا وقتاً طويلاً حياة بذخ في قاعات هذا المسكن الفسيح ، وكان الشقاء والخصومة بعيدين عن ساحتنا .

« كان البحر المائج المسرع نحو مدخل ممرنا المائي ، يضرب قصرنا بأمواجه الثائرة ، وكانت الينابيع تفور من فوق اشجار النخيل العالية ، وتجري فيُسمع خرير مياهها ، وكان الحراس يجنون التمور الناشفة من مزارع النخيل في وادينا ، ويبذرون الارز الجاف . وكنا نقتنص الماعز الجبلي ، ونصطاد الارانب بالمصايد والشباك ، نحتال على الاسماك فنخرجها من مخابئها ، ونخطر في هدوء وشمم متسربلين ثياب الحرير الموشى بالنقوش العديدة الألوان ، وثياب خضراء هندسية مبقعة .

« كان يحكمنا ملوك غريبة عنهم كل انواع السفالات ، يُنزلون شديد العقاب بالاشرار . وقد كتبوا لنا احكاماً صالحة استناداً الى عقيدة هبر ، جُمعت في كتاب يجب حفظه ، وكنا نعلن اعتقادنا بالمعجزات ، والبعث ، والعودة الى منخري نسمة الحياة .

« ولقد غدونا كقطاع الطرق الذين يحاولون استعمال القنص معنا . وسرنا جميعاً نستحث خيلنا ... نحن وشبابنا الكريم ... برماح صارمة ذات أسنة حادة ، مندفعين بقوة الى الامام ، ندافع بحماسة عن اولادنا وزوجاتنا ، نحارب ببسالة على ظهور خيول سريعة طويلة الاعناق ، بنيّة غامقة أو رمادية حديدية ، أو سوداء كاشفة ، ولم تكفّ سيوفنا عن طعن اعدائنا وشطر اجسامهم الى شطرين الا عندما تغلبنا على حثالة البشرية تلك ، وسحقناها .

« هاجمنا رجال الاجرام
« بحقد وعداء
« وانطلقت خيولنا الى الامام
« ووطئتهم بحوافرها » .

«قسّم نشيد النصر هذا الى اجزاء ، وكتب من اليمين الى اليسار ، ونقّط » — سارش ودزيراح .

هكذا تُرجمت كتابة حصن الغراب ، وحلّت رموز الابجدية الحميرية ، ووضع أول معجم لها !! ..

ولكن هذه النتائج الجميلة كلها كان يمكن الحصول عليها فعلاً ، من كتابة جُعلت في لغتين ، أي النص المجهول وترجمته ، وقد وضع احدهما الى جانب الآخر ، أو في خطوط يتبع كل خط ترجمته في الخط التالي ، بلغة معروفة . ولكن هنا ، كان كل ذلك الركام الماثل من الاستنتاجات المثيرة يرتكز على اساس افتراضي . فهل كان من الممكن ان تكون قصيدة النويري ترجمة للكتابة الاثرية التي وجدت على باب حصن الغراب ؟ ! ..

ان التسليم بذلك كان يعني جهل الطريقة التي دوّن بها التاريخ مؤلفو العصور السالفة المسلمون الذين لم يكونوا يهتمون بترجمة النصوص القديمة التي كانوا يجهلون قراءتها ولا شك ، وكانوا يجمعون الاقوال والاحاديث والقصائد المتداولة ، ويركبون منها قصصاً محشوة بالخرافات ، تحتوي هنا وهنالك على بعض المعلومات التاريخية الحقيقية ، في إطار عام مستعار من تاريخ التوراة عن اسمعيل وسليمان .

لم يكن هنالك أية علاقة بين القصيدة العربية المتداولة والنص العربي الجنوبي ، المنسي على تلك الصخرة المواجهة للبحر . ثم ان وودبجر كان قد أخطأ في قراءته « سكنا » لان اللفظة الاولى كانت اسم علم وهو

« صمياقا » كما أكد الذين تمكنوا فيما بعد من قراءة النص ، ولم تذكر الاسطر الستة الاولى الا أسماء بناة ذلك البناء الاثري . فقد أعلن هؤلاء انهم كتبوا ذلك النص على صخرة « ماويات » عندما ركبوها للاحتماء بها إثر عودتهم من بلاد الحبشة ، وانهم أرسلوا في الوقت ذاته جيشاً من الاحباش فهاجم بلاد حمير وقتل ملكها وقواده . ويلي ذلك ، التاريخ وهو شهر ذي الحجة من سنة ٦٤٠ م.

كانت قصيدة فورستر أجمل .. ولكن حين غدا في الامكان قراءة ذلك النص بحقيقته العارية في عام ١٨٧٢ ، أمكن فهم الاهمية الخارقة التي قد يمثلها في اعادة تركيب الاحداث التي هزت جنوبي الجزيرة العربية وبلاد الحبشة ، في القرن السادس للميلاد .

وكان في الكتابة تاريخ استنتج منه جوزف هاليفي في سنة ١٨٧٤ نتيجة لتحقيقات بارعة قام بها بوساطة مصادر تاريخية حبشية ، انه التاريخ الاساسي (السنة الاولى) من طريقة تأريخ مستعملة في هذه المخطوطة وفي نصوص سبأية أخرى من القرنين الخامس والسادس الميلاديين .

*

في تلك الاثنـــاء كان السيد ف. فرينيل القنصل الفرنسي في جدة يبحث في المعلومات التي أوردها المؤلفون القدماء عن شبه الجزيرة العربية، فأرسل الى الصحيفة الآسيوية « رسالة عن جغرافية بلاد العرب » حاول فيها تحقيق هوية المدن اليمنية التي بلغها القائد الروماني اتيليوس غالوس في سنة ٢٤ ق م. وقد استقصى كتب المؤرخين المسلمين ليجمع منها معلوماتهم عن تاريخ العرب قبل الاسلام .

على انه ما من احد كان قد استطاع أن يرى أثراً سبئياً قديماً حقيقياً .

في سنة ١٨٣٦ اكتشف عالم النبات الفرنسي بول اميل بوتا ، طبيب محمد علي ، ومبعوث متحف العلوم الطبيعية في باريس في مهمة خاصة ، طللاً قديماً . كان قد خرج من بيت الفقيه وتوغل داخل اليمن بحثاً عن النبات ، وكان هدفه الاول ان يزور منطقة جبل صَبِر ، الجبل العظيم الذي تستند إليه مدينة تعز . وكان فورسكال العاثر الحظ رفيق نيبور ، قد ذكر انها منطقة نبات كثيف غزير وانها حديقة اليمن ، ولكنه لم يقدر ان يدخلها .

توجه بوتا الى تعز وقام برحلة الى جبل صَبِر . وعلى الرغم من انه لم يكن يبحث الا عن النبات ، ذكر له دليله انه يستطيع ان يشاهد أطلال قلعة متهدمة على قمة الجبل ، فسأله ان يقوده إليها ، وقد رأى في الواقع على قمة مشرفة على المنطقة كلها جدران قلعة قديمة ، يُصعد إليها بشِعب وأدراج منقورة في الصخرة ، فتساءل : « الى أي عهد يرجع تاريخ عش النسر هذا ؟ » لكنه لم يهتد الى أية كتابة أثرية ، أو اي شيء آخر يوضح له ذلك . وما زالت هذه القلعة مسألة مغلقة حتى اليوم ، على الرغم من أن فرنسوا بالسان اكتشف حديثاً اطلال قلعة اخرى في هذا الجبل بالذات ، وربما ذات طابع مماثل للاولى ، تعذر تحديد تاريخها .

★

وفي الوقت الذي وصل فيه بوتا الى اليمن ، وفد الى هذا البلد المبشر جوزف وولف ، كمرسل الى اخوانه اليهود ، قادماً من حدود نجران . وقد ترك قصة غريبة عن مغامرات الرحلة التي قام بها الى صنعاء . ووصل القس سترن بدوره الى صنعـــاء في عام ١٨٥٦ . ولكن العلم لم يفد معلومات جديدة من هاتين الرحلتين اللتين لم يكن الغرض منهما علمياً .

الا أن رحلة ث. ج. آرنو الذي يعرفه القارىء ، فتحت على العكس من ذلك ، السبيل نهائياً أمام تطور علم الآثار في جنوبي شبه الجزيرة

العربية . وكان فولجانس فريسنل القنصل الفرنسي في جدة ، يتحمس لكل ما يختص ببلاد العرب القديمـــة . فلما رأى آرنو في جدة قـدّر عظم الخدمات التي يستطيع ذلك الرجل أن يقدمها للعلم ، اذا ما أراد .

كان هذا الفرنسي الشاب مرتبطاً في عام ١٨٣٥ ، كصيدلي ، الى احدى فرقتي الطليعة اللتين أرسلهما محمد علي الى جدة للاشتراك في الحملة على عسير . وكان قد ألف سماع العربية في تهامة عسير ، وتعلم لهجتها الخاصة التي ظل محتفظاً بها . ثم مارس الصيدلة عند إمام صنعاء الذي أولاه ثقته . وهكذا قدّم نفسه الى فريسنل في مطلع سنة ١٨٤٣ ، راجياً اياه ان يعير ملاحظاته على المناطق التي قام بزيارتها بعض اهتمامه . عندئذ أثار فريسنل الحماسة في صدر آرنو للقيام بمهمة لا يقدر احد سواه أن يقوم بها ، ألا وهي الوصول الى مأرب وخرائب سبأ .

وقد قام بالرحلة في التاسع من شهر حزيران (يونيه) سنة ١٨٤٣ برفقة البعثة التركية المرسلة من جدة الى الإمام ، فبلغ صنعـاء ، حيث كان أول همه الافتراق عن رفاقه الذين قـــد تعرضه صحبتهم للخطر ، والبحث عن مسكن ، ودليل يقوده الى مأرب . وقد وُفق الى العثور على دليل ، وفيما كان ينتظر موعد القيام برحلته اهتم بنسخ ثلاث كتابات أثرية بارزة رآها ليلاً على حجارة احد الجدران .

عاد آرنو الى المكان الذي شاهد فيه الكتابات في فجر اليوم التالي ، ولكن اقدامه على نسخهـا كان امراً يلفت إليه الانظار ، وقد كتب يقول : « لم اكد أفرغ من نسخ الكتابة المنقوشة على الحجر الاولي حتى أحاط بي الفضوليون من المارة ، وأحدقوا بي مزدحمين ، وقد اخذ بعضهم يزحمني بالمرافق ، وآخرون ينتزعون حذائي ، وغيرهم يعترضون بيني وبين الكتابات التي كانت تعلو خمسة اقدام عن الارض ، وطفق الاصغر سناً يقلبون الدفتر الذي كنت أنسخ عليه ليروا ما أنا فاعله » .

لم يستغرق استعداده للرحلة زمناً طويلاً ، لأن دليله لم يسمح له إلا بالتزود بسمن وطحين يكفيان لخمسة عشر يوماً . وقد تزيا بزي مدني فقير ، فاعتمّ ، ولبس رداءً من نسيج اسود عريض الكمين ، وتمنطق بنطاق رديء ، وانتعل زوجاً من الصنادل العتيقة ، واخذ معه عباءة ليتدثر بها أثناء الليل .

كانت القافلة التي انضم إليها ودليله ، تتألف من خمسة عشر جملاً ، وثمانية من البدو ينتسبون الى عشائر متحالفة مع عشيرة الدليل . وكان الدليل قد نفحهم شيئاً من المال ليحموهم من افراد عشائرهم عند الحاجة .

وحين أصبحوا في وادي السرّ الواقع على بعد اربعة فراسخ من صنعاء ، والذي يقوم على جانبيه منحدران جبليان قليلا الارتفاع انتشرت عليها القرى ، ألفوا أنفسهم في منطقة غير معترف فيها بسلطة حكومة صنعاء . وبما انه لم يكن بين المرافقين أحد من أفراد العشائر الثلاث التي كانوا سيجتازون مناطقها في بادىء الامر ، أحسوا بخوف شديد على سلامة آرنو ، وقد كتب يقول :

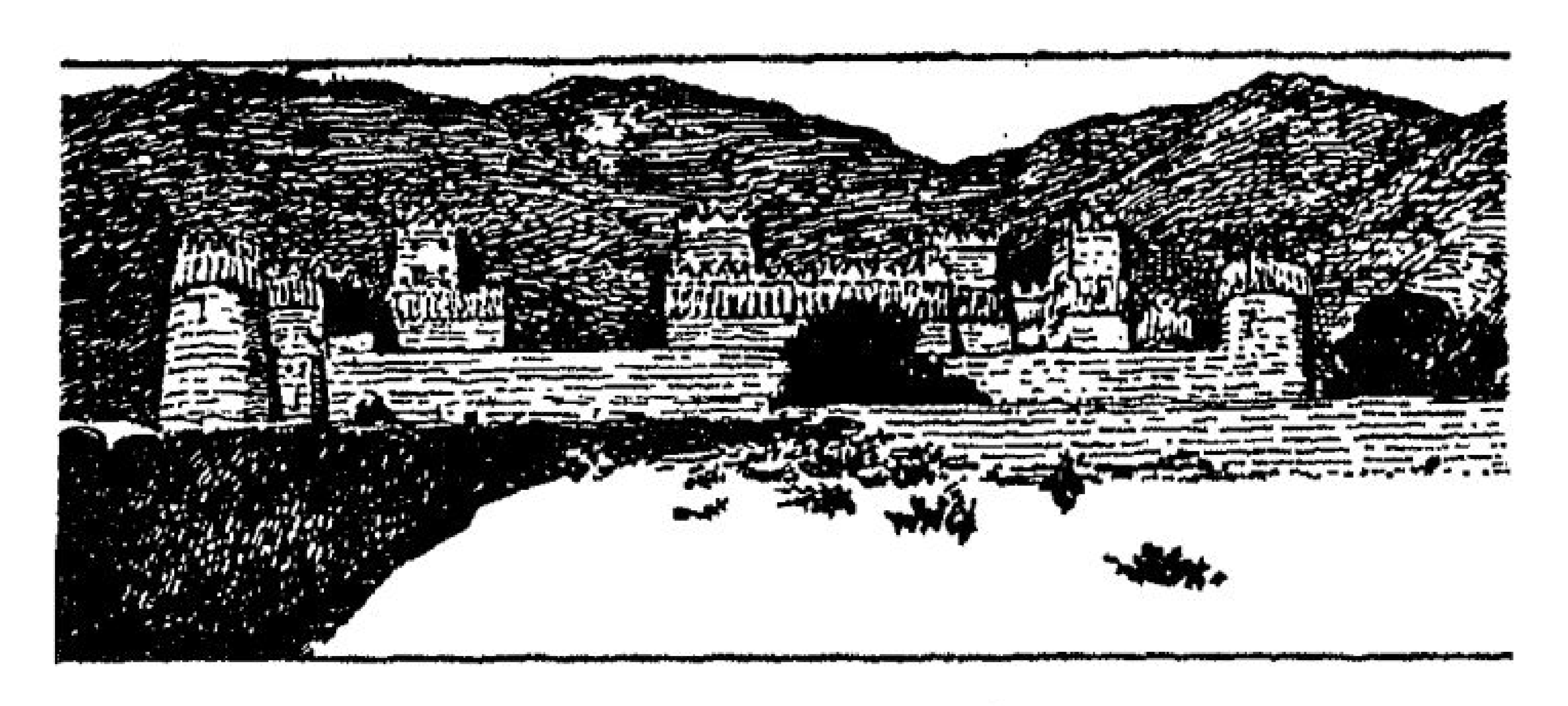
« ولهذا فانهم أركبوني جملاً أقعدوني عليه متربعاً ، ولفوني بدثار بلدي من الصوف ، حجبني كلياً باستثناء شيء من حلقي ، خشية أن يلفت بياض بشرتي أنظار من قد يلتقوننا . وعلى الرغم من انه كان من المؤلم الاحتفاظ على هذا الوضع طوال الرحلة ، كان لا بد لي من التجلد ، لأنه لم يبق لديّ من شك في الخطر الذي يتهددني وانا أسمع الجمّالين يظهرون قلقهم في كل لحظة ، ويرتعشون ويضرعون الى النبي محمد وجميع أولياء الاسلام أن يعينوهم ويحموهم . وقد ازدادت مخاوفهم حين علموا أن عشيرة بني نوق أغارت منذ يومين سلفا ، على حين غفلة ، على عشيرة بني شداد في المنطقة المجاورة للبقعة التي كنا نجتازها ، وذبحوا اثني عشر شخصاً منها .

« كان أفراد جميع العشائر البدوية غير المتنازعـــة ـ كلما التقونا ـ يتبادلون والبدو المرافقين لي التحيات والتمنيات طوال عشر دقائق ، ثم يسأل بعضهم بعضاً عن اخبار المناطق التي يأتون منها ، وأخيراً يسألون مرافقي « من هـذا المخلوق الذي يركـب الجمل ؟ » فيجيبونهم : « انه رفيق لنا مريض » . لذا فانني لم اكن اقدر أن أدوّن ملاحظاتي في آخر مرحلة إلا بابتعادي عن القافلة منتحلاً بعض الأعذار » .

لقد ذكر آرنو بعناية كليـة اتجاهات الأودية الثلاثة التي سلكوهـــا ومميزاتها ، وذكر بايجاز الطريقة التي كان يتبعها أدلاؤه في إعداد الخبز لكل وقعة ، بلفهم العجين حول حصى محماة في النار .

وفي فجر الخامس عشر من شهر تموز (يوليه) رأى سهـــلاً ينبسط أمامهم ، وكانت أطلال مدينة الحريبة التي وعده دليله بايصاله إليها واقعة هناك . ولكنه علم بعد المحطة ، انهم قضوا ذلك النهار في الاستراحـة على بُعد مسيرة ساعتين من الأطلال ، لأنه لما استأنفت القافلة السير ، اخذ « يُشاهد عن بُعد خرائب تشغل منطقة واسعة » . ولكنه لم يفكر في الابتعاد وحده عن القافلة . وحين رأى دليله في المحطة التالية لامه لوماً عنيفاً ، وحصل منه على وعد بأن يريه الخرائب عند العودة .

كانوا قد أصبحوا على مسيرة يوم واحد من عاصمة سبأ . وبعـد أن ساروا أربع ساعات ، بلغوا سفح جبـــل يمتد أمامه سهل مأرب الذي يجتازه مسيل وادي أذنة ، وقد ظهر فيه الماء في بعض الأماكن . وبما ان مخيم عشيرة دليله لم يكن يبعد عن تلك النقطة الا فرسخين ، فقد توجهو إليه ، فاستقبل اولئك البدو آرنو استقبالاً حاراً وأحسنوا ضيافته ، وقد كتب يقول : « سرعان ما تجمع قرب الخيمة التي دخلتها جميع الذكور في المخيم ، ليتأملوا المخلوق الشديـد الغرابة الذي جاءهم ، في حين ان نساءهم وبناتهم كن ينظرن إليّ من بعد .. »



قصر امير نجران نقلاً عن صورة فوتوغرافية لبعثة ريكمانز – فيلبي

« وأخذ كل واحد يطرح عليّ الاسئلة ، لعدم إدراكه الباعث الذي أهاب بي الى القيام برحلة كهذه . ثم أخذ بعضهم يقول لبعض ، انه ما من أحد إلا الله يعلم من هو هذا المخلوق وما هي نواياه . فقال احدهم : « انظروا ما ألطف كل شيء فيه ، حتى صندليه اللذين ينتعلهما ! »وأضاف آخر يقول معجباً : « انه رجل أرق من أن يتعرض لمشاق الصحراء ، انما خلق لمجرد التنقل من أريكته الى المسجد ، مرتدياً رداءه الابيض .. ألا يكون المهدي ؟ » فيجيبه آخر قائلا : « يظهر في الحقيقة انه طير من طيور الله ، طير من الجنة ! »

« وكان المتقـــدمون في السن يتفحصونني بمختلف الطرق والصور ، ليكشفوا سري ويعرفوا ما اذا كنت قادراً على اكتشاف الكنوز المخفية في الأرض . وكنت أجيب بأحسن ما أستطيع ، محاولاً تجنب كل جواب يمكن أن يعرّضني للخطر . وحين كانوا يريدون ان يعرفوا بلادي وقومي ، كنت أكتفي بالقول انني من الغرب حيث تقوم الشعوب التي يعرفونها « بالمغربيين » .

« وازداد فضول هؤلاء البدو لما أجبت على اسئلتهم المتكررة ، عما

اذا كان لي أولاد في وطني أو في مكان آخر ، بأنني لم اتزوج في حياتي . عندئذ أخذوا ينظرون إليّ كمخلوق خارق للعادة ، وكائن كامل ، لانهم لا يعرفون في خيامهم ، وفي صحرائهم ، أي رذيلة من الرذائـــل التي ينصرف إليها سكان المدن ، حتى سكان أصغر القرى » .

في اليوم التالي توجه الدليل الى حاكم مأرب وسأله الموافقة على دخول آرنو المدينــة . فلم يتعنت في السماح له بالدخول ، إما بدافع الرغبـة الملحة في رؤية مخلوق خارق للعـــادة ، أو رغبة في تلقي الهدايا الصغيرة العادية منه .

ولكنه كان من المعروف ان اجتياز ذلك السهل الذي ترتاده عـــدة عشائر لا يخلو من الخطر . لذا فقد اضطر آرنو الى التعهد بدفع اجور اربعة رجال ينتمون الى عشائر مختلفة ، بالاضافة الى الدليل ، ليؤمنوا وصوله سالماً الى مأرب . فاتجهوا في اليوم التـالي نحو سد مأرب الذي بني فيما مضى في عرض السـ[illegible] ، والذي كان أحد الاوروبيين سيتمكن اخيراً من تأمل خرائبه .

وكتب آرنو يقول : « عدنا نحو الغرب لنسلك الطريق في مسيـل أذ[illegible]نة ، والاستـدارة شرقاً ، بين جبلي بلق القليلي الارتفـاع اللذين كانا يشكلان فيما سلف حوض السد ، ولما وصلنا الى السد في ساعـة اشتداد أوار الظهيرة ، تملكتني نشوة عند مشاهدة الابنية القديمة الواقعة في أرض لم تطأها قدما اوروبي من قبلي ، او وطئتها قدما اوروبي منذ سنة خلت ، لكنه لم يعد منها .

« أخذت أتسلق ضفة المسيل اليمنى التي سدتها الاشجار واغصان الاشجار اليابسـة . وحين اصبحت بين بناءين قديمين محفوظين جيداً ، اكتشفت في بادىء الامر كتابةً أثرية منقوشة في الصخر ، نسختهـا على الفور ، ثم أخذت أطوف في جميع الارجاء لأنسخ جميـع الكتابات التي تقع عليها عيناي .

« وبينما كنت منهمكاً في هـذا العمل ، كان رفاقي قد انسحبوا الى مكان غير بعيد وجلسوا يتفيأون الاشجار ، ولما فرغت من عملي هناك ، ذهبت لأخبرهم انني عازم على زيارة الطرف الآخر من السد . وبالنظر الى أن أحدهم المدعو صالح عصفور كان قد ابتعد عنهم لفترة قصيرة ، وبما انهم كانوا يخشون تعرضي للخطر اذا ما ابتعدت عنهم ، أرادوا ممانعتي . فقلت لهم انني سأصرخ اذا ما تعرضت لهجوم ما ليخفّوا الى نجدتي ظناً مني بأن الطرف الآخر ليس بعيداً . ولكنني أدركت فيما بعد ، انني لو تعرضت لخطر ما لما بلغهم صوت صراخي لبُعد المسافة .

« وعلى الرغم من اعتراضاتهم وتحذيراتهم ، فقد ابتعدت عنهم واخذت أقيس المسافة بين الجبلين . وقد بدأتُ من حيث كنت موجوداً تحاشياً لاضاعة الوقت ، وحين بلغت الضفة الثانية ، أخذت أحسب سماكة السد حسب ظواهر الآثار القديمة للأتربة المنقولة . وأخيراً سرت على قمة بقية من بقايا السد موغلة في سفح الجبل ، وقد وجدت عند نهاية هذه البقية من السد أبنية محفوظة جيداً .

« ولما نزلت من أعلى أحد هذه الابنية الذي بلغته باتباعي قمة السد ، كان أول ما استرعى نظري حجر مربع الشكل تقريباً ، يبلغ ارتفاعه قدمين ، ظهرت عليه رسوم منحوتة من غير كتابـة ، فحاولت على الفور أن أرسم عنها صورة طبق الأصل بحيث أتمكن من اعطاء فكرة عنها ، ثم أخذت أنسخ جميع الكتابات الأثرية التي وقع عليها نظري ، وأقيس بعض الأماكن .

« ولم اكن قد فرغت من نسخ الكتابات الأثرية كلها عندما رأيت صالح عصفور مقبـلاً نحوي . رأيته واقفاً في أعلى أحد الأبنيـة ، مصوّباً بندقيته نحوي وهو يشتمني شتماً نابياً ، ويهددني باطلاق النار عليّ ، لانني عرّضت نفسي للخطر . فأجبته : « حسناً حسناً » ، ومضيت

في نسخ ما تبقى عليّ من الكتـــابات الأثرية ، الامر الذي استشاطه غيظاً ، فصرخ قائلاً : « سأطلق النار اذا لم تعد على الفور » ، فلم أرفع نحوه نظري ، بـل أجبته قائلاً : « طيب ، طيب ، حسناً ، حسناً ، لقد انتهيت ، لقد انتهيت !... » وأخيراً تمكنت من نسخ كل ما كان منقوشاً من الكتابات الأثرية .

« ورأيت نفسي مضطراً الى ترك كل شيء للحاق بصالح عصفور ، والعودة الى بقية رفاقنا . ولما مررت للمرة الثانية بأطلال السد القـــديم تزودت بقطعة من التراب الذي استعمل في بنائه . ولكنني عندما وصلت الى حيث كان الرفاق جالسين في ظل الاشجار لم أعد أرى بوضوح ، واخذ رأسي يدور كأنني سكران . واخذ البدو يتلهون بسؤالي عن جهـــة الشرق ، فأدلهم على جهة الغرب . وأظن ان ليس في ذلك ما يدهش ، حين يكون المرء قد قضى ساعات معرّضاً لأشعة تلك الشمس المحرقة . وقد كنت محظوظـــاً لنجاتي من ضربة الشمس التي كان من المحتمـــل أن أصاب بها » .

بعد ان توقفوا لتنـــاول طعام العشاء ، لم يبقَ امامهم الا مسيرة ساعة لبلوغ قرية مأرب الحديثة ، وقد كتب يقول : « كان السكان جميعاً ينتظروننا خارج الأسوار ، حتى ان النساء كن قد صعدن الى سطوح المنازل ليشهدن وصول رجل خارق للعادة الى مدينتهن . عندئـذ تقدمنا احد رفاقنـــا جرياً وكان من عشيرة عبيدة ، وهو يهتف بأهالي مأرب : « لقد جئنـاكم بالمهدي » ، فتصاعد الهتاف من افواه الجميع ، وأخذ كل واحد يقترب مني ، مادّاً اليّ يده للسلام عليّ كأنني من الأشراف ، ولكنني احترزت من قبول ذلك اللقب خشية أن يعرّضني للخطر فيما بعد ، فأسرعت الى مصارحتهم بأنني لست من الاشراف ، ويبدو ان اول زائر اوروبي قدم مأرب لم يتخذ هذا الاحتياط ، الأمر

الذي أدى الى هلاكه ، ان لم يكن فيها ، فعند عودته من حضرموت ».

وقد قيل لآرنو فيما بعد ، ان رجلاً أبيض البشرة جاء مأرب منذ اثنتي عشرة سنة خلت ، وكان متوسط القامة ، قوي البنية ، ادّعى انه شريف مغربي ، جاء مُن حضرموت ونسخ كل الكتابات الأثرية التي رآها ، ولكنه أخذ يبكي ذات يوم ، عند تلقيه رسالة سرية ، لا يعرف كيف وصلته ، فسأله مضيفه القاضي الذي تولته الدهشة ، عن سبب بكائه ، فأخبره أنه تلقى نعي أخيه ، وأن عليه ان يعود الى بلده دون ما ابطاء ، وطلب الى القاضي ان يذهب في اليوم التالي الى الركن المربّع الموجود في المعبد المتهدم ، ليأخذ ما يجده على الحجرة المقلوبة التي نقشت عليها كتابة اثرية . واختفى الغريب في الليل ، من غير دليل ، متجهاً نحو حضرموت التي قدم منها ؛ كما دلت على ذلك آثار قدميه . ووجد القاضي على الحجرة التي عينها له احدى عشرة قطعة من النقد الذهبي باعها بثمن باهظ في صنعاء .

واذا كانت هـــذه القصة قد اتخذت عبر رواية سكان مأرب ، نسق قصص ألف ليلة وليلة ، فلا يحول ذلك دون استنادها الى واقعة صحيحة . وقد اضاف آرنو يقول : « لدى عودتي من مأرب ، وخـــلال إقامتي الطويلة في عدن ، سنحت لي فرصة التحدث مراراً الى م دي ورِيده الذي عاد من حضرموت ، فروى لي انه سمع الناس يتحدثون في وادي دَوْعَن عن رجل أبيض ، صوّروه له بالشكل الذي صوّر له في مأرب ، يطوف منطقة حضرموت كلها ، في الوقت الذي أشرت إليه ، ولكنه لم يخرج من تلك المنطقة ، لأن سكانها أقدموا على قتله طمعاً فيما اعتقدوا انه يحمل من مال » .

وقد استقبل الحاكم آرنو استقبالاً حسناً ، وهنأ هذا نفسه على الحماية التي لم ينفك يبسطهـــا عليه . ولكنه لقي في الايام الثلاثة التي قضاها

هناك ، من قلة رصانة الاهلين والبدو ، وفضولهم الخارق ، وإقبالهم الشديد لرؤيته ، ما لم يلقه من الازعاج خلال السنوات الاحدى عشرة التي قضاها في شبه الجزيرة العربية .

بدأ العذاب والازعاج في قصر الشريف — حالما فرغ من اكرامه بفرك ساقيه حتى نصف الفخذين بالزبدة الطازجة ، حسب العادة المتبعة ، وتقديم القهوة — بالقاء الاسئلة : « من اين انت ؟ الى اين تذهب ؟ ماذا تفعل ؟ ولماذا ؟ ولماذا ؟ لماذا تنسخ الكتابات الاثرية ؟ ماذا تريد ان تفعل بها ؟ ألك مصلحة في ذلك ؟ أتحسن قراءتها ؟ من أرسلك ؟ مع من جئت ؟ أتبحث عن الكنوز الدفينة في الارض ؟ ألا تعرف ان تكتشفها ؟ أتحاول انتزاع احجارنا كلهـــا لارسالها الى بلدك ؟ لماذا لا تصلي ؟ »

كان آرنو يصلي على طريقته الخاصة ، الا انهم ألحوا عليه في ان يحذو حذو المسلمين في صلاتهم ، وإلا فسيعلنون انه كافر . ولكنه لم يكن يجهل تقاليد الاسلام فحسب ، بل كان حريصاً على ألا يتلفظ بأية كلمة تتضمن شيئاً من معاني الدين الاسلامي ، وألا يقوم بأية حركة قد تعني بالنسبة الى نصراني مثله ، تنكراً لدينه ، وقد جعله ذلك في مأزق حرج .

وأرادوا اصطحابه الى المسجد فتظاهر بأنه نائم ، وسألوه عن الشعائر الدينية التي يمارسها ، فتظاهر بالغضب لأنهم شكّوا في معرفته لواجباته . وطُلب إليه ان يتلو شهادة الاسلام فقال : « لا اله الا الله » ، ولكنه أبدل جملة « محمد رسول الله » بكلمات فرنسية تنتهي بأصوات شبيهـة بمخارج اصوات هذه الكلمات .

كان الجواب على كل سؤال من اسئلتهم لا يخلو من الخطر ، فاذا ظنوا انه تركي قضي عليه ، واذا اعتقدوا انه انكليزي تعرض للخطر ، فقد سمعهم يروون له حوادث انتقام عنيفة جرت في عدن ، واذا عرفوا

انه فرنسي فلن يكون مصيره أفضل ، لأنهم كانوا سيعتبرونه جاسوساً لمحمد علي . لذا قال لهم انه مغربي . ولكن تبقى عليه ان يعطيهم جواباً على سؤالهم المختصين بالكنوز الدفينة ، والكتابات الأثرية . وفيما يلي الشرح الذي أدلى به في محاولته افهام اولئك القوم ، دوافعه العلمية التي عجزوا عن ادراكها :

« قلت لهم انه لا هدف لي من التجوال في العالم سوى تأمل عجائب الكون التي أبدعها الخالق الأعظم ، وزيارة الأماكن التي اشتهرت عند القدماء ، وذُكِرت في الكتب المقدسة ، فقد منّت عليّ العناية الإلهية بكل ما احتاجه في هذا العالم ، ولن اسعى الى تكديس الاموال والكنوز وذكرت لهم انني اقوم بنسخ الكتابات الأثرية لتشهد لدى معارفي على صحة زيارتي لهذه الاماكن ، الأمر الذي اقتنع به الشريف عبد الرحمن ، قناعة تامة . وأضفت قائلاً انني لا أبغي من وراء ذلك أي نفع ، وانني لا املك موهبة اكتشاف الكنوز ، وانني اذا ما عثرت على كنز اتفاقاً فسأقدمه لهم ، لأنه لا قبل لي بحرمانهم منه ، وذكرت لهم ان في بلادنا كثيراً من الحجارة ، فلا حاجة لي ان انقل إليها احجاراً من مأرب ، وان ما من احد أرسلني ، وان القدر هو وحده الذي حملني الى بلادهم ، دون أي حارس ، أو حام ، سوى الدليل الذي تعهد بأن يرشدني » .

ولكن الاجهاد العصبي الذي تستلزمه الاجابة على مثل تلك الاسئلة كان مستمراً ، لانه عوضاً عن ان يكون في مأمن في منزله ، كان على العكس يجد ازعاجاً طوال النهار من جماعات من عشيرة عبيدة يقول عنها :

« كانت تزدحم حوالي ، وتعذبني بطرق شتى . فاذا خرج من عندي عشرة اشخاص بعد إقامة طويلة ، دخل خمسة عشر غيرهم بالقوة ، والجميع

مسلحون ببنـــادقهم ، وكان هؤلاء البدو يزحمونني الى درجة لا يبقى لي معها مكان للتحرك . وعلاوة على الأوضاع المزعجة المختلفة التي كنت اضطر الى اتخاذها في جلستي لأفسح لهم في المكان ، كان يتوجب عليّ أن أجيب على الاسئلة المتكررة لكل منهم ، وكانوا يتساءلون بعد أن أكون قد أنهكت نفسي في الاجابة : « ماذا قال ؟ » وعندئذ كان يبتدرني بالكلام سائل جديد ، فيلقي عليّ ذات الاسئلة التي ألقاها عليّ رفيقه من قبله ... وغالباً مـــا كنت — وقد سئمت ذلك الازعـــاج — انسحب قليلاً وأتظاهر بالنوم ، ولكنهم سرعان ما كانوا يقبلون عليّ أفواجاً ، ويحملونني بمختلف الطرق على الاستماع إليهم ، فالبعض يقرصني ، والبعض يسحبني من قدمي ، والبعض الآخر يستلّ خنجراً يمرّه لامعاً تحت لحيتي مهدداً إياي ، وآخر يصوّب اليّ بندقيته قائلاً : « لنرَ ما اذا كان في استطاعة بندقيتي ان تبتلعه . ها ! انه ليس في مثل الضخامة التي صُوِّر لنا بها ، مع انه يقال لنا ان الاتراك ضخام البنية ، ولكن ، لا ريب في انه ليس تركياً » . فيقول فوج آخر : « في الحقيقـة ، لو كان تركياً ، لمزقناه إرباً إرباً » صحيح اني لم اكن أخشى أي شيء ، وانا في حماية الشريف ، ولكن مهزلة كتلك المهزلة لم تكن لتسليني ، فكنت أثور ، وأشتمهم ، وألومهم على سوء تصرفهم نحو رجل غريب حـــل بين ظهرانيهم ، على انهم لم يكونوا يشعرون بالخجل من معاملتهم إياي تلك المعاملة المغايرة لتقاليد الضيافة العربية » .

الا انه توصل منذ اليوم الاول الى ان يحمل ابن الشريف ، وأحد الفتيان الذي كان قد زار تهامة واسترعى انتباهه في الليلة السابقة بذكائه ، على مرافقته الى خرائب المدينة القديمة . فتبعه جمهور من البدو ، ولكن الامير الشاب أنقـذه منهم بإيهامه إياهم انه ساحر . ولم تكن الخرائب سوى « اكوام من التراب » وكان هدفه الاول ان يزور المعبد . وفي اليوم التالي نجح في الذهاب لزيارته قبل أن يصل المدينـة أفراد عشيرة

عنيدة . وقد كتب يروي زيارته بقوله :

« اجتزنا المسيل الناضب الذي يمر تحت خرائب المدينة القديمة . وعلى مسافة قصيرة من المسيل ، والى شرقي المدينة ، رأيت مكاناً فسيحاً ، معبّداً جيداً ، صلب التربة ، قيل لي انه ميدان إله الحرب عند السبئيين ، وكانت آثار البناء ما تزال بادية فيه ، من غير ان يعثر المرء على أية حجرة من أيّ حجم .

« وبعد مسيرة نصف ساعة مجهدة ، وصلنا الى الركائز التي لم أجد عليها سوى كتابتين أثريتين ، احداهما عافية لم استطع نسخها . واتجهنا من الاعمدة الى حرم بلقيس الواقع على مسيرة ربع ساعة الى شمالي الاعمدة ، حيث وجدت ثلاث كتابات اضطررت الى عدم نسخها ، لكونها مكسوة بطبقة من الرمال أولاً ، ولحث مرافقي إياي على الاسراع بالعودة . لذلك لم أتمكن من زيارة التلة غير البعيدة من الحرم ، والكائنة من عظام الضحايا الذين كان السبئيون يذبحونهم في الأزمنة القديمة ، على حد قول أهل مأرب » .

رغم هذا العذاب ، لم يتراخ عزم آرنو العنيد على انجاز مهمته . فقد تمكن في ذلك النهار ايضاً من نسخ بعض الكتابات الأثرية ، وكتب يقول : « تعذر عليّ في الليل السابق نسخ عدة كتابات رأيتها على جدران المنازل في مأرب . الا انني تمكنت من نسخ اثنتين منها ، في غمرة من هرج السكان ومرجهم ، وهم يقبلون جرياً من انحاء القرية ليشهدوا ما أقوم به . وقد ظهر النساء والاولاد بدورهم على الاسطحة وهم يهتفون : « اطردوا هذا الساحر ، الكافر ، الذي جاء يحمل المصائب الى بلدنا ، لا شك في انه سيسبب لنا بأساليبه هذه ما لا نتصوره من النكبات ! » فحال كثيرون منهم عندئذ دون نسخي الكتابات الموجودة على جدران منازلهم ، وهرع آخرون يشكونني الى الشريف عبد الرحمن ، ويطلبون

إليه ان يمنعني من نسخ الكتابات . فأجابهم انهم يبرهنون عن قلة فطنة اذ يظنون ان ما اقوم به يجلب السوء عليهم ، وأضاف يقول : « ما دمنا قد قبلناه في بلدنا ، فدعوه يفعل ما يحلو له ، وأذا ما حل بنا سوء ، فلن يكون ذلك الا بإذن من الله » .

وكانت تجربة قاسية تنتظره ، فقد أكره على الذهاب الى احد المنازل لانقاذ احدى العجائز من شرّ سببته لها الارواح على زعمهم . فانهالت عليه اسئلة الرجال الواخزة : « وأخذت أربعُ أو خمسُ نسوة يتفحصنني كأنني دب ابيض ، وازدحمن حولي وأرهقنني بأسئلة لم ترقني ، وأخذن يسخرن بي مقهقهات ، الامر الذي أثار ثائرتي » .

وأخيراً ، بعد ان قام بمهمته ، تنفس الصعداء ، وعاد الى صنعاء برفقة قافلة تعهد صاحبها بايصاله ولكن حاميه لم يكد يبتعد ، حتى طفق مرافقوه يلحقون به شتى الاهانات ليسخروا منه . فيصوّب إليه البعض بنادقهم ، ويهز آخرون خناجرهم تحت لحيته ، وهو اعزل لا سلاح لديه يدافع به عن نفسه الا اللوم الذي يحاول استثارة نخوتهم به .

ولكن ذلك لم يُنسِ آرنو آثار « الخريبة » التي أراد ان يشاهدها عند مروره بها ، مهما كلفه الامر . ولما رأى انهم يقتربون منها ، حاول اقناع رئيس القافلة باقتياده اليها ، بوعده إياه بمبلغ اضافي يدفعه له عند وصولهم الى صنعاء ، فأفلح في ذلك . وكتب يقول :

« سرنا في اليوم التالي باكراً . فأسرع صاحب القافلة بوضعي في المقدمة . وقد لقيت شديد العناء في اللحاق به . ولم نلبث أن وصلنا الى اطلال الخريبة عند بزوغ الفجر . فرأيت على الفور كتابات أثرية ، وعلى الرغم من كبر أحرفها وجدت صعوبة في تمييزها ونسخها ، والكنني بذلت قصارى جهدي لأنسخها نسخاً صحيحاً ، ثم لم يلبث النور ان انتشر ، فأسرعت بنسخ كل ما وقع عليه نظري من كتابات . وقد لحقت بنا



القافلة حين لم يبق لديّ شيء أنسخه . عندئذ فتح دليلي باب بيت يسكنه احد الرعاة ، بُني من بقايا أطلال الخربة . ولم أكد ادخله حتى رأيت كتابات عديدة على احجار فيه وضع بعضها فوق بعض ، ورأيت فناءً تُزرب فيه المواشي ، لمحت في وسطه مقعداً حجرياً طويلاً ، على جانبيه كتابات ، توسطه شقّ شطره الى شطرين ، لكن الكتابات المنقوشة فيه باحرف صغيرة لم تكن بمعرة ، فأخذت أنسخها ، ولكن بالنظر الى ان

القافلة كانت قد سبقتنا بما يقارب مسيرة ساعة ، فقد استعجلني دليلي ، ولم يعد يرتضي الانتظار .

« وقد وجب عليّ ، رغماً عني ، ان ابزح ذلك المكان الذي كان شديد الخطر علينا بعد ابتعاد القافلة ، قبل ان انجز عملي . وأرغمني دليلي الذي كان ضخم البنيــة ، مفتول العضلات ، على الجري حوالي الساعتين للحاق بالقافلة التي أدركناها في آخر سهل الخريبة ... وصلت لاهثاً ، منهوك القوى ، ولحسن الطالع بثّت بي فكرةُ الخطر الذي قـــد أتعرض له اذا ما قصّرت عن دليلي ، العزم على السير وعدم التأخر عنه ، وهو يستحث خطاي تارةً ، ويجري طوراً » .

*

لقد تمكن آرنو بفضل ذلك الجهد الباسل ، من مشاهدة موقع عاصمة سبأ الثانية . فلفظة الخريبـــة انما أُطلقت على ذلك الموقع لوجود أطلال فيه ، ولكن اسم الموقع الحقيقي كان صِرْوَاح كما تبينه ادوارد غلازر فيما بعد . فان هذا الرحالة الذي كانت تحميه الحكومة التركية الباسطة سلطتها على اليمن آنئذ ، قد عثر خلال عام ١٨٨٤ على الكتـابات الأثرية التي قام آرنو بنسخها ، وساعد على التعرف الى الكتابة التي لم يتمكن من نسخها ، ولم تترجم الا في سنة ١٩٢٧ . وما يزال المقعـد الحجري الشهير موجوداً حتى يومنا هذا في منزل الرعاة . وقد رآه هناك وصوّره م. ا. فخري ، ثم الاستاذ غوكنز من جامعـة لوفان الذي أوفدته الى اليمن منظمة الامم المتحدة سنة ١٩٥٦ .

لم تكن الكتابة الاثرية الموجودة بين أسراب الدجاج التي تنقـــد الحب ، سوى احدى الكتابات التاريخية السبئية الأشد أهمية ، وهي قصة الفتوحات العسكرية والديبلوماسية التي قام بها أبرز زعيم سياسي في سبأ ، توصل في يوم من الايام ، قبل التاريخ الميلادي بعدة عصور ، الى ان

يوحّد العشائر العربية الجنوبية المختلفة تحت سلطته ، مستعيناً بكبار آلهة سبأ .

بقي على آرنو ان يجابه صعوبة اخرى نجمت عن الطمع الشديد الذي بدر من شيخ آخر قرية قبل صنعاء ، عند استيفاء الرسوم الجمركية . وقد سار آرنو مع ابن حاكم مأرب الذي رافق القافلة ، واجتاز نقطة الجمرك دون ان يلفت النظر . ولكن المسؤول عن القافلة الذي كان يرافق الأحمال لم يفلح فيما أفلح فيه آرنو . وقد علم هذا الاخير بما جرى ، بعد وصوله صنعاء بيومين ، لانه لم ينتظر القافلة في المحطة ، فكتب يقول : « حين لم أرَ دليلي دردش يصل الى البلدة ، ظننت ان ثمار كل المخاطر التي اقتحمتُها قد ضاعت سدى ، لانني كنت ائتمنته على نسخ الكتابات الاثرية ، والملاحظات التي كنت قد دوّنتها ، وأحمد الله على ان ظني لم يكن في مكانه » .

« وصل دردش في اليوم التالي المصادف للسابع والعشرين من شهر تموز (يوليه) حاملاً كل أوراقي مرتبة ترتيباً حسناً . فاستقبلته احسن استقبال ، وأعددت له غداءً شهياً . وقد روى لي المسكين ما قاساه من عناء بسببي عند مروره بالشَّرَفة .

« أكد لي انه لما وصل الى المكان ، رأى الشيخ مغتاظاً حانقاً لأن بعض من في القافلة قد أطلعه على حقيقة أمري ، وقد طلب إليه الشيخ ملحّاً ان يعيدني الى الشَّرَفة ، فوعده بذلك ان هو أدركني ضمن حدود منطقته . وأكد لي دردش ايضاً بأن الشيخ أراد بإصرار ان يفتش امتعتي ، ليتقاضى عنها رسوماً جمركية ، فسمح له بذلك ، بعد ان أخفى جميع اوراقي في كم ردائه الذي اتسع لها جميعاً ، وأراه ما تبقى من امتعتي والمواد الغذائية الخاصة بي . وكان بين مؤني علبة صغيرة من الصفيح تحتوي بعض الادوية ، وعلبة صغيرة فيها لُقَم خبز لصنع الاقراص الدوائية . وعندما

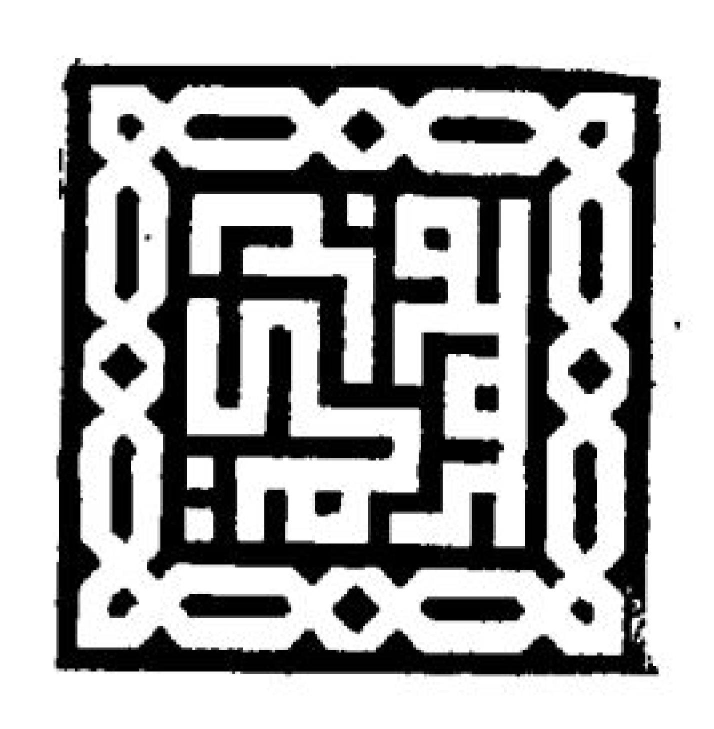
رأى الشيخ تلك اللقم قال : « انظروا كيف حوّل هذا الساحر الكافر القطع الذهبيـة الى قطع من الخبز ؟ أين نسخ الكتـابات الاثرية التي قام بنسخها في مأرب ؟ علينا ان نحرقهـا على الفور اتقاءً لشر هـــذا الكافر » .

أما دردش الذي كان يتوقع الحصول على هدية أقدمهـا إليه اذا ما أنقذ ثمرة رحلتي ، فقد أجاب انه لا يعرف عن الكتابات شيئاً ، وانني قد اخذت كل مخطوطاتي معي . عندئـذ ألقى هو والشيخ سلاحيهما في وسط المجلس علامة لتعهدهما بعدم اختتام الجلسة قبل الانتهاء من المناقشة . ثم أراد الشيخ اخذ عباءة لي ، ولكن دردش مانعه بقوله انه لا يعرفني ، وانه يطالبني بدين قدره قرشان غسويان ، وانه محتجز تلك العباءة لقاء الدين المذكور . عندئذ نشب نزاع شديد ، فاضطر دردش الى المكوث في ذلك المكان يومـاً ونصف اليوم . وقد أخبرني انه اجتمع في ذلك المكان ما ينيف على المائتي شخص انحاز بعضهم لي والبعـض الآخر الى الشيخ . واخيراً قدّم دردش بعض الهدايا الصغيرة الى وسطاء ، فتدخلوا وحسموا النزاع . الا ان دردش اضطر الى ايداع بندقيته كأمانة الى حين عودته ثانية » .

هكذا أنقـذ نتاجُ رحلته بفضل أمانة دليله واخلاصه ، ولولا ذلك لذهبت أتعابه ادراج الرياح .

اننا نعرف كيف عاد آرنو وحـــده الى تهامة ، خاوي الوفاض ، مصاباً برمد خطير الى درجة انه حين تمكن من بلوغ جدة ومقابلة القنصل فريسنل ، ظلت أسباب الرجاء بشفائه مقطوعة طوال سنة كاملة . ونعرف ايضاً انه شفي من مرضه واصطحب فايسيير معه في رحلة ثانية لم تكن على شيء من الاهمية بالنسبة الى الرحلة الاولى ، بسبب الاحداث الطارئة ، رغم ان الحكومة الفرنسية قامت بتمويلها بطلبٍ من جمعية العلوم .

لقد استنتج جومار ، قبل ذلك بعدة سنوات ، استناداً الى اقوال الكتاب الغربيين والمؤلفين العرب ، في كتاب تاريخي وضعه عن البلاد العربية ، قائلا : « يبدو لي ان بعض العقول قد انكرت مدى وجود المدنية القديمة في الجزيرة العربية ، وازدهارها في الأزمنة الغابرة » وقد أورد آرنو البرهان على هذا الاستنتاج ، وهكذا حصلت اوروبة بفضله ، على معلومات عن أقدم عاصمتين لسبأ ، وعن سد مأرب ، وأصبح تحت تصرفها ست وخمسون نسخة عن كتابات اثرية نشرها فريسنل في عام ١٨٤٥ . فكان منها في هذه المرة ، مادة كافية ، سمحت بحل رموز الكتابة الحميرية على أسس افضل مما فعله الرحالة والعلماء السابقون ، وبذلك نشأ علم الآثار وعلم الكتابات الاثرية الخاصان بجنوبي الجزيرة العربية .





عُمان وحضرموت

في مطلع القرن التاسع عشر ، لم يكن أحد من الرحالة الغربيين قد توغل بعد الى ما وراء الساحـــل في الجنوب الشرقي من جزيرة العرب حيث تقع منطقة عُمان ، ومنذ الرحلة القسرية التي قام بهـا الأب بانز الذي كان ما يزال مجهولاً ، لم يكن احد منهم قد بلغ القسم الداخلي من حضرموت . لم يكن النـاس يعرفون حتى ذلك الحين الا الموانىء والسواحل غير المضيافة من تلك المنطقة التي اشتهرت بكونهـــا مصدراً للطيوب والبخور ، وكانوا يسمعون ان مدناً عظيمة تقوم في أوديتهـا العجيبة .

على انه لم ينقض نصف قرن حتى تم ارتياد هاتين المنطقتين ، ارتاد احداهما الضابط ولستد الذي مر معنا انه كان مرتبطاً بالسفينة بالينوروس ، والاخرى البارون ادولف فون وريد البافاري العاثر الحظ .

اما عمان فقد كان الناس يعرفون « مسقط » ميناءها العظيم وعاصمتها في آن واحد ، المسيطرة على الطريق البحرية من الهند الى الخليج العربي ، التي كانت ولا ريب تمثل منذ زمن بعيد دوراً تجارياً بالغ الاهمية .

كان البرتغاليون قد أنشأوا فيها منشآت طوال قرن كامل . وكانت

القلعتان اللتان قاموا بانشائها ، والكنيسة التي حوّلت الى دار للقضاء ، ما تزال في عام ١٨٠٩ بادية للعيان .

ولكن يبدو ان هذا الفصل من تاريخ الاوروبيين في الجزيرة العربية ، كان مما يرثى له ، استناداً الى ما روته المصادر الاسلامية والمسيحية ، ومن جملتها رسائل الأب غاسباريس اليسوعي البلجيكي .

لما نزل هذا الأب الى البر في مسقط عام ١٥٤٩ ، وصدره يتلظى غيرة على تلك الجالية النصرانية القليلة العدد ، الوحيدة المهملة ، لم يجد بينها أي كاهن . وكانت المدينة مأوى للخارجين على القانون من العرب الذين كان البرتغاليون يقومون بخدمتهم ويأتمرون بأمرهم . وكانوا قد تنكروا لدينهم قبل ذلك بست سنوات ، ليأسهم من النجاة بحياتهم ، وقد عادوا جميعهم الى دينهم إثر وصول الأب غاسباريس ، ولكنه اضطر الى اتخاذ هرمز مركزاً له ، وأخفقت الابحاث لمعرفة ما اذا كان قد عين خلفاً له في مسقط .

وقد سقطت المدينة بكاملها ، بما في ذلك الحصون ، في يدي السلطان ناصر في أواسط القرن السابع عشر . ورسم مشهداً عاماً لها في سنة ١٦٥٥ الهولندي جان ستروبس الذي قادته الاقدار الى مسقط خلال الرحلات التي قام بها الى بلاد الهند والعجم ، وجمع معلومات عن القسم الداخلي من البلاد . ولكن اوروبة كانت مزمعة ان تحصل في عام ١٨١٩ على لوحة مفصلة حية عن الحياة في هذه العاصمة بفضل رجل ايطالي أوصله إليها في عام ١٨٠٩ إخفاقه في مهمة لا تخلو من المغامرة .

★

لقد أسمى هذا الايطالي المدعو ف. موريزي نفسه في مسقط الشيخ منصور ، وكان المثال الكامل للمغامر . غادر رومة فور انتهائه من دراسته في الكلية لتعارض افكاره التحررية وأسرته . فكيف عاش ؟ انه لا

يوضح ذلك بل يذكر انه زار اليونان والقسطنطينية وبلاد الاناضول ، وأقام في المخا حيث اعتبر عميلاً للحكومة الفرنسية ، ثم في مسقط حيث قام بقيادة جيش السلطان ، وفي بغداد وفي كردستان كمدير المدفعية ، وفي آذربيجان حيث ألقاه الروس في السجن . ثم شوهد في طهران حيث ادّعى انه قدم إليها لتسوية « قضية دقيقة » ، ثم في الهند . وفي طريق العودة فاجأته « نكبة مؤسفة آلت به الى احط دركة من دركات البؤس » لكنه عرف كيف يتغلب عليهـا الى درجة انه شوهد في مسقط وهو يشغل مقابل مرتب ضخم ، منصب طبيب السلطان الحاكم السيد سعيد طوال ست سنوات .

ان قصته لتدخلنا مباشرة الى قلب الوضع السياسي في البلاد ، حيث استطاع ان يجلو سر المأساة التي ارتقت بالسيد سعيد الى سدة الحكم .

لقد صوّر الشيخ منصور سيده كأمير رفيع الخلال ، وكان الضابط ولستد مزمعاً ان يرسم له فيما بعد صورة حماسية ، وبعد أن قام بمعالجة عبد أسود علم انه القاتل الذي خلص السيد سعيد من اخيه بدر ، وتحدث الى مطلق القائد والسفير الوهابي ، قام بتحرياته لدى السكان فتوصل الى ازالة الغموض عن تاريخ عُمان السياسي في مطلع القرن التاسع عشر .

ويبرز في هـذا التاريخ التصميم على اخضـاع قراصنة الخليج العربي المعروفين بالقواسمـة ، الذين لم يكتفوا باتخـاذ مركز لهم على ساحلهم المعروف بساحل القراصنة ، بل أقاموا مراكز اخرى على الساحل المقابل ايضاً في جارك ولنجة ولافت ، فتحكموا بمدخل الخليج ، معطلين الحركة التجارية التي تدين لها مسقط بازدهارها . وغدت السيطرة على هـذا الممر المائي الضيق من الأهمية بمكان بالنسبة الى عمان ، حتى ان أولي الامر فيها استولوا على بندر عباس الواقعة على الساحل الفارسي ، وعلى جزر قشم وهرمز ولارك . وهكذا يتضح صراع امراء عمان والقراصنة في هـذه

المنطقة التي تُعدّ مفتاح الخليج العربي .

ان هؤلاء القواسمة الذين أطلق عليهم الشيخ منصور اسم « جيوفاسيوم » يخبرنا ولستد انهم في الاصل مريدو احد الاولياء المحاربين ، وقد تسمّوا باسمه . وكانت عاصمتهم « رأس الخيمة » هي المكان الذي نصب فيه أبناء ملتهم خيامهم في صفوف متراصة حوالي خيمة زعيمهم .

حدد الشيخ منصور خارطة الخليج العربي السياسية كما يأتي : منطقة مصب شط العرب تابعة للبصرة ، ولكن فيهـا ايضاً حلفاء للوهابيين/ ، والقطيف والبحرين تابعتان للوهابيين ، واذا ما علمنا ان القراصنة غـدوا وهابيين في عهد عبد العزيز بن سعود ، أدركنا انه كان لا بد لمسقط من مقاومة القراصنة الوهابيين دفاعاً عن نفسها . وكان للانكليز مصلحة حيوية جداً في الدفاع عن حرية المرور في الخليج العربي الذي كانت تجري عـن طريقه التجارة مع بلاد الهند ، ولذا كانوا قد عينوا فيه لهـذه الغاية ، مقيماً انكليزياً من قبل شركة الهند الشرقية في بوشهر (رأينا ان هـذا المقيم كان في عام ١٨١٩ ج. ف. سادلير) . لذا فان مصلحتهم كانت تقضي بتحالفهم مع زعماء عُمان للتغلب على الاعداء المشتركين . ولهـذا السبب رأينا السيد سعيد يميل الى الجانب الانكليزي .

لقد قُتل زعيم عُمان في حملة له على القواسمة عام ١٨٠٥ ، فنشأت بين ابنائه الثلاثة منافسة شديدة زاد من حدتها اختلاف ميولهم السياسية . فان بدر ، الابن الاكبر الذي تسلم السلطة بادىء ذي بدء ، والذي قهره الوهابيون في عام ١٨٠٦ ، ووقع معهم معاهدة أجبرته على ان يدفع لهم جزية كبيرة ، وأن يستقبل في بيته في مسقط معلماً دينياً من الوهابيين ، وأن يقبل عنده حرساً مؤلفاً من اربعمائة فارس وهابي . وقد برهن بدر عن أمانته للمعاهدة ، وتحديه الجيوش التي كانت مخلصة لأبيه ، وهي مؤلفة من ابناء بلوشستان والهند .

وتمكن الأخوان الآخران من استمالة هذه الجيوش دون ما صعوبة ، واتبعوا سياسة عدائية تجاه الوهابيين . عندئذ حدثت المأساة ، فقد دعي البدر الى مأدبة عند احد أخويه ، وطعنه عبد أسود خرج من الصفوف فجأة ، بخنجر كان يخفيه ، وذلك في قاعة المأدبة ، ولكن السيد سعيد ، شقيق القتيل ، بادر الى اشاعة النبأ في مسقط ، متهماً الوهابيين بقتله ، فهرع سكانها ليثأروا للبدر من الوهابيين ، وأقبل الوهابيون للثأر لحميمهم القتيل من أخيه السيد سعيد . وبذلك لم يتخلص السيد سعيد من شقيقه البدر فحسب ، بـــل تخلص ايضاً من الفرسان الوهابيين الاربعمائة الذين كانوا قـــد فرضوا عليه فرضاً ، والذين هربوا من وجه الشعب الهائج وعادوا الى الدرعية . وقد احتج سعود على ما حدث ، ولكن السيد سعيد أعلن عن استعداده لتنفيذ بنود المعاهدة المعقودة مع الوهابيين باستثناء البند الخاص بالفرسان الاربعمائة . ولم يبق أمامه الا ان يجعل السيطرة الوهابية تزول من تلقاء نفسها .

وذكر الشيخ منصور ان حدود منطقة عمان من الداخل هي البريمي التي نعرفها اليوم للخلاف الناشب حول السيادة عليها ، وكان يملكهـــا الوهابيون ، وعلى الساحل شناص التي يملكهـــا القواسمة . ورسم لمسقط العاصمة لوحة حية ، فقال انها قبل كل شيء مدينة تجارية ، يسكنها ستون ألف نسمة من بينهم اربعـة آلاف بانياني ، وعدد صغير من اليهود ، ولا يقيم فيها أي مسيحي ، ولكن يُرى فيها كثير من الغرباء . فالاغنياء المتزيون بالزي الفارسي يسيرون والبدو جنبـــاً الى جنب ، وفي مآدب السلطان يرى المرء آنية الخزف الصيني الفاخر ، وفي ركن المرفأ حيث مركز الجمرك نشاط كالنشاط الذي نجده في المدن الاوروبية .

وتحكم الشرطة فيها باستبداد . والجيش الذي يبلغ عدد افراده ثلاثة آلاف جندي ، يضم ألفين من المرتزقة الغرباء بالاضافة الى العبيد السود ،

وبضع مئات من العرب . ويرتفع عدد افراد الجيش في حالة الحرب الى خمسة عشر ألفاً أو عشرين الفاً من الجنود المشاة ، وألف من الخيالة يُسهم في تجهيزهم تجار المدينة . ويتضمن الاسطول سفناً تجارية ذات ثلاثة صوارٍ تصلح عند الحاجة لنقل الجنود ، واربعين مركبا تراوح حمولتهـــا بين ثلاثمائة وسبعمائة طن أخذت من الفرنسيين والانكليز اثناء الحرب ، وأخيراً بعض مراكب عربية .

والتجارة فيهـــا رائجة ، فرأس مال بعض التجار ، يقدره الشيخ منصور بمليون دولار في ذلك الوقت ، وللسلطـان بعض الاحتكارات ، فبالاضافة الى المكوس التي عهد بها الى رجل بانياني بطريقة الالتزام ، كان يتمتع بدخل من تصدير الملح من مناجم هرمز وقشم ولارك وبندرعباس، ولا سيا من تجارة العبيد السواحليين التي كانت تدر عليه خمسة وسبعين ألف دولار في السنة .

وليس في مسقط الا بعض البساتين التي تُروى ، لأن موقع المدينـة صخري ، ولكن ليست السهول الخصبة قليلة في داخـل البلاد ، ويُعدّ سهل الرستاق الواقع على بعد مسيرة يوم واحد من العاصمة بستاناً فسيحاً حقيقياً ، ومحصول البلح وافر الى درجة انهم يصدرونه الى بلاد الفرس ، وأخيراً ، يقوم سكان الساحل بصيد اللؤلؤ .

*

أدهش القبطان أوين — الذي أتم فيا بعد ارتياد السواحل الذي قامت به السفينـة بالينوروس ، حين ألقى المرساة في مسقط — انه سمع بعض الناس يتكلمون اللغة الهندية اكثر من العربية . ولا شك في ان ذلك كان في الميناء فقط حيث يسيطر التجار البانيانيون .

الا ان الانكليز ، ولا سيا فيا يختص بعمان ، لم يكونوا يقصرون اهتمامهم على ارتياد السواحل ، بل كانوا يهتمون بمعرفة مدى امتداد نفوذ

عليهم سلطان عُمان الى داخل البلاد . لذا فقد أوسلوا إليهـــا الضابط ولستد في مهمة خاصة في أواخر عام ١٨٣٥ . وقد استقبله السيد سعيد بحفاوة ، وقدم له مساعدته خلال رحلته . ولم يلق شيئاً من الصعوبات الا حين دخل المنطقة التي كان الوهابيون يحتلونها آنئذ .

وقد قام برحلة طويلة عبر المنطقة طوال اربعة اشهر ، يستطيع المرء ان يقدرها من نظرة يلقيهـــا على الخارطة ، وقد تناولت رحلته ثلاث نقاط : الأولى منطقة « عشيرة ابو علي » البدوية التي توجه إليها من من مرفأ صور ، وكان موقف ابنـاء هذه العشيرة من الانكليز غامضـاً جداً ، لأنهم كانوا قد اعتنقوا المذهب الوهابي في سنة ١٨١١ ، وشقوا عصا الطاعة على سلطان مسقط ، فهاجمهم السلطان بمؤازرة الانكليز الذين آلت عليهم الحملة بخسارة شديدة ، ولكنهم قاموا بحملة اخرى في سنة ١٨٢١ كللت بالظفر ، فاعتقلوا الشيخ ومن بقي في قيد الحيـاة ، ونفوهم الى بومباي حيث ظلوا رهن الاعتقال طوال سنتين ، ثم أعيدوا الى منطقتهم منقلين بالهدايا . وقد لاحظ ولستد ان تلك السياسة كان لها أطيب الاثر ، فقد استقبل بحفاوة تامة ، وشهد رقصاً حربياً ، وسباق جمال ، وعرض عليه بدوٌ من افراد عشيرة ابو جنابة كانوا آنئذ في زيارة عشيرة « ابو علي » أن يصطحبوه معهم الى الجنوب الغربي ، ومن هنا منشأ المرحلة الثانية من رحلته .

. ولكن ولستد كان يهدف الى زيارة منطقـة البريمي ، المركز الوهابي الامامي ، ولذا قصد مضارب « ابي علي » وتوجه نحو الشمال الغربي حيث أراد ان يبلغ نزوى ، والوصول منها الى هدفه . فتبع وادي البطحـــاء الكبير الذي ينحدر من الجبل الاخضر الذي يقصده ، حيث أعجب بالواحات الحسنة الري ، وبالمدن الحقيقية المشيدة في تلك المنطقة ، ومنها مدينـة إبراي ذات المنازل المزدانة ببلاط ناتىء من كلس ورخام ، والمزخرفـة أبوابها بالفلز .

وقد التقى ذات يوم في طريقـــه بالضابط وايتلوك الذي أفاد من احدى عطله للمجيء الى عُمان لتعلم العربية ، واتفق معه على ان يترافقا في قسم من الطريق .

وبعد ان بلغ نزوى ، تقدم حتى تخوم الصحراء الكبرى ، ولكنه فقد ما يحمله من مال ، فأرسل يطلب بعض المال من صاحب مصرف يهودي في مسقط ظناً منه ان بينه وبين رؤسائه اتفاقاً ، ولكن اتضح له ان هؤلاء لم يصدروا الى اليهودي أيّ أمر بشأن مـــده بالمال ، ولم يقم زملاؤه بإقراضه . ويذكر القارىء انهم لم يكونوا ينظرون إليه نظرة حسنة لكونه رائداً هزيلًا لا يتقن العربية ، ولكن ذلك لم يحـل دون تفرده بشرف اكتشاف حصن الغراب ونقب الحجر ، على ان السلطان ، كما يبدو ، هو الذي عرض عليه أن يمده بالمال .

في تلك الاثناء ألقي القبض على ولستد في نزوى . فأصيب ومرافقوه بحمى خبيثة ، وبعد ان قضى ثماني واربعين ساعة في الهذيان ، اخذ يتماثل الى الشفـــاء شيئاً فشيئاً ، ولكنه لم يعد يفكر في التوجه مباشرة الى البريمي ، فقفل عائداً نحو الساحل مع وايتلوك الذي كان قد لحق به .

وعلم في « السيب » ان الوهابيين قد دخلوا شمالي عُمان . الا انه لم يتخل عن مشروعه القـاضي ببلوغ البريمي ، فساير الساحـل الذي وجده أشبه بوشاح من مزارع النخيل ، ولما وصل الى السويك ، سلك طريق التلال لبلوغ « مسكن » ثم « المَنْبرا » . ولكنه فوجىء مفاجأة غير سارة برؤية مائتي وهابي يحتلون المَنْبرا . وكان يحمل رسالة توصيـة من سلطان مسقط قدمها الى الشيخ ، ولكن هذه الرسالة كانت خليقة بأن تعرضه للخطر في مثل ذلك الظرف . ومن الطبيعي ان الشيخ رفض ان يرفقه بمن يقوده الى البريمي ، وأمره بمغادرة البلدة على الفور . فلم يجـد بداً من الرجوع على اعقابه مع حرسه ، يصحبه عـداء الشعب الذي لم

يعبر عنه لحسن حظه ، الا برشقه ببعض الحجارة .

ولما بلغ السويلث في طريق عودته ، لم يقر بهزيمته ، فكان كل ما استطاع الشيخ ان يفعله ان قدم له مركباً يوصله الى شناص في حال اصراره على الذهاب ، فقبل بذلك .

وحين بلغ شناص أرسل يطلب الى الزعيم الوهابي السماح له بزيارته ، وفيما كان ينتظر الجواب أخذ يجمع معلومات شفوية عن المنطقة . ولكن الجواب الوحيد الذي تلقاه كان نبأ تقدم الوهابيين نحو « بديعة » . فتقطعت به أسباب الأمل في الوصول الى البريمي .

*

تمكن الملازم الاول وايتلوك ، من اجتيـــاز شبه الجزيرة التي تسد مدخل الخليج العربي ، وأتم استكشاف الساحل حتى الجبل الاخضر .

كانت المسافات التي قطعها ولستد شاسعة ، ولكن ما أفاده منها لم يكن شيئاً يُذكر ، وقد خص هذه الرحلة بكتاب وضعه عنها ، الا اننا لا نكاد نجد فيه سوى بعض القصص الطريفة عن رحلاته ، وبعض الطرائف المسلية ، والحوادث المتفرقة ، والملاحظات السطحية .

وعلى كل حال ، كان قد تم التعرف الى عُمان تعرفاً عابراً ، ورسم خارطة لها ، وتلك لعمري نتيجة عظيمة .

بعد انقضاء عامين على ذلك ، هبط الى ساحل عُمان رجل من نوع يختلف كل الاختلاف عن سابقيه ، هو ريمي اوشر ايلوي ، وهو عالم نبات متحمس ، كان قد وطد العزم على خدمة العلم بوسائله الخاصة ، رغم فقره ومرضه ، بمثابرة لم تفتر حتى الموت . ويبدو انه كان ألعوبة في يد القدر. اذ انه تخلى عن مشروع مطبعة في باريس ليتجه وأسرته الى الروسيا التي خيل إليه انها ستوفده في بعثة استكشافية الى القوقاز ،وهو أمر لم يتم. وبما ان سفير العجم في بطرسبرج كان قد طلب الى فرنسا ان تقدم له رجلا

قادراً على انشاء مطبعة وجمعية العلوم في بلاد فارس ، فقد وقع الخيار على اوشر ايلوي ، ولكن المفاوضات معه باءت بالاخفاق . فعرضت عليه الجمعية العلمية في بطرسبرج ان يذهب في مهمة الى بكين ، ولكن عدم ثقة الحكومة الروسية به ادى الى اخفاق المشروع .

وكان الحزن والسقام قد أنحلاه ، وأصبح سكرتيراً لأحد الامراء عندما طلب منه السفير التركي ان يشخص الى القسطنطينية ليصدر فيها صحيفة بالتركية والفرنسية . فتوجه إليها بحماسة جديدة مصطحباً زوجه وابنته . ولكن المشروع لم يتحقق قط . عندئذ وطد العزم على القيام برحلته وحده ، ولم يثنه أي شيء طوال ثماني سنوات عن عزمه على جمع أنواع جديدة من النبات ليشكل ذات يوم مجموعة نموذجية لنباتات بلاد الشرق .

من عام ١٨٣٠ الى عام ١٨٣٦ طاف ريمي اوشر ايلوي في مصر ، وسيناء ، وفلسطين ، وسورية ، وقبرص ، ثم ازمير ، ورودس ، وآسيا الصغرى ، ثم أرمينية ، وسورية ، وبلاد فارس ، وقد توقف لكي يقوم برحلة جديدة الى بلاد اليونان عاد منها الى القسم الاوروبي من تركية . وعندئذ أفلح في أن يرسل الى متحف العلوم الطبيعية في باريس باثني عشر ألفاً ومائة واحد عشر نوعاً من النباتات .

وقام اوشر ايلوي برحلة اخرى عام ١٨٣٧ مع عالم آخر توفي محموماً في طهران . فتوجه وحده الى بلاد الاناضول ، ثم نزل منها باتجاه بلاد الفرس ولورستان الى بندر عباس ، وغايته ارتياد عُمان . وقد أبحر في أول آذار (مارس) من عام ١٨٣٨ ، ولكن دهمتهم عاصفة عنيفة ، فتأملها بثبات ورباطة جأش وكتب فيها يقول :

« لم أتمالك من أن أعجب بالمشهد المروع البديع الذي قدّمه لي البحر . فقد بدا البحر بفعل خاص من الوميض الفسفوري في المناطق الاستوائية ، كأنه ملتهب ، وكانت كل هبّة ريح تقذف بنا الى وسط جبال سيّارة من

اللهب الدائم التجدد تهدد بابتلاعنا في كل لحظة » .

وقد نجت السفينة من الغرق ، ووصلت اخيراً الى صحار .

وتابع اوشر ايلوي طريقــه بحراً الى مسقط حيث عني بالحصول على وسائل توصية الى الشيوخ المحليين ، وبايجاد حرس ودليل . وقــد توسل المعتمد الانكليزي سلطته لمساعدته في ذلك . وكان يريد بلوغ المنطقة التي يعتقد بأنها غنية بالنباتات ، فتوجه الى الجبل الاخضر . وبعد ان اجتازه بلغ نزوى ، ومن ثم قصد « از كي » متبعاً في وجهة معاكسة الطريق الذي سلكه ولستد .

وقد أتى هذا العالم من ثلاث رحلات قام بها الى جبل شبيه بعشرين نوعاً من النبات ، ولما دنا من الجبل الاخضر ، شاهد قرى ، ومزروعات ، وبساتين مغروسة بأشجار الرمان . وحين أخذ سبيله الى الجبــل ، اختفت اشجار النخيل ، وظهرت اشجار الفواكه الخاصة بالمناطق المعتدلة المناخ ، كالجوز والتين والمشمش والكرز ومعرشات العنب .

وعندما هبط الجبل للوصول الى نزوى لم يرَ الا صخوراً جرداء رهيبة . ولكن المدينة الصغيرة نفسها بدت وسط مزروعات قصب السكر والقطن ، واشجار النخيل ، والموز والرمان والليمون ، وقد أصيب هو أيضاً بالحمى في نزوى ، لكنه لم يمنح نفسه الا فترة قصيرة من الراحة ، بــل قام بزيارة البساتين ، فأصابته الحمى ثانية ، فعالجها بالحمية عن الطعام ثلاثة ايام توجه في نهايتها عبر مزارع النخيل نحو « از كي » . وقد كتب يقول : « ان البلاد كلها ، بما في ذلك الجبل ، محرقة قاحلة ، ولكن الريف مروي بديع . ويسود العداء بين المزارعين والبدو الذين لا يكفون عن الاغارة على الاراضي المزروعة ، ولا يبقون على شيء فيها لشدة كرههم للزراع ولكل ما يمت اليهم بصلة » .

ومن از كي اتجه شطر مسقط ، فاجتــاز مناطق صحراوية حتى بلغ

وادياً تغيض مياهه في الرمال بعد أن تجري مسيرة خمس ساعات . وقد رأى البرسيم نابتاً تحت أشجار النخيل ، والقطن مزروعاً في مساحات واسعة ، بحيث يمكن رؤية مغازل للغزل وأنوال للحياكة في تلك البلاد . ويختفي النهر ، وتبدو على التتابع المناطق الصحراوية والاراضي المزروعة .

ترك الوادي وسار في منطقة قاحلة للتوجه الى مطرح . وفي ذات يوم ، قبل بلوغ ساحل مطرح ، أصبح حذاؤه غير صالح للانتعال ، فدميت قدماه . واضطره التعب في اليوم التالي الى التوقف عن السير على بعد مسيرة ساعة من مطرح . وعندما بلغ مسقط كانت قد انتابته حمى عنيفة ، ولم يعد لديه دراهم لدفع اجور الرجلين اللذين رافقاه .

لقد وجد مائتين وخمسين نوعاً من النبات ، وطاف بحثاً عنها ، بمختلف المناطق الجغرافية في البلاد بتضاريسها : الساحل ، والجبل ، والمنطقة الشديدة الحرارة الواقعة خلف الجبل . ولكنه كان قد غدا منهوك القوى . وقد عني المعتمد الانكليزي بنقل هذا المريض ، المملق ، الذي تنتابه الحمى ، والذي حار الناس فيما يفعلونه به ، الى ظهر احدى السفن .

الا ان السفينة التي أقلته وعدداً من الحجاج المتجهين الى كربلاء المكان المقدس في نظر الشيعة ، تعرضت لعاصفة ، فاضطر الى التوقف في بندر عباس ، واعتقد عالمنا النباتي انه قد استعاد من قواه ما يكفي لقيامه بارتياد بلوشستان التي بدت له نباتاتها مبشرة بخير كثير . ولكنه ما لبث ان أيقن بوجوب العودة الى بيته في القسطنطينية . ووصل الى شيراز في حالة نزاع . ثم تعافى قليلاً فاستطاع التوغل حتى اصفهان حيث اضطر الى دخول احد الاديرة ليستقبل الموت فيه بهدوء .

وكان اوشر ايلوي ، منذ سنة ١٨٣٦ حتى ساعة أدركته المنية في تشرين الاول (اكتوبر) من عام ١٨٣٩ ، قد جمع وأرسل الى متحف

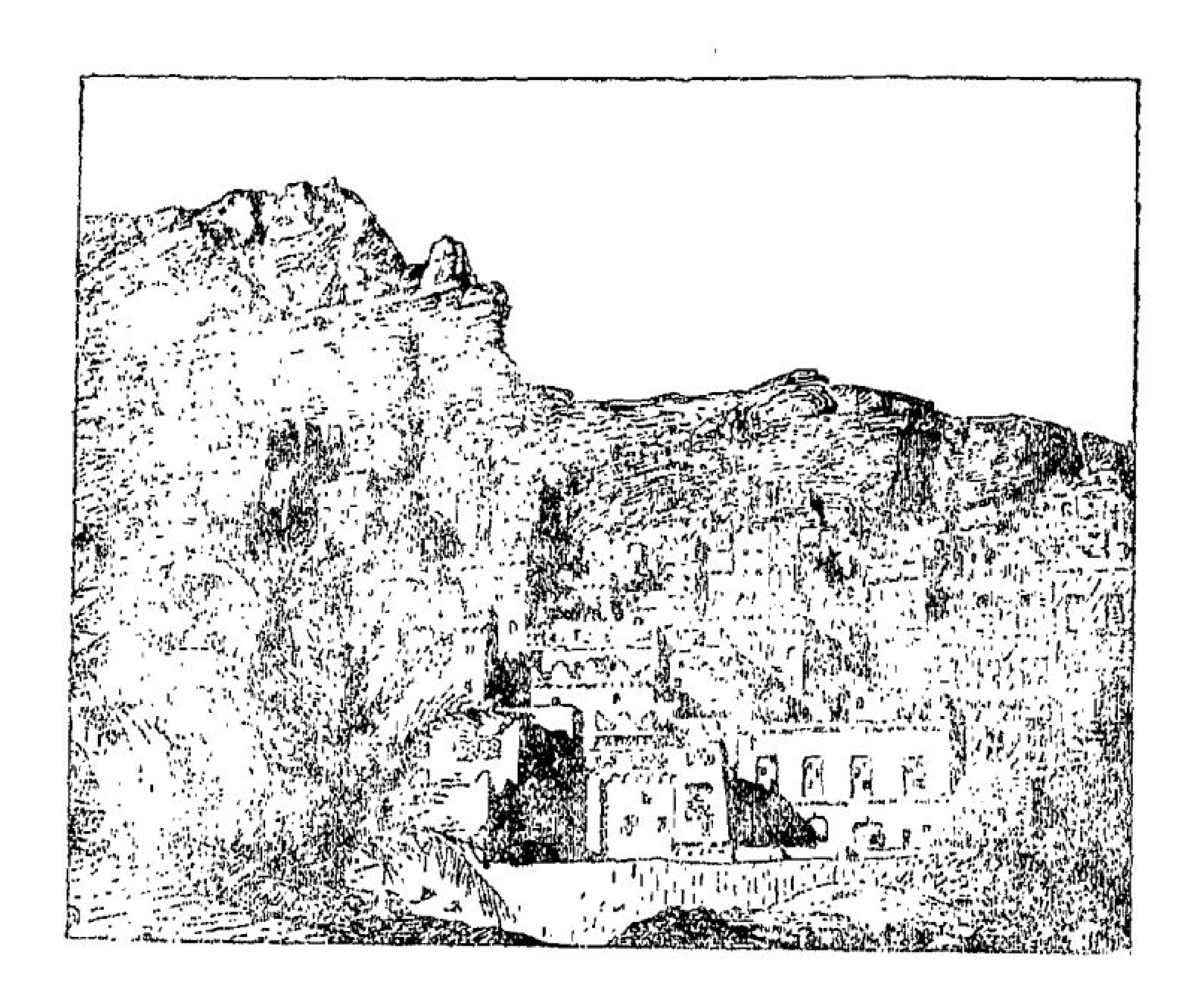
العلوم الطبيعيــــة في باريس خمسة عشر الفاً ومائتين وخمسة وخمسين نوعاً من النبات .

*

لم يعد القسم الداخلي من عُمان سراً خفياً ، ولكن حضرموت ظلت مجهولة . ففي ما وراء الساحل الجنوبي الوعر ، الصخري ، المقفر ، الذي كتب عنه اوين يقول : « اجمعنا على القول بأنه الساحل الأقل بركة من بين السواحل التي قمنا بزيارتها » ، كانت تختفي أشد البقاع خصباً في العربية السعيدة .

بينا كان آرنو في مأرب ، علم ان احد الاوروبيين قد أفلح في دخول هذه البقعة ، وانه يطوف فيها . فادّعى انه راغب في متابعة طريقه نحو حضرموت ، فقُدّم له بدوي كان قادماً منها ، وقد كتب يقول : « سمعت البدوي يروي أنه رأى في بلده منذ زمن قصير ، رجلاً أبيض مثلي ، ظنه هندياً ، لا يعرف من العربية سوى « لا اله الا الله ، محمد رسول الله » واستنتجت من الاوصاف التي أوردها البدوي لذلك الرجل الابيض انه السيد ادولف فون وريد ، الذي سبق ان علمت بنواياه وبالجهة التي يقصدها ، فامتنعت عن المضي في السؤال عنه خوفاً من تعريض كلينا للخطر » .

كان آرنو قد قابل ، فعلاً ، البارون ادولف فون وريد في عدن . وكان قد سمع انه من ابناء بافاريا ، دخل سلك الجندية صدفة ، والتحق بخدمة الملك اوتون في اليونان ، وأقام في آسية الصغرى ثم في مصر . وكان ولستد قد فشل في دخول حضرموت كضابط انكليزي ، ولكن فون وريد أراد ان يجرب حظه بالتزيي بزي مسلم ، والتظاهر بالرغبة في الحج الى قبر هود ، نبي حضرموت الشهير ، الذي كان قد اتخذه له نصيراً فأسمى نفسه « عبد الهود » .



مدينة في وادي دَوعَن في حضرموت نقلاً عن صورة فوتوغرافية لستارك
في كتاب « رحلة في حضرموت » .

وكان قد قابل دي فريسنل في جدة ، وبعد الارساء في عدن ، نزل الى البر في ميناء رأس بروم ، حيث توجه براً الى المُكَلاّ ، وقد مكث فيهـــا أقصر وقت ممكن خشية أن يُكتشف امره ، واتجه في السادس والعشرين من شهر حزيران (يونيه) من عام ١٨٤٣ نحو داخل البلاد ، بعد ان حصل على حماية بدوي يدعى عقيبرة .

استغرق الطريق الى الوادي الكبير الأول في الداخل ثمانية ايام ونصف ، ولكن المسير الفعلي خلال ذلك لم يزد على تسع واربعين ساعـــة وثماني عشرة دقيقة .. وقد سلكا في بادىء الامر ممرات جبلية ضيقة تكتنفهـا

الصخور الصوانية ، التي كثرت فيها ينابيع المياه الحارة ، والمياه المعدنية الحديدية . وشاهدا اشجاراً باسقة ، وبعض القرى . وفي اليوم الرابع كانا قد تسلقا جبلاً يبلغ ارتفاعه أربعة آلاف قدم ، ووجدا نفسيهما على قمته في أسفل جبلين صغيرين عمودي الانتصاب يشكلان أشبه ما يكون بالباب الشديد الضخامة . وقد توقفا ليلاً عن المسير . وكان البرد شديداً . واجتازا بقعتين منبسطتين رمليتي التراب ، فبلغا نجداً شاهقاً وكتب يقول :

« لم نكن نرى من الغرب الى الشمال الشرقي الا سهلاً فسيحاً مائل اللون الى الصفرة ، انتشرت فيه بعض التلال المخروطية الشكل تارة ، والشبيهة بالقمة طوراً ، وظهرت لنا في الشرق قمم جبل كورسيبان العظيم ، المطلة على الوادي ، وفي الجنوب سلسلة من الكتل الصوانية المخروطية الشكل ، تمتد الى بُعدٍ يضيع فيه النظر في جو المحيط المظلم البخاري . وقد بقي الطريق على النجد ابتداءً من هذا المكان ، وشاهدنا عدة صهاريج يبعد الواحد منها عن الآخر مسيرة ساعتين او ثلاث ، ولكن نظرنا لم يقع على أية قرية او شجيرة تقطعان رتابة ذلك السهل الفسيح . والهواء هناك لطيف في النهار ولكن البرد يشتد في الليل » .

الا ان النجد يوصل فجأة الى شفا هاوية عظيمة شديدة الانحدار يكتشف المرء في قعرها وادياً شديد الخصب ، يبدو كالجنة لناظري من تكبدوا خلال عدة ايام وحشة النجد المترامي الاطراف ، وجدبه .

تأمل فون وريد دهشاً أسفل المضيق الجبلي البالغ عرضه ألفاً ومئتي قدم ، وعمقه خمسمائة قدم ، والذي يرتفع في شكل مدرج ، وتقع على منحدراته المؤلفة من الردوم الساقطة من الجوانب ، عدد من القرى والمدن ، بينا يجري في وسطه — أشبه بوشاح طويل — نهر قامت على ضفتيه

مزاوع النخيل ، وتتدرج في كل مكان منه مزروعات تروى بأقنيـة متفرعة من النهر .

« ان النزول الى الوادي خطر ، ولا سيما في فوهته ، حيث يساير الطريق الذي لا يتجاوز ارتفاعه أربعة اقدام – في اماكن كثيرة – هوىً هائلة الى اليمين ، والجانب الصخري الى اليسار .

« يدعى هذا الوادي الاول وادي دَوْعَن ، وقد لاحظ فون وريد ان الاودية الاخرى لا تختلف عنه بشيء . وما منطقة حضرموت الداخلية سوى سلسلة من هذه الاودية ، ويجتمع واديا عَمْد ودَوْعَن وهما أم واديين ، ليشكلا وادي حضرموت حيث تقوم مدينتا تريم وشبام الغويبتان الملقبتان « بشيكاغو الصحراء » لما فيها من المنازل التي تشبه ناطحات السحاب ، ولكن لم يُقدَّر لفون وريد بلوغها ، وبلوغ قبر النبي هود الواقع الى الشرق منها ، فلم يكد صاحبنا « عبد الهود » يصل الى الحريبة الواقعة في وادي دَوْعَنْ حتى أدار ظهره للهدف الذي زعم انه يرمي إليه ، وقرر الوصول الى وادي ميفعة ليشاهد آثار نقب الحجر . ولذلك عاد الى الساحل ولكن موغلاً في اتجاه الغرب .

لم يبلغ فون وريد المكان الذي تقع فيه الخرائب لأن جماعة من البدو أجبرته على النكوص على عقبيه وهو على مسيرة ساعتين من هدفه . على أنه شاهد ما هو أفضل من تلك الخرائب ، إذ رأى عند اجتيازه « ابن » أو « لبن » جداراً قديماً يعترض الوادي ، ونسخ عنه كتابة اثرية طويلة رائعـة . وعاد الى المكان الذي انطلق منه ، وارتاح في الحريبة بضعة ايام .

ويذكر أنه بلغ وادي عَمْد ، وزار المدينة التي تحمل اسم الوادي ذاته ، وانه سار فيه حتى بلدة الحوطة ، واتجه منها غرباً طوال اربعة أيام

حتى صو"ا (ساوة ؟) بحيث أصبح على مسيرة يوم واحد من صحراء البحر السافي ، وكتب يقول : « ان هذا القسم من الصحراء يستمد اسمه من الملك السافي الذي انطلق على رأس جيشه من بلاد سبأ ، ووادیان ورأس الغول ، وأراد اجتياز هذا القفر ، فهلك جيشه .

« كان الناس يزعمون ان فيه اماكن كثيرة يختفي فيها كل شيء عن سطح الارض ويغور في الرمال ... وقد أسرعتُ في اليوم التالي الى التوجه نحوها للتحقيق في هذه المزاعم .

« بلغتُ حد الصحراء بعد مسيرة ست ساعات ، ويُقدَّر انخفاضها عن النجد بألف قدم . وهي سهل فسيح من الرمال ، قامت فيه تلال كالامواج ، فبدا لناظري كالبحر المضطرب . ولم نرَ فيها أي نبات أو طير يقطع بشدوه صمت الموت الذي كان يخيم على قبور افراد الجيش السبئي .

« رأيت ثلاثة أماكن امتازت ببياضها الناصع ، وقد قال لي رفاقي البدو : « هوذا البحر السافي . ان هذه الهوى السحيقة تسكنها الجن التي غطت الكنوز المودعة في حراستها بالرمل الخداع ، ولا شك في ان من يجسر على الدنو منها ، تجتذبه الرمال ، فلا تذهب اليها » . ومن الطبيعي اني لم أعر هذه النصيحة أي اهتمام ، بل سألتهم ، على العكس من ذلك ، أن يقودوني الى جوار تلك الاماكن حسب اتفاقنا . وكان ما يزال امام جمالنا مسيرة ساعتين لبلوغ اسفل النجد . وعبثاً سألت البدو ايصالي الى تلك الاماكن ، فقد امتنعوا ، ولم اتمكن من اقناعهم بذلك ، لأنهم كانوا يخشون الجن الى درجة لم يكونوا قادرين معها على ان ينبسوا ببنت شفة ، لذا قررت الذهاب اليها وحدي ، مخاطراً بنفسي ، حاملاً مسبراً يزن نصف كيلوغرام ربط اليه حبل رفيع طوله ستون باعاً ... وبأقصى ما يمكن من الحذر اقتربت من الشفا لأتفحص

الرمل الذي ألفيته دقيقاً جداً . وقذفت بمسبري أبعدَ ما أمكنني ، فاختفى في الحال ، وقد تضاءل تسارع اختفاء الحبل شيئاً فشيئاً ، الا انه بعد انقضاء خمس دقائق اختفى تماماً .

« لن أسمح لنفسي بتدوين أية ملاحظة عن هذه الظاهرة التي لا ريب في ان علماءنا هم الذين يستطيعون تفسيرها ، بل اكتفي بتدوين ذكرها بأمانة » . .

وذكر انه شاهد في صوّا قبراً حميرياً ، كان تعصبُ احد الشيوخ – ويا للأسف – قد حمله على طمس الكتابة الأثرية عن بابه . ثم عاد الى الحريبة . وبعد أن أخذ فيها قسطاً من الراحة خلال بضعة أيام ، اتجه برفقة ولدَيْ مضيفه وشيخ كثير الاعتبار في المنطقة ، لزيارة قبر النبي هود ، فبلغوا صيف في اليوم التالي ، وقد كتب يقول :

« كان رفاقي الذين امتطوا حميراً قد سبقوني ، فبلغت المدينة بعدهم بساعة من الزمن . وكان قد احتشد فيها خلق كثير جاءوا ليحتفلوا بالعيد في الغد ... ولم اكد اتوسط الجماهير ، حتى هجمت عليّ ، وأنزلتني عن جملي ، وجردتني من سلاحي ، وأوثقتني رابطة يديّ وراء ظهري ، وجرتني على الارض الى حضرة السلطان ، وقد كست الجروح وجهي ، وعفّرتُ تعفيراً ، وهي تضج وتلغط بأعلى صوتها متهمة اياي بأن الانكليز قد أرسلوني لأتجسس عليهم ، واستقصي اخبار بلادهم ، مطالبة باعدامي . وكان السلطان الذي يخشى جانب البدو موشكاً بأن يأمر بقتلي نزولاً عند رغبتهم ، حين أقبل رفاقي . فنجوت من الهلاك بفضل تأثيرهم المعنوي في تلك الجماهير ، الا انهم سجنوني في غرفة وقيدوا قدميّ . ولبثت سجيناً ثلاثة ايام ، دون ان ينقصني شيء . وفي مساء اليوم الثالث جاء حُماتي يخبروني بأنهم لم يفلحوا في تهدئة البدو الا بعد ان قبلوا الشرط الذي اشترطوه عليهم بعودتي فوراً الى المكلا وتسليم جميع اوراقي . فأخفيتها

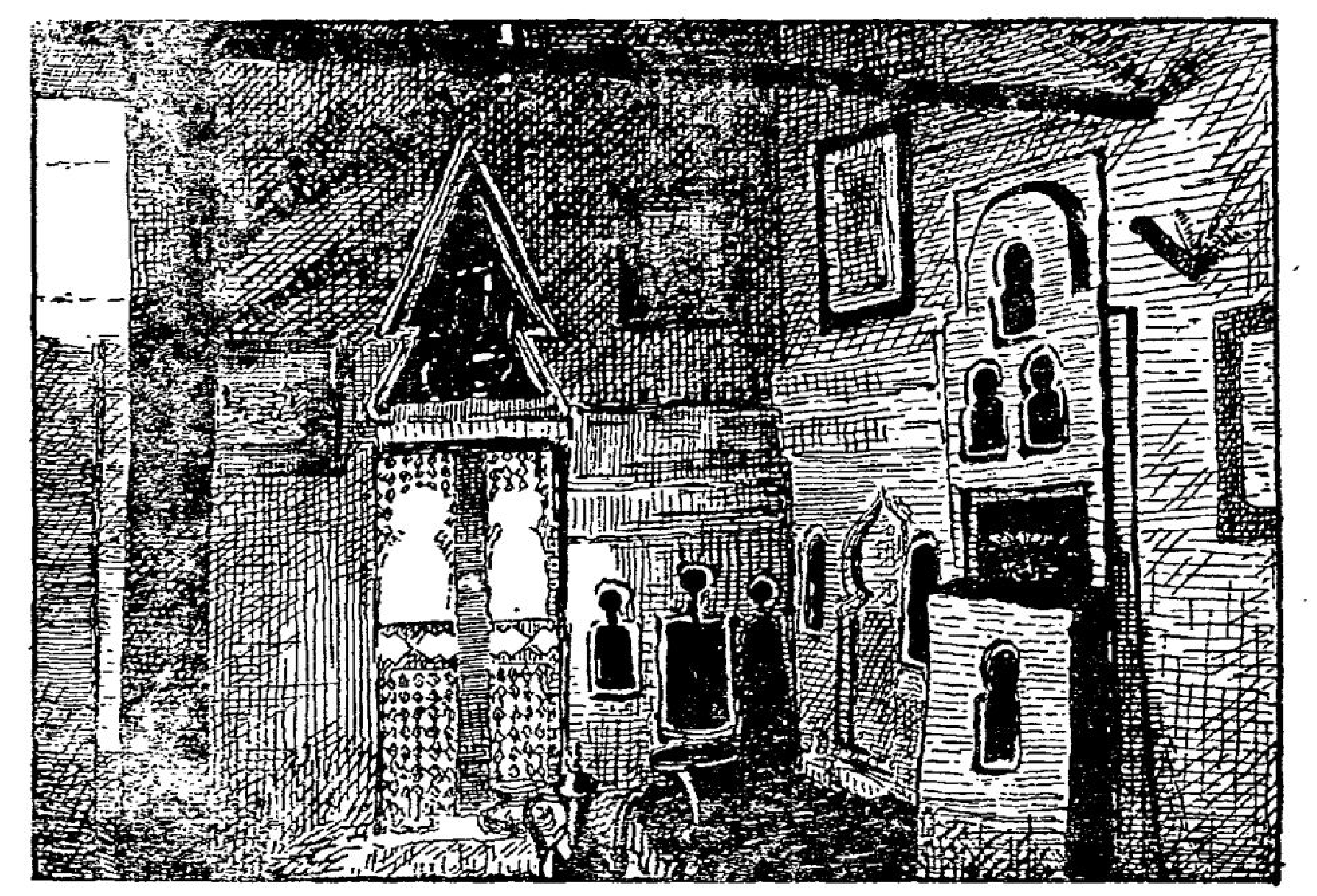
اثناء الليل ، ولم أسلّم منها في اليوم التالي الا الملاحظات التي كنت قد دونتها على اوراق بقلم الرصاص ، فاكتفوا بها – لحسن حظي – وطلب الحاكم ان يفتش امتعتي ، فأخذ منها كل ما أعجبه ، ولم ينس ان يستولي على ما كان لديّ من دراهم .

« وأرغمت في صباح اليوم التالي على التوجه الى المكلاّ بحراسة احد افراد البدو ، فبلغتها بعد مسيرة اثني عشر يوماً . وقد اضطررت الى الابحار الى عدن لانني كنت قد جُرّدت من كل ما يمكّنني من القيام برحلات اخرى . »

كان فون وريد قد احتفظ بقائمة بأسماء الملوك الحميريين أعطاه اياها شيخ عالم ، وبمعلومات عن المواقع الجغرافية ، ولائحة بأسماء العشائر ، وصور المشاهد الطبيعية . وقد عاد الى اوروبة لينشر كل ذلك مرفقاً بقصة رحلته .

ولكن اموراً كهذه ، غالية الثمن في حال صحتها ، لا تستحق الا كل ازدراء اذا كانت ملفقة . وقد تعرض فون وريد في وطنه ، لتشكيك عالمين مسموعي الكلمة هما الكسندر فون هومبولدت وليوبولد فان بوخ . فقد بدا لهما ان قصة الحفر الرملية المتحركة في البحر السافي بعيدة كل البعد عن ان يسلم بها العقل ، واعتبرا ان الرحلة نفسها مشكوك في صحتها ، الا ان هاينز ، ربان السفينة بالينوروس ، الذي حصل من فون وريد على تقرير موجز عن رحلته ، قدمه الى الجمعية الجغرافية الملكية في لندن فقامت بنشره .

ولكن هذا الرائد وجد في فرنسة بنوع خاص مدافعين عن قضيته . فقد قام بزيارة فريسنل ، وقابله ارنو في عدن . وسمع هذا بدوياً من حضرموت يتحدث إليه عن السائح الابيض الذي كان – ولا مشاحة – فون وريد . ونشر



منزل تاجر في حضرموت نقلاً عن صورة فوتوغرافية لستارك في كتابه « رحلة الى حضرموت »

فريسنل تقريراً عن نتائج رحلة هـذا الرائد مؤكداً انه اطلع على وثائقه في اوائل عام ١٨٤٥ في القاهرة ، وأعرب عن عدم شكه في أي شيء مما ورد في قصة رحلته ، وأرفق بها اللائحة الكاملة بأسماء الملوك الحميريين التي أوردها بوكوك في سنة ١٦٥٠ استناداً الى ابي الفداء ، وأبجدية الكتابة الحميرية التي قام بنسخها في « ابن » والتي جاءت مطابقة لما ورد في الكتابات الأثرية الاخرى المعروفة . وذكر فريسنل انه عرض الرسوم التي رسمها فون وريد ممثلاً بها الازياء ، على رجل حضرمي رآه في القاهرة فأكد الرجل انها صحيحة .

واخيراً وجـد من يوافق على نشر القصـــة ، ولكن المترجم لسوء الطالع قد انتحر ، كما لم يعثر على الخرائط والرسوم والصور الملونة التي رآها فريسنل في القاهرة ، وهكـــذا لم يبق سوى قصة الرحلة ، فأبى الناشر ان يقوم بطبعها .

يئس فون وريد يأساً شديداً فغادر اوروبة الى مكان مجهول . ويقول و. ج . هزغارت انه من المحتمل ان يكون قـد يمم شطر التكساس ، حيث انتحر حوالي عام ١٨٦٠ .

وبعد عشر سنوات اهتم البارون هـ. فون مالتزان بنشر كتاب فون وريد بما في ذلك نسخة الكتابة الأثرية في « ابن » ، والملاحظات ، والخارطة ، مضيفاً الى ذلك كله مقدمة أعاد بها المؤلف الى ما كان عليه من الاعتبار عند الناس .

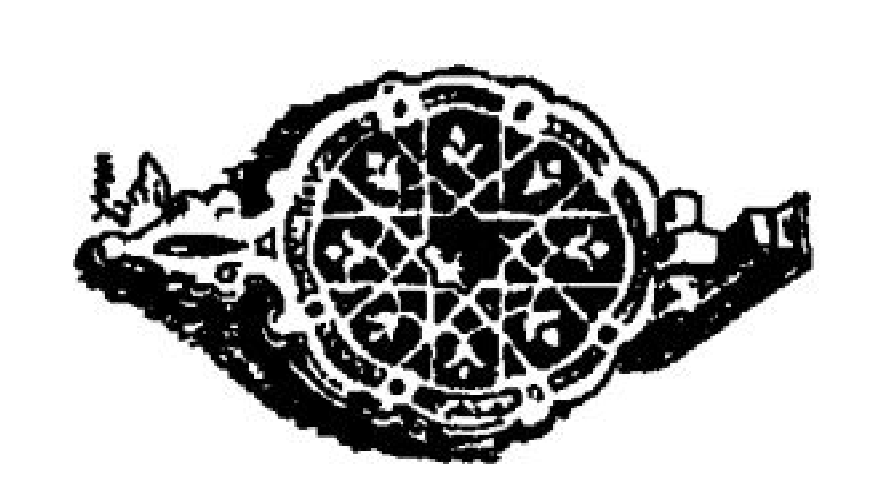
على ان قضية فون وريد ظلت مكتنفة بالغموض حتى عام ١٩٣١ ، حين رافق الاستاذ هـ. فون ويسمن ، الديبلوماسي الهولندي د. فان درمولن في بعثة الى حضرموت ، وانصرف الى دراستها . وقد سلك الطريق التي سار فيها فون وريد ذهاباً وإياباً ، وهو يراجع ملاحظاته ، فوجدها مطابقة للواقع الا في امر واحد .

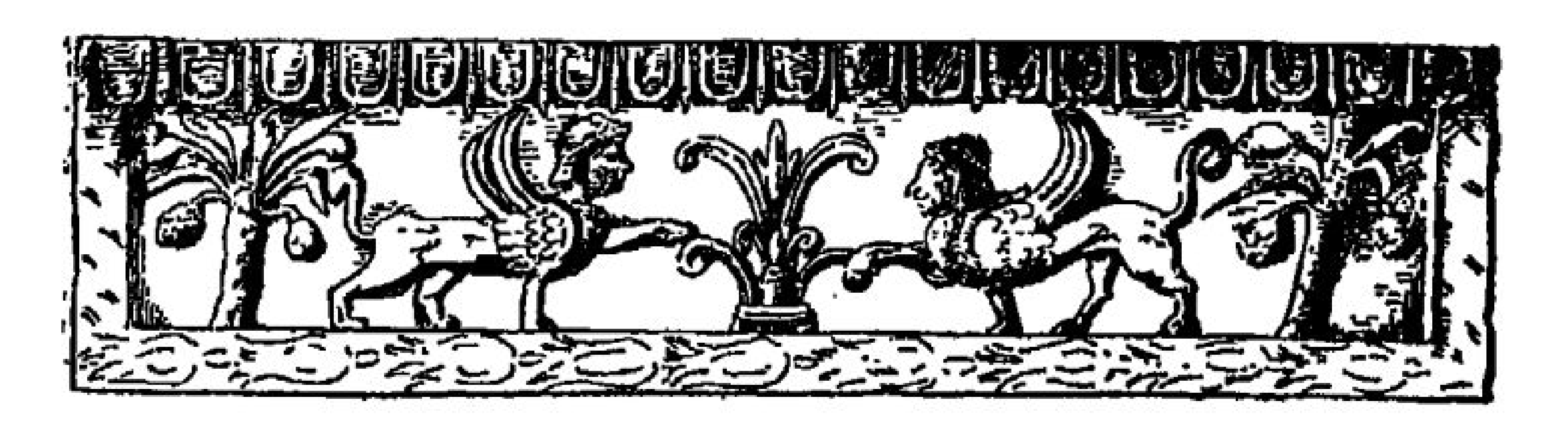
لقد ذكر فان درمولن وهو يرتاد وادي عمْد ان فون وريد قد وصف هذا الوادي وصفاً يغاير الواقع ، اذ جعل القرى الواقعة كلها الى جهة أعلى العمد ، في الجهة السفلى منه ، ونعت الممر الوعر المؤدي من العمد الى الجنوب بأنه منحدر سهل ، ضالاً بذلك ضلالاً تاماً في كل جزء من اجزاء وصفه ، حتى ان فون ويسمن قد أيقن بأن فون وريد لم يسلك هذه الطريق ، وهكذا يمكن ان تكون قصة المغامرة التي قام بها الى تخوم البحر السافي حيث غرق مسبره في الرمل المتحرك كما يحدث في الماء ، مقتبسة عن قصص لعله سمعها في وادي دَوْعَن عن قوافل تغرق في الرمال ، أو ربما تغرق — على الأرجح — في بحيرة ملحة بكسرها القشرة الملحية التي تكسوها ، وقد أخفتها عن النظر الرمال المتراكمة فوقها . ويضيف د. فان درمولن الى ذلك قوله : « وفي الوقت نفسه استطعنا تدقيق الاقسام الاخرى من رحلته الى صيف ووادي دَوْعَن وهي أبعد نقطة بلغها في الشمال ، والى وادي حجر ، ووجدنا ان وصفه للبلاد حسن وصحيح ، ورأينا في فون وريد رائد حضرموت الكبير » .

وقد سعى السيدان فون ويسمن وفان درمولن الى اماطة اللثام عن كيفية موته ، فوجدا بعد التدقيق ان فون وريد قد انخرط في سلك الجيش التركي ، وانه توفي فقيراً مغموراً في احد مستشفيات القسطنطينية .

لقد اعتقد فون وريد ان في وسعه ان يخلط المعلومات التي التقطها عن طريق السمع بالمعلومات التي حصل عليها عن طريق المشاهدة ، ولم يدر في خلد هذا الرجل العسكري الى اية درجة يمكن ان تكون المعلومات المستقاة بصورة غير مباشرة مغلوطة ، وسهلة الاكتشاف للأعين النقادة ، والى أية درجة كان ذلك الخليط غير المعترف به من المعلومات الداعية الى الارتياب والمعلومات الممتازة التي حصل عليها ، سيلقي الشك والريبة على المجموع كله ، ويحرمه مجداً قد استحقه .

الا ان الوثائق الصحيحة بـدورها – ولحسن الحظ – يسهل على العين الخبيرة التعرف إليهـا ، وقد أصاب فريسنل في ايراد ذكر الكتابـة الأثرية التي نسخها فون وريد في « ابن » كدليـل على صحة الرحلة ، وقد جاء اخيراً الاسلوب الواحد في رسائل النسخة التي قام فون مالتزان بنشرها مصدقاً لصحتها . وغدا بالفعل اكتشاف جدار « ابن » وكتـابته الأثرية معادلاً في الأهميـة لاكتشاف آثار نقب الحجر ، من وجهـة نظر التاريخ وعلم الآثار . اما اسهام فون وريد في أغناء المعلومات الجغرافية فقد كان ذا اهمية عظمى ، إذ ألقى نور المعرفة على طبيعة تلك الاودية ذات المظهر الفريد من نوعه في العالم ، والتي كان هو أول من وقف على حقيقتها المدهشة ، وقـد عزلت عن العالم بالحاجز الطبيعي المكوّن من جبالها الساحلية ، ونجدها الشاهق ، الفسيح المقفر ، ، المجدب ، اللاهب ، الذي كان قد أصبح من الواجب النفوذ منه الى تلك البقعة الاسطورية المدعوة « بالعربية السعيدة » .





الخاتمة

اذا كنا قد اختتمنا بحثنا عند هذا الحد ، فليس من المؤكد ان اكتشاف الجزيرة العربية كان قد أنجز في سنة ١٨٧٠ ، انما كان هـذا الاكتشاف قد تم تحقيقه بصورة اجمالية فيما يختص برسم حدود البلاد ، والاماكن المقدسة ، وسكان المناطق المختلفة فيها .

وهكذا تمكن الجغرافي الالماني ك. ريتر من ان يضع في سنة ١٨٤٦ خارطة دقيقة مفصلة للجزيرة العربية ، وقدم آ. دافريل للجمهور الفرنسي في عام ١٨٦٨ دراسة عن المدن المقدسة والحج ، بجمع المعلومات التي أوردها الرواد . ولم يأت الرواد والسياح الآخرون من امثال ر. ف. بورتن ، وفون مالتزان بشيء جديد ذي بال ، وكذلك ج. ف. كين الذي رأى من مكة مائة مرة أقل مما كان قد عُرف عنها ، ولكن أضاف قصة خيالية الى هذا الفراغ . أما سنوك هرخونيه فقد كان مزمعاً على عكس ذلك ان يقوم في عام ١٨٨٨ بعمل حاسم .

ومما يبرهن على انه كان قد تم في سنة ١٨٧٥ جمع معلومات جمّة عن شبه الجزيرة العربية ، قيام آ. زهم بوضع كتاب بطريقة التأليف عن الجزيرة العربية استناداً الى الصورة التي اعطتها عنها اكتشافات الرواد .

وخلاصة القول ، ان حُجُب الجهل التي كانت مسدلة على معظم اجزاء

الجزيرة العربية كانت قد هتكت باستثناء الحجاب المسدل على منطقة الربع الخالي الذي كان مزمعاً أن يُخرق في أيامنا هذه .

ولا ريب في أن هناك فرقاً بيّناً بين الخروج من الجهـــل وبين المعرفة ، فقد أصبح في وسعنا اليوم تنظيم بعثات لتوضيح تخطيط احد الأودية ، وتعيين المكان الصحيح الذي تختفي فيه سلسلة جبـال الطُوَيْق في الرمال ، بغض النظر عن جميع التفاصيل من قرى ، وآبار ، وجبال ، وأودية ، وارتفـــاع ، التي يجب ان تمثل على الخارطة الجيدة بصورة صحيحة . الا اننا فيما يختص بالجزيرة العربية ، ما نزال بعيدين عن التمكن من وضع خارطة من طراز الخرائط التي تستعملها رئاسة الاركان في الجيش . فما تزال ثمة مدن لم تحدد على خرائطنا مواقعها العرضية بالنسبة الى خط الاستواء . وماذا نقول عما تبقى ؟

كان ما تبقى القيام به في سنة ١٨٧٠ ما يزال كثيراً . اما فيما يختص بعلميْ الجغرافية والاجتماع ، فقد كانت جميع الغوامض قد جليت الواحد تلو الآخر خلال العصور . وقد أوردنا في هـذا الكتاب العثور على كل من كان البادىء في فتح باب المعرفة وجلاء سر من الأسرار ، فيما يختص بجزء من أجزاء الجزيرة العربية ، خلال تلك العصور الخمسة .

ولكن في العصر الذي وصلنا إليه ، أدرك النـاس ان ابواباً اخرى مغلقة قد بدأت تَعْرض للرغبة الملحة في المعرفة ، وأسراراً اخرى قـد أخذت تظهر من نوعٍ مختلف عما سبقها ، تحتاج الى الجلاء .

اننا نعني تلك الحجارة البكماء ، ذات الكتابات المنقرضة التي كانت رغم ذلك تخفي اسرار التاريخ القديم الفاتن للمالك العريقة في القـدم في العربية السعيدة ، أو آثار تلك المدن الخاليـــة في الشمال ، أو تلك النقوش التي كان سكان الصحراء القدماء قـــد نقشوها في صخور بعض الأودية .. تلك الحجارة والكتابات التي تبعث عصوراً عديدة من

التاريخ البشري المنسي ، من تاريخ لا يقتصر على مملكة سبأ ، وبلاد البخور ذات الثراء الاسطوري وحدهما . فثمة حاجز صامت من الاسرار ما يزال ينتصب بين العقل الذي يسأل ، والحقيقة التي تمتنع ... وهـذه الحقيقة التي يجب الخلوص اليها ، تخص الماضي في هذه المرة .

الا ان اكتشاف الماضي أبعد عن متناول الرائد من اكتشاف الحاضر ، لانه في حاجة الى العالم الذي يفسر شهادة الحجارة الخرساء عن التاريخ، والعالم بدوره محتاج الى الرائد ليضع بين يديه هذه الوثائق ، ويعرضهـا على ناظريه .

ان بعث الازمنة الخالية ، مغامرة يقوم بها العقل بحثاً عن المعرفة ، شبيهة بالمغامرة التي يقوم بها الرائد بحثاً عن الحقيقة . ومن هذا البعث يتكون تاريخ سيضاف الى التاريخ الذي عشناه بين دفتي هذا الكتاب . رغم اختلافه عنه كل الاختلاف .

ولسوف يضاف الى وجوه الرواد العظيمة من دوغتي الى فيلبي ، وجوه اخرى عظيمة ، الا انه مهما تكن زيادة المعارف التي يمكن أن يُسهم بها امرؤ في علم جغرافية البلاد العربية ، لن يقدر احـد أن يقف موقف اللامبـالاة من مسألة الماضي التي غدت ، من الآن فصاعداً ، من أمتع المسائل التي عرضتها الجزيرة العربية .

فهرس الأعلام

– أ –

— ب —

— ت —

— ث —

— ج —

ـ ح ـ

— ذ —

— ر —

— ز —

— س —

– ش –

— ص —

— ض —

— ط —

- ع -

— ق —

— ك —

— ل —

— م —

— ن —

— لا —

— ي —

فهرس

الجزء الاول : رفع الستار

الجزء الثاني : رواد مصادفة

الجزء الثالث : مولد الريادة

الجزء الرابع : العربية القفراء والعربية البتراء

الجزء الخامس : العربية السعيدة

مؤيد الكيلاني



كيف انتشر الاسـلام ؟

كيف استطاع النبي العربي ، بسنوات قليلة ، وفي ظروف صعبـة وقاسيـة ، ان يقلب مجتمعا قبليـا متخلفا الى مجتمع انساني منفتح على الخير والحياة .

كيف استطاع محمد بنعبدالله ، وبسرعة لا تكاد تصدق ، أن ينقل عرب الجاهلية ، ومن ثم من حررتهم دعوة الاسلام ، من عالم الظلام والجهل الى عالم النور والمعرفـة ؟

كيف انقلب « والدو بناتهم » الى مبشرين وفاتحين وعباقرة فـي شؤون القتال والادارة والحكـم ؟

كيف تلقفت شعوب متعددة الاجناس متباينة الثقافات ، هذه الدعوة بتعطش واستجابـة وتبن جعلهـا تنقلب ، وبسرعـة لا تصدق ، الى امة واحدة هي الامة الاسلامية التي تمـارس اللغة العربية بورع وتقديس وتبني الحضارة العربية الاسلامية من اقاصي الغرب الى اقاصي الشرق في عالـم ذلـك العصر ؟

تلك الاسئلة ، وامثالها ، جعلت الكثيرين من المؤرخين الاجانب والمستشرقين يقفون حيال الجـواب مذهوليـن ..

وفي هذا الكتاب القيم الذي جمع بين التاريخ والسيرة والتحليل الاجتماعي ، يقـوم الاستاذ مؤيـد الكيلاني بعمل جليل وهام وخطير ، حين يحدثنـا بلغـة العقل والعلموالبحث الموضوعـي حديثا يدلنـا ، وبالتفصيل ، على الاسباب التي ادت الى انتشار الاسلام علىذلك النحو الذي اذهل الذين لم يعرفوا الاسلام ، فلم يكتشفوا ان السر هو في « الاسلام » ذاته.

انها اول محاولـة من نوعها .. وانه لدرس ما اشـد حاجتنا نحن العرب اليوم الـى مطالعتـه والاخذ بمـا فيـه .

الثمن : ٦٠٠ ق . ل .

محمد أنعم غالب



الاستاذ محمد انعم غالب

مؤلف هـذا الكتاب احد مفكري اليمن الاحـرار وشاعر مجيد كـان لقصيدته « الغريب » دوي واسع في الاوساط الادبية .

وقد اسندت اليه مناصب وزارية متعددة في الجمهورية اليمنية فكان لنظراته الواقعية العلمية اثر بارز في اقامة النهضة على اسس جديدة .

وهذا الكتاب اطروحة قدمها المؤلف الى جامعة تكساس سنة ١٩٦٠ ، ونال بها شهادة الماجستير في الاقتصاد السياسي .

وهو يعطي القارىء صورة صحيحة عن اليمن ، جغرافية واقتصادا ، وسياسة ، واجتماعا ، وتقاليد حتى ليعيش القارىء في صفحاته القليلـة حياة اليمنيين بكل ما فيها من مآس واسباب للتحفز والتوثب .

والكلمة الحرة ، والنظرة الصائبة هي ابدا في كل العصور الارهـاص الذي تنتقل به ارادة الشعوب من القوة الى الفعل !

الثمن ٣٠٠ ق. ل.

محمد فريد وجدي

المستقبل للاسلام

يعارض الاستاذ الكبير محمد فريد وجدي اولئك الذين يعتقدون بان المدنيـة تبعـد الانسان عن الدين وتقصيه عن عبادة الله ، لان تدهوره المادي يصحبه شعور قوي بالتقزز ممـا هو فيه ، والتطلع الى حياة اكمل وافضل ، ولن يجد الطمانينة الروحية التي ينشدها الا في رحاب الاسلام الذي فتح باب الارتقاء الروحي ووسع مداه ، كما فتح باب الارتقاء المادي فلـم يحرم امرا نافعـا ولم يضع للعلم حدودا ، ولهذا فان فريد وجدي لا يكتفي بالقول بان المدنية والدين يجب ان يتفقا ، بل يعلن على رؤوس الاشهـاد ان الدين هـو ذروة المدنية ، وان الاسلام هـو نهايـة الفكر الانساني ، وان الانسانية بعد طول حيرتهـا حول المذاهب والدعوات والافكار لن تجـد حـلا لمشاكلهـا الاجتماعيـة والسياسية والاقتصادية الا في الاسلام .

وفي هذه الفصول المختارة من اروع مـا كتبه في حياته الخصبة المعطاء ، يقيم الدليل على ان ابحاث الفلاسفة والمفكرين المعاصرين انمـا تهدف الى الرجوع لدين الفطرة ، تحـت تاثير حوافز مـن انفسهم ومن تجلي آيات الله لهم في الافاق المحيطة بهم . ولهذا فالديـن الفطري آت لا محالة ، باعتبار انه دين عالمي للبشر كافة بحكم العلم نفسه . والدين الفطري هـو الاسلام بنص كتابه وبموجب اصوله . فكل حق وهدى وعلم وخير وترق ، فهـو فـي شرعـة هذا الدين الفطري دين ، وكل باطل وضلال وجهل وشر وتدل فهـو في شرعته كفر .

هذا هو الاسلام الذي جاء دينـا عامـا للبشر كافة ، فهل للبشر محيص عنه ؟ كيف يعقل ذلك والفطرة اساسه ، والعقل نبراسه ، والعلم مادته ؟ وهل للبشر محيص عن هذه الثلاثـة الاصول الطبيعية مهما حاولوا ذلـك وتكلفوه ؟ فـان كان فـي العـالم اصول ، كلمـا امعنت في البعد عنها ، ازددت قربا منها ، فهي الفطرة والعقل والعلم .

الثمن : ٥٠٠ ق . ل .

الاسلام والمعضلات الاجتماعية الحديثة
باقـــلام عشرة من علماء الاسلام

الاقتصاد السياسي وفلسفته ، هو المؤشر الحقيقي لاي نظام من النظم السياسية اليوم ، واختلاف مذهب اقتصادي عن آخر هو المميز الرئيسي لكل من المبادىء السائدة في العصر الراهن .

واذا كانت الفلسفة الاقتصادية ، او مبادىء علم الاقتصاد ، لا تعدو تاريخيا القرن الثامن عشر ، فان الاسلام قد وضع منائر الهدى ، وصوى السلام والامن والرخاء للبشرية جمعاء منذ اربعة عشر قرنا ...

وهذا الكتاب بصفحاته القليلة عدا ، يزخر بالاسس الفلسفية والعلمية لمبادىء الاسلام ليس كعقيدة مثلى تنظم علاقة الانسان بخالقه فحسب ،وانما علاقة الانسان بالانسان ، والمجتمعات بالمجتمعات ، والدول بالدول ...

ولا يتجاوز القارىء محاضرة من هذه المحاضرات العشر ، التي صاغها عشرة اعلام عظام من قادة المسلمين في الحقل الفكري ، الا ويستشرف عالما من عوالم الحياة ، كما يجب أن تعاش ، اقتصاديا وروحيا ، متنقلا من عالم التجارة الى عالم الصناعة ، ومن دنيا التصاق الانسان بالارض ، الى رحاب بناء مجتمع صناعي حديث ، مع دراســة معمقة عن الملكية العقارية ...

وبكل دراسة من هذه الدراسات العشر ، يحس المسلم المؤمن بالاعتزاز الصادق ، لان عقيدته قادرة على بناء المجتمع الانساني على ارسخ قاعدة من قواعد الحق والعدالة والاخاء ... وان الاسلام هو الخط الوسط القائم ما بين النظامين النقيضين الراسمالية والشيوعية ، يجتمع في بؤرة نوره خير ما فيهما ، وينتفي عنه ما تضمناه من سلبيات ، ما تفتأ المجتمعات الحديثة تتطلع الى الخروج من ازماتها الحادة .

الثمن : ٤٠٠ ق . ل .

مواقف الفكر المعاصر

سلسلة فكرية هادفة تنشر احدث الآراء واجرا المواقف لاعلام الفكر المعاصر ، وتعالج اهم المشكلات السياسية والاجتماعية التي يعانيها الانسان الحديث .

صدر منها :

الاشتراكية الوافدة من الصقيع ، لجان بول سارتر .

الخمور الفكرية ، لآرثر كوستلر .

الطبقة الجديدة ، لميلوفان دجيلاس .

افيون المثقفين ، لريمون آرون .

الماركسية في ابعادها المختلفة ، لراسل ، دارلنغتون ، سبندر ،واخرين

الاعتراف ، لارتور لوندون .

الثورة والثقافة ، لاندره جيد ولويس فيشر وريتشارد رايت .

الاديب ومفوض الشرطة ، لجورج بالوشي هورفات .

مع توفيق الحكيم من عودة الروح الى عودة الوعي ،بقلم قدري قلعجي .

الناشر : دار الكاتب العربي - بيروت ، ص . ب ٣١٥٧
هاتف : ٢٩١١١٨

هذا الكتاب

الرحالة الغربيون الذين حاولوا اكتشاف جزيرة العرب في القرون الخمسة الاخيرة ، واعطاء فكرة واضحة عنها لاوروبة ، التي كانت تجهل عن بلادنا كل شيء ، سواء منهم المغامرون الذين قدموا الى البلاد العربية حبا بالمخاطرة وبحثا عن المجهول ، أو العلماء الرواد الذين خاطروا بحياتهم في سبيل الكشف العلمي والبحث عن الحقيقة ..

جميع هؤلاء الرحالة ، من مغامرين افاقين وعلماء مخلصين ، جمعتهم البحاثة الفرنسية جاكلين بيرين بين دفتي هذا الكتاب الرائع ، لتروي قصصهم الشيقة ، وتسجل ما قدموه من خدمات في حقل المعرفة البشرية ، واكتشاف المناطق المجهولة والاقوام التي تقطنها ، منتقلة معهم في المكان والزمان ، مبينة الدوافع الحقيقية لرحلاتهم ، والنتائج العملية التي افضت اليها ، دون ان تتردد في هتك الستار عن كذب المفترين وخداع الدجالين ، او في الانحناء امام الرواد الصادقين الذين تكبدوا المشقات وجابهوا الاخطار في سبيل رسالتهم العلمية النبيلة .

وهكذا جاء هذا الكتاب الممتع ، مرجعا فريدا في الجغرافية البشرية لمنطقة ما تزال مجهولة حتى لدى الباحثين العرب ، وتاريخا حيا ينتقل بالقارىء عبر خمسة قرون ، من بلاد اليمن وعسير وحضرموت ، الى عُمان ومسقط ، الى نجد ومعان وبلاد الشام ، ومن آثار سبأ ذات الاسرار الى آثار بترا الخبيئة في قلب الجبال .

ويزيد في قيمة الكتاب المقدمة القيمة التي وضعها للترجمة العربية العلامة الشيخ حمد الجاسر ومساهمته في ضبط أعلامه وكتابة هوامشه .

الثمن ١٢ ل . ل .